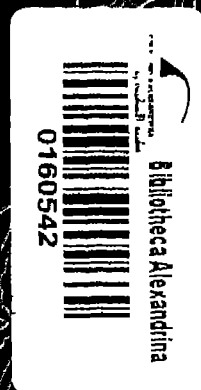


الأبواب العجيبا

في العصر القباصي الأول

تأليف
د. محمد محمد السيد شفاي

دار الكتب
بيروت



الأدب العربي
في العصر القبايلي الأول

الأدب العربي

في العصر العبّاسي الأول

تأليف
د. محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ والقيد بجامعة الأزهر

دار الحديث
بيروت

جميع الحقوق محفوظة لِدَارِ الْجَيْلِ

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ٢٠٩٢م

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَصْدِيرٌ

العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٤٣٤ هـ) حافل بكثير من الأحداث السياسية والتغيرات الثقافية والأدبية ، وهو عصر ازدهرت فيه العلوم والفنون والآداب ، ونبغ فيه فحول الشعراء والعلماء والكتاب ، وكان للنهضة الأدبية فيه دويها وأثرها في كل العصور الأدبية التي تلت هذا العصر العظيم .

وهذه الدراسة التي تتناول بالتحليل ، والشرح ، والنقد ، حياة الأدب العربي ، في ظلال الخلفاء العباسيين من ذوى النفوذ والسلطان والهيمنة على مصائر العالم الإسلامي ، خلال قرنين من الزمان، سيجد القارئ لها أنها قد أحاطت بجوانب كثيرة من آفاق البحث الأدبي لهذا العصر ، المتشعب الأطراف ، المتعدد الجوانب ، وأنها تصور هذا العصر تصويراً واضحاً ، يميز الألوان والسمات . . والله ولي التوفيق ، والهادي إلى أقوم طريق .

وما توفيقى إلا بالله ٩

المؤلف

العصر العباسي الأول

١٣٢ - ٥٣٣٤

يبدأ هذا العصر منذ أن أعلن أبو العباس السفاح في الكوفة قيام الخلافة العباسية ، ولقد أخذ أبو العباس في توطيد دعائم الدولة الجديدة ، وتثبيت أركانها ، وتتابع الخلفاء من بعده ، يسرون على نهجه من النهوض بها ، والقضاء على خصومها ، والعمل على بناء مجدها ، وعلى رفع منارة العلم والأدب والحضارة في جميع جوانبها ، كل ذلك والخلافة في قبضتهم ، والنفوذ خالص لهم ، والسلطان بأيديهم ، والأمر لهم وبهم ؛ لا رأى لأحد إلى جانب رأيهم ، ولا تدخل من أجنبي في شئونهم ، لأن العناصر الأجنبية الدخيلة كانت لا تزال تأتمر بأمرهم ، وتخضع لمشيئتهم ، ولا تتطاول إلى مقام توجيههم ، فضلا عن مناوأتهم ، واغتصاب النفوذ منهم ؛ بل كان أقل غرور أو تطاول أو تدخل في شئون الملك يبدو من أحد منهم ، خليقاً بأن يثير عليه الخليفة ، وأن يدفعه إلى البطش به والقضاء عليه ، كما فعل السفاح بأبي مسلم الخراساني وزيره الفارسي ، والمنصور بأبي سلمة الخلال مع أن كلا منهما يعد أكبر مؤسس لخلافة العباسيين ، وكاصنع الرشيد بالبرامكة ، والمأمون بحسن بن سهل صهره ووزيره ، والمعتمد بالأششين .

هكذا كان سلطان الخلفاء بالرغم من تقييدهم للوالمى وقيام سياستهم على الاعتزاز بهم ، لما بذلوه من مجهود في سبيل تأسيس الدولة . وعلى هذا النحو من النفوذ والقوة ، كانت الخلافة في عصر السفاح فالمنصور فالمهدي فالهادي فالرشيد فالأمين فالمأمون فالمعتصم فالوائق فالمتوكل الذي ولي الخلافة عام ٥٣٣٢ هـ ، والذي كان آخر الخلفاء من ذوى النفوذ والسلطان منذ قيام الدولة .

وفي عصر المتوكل أخذ الحزب التركي العسكري يتآمر على الخلافة والخليفة ، ويحاول التدخل في شئون الدولة ، وانتهى الأمر بمصرع المتوكل بأيديهم عام ٢٤٧ هـ . وبذلك ينهى عهد نفوذ الخلفاء (١) ، ويبدأ عهد آخر جديد يسود فيه نفوذ الأتراك وتشتد هيمنتهم على الخلافة .

ويستمر هذا العهد من عام ٢٤٧ حتى فتح البويهيين لبغداد عام ٢٣٤ هـ . وهذا العصر بعهديه هو أزهى عصور الإسلام ؛ وصفحاته المشرفة أنصع الصفحات في التاريخ السياسي والأدبي للعرب .

ولا بدع فقد بلغت فيه الدولة الإسلامية المظفرة منتهى ما تطمع إليه من المجد والسلطان ، وغاية ما تصبو له من حضارة ومدنية ، وثقافة وعرفان .

كانت مملكة العباسيين فيه تمتد من شواطئ المحيط الأطلسي إلى حدود الهند والصين ، وكان نفوذ الخلفاء العباسيين بالغاً غايته في العالم المعروف آنذاك ، يذكر اسمهم في بيزنطة أو روما أو الصين ، فترعد الفرائص وتخفق القلوب وتنحني الهامات ، وتسير جيوشهم المنصورة في كل مكان ، وترتفع رايتهم في كل أفق ، حيث يستظل بظلها الملايين العديدة من سكان الدنيا ، ويدينون لها بالولاء والوفاء . . وكان لخلفاء بني العباس ولاية في كل إقليم ، وحكام في كل قطر ، ينشرون الأمن والعدل والنور والعلم ، ويجبون الأموال والضرائب باسم أمير المؤمنين . وخليفة المسلمين - وكانت اللغة العربية تسير حيث يسير نفوذ الخلفاء ، ويتعلمها الناس من كل لون وجنس ، وكانت آدابها تسير معها أينما سارت ، وتستقر حيثما استقرت .

(١) يختلف مؤرخو الأدب في نهاية هذا العصر ، فالبعض يجعلون نهايته من بدء خلافة المتوكل عام ٢٣٢ هـ (ضحى الإسلام ج ١ ص ٦) ، تاريخ أدب اللغة العربية لجورجي زيدان ١٧ / ٢ ، وتاريخ الأدب للزيات ص ٢١١) ، والبعض الآخرون يجعلون نهايته مصرع المتوكل عام ٢٤٧ هـ .

وفي هذا العصر نبغت الفنون الإسلامية ، وازدهرت الآداب العربية وترجمت الثقافات الأجنبية ، وقامت المدارس والجامعات في كل مكان ، تتقف العقول ، وتهذب النفوس ، وتحض على المعرفة ، ويجلس في حلقاتها المسلمون على اختلاف عناصرهم ، وأوانهم وبيئاتهم .

وفيه عاش أئمة العلم والأدب والفكر ، يؤدون رسالتهم ، ويبنون لآمتهم مكانها الرفيع في عالم الفكر الإنساني ، ويؤثرون للحضارة مجدها الزاهي ، ويرفعون للفكر منارته السامقة .

وهكذا يمتاز العصر العباسي الأول بغلبة العناصر الفارسية نحووا من مائة عام ، ثم بغلبة العناصر التركية مائة عام أخرى ، كما يمتاز بتجمع الثقافات وظهورها في الثقافة العربية ، وباتساع حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، وبجرية الفسك ونفوذ المعتزلة وسلطانهم ، وبازدهار النهضة العلمية والأدبية ، وظهور الأئمة الفحول في العلوم والآداب ، وتشجيع الخلفاء والأمراء والوزراء للعلم والآداب . كما يمتاز بنهضة النثر والشعر نهضة ليس لها مثل في تاريخ لغة العرب .



قيام الدولة العباسية

لا يذكر التاريخ الإسلامي في ثناياه وأطوائه ، وحوادثه وأحداثه ،
أمراً أغرب ، ولا حدثاً أعجب ، من قيام الدولة العباسية ، على أنقاض ملك
بنى أمية ، وعرشهم الذي رفعوه على السياسة والدهاء ، وكثرة البذل
والسخاء وقوة السلطان وطول البطش والعنف والظلم .

وكان قيام ملك بنى العباس نتيجة لمقدمات كثيرة ، ونهاية لقصة غريبة
مثيرة ، وخاتمة لأسباب تضافرت على القضاء على دولة الأمويين ، ووضع
مقاليد الخلافة الإسلامية في أيدي العباسيين :

١ - وأول هذه الأسباب : اضطهاد الأمويين لآل الرسول صلوات
الله وسلامه عليه ، وتشريدهم ونفيهم وحبسهم وإنزال الطون بهم في كل
مكان ، مما يصور بعضه فيما بعد دعبل الشاعر العباسي المشهور ، في إحدى
قصائده حيث يقول :

| | |
|------------------------------|---------------------------|
| ملا ملك في أهل النبي فانهم | أحباي ما عاشوا وأهل ثقاتي |
| لم كل حين نومة بمضاجع | لم في نواحي الأرض مختلفات |
| أرى فيهم (١) في غيرهم متقسما | وأيديهم من فيهم صفرات |
| فآل رسول الله نحف جسومهم | وآل زياد حفل القصرات (٢) |
| بنات زياد في القصور مصونة | وآل رسول الله في القلوات |
| إذا وتروا مدوا إلى أهل وترهم | أكفا عن الأوتار منقبضات |

ولقد شمل هذا الاضطهاد : البيت العلوي ، بمن ينسبون إلى الإمام علي
ابن أبي طالب ، ابن عم الرسول الكريم ، والبيت العباسي ، مما ينسبون إلى

(١) النوء : الخراج والغنيمة . صفرات : خاليات .
(٢) حفل القصرات . ضخام الأعناق ، كناية عن سمنهم .

العباس بن عبد المطلب ، هم محمد خاتم المرسلين ، وأكرم الخلق على الله .
ومصرع الحسين بن علي في كربلاء ، ومصارع أهله وأسرته ، ونفى بعضهم
من الحجاز ، شاهد على ما تقول .

ولما ازداد عنف الأمويين واستبدادهم بالعلويين ، ذهب سادتهم يؤلفون
الجماعات ، ويكونون العصابات ، ويعلمون الحروب والثورات على خلفاء
بنى أمية . وكان الشيعة يرشحون للخلافة المسلمين من آل البيت سيداً بعد
سيد : فدعوا للحسن ، ثم لأخيه الحسين ، ثم لأخيهما الأصغر محمد بن الحنفية
ثم لابنه أبي هاشم العلوي بن محمد .

وكان أبو هاشم هذا مقبلاً في الحنيفة ، بالقرب من بادية الشام ، حيث
أقام علي بن عبد الله بن العباس ، سيد البيت العباسي العريق . ويروى بعض
المؤرخين أن أبا هاشم — الذي لم يكن له أبناء يرثون دعوته — رشح
لإمامة الشيعة بعده ابن عمه علياً هذا ، وأدلى بنصيبه من الخلافة إليه وإلى
أولاده ، وأوصى أوليائه باتباعه ، ويرى آخرون أنه تنازل لمحمد بن علي .

ومهما يكن فقد آلت دعوة آل البيت إلى بيت بني العباس ، فصارت
الشيعة معهم ؛ يؤيدونهم ويؤازرونهم ، ونهضوا هم بالعبء كابر عن
كابر ، وماجد بعد ماجد : علي العباسي ، ثم ابنه محمد بن علي ، الذي ذاعت
على يده الدعوة لآل البيت في كل مكان ، وألف أتباعه الجماعات السرية في
الكوفة وخراسان ، وكان محمد يبصر دعواته بأساليب الدعوة . والبلاد التي
يبشون فيها مذهبهم ، ويوصيهم بتركيز جهودهم في خراسان ، حيث المشرق
ومطلع سراج الدنيا ، ومصباح الخلق ، ، وحيث ضعف سلطان بني أمية ،
وسلامة القلوب والصدور ، والحب لآل النبي وسلالته .

ثم آلت الدعوة بعد محمد بن علي إلى ابنه إبراهيم ، الذي حبسه مروان بن
محمد آخر خلفاء بني أمية ، حتى مات في الحبس ، وقام بالأمر بعده أخوه
أبو العباس .

ولقد نجحت دعوة الدعاة نجاحاً باهراً ، وآمن بها الملايين من المسلمين ، في العراق وفارس ، وأخذوا ينازلون الأمويين في هذه البلاد . فطردوا ولائهم في خراسان ، وهزموا جيوشهم في فارس ، حتى صارت خراسان وفارس ثم أكثر العراق في قبضة المسودة ، أتباع بني العباس ، وشيعة آل البيت .

وفي ربيع الأول من عام ١٣٢ هـ ، أعلن أبو العباس السفاح من فوق منبر المسجد الجامع بالكوفة ، بدء قيام الدولة العباسية ، وانهاء دولة بني أمية ، وكان من خطبته قوله : « أنا السفاح المبيح ، والثائر المنيع ، وبهذا لقب السفاح .

ثم نهضت جيوش السفاح لمنازلة بني أمية وجنودهم في الجزيرة والشام . وفي معركة « نهر الزاب » قضى العباسيون على خيرة جيش مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، وفر مروان بن محمد إلى مصر ، مهزوماً مدحوراً ، حيث تبعه صالح بن عم الخليفة العباسي ، وقبض عليه ، وقتله في آخر العام نفسه .

٢ - وثاني تلك الأسباب التي ساعدت على قيام الدولة العباسية : ما كان من اضطهاد الأمويين للوالم عامة .

فقد كانت دولتهم - كما علمنا - عربية أعرابية خالصة ، إذ كانوا يعتزون بالعرب اعتزازاً كبيراً ، ويحتقرون الموالم احتقاراً شديداً ، حتى كانوا لا يستعينون في دولتهم بأحد منهم ، وكان الحجاج واليهيم على العراق يأمر أن لا يؤم بالكوفة إلا عربي (١) ، وكان لا يلى الخلافة أحد من أبناء الموالمين الذين ولدوا من أمهات أعجميات (٢) ، وكان العربي في جيش الخلافة في فرق

(١) ٢٠٧ : ١ العقد الفريد .

(٢) ١٩٧ : ٣ المرجع نفسه .

الفرسان، والموالي في عداد المشاة ، ومنع الأمويون زواج الموالى بالعريبات بل أبطلوا ما وقع من أمثال ذلك الزواج ، يروى أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغانى أن رجلا من الموالى خطب عريية من بنى سليم وتزوجها فذهب محمد بن بشير الخارجى إلى المدينة وشكا إلى واليها إبراهيم بن هشام ، فأرسل إبراهيم إلى هذا المولى ، ففرق بينه وبين زوجته ، وضر به مائتى موط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، فقال محمد بن بشير في ذلك :

فضيت بسنة وحكمت عدلا ولم ترث الحكومة من بعيد
وفي المائتين لدولى نكال وفي سلب الحواجب والحدود (١)

ويقول الأصفهاني : كانت العرب إلى أن عادت الدولة العباسية ، إذا أقبل العربي من السوق ، ومعه شيء ، فرأى مولى ، دفعه إليه ليحمله عنه ، فلا يمتنع ، ولا السلطان يغير عليه ، وصدق الجاحظ إذ يصف دولة الأمويين بأنها عريية أعرابية (٢) .

من أجل ذلك كله حقد الموالى على دولة بنى أمية ، وأضربوا لها الكراهية والحقد والبغضاء . وكان العنصر الفارسي أكثر الموالى حقداً ، وأشدهم موجدة ، وأكظمهم غيظاً وحنقاً على سلطان الأمويين الجائر ، وحكمهم الباطش ، وطغيانهم الشديد لأن له تاريخاً قديماً ، وملكا بائداً ، وحصارة مورثة ، وكان الفرس يحملون باستعادة دولتهم ، واستقلال أمتهم ، وإحياء حضارتهم ، ولهذا كان لهم الفضل الأكبر ، واليد الطولى في قيام ملك بنى العباس ، فالثورة على الأمويين قامت في بلادهم ، وكانوا هم جندها والمحاربيين في سبيلها وكان منهم القواد الكبار ، الذين حطموا خلافة بنى أمية وعرشهم ، كإبي سلمة الخلال ، وأبي مسلم الخراساني .

(١) الأغانى ١٥٠ ج ٤ و ٢٥٦ : ٢ الكامل ، ٩٣ : ٢ العقد .

(٢) ٢٠٦ ج ٣ البيان والتبيين .

ولهذا كله كان للفارسيين في بدء الدولة العباسية نفوذ كبير ، ومقام خطير ، مما يصوره لنا داود بن علي عم السفاح في خطبة له : يا أهل الكوفة : إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا ، أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وقول أبي جعفر المنصور : يا أهل خراسان أتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا ، . وأوصى بهم قبل وفاته ابنه المهدي فقال : وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك ، الذين بذلوا أرواحهم في دولتك ، ودماهم دونك ، ومن لا يخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم ، وتتجاوز عن سيئتهم . وتكافئهم على ما كان منهم . وتخلف من مات منهم في أهله وولده ، .

٣ - وثالث الأسباب في قيام الدولة العباسية ، والقضاء على الخلافة الأموية : هذه العصبية القبلية ، التي أشعل نارها خلفاء بني أمية ، بما يفسره كثير من الأحداث التاريخية ، والقصائد الشعرية في هذا العصر ، وهذه العصبية ظلت ملازمة لعهد الأمويين . . وأخيراً وجدنا مروان بن محمد يتعصب لقومه نزار على اليمن ، فانحرفت اليمين عنه إلى الدعوة العباسية الناشئة .

وكان الخلفاء الأمويون طول ملكهم يؤججون الخلاف بين القبائل العربية ، ليشغلوا الناس عن سيادتهم ، ويصرفوهم عن تتبع أعمالهم .

ولما قام أبو مسلم الخراساني بأمر قيادة جيوش العباسيين في خراسان ، لم يجد صعوبة ، في تأجيج نيران الخصومات بين القبائل وزعمائها : وبذلك أمكنه أن يتغلب عليهم جميعاً ، وأن يجعلهم يفنون أنفسهم بأيديهم ، حتى لم يستطع زعماء المضربين ، وجديع بن شبيب السكرماني سيد البياينة : وشيبان ابن سلمة الحروري رئيس زريعة ، لم يستطع هؤلاء جميعاً الوقوف أمام الخراسانيين ، الذين زحفوا كالسيل المنهمر من العراق والشام .

وكان كل عربي شديد التعصب على أبناء القبائل العربية الأخرى . .

بما يصوره لك هذه الأبيات ، يقول رجل من بني أسد بن خزيمه يمدح
يحيى بن حيان :

ألا جعل الله اليمانيين كلهم فدى لغتى الفتيان يحيى بن حيان
ولولا عريق في من عصبية لقلت : وألفا من معد بن عدنان
ولكن نفسى لم تطب بعشيرتى وطابت له نفسى بأبناء قحطان

فلا عجب إذن أن تنقرض دولة بني أمية ، وينبثق من الأفق نور جديد ،
يؤذن بقيام الخلافة العباسية الفتمية الناشئة ، التي بادرت بقتل مروان بن محمد
آخر الخلفاء الأمويين ، وتشريد الأمويين والقضاء عليهم في كل مكان .
وكان الشعراء يؤججون نار الانتقام في نفوس العباسيين . دخل سديف
الشاعر مولى بني العباس على السفاح ، فألقى بمجلسه سليمان بن هشام هادئا
مطمئنا ، لتأمين أبي العباس إياه ، فأنشد :

لا يفرنك ما ترى من رجال إن بين الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فأمر السفاح من فوره بقتل سليمان ناكثا بعهد أمانته . . ودخل شبيل
عبد الله مولى بني هاشم عليه ، أو على عمه ، وعنده من بني أمية نحو المسائة ،
فأنشد :

أصبح الملك ثابت الأساس بالبهليل من بني العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها يعد ميل من الزمان وياس
لا تقيلن عبد شمس عثارا واقطعن كل رقلة وغراس (١)

(١) الرقلة : النخلة فانتع اليد والجمع دقل ووقال .

ذها أظهر التودد منها وبها منكم كحز المواسي
ولقد ساءنى وساء قبيلى قسريهم من نمارق وكراسي
أزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتعاس

فأمر بهم جميعاً فقتلوا . . . وبهذا البطش والتنكيل ، خاص الملك لبني
العباس ، وقضى على دولة الأمويين وعاصمتهم دمشق الشام ، وخلقتها الكوفة
أم بغداد . . . وهكذا تدول الدول ، وتتعاقب الأيام ، ويعز الله من يشاء ؛
ويذل من يشاء ...

تولى عرش الخلافة في هذا العصر من بني العباس خلفاء ، دانت لهم
الدنيا ، وخضعت لسلطانهم أمم عريقة ، وحضارات قديمة .

وكان أولهم السفاح ، الذى اشتهر بالبطش والاستبداد ، وجعل
الكوفة عاصمة للملكة ، وظل في الخلافة أربعة أعوام (١٣٢ - ١٣٦ هـ) .

وتولى بعده أخوه أبو جعفر المنصور ، وظل خليفة أكثر من
عشرين عاماً (١٣٦ - ١٥٨ هـ) ، وطد فيها ملك بني العباس ، وبني بغداد عام
١٤٥ هـ واتخذها عاصمة له ، كما بنى الرصافة ، وشجع العلوم وترجمة آثار الأمم
العريقة في الثقافة والحضارة ، وكان متقدماً في علم الكلام داهية أديباً
مصيباً في رأيه . جميل التدبير حسن السياسة ، وكانت دولته من أحسن
الدول رونقاً ، وأوسعها رقعة ، بيد أنها صبغت في عهده بالصبغة الفارسية .

وتولى بعده ابنه المهدي ، الذى ازدهرت في عهده الحضارة وشاع الترف
وتقدمت العلوم والفنون والآداب ، وعاش في رعايته كثير من العلماء
والشعراء وكان جواداً كريماً ، وقد نكل بالزنادقة ، ومات عام ١٦٩ هـ ،
فتولى بعده ابنه الهادي ، الذى ظل في الخلافة سنة واحدة ، وخلفه أخوه
هرون الرشيد ابن المهدي .

وكان عهد الرشيد واسطة عقد الدولة العباسية ، بلغت فيه ذروة السلطان والجاه ، وكانت بغداد تنعج بالعلماء والأدباء والشعراء ، ويروى أنه لم يجتمع ياب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بياب الرشيد والصاحب بن عباد من فحولة الشعراء (١) . وكان الرشيد يقتنى في سياسته آثار جده المنصور ، وفي سماحته آثار والده المهدي ، ولما زاد نفوذ الفرس على يد وزرائه من البرامكة بطش بهم في عنف وشدة عام ١٨٧ هـ ، ونكبهم نكبة هزت النفوذ الفارسي هزاً عنيفاً ، ومات الرشيد عام ١٩٣ هـ ، وتولى الخلافة بعده ابنه الأمين (١٩٣ - ١٩٨ هـ) . ثم ابنه المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) .

ويعد عهد المأمون ذروة في تاج الحضارة الإسلامية ، وغرة في جبين الخلافة العباسية ، أشرقت العلوم في أيامه ، ونبغ فحول المفكرين والفلاسفة والعلماء والأدباء والشعراء ، وزهت حركة الترجمة ، ونقلت الثقافات الأجنبية إلى اللغة العربية ، وإن كان نفوذ الفرس قد زاد في أيامه ، لأنهم هم الذين ولوه الخلافة بعد أن قتلوا أخاه الأمين . وتولى الخلافة بعده أخوه المنصور ، وكان عسكرياً بنشأته وميوله ، ولما خاف من الفرس قرب إليه الأتراك ، فبدأ نفوذهم في الدولة على أيامه ، وبني (سامرا) واتخذها حاضرة للملكة عام ٢٢١ هـ ، وسارت في عهده نهضة العلم والأدب في طريقها الذي كانت تسير فيه . . وولى بعده ابنه الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ) ، ثم ابنه المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) .

وفي عهد جعفر المتوكل على الله اشتد نفوذ الترك ، واستحكم العداء للشيعة ، واضطهد المعتزلة والاعتزال وكانت أيامه أحسن الأيام وأنضرها ، حفلت بأئمة العلم والأدب ، ثم قتله الأتراك عام ٢٤٧ هـ . وبذلك بدأ طور

(١) ١٧٠ ج ٣ يتيمة الدهر للثعالبي . وحمل الرشيد معه لما سافر إلى الرقة ثمانية عشر صندوقاً من الأسفار ليقطع بمطالعتها زمانه ، مع أنه لم يأخذ منه الا نخباً مما في خزائنه (٥ : ٦٧ الأغانى) .

جديد في تاريخ الخلافة العباسية ؛ وهو عهد نفوذ الأتراك الذي ظل قريبا من مائة عام أخرى (٢٤٧ - ٥٣٣٤) وتولى فيه الخلافة المنتصر والمستعين والمعز والمهتدي والمعتمد والمعتمد والمكتفي والمقتدر .

وفي فترة نفوذ الخلفاء كان للعنصر الفارسي مكانة عالية عند العباسيين ، وحظوة كبيرة في قصورهم ، وكان بيده مقاليد الأعمال ، وتصريف شئون الخلافة ، كان الخليفة عربياً هاشمياً ، ولكن وزراءه وأكثر قواده فارسيون ؛ يزيد سلطانهم ، ويقوى نفوذهم يوماً بعد يوم ، ويزداد تبعاً لذلك شأن الموالى في الدولة ؛ حتى كان أكثر من تولى الأعمال المنصور منهم إذ قدمهم على العرب وكثرت استخدامهم بعده ؛ حتى زالت رياسة العرب وهيمنتهم . وفي عصر الرشيد زاد نفوذ الفرس ؛ فسيطر البرامكة - وهم من سلالات فارسية قديمة - على شئون الدولة ، إلى أن بطش بهم الرشيد بطشاً عنيفاً عام ١٨٧ هـ . وكان المأمون ينتصر للفرس ؛ إذ كانوا أخواله وهم الذين أعانوه على تولى الخلافة ، وأخذها من يد أخيه الأمين ، ويروى أن عربياً من أهل الشام قال له : « انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان ، فقال له المأمون : « أكثرت على يا أخا أهل الشام ، والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل ، إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد ، وأما اللبن فوالله ما أحببته ولا أحببته قط ، وأما قضاة فسادتها تنتظر السفيناني وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ، أعرفت ذلك ؟ اعزب عني ، .

ركن العباسيون إلى الفرس ولم يشعوا بالعرب فألصقهم عن الحكم والسلطان وأبعدهم عن تصريف شئون الدولة ، وأذلوهم بالحروب والتشريد والانتقام وسفك الدماء . وتظهر هذه النزعة واضحة في قول إبراهيم بن محمد رأس الدعوة العباسية في وصيته لزهير شيعته ، أبي مسلم الخراساني : « وإن

استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل ، فأبما غلام بلغ خمسة أشبار
تهمه فاقتله .

ومن مظاهر نفوذ العنصر الفارسي نقل العاصمة إلى بغداد في العراق ،
لقربها من خراسان موطن الدعوة ، ونقلهم نظام الفرس الكسروي في
الدواوين والسياسة وأساليب الحرب ، واقتباس العادات الفارسية في كل
ناحية حتى في العيش والطعام ، واحتفاؤهم بالأعياد الفارسية كعيد المهرجان
والنيروز وسواهما ، وانتشار ثقافة الفرس وعلومهم وآدابهم . . وكثرة
الفرس كذلك في قصور الخلفاء والأمراء والولاية ، وقصرت عليهم
المناصب الكبيرة كالوزارة . . حتى أصبحت الدولة عربية اللغة إسلامية
الدين والأخلاق ، فارسية المعيشة والإدارة والسياسة .

ولما تطاول الفرس على مقام الخلافة في عهد المعتصم كرههم وحذر
منهم ، وقرب إليه الأتراك ، وكانت أمه « ماردة » منهم ، وبنى لهم (سامرا) ،
وجعلهم قواد جيشه ، ومكن لهم في الدولة ، ولم يمض غير قليل حتى صار
لهم النفوذ والسيطرة على الخلافة في عهد المتوكل ، ثم شغبوا عليه فقتلوه
عام ٢٤٧ هـ في قصره « الجعفري » ، وقتلوا معه وزيره « الفتح بن خاقان » . .
وكان ذلك مهراً دائماً لمجد الخلافة ونفوذ الخلفاء . وفي ذلك يقول يزيد
المهلبى الشاعر من قصيدة طويلة في رثاء المتوكل :

لا حزن إلا أراه دون ما أجد وهل لمن فقدت عيناى مفتقد ؟
ومنها :

فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم حمتكم السادة المذكورة الحشد
ويقول الجعفرى يصف قصر المتوكل بعد مقتله :

تغير حسن الجعفرى وأنسه وقوض يادى الجعفرى وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجأة فعادت سواء دوره ومقاره

إذا نحن زرناه أجد لنا الأسي وقد كان قبل اليوم يبهج زاهره
ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه
وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره
وإذ صبح فيه بالرحيل وهتكت على عجل أستاره وستاره
ووحشته حتى كأن لم يقم به أنيس ولم نحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها وبهجتها والعيش غصن مكاسره (١)
فأين الحجاب الصعب حين تمنعت بهيبته أبوابه ومقاصره ؟
وأي نعيم الناس في كل نوبة تنوب وناهي الدهر فيهم وآمره ؟
ويقول علي بن الجهم :

عبيد أمير المؤمنين قتلته وأعظم آفات الملوك عبيدها
بني هاشم صبراً لكل مصيبة سبيلي على وجه الزمان جديدها
وصار الأتراك منذ ذلك الوقت حتى نهاية العصر العباسي الأول أصحاب
السلطان في الدولة .

وكان الخلفاء العباسيون في هذا العصر يحرصون أشد الحرص على :
١ - نشر الثقافة والحضارة في أرجاء دولتهم الواسعة ، والعناية
بترجمة العلوم المختلفة من الفارسية والهندية واليونانية وسواها إلى اللغة
العربية وتشجيع الفنون والآداب في كل مكان .
٢ - الاهتمام بأمر الموالي ، وتقريبهم والإغداق عليهم ، وبسط

(١) مكاسر : جمع مكسر ، وهو جنح الشجرة حيث تكسر الأغصان ، يقال
فلان طيب المكسر أي محمود عند الخيرة .

التفوذ والسلطان لهم ، وكان أظهر الموالي حظاً عند الخلفاء الفرس ثم خلفهم الترك .

٣ - العناية بالمظهر الديني الذي أقاموا عليه دعوتهم ، وشيدوا على أساسه دولتهم ، ومن أولى بذلك منهم ، وهم ورثة سيد الأنبياء ، وذريته ، وخلفاء المسلمين وولاية أمورهم ؟ فلا عجب إذا أن يخرجوا إلى الصلوات الجامعة في الحشد الحاشد من رجال دولتهم وقواد جيوشهم وأن يخطبوا الناس ويعظوم ، وعليهم بردة النبي وبين أيديهم أئمة العلماء ورجال الدين ، ويصور البحترى في قصيدة له خروج الخليفة المتوكل على الله لأداء الصلاة الجامعة في عيد فطر ، تصويراً بارعاً رائعاً ، فيقول منها :

| | |
|------------------------------|-----------------------------|
| فانعم بيوم الفطر عيناً إنه | يوم أغر من الزمان مشهر |
| أظمرت عز الملك فيه بمحفل | لجب يحاط الدين فيه وينصر |
| حتى طلعت بضوء وجهك فاتجلمت | تلك الدجى وانجاب ذاك العثير |
| واقتن فيك الناظرون فأصبح | يومي إليك بها ، وعين تنظر |
| يمجدون رؤيتك التي فازوا بها | من أنعم الله التي لا تكفر |
| ذكروا بطلعتك النبي فمللوا | لما طلعت من الصفوف وكبروا |
| حتى انتهيت إلى المصلى لابساً | نور الهدى يبدو عليك ويظهر |
| ومشيت مشية خاشع متواضع | لله لا يزهي ولا يتكبر |
| فلوان مشتافاً تكلف فوق ما | في وسعه لسعي إليك المنبر |
| ووقفت في برد النبي مذكراً | بالله تسذر تارة وتبشر |
| صلوا وراءك آخذين بعصمة | من ربهم وبذمة لانخرف |

الطابع السياسى فى العصر العباسى الاول

- ١ -

يتميز العصر العباسى الاول (١٢٢ - ٨٣٣٤) (١) بقوة الخلافة وعظمة الخلفاء ومجد الدولة ، وبنفوذ الفرس فيه حتى خلافة المتوكل (٢٢٢ - ٨٢٤٧) ، ثم ضعفت الخلافة وضاعت هيبة الخلفاء وفسدت شئون الدولة ، وذلك بسبب نفوذ الأتراك الذى بلغ حدا كبيرا بعد ذلك (٢٤٧ - ٨٢٣٤) .

وأول من استخدم الأتراك فى الجيش الخليفة المنصور المتوفى عام ١٥٨ هـ ، ولكنهم كانوا شردمة صغيرة لاشأن لها فى الدولة بجانب انفرس والعرب (٢) ، وألف المأمون فرقة صغيرة منهم لبسالتهم ، وعاشوا بعيدين عن شئون الدولة وسياستها ، لميل المأمون إلى الفرس أخواله .

وكانت أم المعتصم «ماردة» تركية من السغد ، فنشأ ومعه كثير من طبائع الأتراك ، مع الميل لإيهم لأنهم أخواله ، وشاهد المعتصم جرأة الفرس وتطاولهم على الخلافة بعد قتل الأمين فصار يخافهم على نفسه وضاعت ثقته بهم ، كما ضاعت ثقته بالعرب ، فأخذ يتقوى بالأتراك ويتخير منهم

(١) يقسم بعض الباحثين هذا العصر إلى قسمين (ص ٩٥ ج ٢ تاريخ آداب اللغة لزيدان ، وه ج ٤ التمدن الإسلامى ، ٢١١ تاريخ الأدب العربى لزياد ، ص ٦٦ ج ١ ضحى الإسلام) . ويجعل كثير من الباحثين العصرين عصرأ واحداً (٣ آداب اللغة فى العصر العباسى للألكسندرى ، ١٦ تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى لمحمود مصطفى ، ١٦٥ ج ١ المفصل) .

(٢) ١٦٧ ج ٤ التمدن الإسلامى .

الأشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم ، حتى اجتمع لديه آلاف من قبل أن
تفضى إليه الخلافة (١) .

ولما مات المأمون سنة ٢١٨ هـ كان هوى الحزب الفارسي مع ابنه العباس
ونادوا به خليفة ، ولكن العباس بايع لعمه المعتصم فسكن الجند (٢) ،
فكان ذلك أيضا مما زاد من تقرب المعتصم للأتراك وإيثاره لهم .

وفي عام ٢٢٠ هـ استقدم المعتصم عددا كبيرا من الأتراك ، اشترام
وبذل فيهم الأموال ، وبلغت عدتهم ثمانية عشر ألفاً (٣) ثم ازداد عددهم في
جيشه حتى بلغوا السبعين ألفاً (٤) . ولما ضاقت بهم بغداد ، وكثرت
الخصومات بينهم وبين الجمهور ، وبينهم وبين الفرس أتى المعتصم سامرا
على شاطئ دجلة وعلى مسيرة ثلاثة أيام من بغداد ، فاتخذها معسكرا لجيشه ،
وحاضرة للملك ، منذ عام ٢٢١ هـ (٥) ، وأصبحت مدينة عظيمة في مدة
وجيزة (٦) ، وصارت من أجل الحواضر الإسلامية ، وظلت مقر الخلافة حتى
عام ٢٨٩ هـ (٧) .. أسلم الأتراك ، وأخذوا يتعلمون العربية ويتكلمون بها ،
وصاروا موضع ثقة الخليفة وإيثاره ، وكان ذلك ضربة قاضية على العرب
ونفوذهم في الدولة ، وكتب المعتصم إلى عماله بإسقاط من في دواوينهم من
العرب وقطع العطاء عنهم وأنزلهم عما كان لهم من قيادة الجيوش ، ومنعوا
الولايات (٨) .

(١) ١٦٨ : ٤ التمدن الإسلامي . (٢) ٣٠٤ : ١٠ الطبري .

(٣) ٢٣٣ : ٢ النجوم الزاهرة . (٤) العصر العباسي للسباعي بيومي .

(٥) ٩ : ٤ وما بعدها مروج الذهب .

(٦) ٥٢ و ٥٣ تاريخ الحضارة لبارتولد .

(٧) ١٠٠ : ١ ظهر الإسلام .

(٨) ١٤٤ : ٤ التمدن ، ١٦٥ حضارة الإسلام في دار السلام .

وانتقلت سياسة الدولة من أيدي الفرس إلى أيدي الأتراك (١) ، الذين أخذوا ينكرون بالفرس والعرب جميعا، وسعوا في قتلهم ، وموقف الأفشين من أبي دلف وأمره بقتله لولا أن أنقذه ابن أبي دؤاد معروف (٢) .

ولم يمض غير قليل حتى كان لهم النفوذ والسيطرة على الخلافة والخلفاء ، وخاصة بعد فتح عمورية وقتل بابك عام ٢٢٣ هـ ، وصار أكثر الوزراء وجميع قادة الجيش منهم ، واشتهر من بينهم الأفشين م ٢٢٦ هـ واشناش م ٢٣٠ هـ ، وإيتاخ م ٢٣٥ هـ وسوام ، وتغلغل نفوذهم في جميع مناصب الدولة لكثرتهم وبساتهم وتأييد الخلفاء لهم ، حتى إن الوراق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ) استخلف عام ٢٢٨ هـ أشناس التركي على السلطنة وألبسه وشاحين وتاجا (٣) ، وفي عهده نكل بغا الكبير وجيشه بكثير من العرب (٤) . ولما مات الوراق عام ٢٣٢ هـ ، سعى الأتراك في ترشيح جعفر المتوكل بن المعتصم للخلافة لأن أمه (شجاع) خوارزمية تركية ، فتم لهم ما أرادوا ، وامتدوا في عهده بأمور الدولة وشئون الخلافة ، واضطهد الخليفة الشيعة وأكثرهم فارسيون ، وزاد في رعاية الأتراك وتقديمه لهم ، فزاد طمعهم في الدولة ، وأصبحوا مصدر قلق واضطراب ، فهم يكرهون الفرس والعرب ، وهم كثيرو الدسائس والمؤامرات ، كثيرو الطمع في الأموال ، والعبث بالأمن .

ندم المتوكل على ما فرط ، وأخذ يعمل على كبح جماح الأتراك ، فحبس إيتاخ حتى مات عام ٢٣٥ وأراد عام ٢٤٣ هـ نقل العاصمة من سامرا إلى دمشق ، لكن ذلك لم يتم له ، ثم عزم على قتل وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم . ولكنهم كانوا يحكمون نديراً آخر لقتل

(١) ١٧٠ ج ٤ التمدن (٢) ٥٤ الأذكياء لابن الجوزي .

(٣) ١٣٥ تاريخ الخلفاء .

(٤) ١٢ ج ١١ الطبرى .

الخليفة (١) ، وتقدم باغر التركي حارس المتوكل ، ومعه عشرة غلمان من الأتراك ، ينفذ المؤامرة التي دبرها القواد الأتراك ، ومعهم المنتصر الذي كان أبوه المتوكل يكرهه ويوشك أن يعزله من ولاية العهد ؛ ودخلوا على الخليفة ، فقتلوه في قصره الجمفرى ، وقتلوا معه وزيره الفتح بن خاقان ، وذلك في أواخر عام ٢٤٧ هـ (٢) .

وكان قتل المتوكل- أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين ، وكانت هذه الحادثة بدء مصرع الخلافة ومجد الأتراك . وفي ذلك يقول البحترى :

أكان ولي العهد أضمر خدرة فن عجب أن ولي العهد غادره
فلاملك الباقي تراث الذى مضى ولا حملت ذاك الدماء مناره

ويقول المهلبى :

لاحزن إلا أراه دون ما أجد وهل لمن فقدت عيناى مفترق
ومنها: فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم حمسكم السادة المذكورة الحشد

ورأى يزيد المهلبى هذا يشبه رأى إسحاق بن إبراهيم المصعبى م ٢٣٥ هـ فى الأتراك حين شكوا المعتصم خدر من اصطنعمهم من قوادهم مع وفاة من اصطنعمهم أخوه المأمون من الرجال له (٣) . ويقول على بن الجهم :

عبيد أمير المؤمنين قتلنه وأعظم آفات الملوك عبيدها
بنى هاشم صبيرا فكل مصيبة سيلى على وجه الزمان جديدها

(١) ٦٥ - ٦٧ ج ٤ مروج الذهب .

(٢) راجع مقتل المتوكل ومرآة الشعراء فيه فى (٢٦٠ - ٢٦٤ ج ١ زهر الآداب) ، ومرثية يزيد المهلبى فيه فى (٣١١ ج ٢ وما بعدها من الكامل للبرد ، ١٨٦ ج ٢ العقد ، ٢٦٣ ج ١ زهر الآداب) .

(٣) راجع ٨ ج ١١ الطبرى .

وإذا كان الشعب يكره الأتراك من بدء اصطناع المعتصم لهم ، فإن هذه
المأساة المؤلمة كانت سبباً في زيادة كراهية الرأي العام لهم ، ونقمتهم عليهم .
ازداد عقب ذلك نفوذ الأتراك في عهد المنتصر (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ) ،
ثم في عهد المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ) ، ثم عادوا لخلعوه من العرش ثم قتلوه
وأقاموا مكانه في الخلافة المعتز بالله بن المتوكل عام ٢٥٢ هـ .

كان المعتز يكره الأتراك ، ويريد أن يثار منهم لايه ، ففي عهده قتل
وصيف عام ٢٥٣ هـ ، ثم بغا عام ٢٥٤ هـ ، وفي مصرعه يقول البحترى من
قصيدة مدح بها المعتز بالله (١) :

أضحى بغاء وأقربوه وحزبه وكأنهم حلم من الأحلام
طاحوا فما بكى العيون عليهم بدهوعها ومضوا بغير سلام

وبعد قليل سار الأتراك إلى المعتز فويخوه وطالبوه بالأموال ، ثم عذبوه
وضربوه بالدابيس ، وجروه برجله إلى باب الحجرة ، وأقاموه في الشمس
حافياً (٢) ، وكان بعضهم يلممه وهو يتقي بيده ، فخلع المعتز نفسه عام ٢٥٥ هـ ؛
ثم حبسوه وقتلوه ، وولوا مكانه المهتدي بن الواثق ، الذي لم يعجبهم زهده
ورعه وحبه للعدالة ، فخلعوه عام ٢٥٦ هـ ومات بعد خنامه بأيام .

وفي عهد المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) اشتد الخلاف بين فرق الأتراك ،
فطلبوا أن يكون القائد الأعلى للجيش أحد إخوة الخليفة ، وألا يرأسهم
أحد منهم فولى المعتمد أخاه الموفق أمر الجيش والولايات عام ٢٥٧ هـ ،
وبعد قليل أصبح السلطان الفعلي للموفق لا للمعتمد ، وصارت كلمته هي العليا
على الأتراك وقوادهم ، فكسب غير قليل من جماهيرهم ، وأثر ذلك في حسن
الأحوال قليلاً .

(١) راجع ٢٣٤ - ٢٣٦ ج ٢ ديوان البحترى .

(٢) ١٦٢ ج ١١ - لبري ، ١٣٠ ج ٢ سندات الذهب ، ٢٠ ج ٤ مروج الذهب

وسار المعتضد بن الموفق في خلافته (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) سيرة أبيه ،
فعمل على رفع شأن الخلافة ، والحد من نفوذ الأتراك بقدر ما استطاع ،
ولم يجاهم على حساب انقائون والعدالة ، فاقص من تركي ارتكب معصية (١) ،
وقتل قائداً تركيا قتل غلاماً له ومدحه ابن الرومي على ذلك (٢) ، وفي
المعتضد يقول ابن المعتز من أرجوزته في تاريخه :

قام بأمر الملك لما ضاعا وكان نهياً في الوري مشاعا
وكل يوم ملك مقتول وعائف مروع ذليل
وكل يوم شغب وغضب وأنفس مقتولة وحرب
وكم فحاة خرجت من منزل فنصبوها نفسها في المحفل
ويطلبون كل يوم رزقاً يرونه ديناً لهم وحقا
كذاك حتى أفقروا الخلافة وعودوها الرعب والخافة

ومات المعتضد ، فسار ابنه المكتفي (٢٨١ - ٢٩٥ هـ) في خلافته بسيرة
والده من الحزم والزم والأخذ على يد الأتراك . وبعد وفاته ولي الأتراك
أخاه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلاً صغيراً ، وأيدوا عرشه ببطشهم
وظل خليفة إلى عام ٣٢٥ هـ .

وهكذا كانت أمور الدولة في هذه الفترة تسير في طريق بعيد عن
المألوف وتتجمع كل سلطة ونفوذ في أيدي الأتراك ، الذين لم يبالوا بشيء
في سبيل أهوائهم وشهواتهم ، واعتدوا على قدسية الخلافة وجلال الخلفاء ،
وكانوا كثيراً ما ينهبون الدور ، ويتعرضون للحرم والغلمان ، فسكروهم
الناس كرهاً شديداً ، وكان نفوذهم في الدولة جرحاً دائماً يؤلم كل عربي
صميم ، حتى هجا دعبلي المتوفى ٢٤٦ هـ المعتصم لشدة تعصبه لهم :

(١) راجع نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) ديوان ابن الرومي ص ٣٠٣ .

لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم
وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
ومك تركى عليه مهانة فانت له أم وانت له أب
ويقول العلوى صاحب الزنج م ٢٧٠ هـ :

بنى عمنا وليتم الترك أمرنا ونحن قديماً أصلها وعمودها
فإبال عجم الترك تقسم فيتنا ونحن لديها فى البلاد شهودها
فأقسم لاذقت القراح وإن أذق فبلغت عيش أو يباد عميدها (١)

وقد قام الشعب بعدة ثورات ، أهمها ثورة عام ٢٤٩ هـ التى اشترك فيها
الجنود الشاكرية ؛ وقضى عليها الأتراك بعنف وقوة ، وقد حاول بعض زعماء
الأتراك التخفيف من حدة شعور الرأى العام وبغضه لهم ، وقاموا بدعايات
كثيرة ، كان من أبرعها رسالة كتبها الجاحظ بإيحاء الفتح بن خاقان ، وحاول
بها إيجاد جو من الثقة والتفاهم والألفة بين الأتراك وجمهور الشعب ، وقد
قدمها الجاحظ إلى الفتح ، والظاهر أنه كتبها فى أيام المعتمد ، ولكنها لم
تصل إليه بفعل حاشيته من الفرس والعرب ، فأعاد كتابتها من جديد فى عهد
المتوكل ، ودعا فيها إلى وحدة الأجناس والعناصر وأشاد فيها بالأتراك
وبطولاتهم إلى حد بعيد (٢) ؛ وهذه المحاولة وسواها من المحاولات قد فشلت
جميعاً فى الوصول إلى الغرض المنشود .

وكثير نفوذ الغلمان فى هذه الفترة وخاصة فى عهد المقتدر ، الذى كان
عنده أحد عشر ألف خادم من الروم والسودان (٣) ، وتولى كثير من الخدم
قيادة الجيوش وأهم الأعمال فى الدولة ؛ كبدرغلام المعتضد ، الذى تولى قيادة

(١) زهر الآداب ج ١ ص ٣٣١ .

(٢) راجع رسالة الجاحظ فى مناقب الترك وهى فى أول مجموعة رسائل الجاحظ .

(٣) راجع التمدن ج ٤ ص ١٧٥ ، آداب اللغة لزيدان ج ٢ ص ١٥٤ .

الجنود ونقش اسمه على الأعلام ، وأبلى في خدمة مولاه بلاء حسناً ، حتى قتل في سبيله عام ٢٨٩ هـ . ونشطت النساء ، وكثر نفوذهن أيضاً في الدولة ، وكان معظم ذلك في عهد المقتدر لتسلط الخدم والحجاب .

وفي ظلال هذه الفوضى السياسية ؛ استقلت كثير من البلاد عن خلفاء بغداد وأهم هذه الدول المستقلة : الدولة الطولونية بمصر (٢٥٤ - ٥٢٩٢) وهي تركية والدولة الإخشيدية بمصر (٣٢٢ - ٣٥٣ هـ) ، وهي تركية أيضاً ، والدولة الطاهرية بخراسان (٢٠٥ - ٢٥٩ هـ) وهي فارسية ، والدولة السامانية في ما وراء النهر (٢٦١ - ٣٨٩ هـ) وهي فارسية أيضاً ، والدولة الصفارية بفارس (٢٥٤ - ٣٩٠ هـ) ، والدولة الدلفية بكرديستان (٢١٠ - ٢٨٥ هـ) وهي عربية ، والدولة المسلووية بطهرستان (٢٥٠ - ٣١٦ هـ) .

وقد حفل هذا العصر بكثيرة ثورات العلويين وخروجهم على الخلافة ، مما تجدد أخباره ونتائجه في «مقابل الطالبين» ، وسبب ذلك راجع إلى اضطهادهم واضطهاد شيعتهم .

فلقد كثر اضطهاد الشيعة في هذه الفترة الحافلة ، وأسرف في ذلك المتوكل على الله فإنه لما تولى الخلافة اضطهد الشيعة ، وشدد النكير ، عليهم ، وصادر أموال العلويين وشيعتهم ، وغالى في تشريدهم ، وأمر في عام ٢٣٧ هـ بهدم قبر الحسين بكر بلاء (١) .

(١) ٢٧٩ ج ٣ محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية للخضري بك ، ١٩ ج ٧ وما بعدما ابن الأثير .

وكان الرشيد يقتل أولاد فاطمة وشيعتهم (١) ، من حيث كان المأمون يرعى العلويين ولا يؤذى أحداً منهم (٢) .

وكان المتوكل يبغض المأمون والمعتمد والوائق لمحبتهم لعلی (٣) وكان شديد البغض لعلی وأهل بيته ، وذلك راجع لموضع خؤولته من الترك وسُلطان الأتراك في الدولة . وتاريخ الأتراك ملوء بكرههم للتشيع والشيعية ، وبالحرّوب المتصلة بينهم وهم سنيون وبين الفرس وهم شيعة .. وبذهاب الشيعة ونفوذهم من بغداد ذهب نفوذ الفرس منها ، وغلبت السنة على الدولة من ذلك الحين .

وسرت في الدولة بعد المتوكل موجة اضطهاد العلويين والشيعة ، فالمنتصر كان يقاوم العلويين كأبيه (٤) ، وتذكر بعض المصادر أنه أراد أن يحسن صلته بالبيت العلوي ولكن لم تطل مدته (٥) .

ولكن عهد المتعصّد كان عهد خير على العلويين ، فإنه لم يتعرض في أيامه لهم ولا آذاهم ولا قتل منهم أحداً (٦) .

وكان البعض يشنع على آل أبي طالب عند المكتفي فهام عنه (٧) .. وعلى الجملة فإن أغلب هذا العهد كان عهد محنة واضطهاد للعلويين ومن والاهم .

(١) العقد ج ١ ص ٢٤٩ .

(٢) راجع مناظرة المأمون للفقهاء في تفضيل علي (٢٧٩ - ٢٨٦ ج ٢ العقد) .

(٣) ظهر الإسلام ص ٤٦ ج ١ .

(٤) الإدارة الإسلامية لكردي علي ط ١٩٣٤ ص ١٧٣ .

(٥) ظهر الإسلام ص ٤٤ ج ١ .

(٦) الفرج بعد الشدة ص ١٢٢ ج ١ .

(٧) الأغانى ص ١٤٣ ج ٩ .

الطابع الاجتماعي لهذا العصر

- ١ -

ترتكز الحياة الاجتماعية (١) على الحالة الاقتصادية للدولة رقباً وضعفاً .
والحياة الاقتصادية في هذا العصر كانت شديدة الاضطراب والفوضى
إلى حد بعيد .

انتشر نظام إقطاع الأرض مكافأة أو هبة للقرين لدى الخلفاء
والوزراء (٢) ، وكان كبار الملاك يستقلون بإقطاعياتهم دون اهتمام بتحسين
حالة الناس وكانت الرشوة منتشرة بين طبقات الموظفين ، حتى الوزراء
الذين كانوا يسوغونها أمام ضمائرهم (٣) وأمام الخلفاء ، كما فعل سليمان بن
وهب الوزير أمام المهتدي ، وعمت المصادرة وانتشرت بين طبقات الناس
وأصبحت بتوالي الأيام المصدر الرئيسى لبيت المال (٤) ، وأنشئ لها ديوان
مخصوص (٥) .

وكانت ضرائب الأتبان أساس دخل الخلافة (٦) . ويدل على مدى
قوة الدولة أن متوسط جبايتها كان في أواسط القرن الثالث - كما ذكر ابن
خردادبة - نحو ثلاثمائة مليون درهم (٧) بعد أن كان في عهد المأمون

(١) يراد بالحياة الاجتماعية ما يؤلف بين أفراد الأمة من الصلات والأسباب .

(٢) ٥٤ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد .

(٣) ١٥٦ : ٧ مهذب الأغانى .

(٤) ١٨٠ : ٤ التمدن الإسلامى : ١٦٩ : الإدارة الإسلامية .

(٥) ٣٥ : ١ ظهر الإسلام و ١٦٩ الإدارة .

(٦) ٥٣ بارتولد و ٦٩ : ٥ التمدن .

(٧) ٦٩ : ٢ التمدن .

والرشيد أكثر من ٣٩٠ مليوناً (١) ، وفي عهد المعتصم ٣٨٨ مليوناً (٢) .

وكانت نفقات المعتضد سبعة آلاف دينار في اليوم (٣) وذلك نحو مليونين ونصف مليون من الدينارين أو خمسين مليوناً من الدراهم في العام (٤) .
قالباقى من مجموع الجباية هو الذى يبقى فى بيت المال تحت تصرف الخليفة (٥) .
وقد كثرت ثروات الخلفاء والوزراء وسواهم من طبقات الخاصة (٦) حتى ترك المنصور أربعة عشر مليوناً من الدينارين - ٦٠٠ مليون درهم - وترك الرشيد واحداً وعشرين مليوناً (٧) - وترك المعتضد فى خزانة الدولة أموالاً طائلة فوق ما تركه من ثروة خاصة .

وكانت الدولة الإسلامية فى ذلك الحين مؤلفة من عدة عناصر أهمها :
١ - العنصر العربى : أقصى عن النفوذ فى الدولة والخلافة ، وكان للمعتصم فى ذلك أثر معروف ، وكان نفوذ العرب أظهر ما يكون فى الشام والجزيرة حيث كونوا لهم هناك دويلات كثيرة وطابع العربى الزهو

(١) راجع ١٧٩ - ١٨١ مقدمة ابن خلدون ، ٥٣ : ٢ التمدن ، و ١٥٢ حضارة الإسلام فى دار السلام .

(٢) وذلك وفق ما ذكر قدامة فى كتاب الخراج ، ٥٩ : ٢ التمدن . ومتوسط الجباية فى العصر الأول كان نحو ٣٦٠ مليوناً فى العام أينفق منها على مصالح الدولة نحو ٥ مليوناً والباقى يظل فى بيت المال تحت تصرف الخليفة يصرف منه المرتبات والمسكافات ، ٦٩ و ٧٠ : ٥ التمدن .

(٣) ٣٥٣ - ٣٥٥ : ٣ الخضرى بك .

(٤) ٦٦ : ٢ التمدن .

(٥) ٦٧ : ٢ التمدن .

(٦) ١٠١ : ٥ التمدن .

(٧) ٢٣ : ٢ وما بعدها التمدن .

والاعتزاز بالنفس والفضائل والميل إلى الأدب والرغبة في السيادة .

٢ - العنصر الفارسي : وكانوا عماد النظام السياسي والإداري للدولة ، ولكن الترك أقصوهم عن منزلتهم التي كانت لهم في العصر الأول ، فأخذوا يدسون الدسائس والمؤامرات ، ويرمون إلى الاستقلال عن الخلافة ؛ وكانت الدولة تتأثر بهم في حياتهم العقلية الخصبية ، وبعاداتهم وتقاليدهم العامة ، وكانوا دعاة الترف .

٣ - الأتراك : وكان لهم النفوذ السياسي في الدولة ، وقضوا على نفوذ الفرس والعرب جميعاً ، وتولوا شتى المناصب الرفيعة في الحكومة ، وأخلاقهم الاجتماعية ضعيفة (١) ، وكان فيهم عبث بالأخلاق وشراسة في جمع الأموال (٢) ، وكانوا مشهورين بالجمال والنظافة ، فكثرت الجوارى الأتراك في قصور الخلفاء والأثرياء ، حتى كان كثير من الخلفاء من أمهات تركيات ، وطابع الترك حب الجندية والفروسية والانتصار لمذهب أهل السنة ، والبعد عن الفلسفة والجدل في الدين . وحب المال وجمعه من أية سبيل ، مع عدم الرغبة في الإصلاح .

وهناك عنصران آخران كان لهما أثرهما في الحياة الاجتماعية في هذا العصر ، وهما الزنج والروم :

أما الروم : فقد كثرت أسراهم في بيوت الخلفاء والأغنياء ، حتى كان بعض الخلفاء من أمهات تركيات ، وكانت الجوارى الروميات والعلمان الروم يملأان القصور ، وتعشقهم الشعراء ، فكان للبحثري غلام رومي اسمه نسيم (٣) ، وكذلك كان لسواه من الشعراء ، ومن هذا العنصر : ابن الرومي م ٥٢٨٣ .

(١) ظهر الإسلام ج ١ ص ٣٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) معاهد التنصيص ص ١٠ : ١ - مهذب الأغاني ج ٧ ص ١٩٤ .

وأما الزنج أو السود فكانوا يجلبون من سواحل أفريقيا الشرقية ، وكانوا يعملون في الزراعة والصناعة وفي بيوت الطبقات المتوسطة ، وليس أدل على كثرتهم وخطرهم من الثورة التي هددوا بها الدولة (٢٥٥ - ٢٧٠هـ) وكانت حربا بين الأجناس ، وظلت حتى قضى عليها الموفق عام ٢٧٠هـ .

وكان الفرق بين طبقة الخاصة وطبقة العامة كبيراً (١)، والنفوذ والثروة في يد الخاصة من الناس مما يستلزم الترف واللهو والمغالة في البنيان . فقد أنفق المعتصم على بناء (سامرا) أموالاً طائلة ، وكذلك فعل المتوكل في بناء الجعفرى وسواه من المباني التي أنفق عليها نحو خمسة ملايين من الدنانير ، وبنى المعتضد قصر التاج في الجانب الشرقى من بغداد وأتمه ابنه المكتفى ، وبنى المعتضد على بعد ميلين منه قصر الثريا الذى بلغ طوله ثلاثة فراسخ وأنفق عليه نحو نصف مليون من الدنانير، ووصله بالقصر الحسنى بسرداب تحت الأرض بلغ طوله ميلين وكانت تمشى فيه جواربه وحرمه (٢) . وفى تهنته المعتضد بقصر الثريا نظم ابن المعتز قصيدته :

سلمت أمير المؤمنين على الدهر ولا زلت فينا باقيا واسع العمر
حللت الثريا خير دار ومنزل فلا زال معمورا وبورك من قصر
فليس له فيما بنى الناس مثبه ولا ببناء الجن فى سالف الدهر

ويصف فى أرجوزته فى المعتضد قصر الرباب فىقول :

فن رأى مثل الرباب قصراً كم حكمة فيه تخال سحراً
أبنية فيها جنات الخلد لكل ذى زهد وغير زهد
تخبر عن عز وعن تمكين وحكمة مقرونة بالدين
ومظاهرات قوة الإسلام على أعاديه من الأنام

(١) راجع الطبقات الاجتماعية وحياتها فى هذا العصر فى التمدن الإسلامى

(٢٠ - ٥٩ : ١٠١ ، ٥٥ : ١٢٩) .

(٢) التمدن الإسلامى ص ٩٣ و ٩٤ ج ٥ ، وظهر الإسلام ج ١ ص ٩٩ .

وهكذا كان الترف والنعيم حظ عدد قليل ، هم الخاصة من الناس وبعض رجال التجارة والصناعة . على حين كان الفقر والبؤس والشقاء للعامة وهم أكثر الناس (١) .

وكان من مظاهر الترف في هذا العصر - كما ذكرنا - كثرة الرقيق حتى امتلأت به القصور، فكثرت نسل الجوارى واختلطت الدماء ، وأشاع هؤلاء الجوارى فن الغناء ، كما نشرن اللهو والمجون بين شتى الطبقات .

ولتنوع الحياة الاجتماعية إلى خاصة وعامة وترف وفقر ونسك ولهو ، كانت البلاد معرضة للنحل، ومجالاً للحياة الجماعات السرية وأصحاب المذاهب، الذين كانوا يمزجون الأغراض الاجتماعية بالمبادئ الدينية ويعالجون الترف عن الفقراء بالدعوة إلى المساواة . فكان فيها التشيع برجالاته ، والاعتزال بطوائفه ، والسنة باختلاف أقوالها ، والفلسفة بمذاهبها، والعلوم الحديثة بأنواعها ، وطوائف الأديان الأخرى بمبادئهم وآرائهم ،

وقد قامت جماعات تكافح الشك في الدين والمجون في المجتمع، ويدعون إلى الحياة الإسلامية بأخلافتها ومبادئها وسلوكها ، ومنهم الخنابلة الذين كانوا يقومون بثورات كثيرة في بغداد لمحاربة المجون والإلحاد والترف . وفي بعض مظاهر هذا الترف والبذخ ، يقول علي بن الجهم واصفاً قصر الجعفرى الذى بناه الخليفة المتوكل على الله :

ومازلت أسمع أن الملو ك تبنى على قدر أقدارها
وأعلم أن عقول الرجا ل يقضى عليها بآثارها
فلما رأينا بناء الإمام رأينا الخلالة في دارها
بدائع لم ترها فارس ولا الروم في طول أعمارها

(١) ظهر الإسلام ج ١ ص ٩٧ .

وللروم ماشيد الأولون وللفرس آثار أحرارها
ولضيق الرزق وأبوابه على كثير من الناس كثر أهل السكدية ، إذ
كانت تدر عليهم أخلاف الرزق .

وحدث امتزاج شديد بين العناصر والأجناس التي تكونت منها الدولة
وأحدث ذلك آثاره في الحياة الاجتماعية والأدبية ، وقام الصراع بين
الموالي والعرب ، وشبهت نيران الشعوية ، وكثر لخط دعائها ، بمن يسوون
الشعوب الأجنبية بالعرب أو يرفعون من شأنهم ويفضلونهم على العرب ؛
وكانت غلبة النفوذ الفارسي ذات أثر كبير في الحياة الاجتماعية ، فانتشرت
الثقافة الفارسية والعادات والتقاليد الفارسية ، وصعد الموالى إلى أعلى
مناصب الدولة ، وانتشر الرفيق والغناء ، وكان لهما أثرهما في الحياة الاجتماعية
وفي ازدهار الشعر كذلك .

ولقد فتح الله للمسلمين الأرض ، ودان لحكمهم المشرق والمغرب ،
وخضعت لسلطانهم أمم ذات مجد تليد ، وملك قديم ، وحضارة زاهرة ،
ومدنية باهرة وورثوا ملك كسرى وقبصر ، وفي أقل من قرن أصبحت
دولتهم تمتد من الأندلس ومراكش غرباً إلى الهند والصين شرقاً . وحكم
العرب هذه الأقطار والأمصار ، وأقامت بها جيوشهم ، وهاجرت إليها
قبائلهم ، واختلطوا بهم وعاشروهم ، ودخل كثير من هذه البلاد المفتوحة
في الإسلام ، وتعلموا العربية لغة القرآن الكريم ، واتصلوا بالعرب
في السكنى والمعيشة ، والتجارة وشتى شئون الحياة ، وتزوج العرب منهم ،
وداخلوهم مداخلة شديدة ، حتى نشأ جيل جديد من المولدين ، الذين نسلوا
من آباء عرب وأمهات أعجميات (١) .

(١) يقصد بالعبع ما عدا العرب ، أى السلالات الأجنبية غير العربية : من
فرس وروم وهنود وسريان وحيش وزنوج وسوام .

وكان العرب قبلا هم السادة والحكام ، وييدهم شئون الدولة والولاية ، ولهم النفوذ والسلطان ، وكانوا يتعصبون لكل ما هو عربي ، ويضعون الأاجم في منزلة دون منزلتهم . فلما قامت الدولة العباسية ، بدأ الموالي يرفعون رءوسهم ويعتزون بكرامتهم ، ويمنون بأيادهم على الخلافة ، وينادون بأن لا فضل للعرب عليهم ، لأنهم أقدم من العرب حضارة ، وأغرق منهم سلطانا ، وأخذت شوكتهم تقوى ، ونفوذهم يزداد ، وأصبح منهم الوزراء والقواد ، وكبار الكتاب وحاشية الخليفة ، وعماله وولايته . . . وهكذا زاد امتزاجهم بالعرب ، وتغلغوا في أنحاء الدولة ، وكان لسياسة العباسيين وما أعلنوه من المساواة بين العناصر والشعوب ، والعرب والموالي ، أثره البعيد .

وحسبنا أن الكثير من العلماء والأدباء ؛ بل الخلفاء والأمراء ، كانوا من أعجميات : فالهادي والرشيد ابنا « الخيزران » ، وهي أم ولد من خرشنة - بأرض الروم - ، والمأمون أمه « مراجل » ؛ والمعتمد أمه « مارد » ، والواثق أمه « قراطيس » ، وهي رومية ، والمتوكل أمه « شجاع » ، خوارزمية ، أما الأمين فأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور وهي عربية هاشمية - وكان خصوم الدولة كثيرا ما كانوا يلوحون للخلفاء بنشأتهم في أحضان أمهاتهم الأعجميات . كتب محمد بن عبد الله العلوي للمنصور : « ولا أعرفت في الإمام ولا حضنتي أمهات الأولاد » ، فبعث إليه المنصور برسالة يقول : « وأما ما ذكرت من أنك لم تعرق فيك الإمام ، فقد فخرت على بني هاشم طرا : أولهم إبراهيم ابن رسول الله ؛ ثم علي بن الحسين الذي لم يولد فيكم بمد وفاة رسول الله مولود مثله » ؛ ويقول الشاعر متألما من كثرة أولاد الإمام :

إن أولاد السراي كثرت يارب فينا
رب أدخلني بلاداً لا أرى فيها هميना

وكان للجوارى والقيان اللواتي كثرن في قصور الخلفاء والأمراء والأثرياء ، أثر كبير في زيادة الامتزاج والاختلاط ؛ يروى أن الرشيد كان في قصره ألفا جاربية . والمتوكل ضعف ذلك ؛ وكانت هؤلاء الجوارى من عناصر فارسية وتركية ورومية ، وكن يوزعن على الفاتحين ، ويبعن في الأسواق ، ويهدين كما تهدى الطرف النادرة .

ولقد نشأ عن تقرب الخلفاء للعجم ، أن بدأ نفوذ العرب في الاضمحلال وجاء المعتصم فقطع أرزاقهم من دواوين الجند ، وأحل مواليه من الترك محلهم فاندمجوا في غمار العامة ، وتكسبوا بالزراعة ، والحرف الصغيرة ، وضعفت فيهم الروح العربية ، وزاد امتزاجهم بالفرس وغيرهم من الشعوب السامية والآرية بالمصاهرة والمخالطة والمعاشرة والمجاورة .. ومهما يكن من شيء فقد أصبحت دولة الخلافة على سعة رقعتها ، وتعدد العناصر والشعوب فيها ، بفضل هذا الامتزاج الشديد ، والاختلاف البعيد ، قريبة النزعات والميول ، متشابهة الأخلاق والعقائد والتفكير والعادات ، يحكمها حاكم واحد ، وتتكلم بالعربية ، وتدين بالإسلام ، وتربطها وشائج من المودة والمحبة والتعاون والإخاء ، وصلات من المنفعة والمصلحة أو من المصاهرة واختلاط الدماء .

ولاريب أن هذا الامتزاج كان شديد الخطر ، عظيم الأثر ، في حياة الدولة الاجتماعية ، حتى لقد ظهرت نتائجه واضحة جليلة في الأخلاق والعادات والتقاليد ، وفي العقول والأجسام ، وشتى نواحي المعيشة والحياة ، مما نستطيع أن نصوره فيما يلي :

١ — انتشرت للعادات الفارسية في المجتمع في هذا العصر ، بسبب هذا الاختلاط الذي صورناه ، وذلك الامتزاج الذي شرحناه ، سواء في الطعام أو الشراب أو السكنى ، أو اللهو والغناء . فذاع اللعب بالشطرنج والترد ، والخروج إلى البوادي والقرى للراحة أو الصيد ، واصطحاب الإخوان للنزهة بين الرياض والوديان ، وأخذ العرب يحاكون الفرس في العناية بموائدهم ، ووضع الزهور والرياحين عليها ، وفي تفسيق البيوت ، وإعداد الحجرات ، وفي الاحتفاء بالأعياد الفارسية احتفاء شديداً ، ومن بينها عيد النيروز ويوم المهرجان ، حيث حرصوا على أن يتلقوا فيهما التهانى والهدايا .

وذاعت الأزياء الفارسية ، من فلانس وأقبية ، وعمائم ، وسواها .

وتبع ذلك كثرة اللهو والترف حتى إنهم كانوا ينفقون الأموال الطائلة في غير طائل ، اللهم إلا لإشباعاً للنفس ، وإرضاء لداعى اللهو واللذة ، فلا عجب أن غالوا في مادبهم وحفلاتهم مغالاة شديدة ، حتى ليروى أن الرشيد لما بنى بزييدة بنت جعفر بن المنصور اتخذ وليمة لم يكن لها شبيه فيما مضى من المآدب على طول الأيام ، وكانت الهبات فيها لا تنتهى . وكذلك فعل المأمون في بناءه ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل عام ٢١٠ هـ ، فقد أعطاها في صداقتها ألف حصاة من الياقوت ، وأوقد الشموع الهائلة من العنبر ، وصنع الطعام والمآدب الفاخرة ... وأولعوا بالغناء ، وتفتنوا فيه ، وأبدعوا في ألحانه وجددوا في آلاته ، وأكثروا في مجالسه من الملع والعبث والشراب . وكانت بغداد تعجب أصحاب الثراء لسعة عمرانها ، وبهجة منظرها ، وروعة قصورها ومنتزهاتها وميادنها وشتى مظاهر الحضارة فيها ، قال الشاعر :

أعابنت في طول من الأرض والعرض
كبغداد داراً ؟ إنها جنة الأرض

صفا العيش في بغداد واخضر عوده وعيش سواها غير صاف ولا غض
تطول بها الأعمار إن غذاءها مريء، وبعض الأرض أمر من بعض
أما الفقراء وذوو الحاجة فكانوا يضيقون بها ذرعا، للشقاء والبؤس
الشديد الذي كانوا يعيشون فيه، قال شاعرهم فيها:

تصلح للوسر لا لأمريء بيت في فقر وإفلاس
لو حلها قارون رب الغنى أصبح ذاهم ووسواس

ويصور أبو العتاهية غلاء الأسعار في بغداد تصويراً رائعاً فيقول:

من مبلغ عنى الإما م نصائحاً متواليه
إني أرى الأسعار أسعار الرعية غاليه
وأرى المكاسب نزره وأرى الضرورة فاشيه
وأرى غموم الدهر را نحة تمر وغاديه
من للبطون الجائعات وللجسوم العاريه
يا ابن الخلائف لا فقدت ولا عدت العافيه
ألقيت أخباراً إليك عن الرعية شافيه

وكان التباين بين طبقة الخاصة وطبقة العامة شديداً: فالنفوذ والثراء
وحياة اللذة والنعيم حظ المترفين، ولغيرهم الشقاء والهم المنجم.

وقد استلزم الترف: المغالاة في البنيان، والتنافس في تشييد القصور،
حتى قيل إن المعتصم أنفق على بناء سامرا أموالاً طائلة، وأنفق المتوكل على
بناء الجعفرى، الملايين من الدنانير، وأكثروا من تشييد البرك والحدائق
والدور والقصور وبيوت العبادة، إلى غير ذلك من مظاهر الترف والنعيم.

وعلى نمط النظم الفارسية سارت إدارة الدولة، حتى لقد أنشئت
المناصب الرفيعة في الخلافة، كمنصب الوزارة الذى تقلده في هذا العصر
أفذاذ من الرجال كأبي سلمة الخلال؛ وأبي أيوب المورياتى وزير

المصور ويعقوب بن داود وزير المهدي ، والبرامكة الذين وزروا للرشد ،
وبني سهل الذين وزروا للأمون ، وقد مكن هؤلاء للنفوذ الفارسي ،
والتقاليد والعادات والنظم الفارسية في دولة الخلافة .

٢ - وبتأثير الاختلاط ذاع العبث والمجون والفساد والإلحاد
والزندقة التي حاربها المهدي والرشد حربا لا هوادة فيها ، كما شاعت
الشهوات والملذات ، فأقبل الناس على مجالس اللهو والشراب ، والغزل
بالمذكر ، وانتشرت الرشوة والخلاعة في كل مكان ، وكان للقيان والجوراي
أثرهن في هذا الميدان .

وإن كنا لا نتكر أن الامتزاج قد أكسب العربي سعة أفق ، ورحابة
صدر وسماحة روح ، حتى أصبح لا يستأثر بالخير ، بل يشرك معه في الفضل
سواه ، وضاعت منه عنجهية البداوة ، وحمية الجاهلية الأولى ، وجفاء
الأخلاق ، وخسونة الطباع ، فصار لين العريكة ، موطأ الأكناف ، دمثا
مهذبا ، يدين بالمحبة والإخاء .

٣ - وظهر أثر هذا الاختلاط الشديد في العقول والأفكار ، فاتسعت
الثقافة ، ونضج التفكير ، ودقت الأفهام ، وحصفت العقول ، وقويت
المدارك . ونمت المواهب ، وجنح الناس إلى العلوم والفنون والآداب ،
يروون منها ظمأهم ، ويشبعون نهمهم . كل ذلك أثر للاختلاط ،
الذي دعا إلى امتزاج الثقافات ، والعناية بالترجمة ، وإحياء علوم الأمم
القديمة من فرس ويونان ورومان وسريان وسواها ، وأخذ العرب
يتحضرون ويلتثثون المدارس ويشيدون خزائن المكتب ودور الحكمة ،
ويجمعون بين فلسفة اليونان وآداب الفرس وأساطير الهنود ، ومعارف
سواهم من الشعوب .

أما أثره في الأجسام فهو غير خفي أو منكور ، فلا شك أن العربي قد
صاهر أبناء الأمم الأخرى ، فكسب بسطة في الجسم وسلامة في البدن ،

ونشأ جيل جديد من المولدين يحملون طابع العرب وخصائص العجم (١) ، ويمتازون بفراهة الأجسام ، وسلامة البنية ، ووفرة الجمال ، مع تنوع الموهبة والحذق في الصناعة . إلى ماسوى ذلك من خصائص ومميزات .

٤ - وكان لامتزاج العرب بالأعاجم آثاره البعيدة في تهذيب الأفكار ، وصقل الأخيلة ، ونضج الثقافة ، وتجويد ألوان الكلام من شعر وثر ، حتى ليلس الدارس الفروق واضحة بين الأدب العربي في هذا العصر والأدب في العصور السالفة :

(١) فلقد نشأ - بتأثير هذا الامتزاج - في الأدب فنون أدبية لم تكن موجودة كالتقصص والمقامات وأدب الزهد والتصوف وأدب الطبيعة ، وتفشت ألوان الخلاعة والمجون في الأدب ، كالإغراق والمبالغة في وصف الخمر والتشبيب بالجوارى والتغزل بالمذكر .

ولاشك أن تفتش هذه الألوان وذبوع تلك الفنون إنما كان بتأثير الاختلاط وامتزاج الحياة العربية بالحياة الأجنبية وما تزخر به من الترف والمفاسد، وما تحمل بين ثناياها من شهوات طاغية، ونزوات طائشة، ومتع آثمة .

ولقد ترجم عبد الله بن المقفع كتاب كلية ودمنة من الفارسية إلى العربية ، فرأى العرب طراز القصة في الثر . وأكبوا عليها ، وأهجموا بها ، حتى لقد نظمه أبان اللاحق شعرا ؛ بدأه بقوله :

هذا كتاب أدب ومحنة وهو الذى يدعى كليله دمنه
فيه ضلالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند
فوصفوا آداب كل عالم حكاية عن أسن البهائم

(١) الابن الذى يولد من أب عربي وأم أعجمية يسمى « هجيناً » ؛ والذى يكون من أب عجمي وأم عربية يسمى « مرقفاً » .

فالحكماء يعرفون فضله والسخفاء يشتمون هزله
وهو على ذلك يسير الحفظ لذ على اللسان عند اللفظ

(ب) وكان من تأثير الامتزاج أن تطور فن الوصف في الأدب العربي،
ونما نمواً واضحاً، واتسع مجاله، وانفسح مداه. فهذه مظاهر الحضارة
المختلفة من قصور ورياض، وأنهار وبرك وغدران، تتوالى صورها أمام
أبصارهم، فتلهب شاعرهم، وتسمو بأفكارهم، وتحلق بأخيلتهم.

وهذه أيضاً عادات العجم وتقاليدهم وأزيائهم، ومواسمهم وأعيادهم،
ومجالس لهوهم وشرابهم وغنائهم، ومرابع جواربهم وغلمانهم. كل ذلك
قد أطلق الألسنة، وفتق الأخيلة، وأيقظ المشاعر، وأذكى الحواس
فأخذوا يصفون هذه الألوان التي بهرهم بريقها، وأسرم جمالها، وأخذ
بالبابهم ما فيها من حسن ونضارة. فوصفوا كل هذه المظاهر أبلغ وصف،
وعبروا عنها أجمل تعبير.

يصنع الأمين لنزهته في دجلة خمس حراقات على صور الحيوانات،
فياخذ أبو نواس في وصفها، فيقول:

| | |
|--------------------------|---------------------------------|
| سخر الله للأمين مطايا | لم تسخر لصاحب المحراب |
| فإذا ما ركابه سرن برأ | سار في الماء راكباً ليك غاب (١) |
| عجب الناس إذ رأوك على صو | رة ليك تمر مر السحاب |
| سبحوا إذ رأوك سرت عليها | كيف لو أبصروك فوق العقاب (٢) |
| ذات زور ومنسر وجناحيه | ن تشق العباب بعد العباب (٣) |

(١) أي سفينة على صورة الأسد وتسمى الحراقة بالثديدي وفيها مراى فيران
يرى بها العدو.

(٢) أي فوق سفينته الأخرى التي صنعت على شكل العقاب.

(٣) الزور: الصخر.

تسبق الطير في السحاب إذا ما استعجلوها بجيشة وذهاب
ويبنى المتوكل قصره د الجعفرى ، فيراه على بن الجهم ، فيصفه بقوله :
وما زلت أسمع أن الملو ك تبنى على قدر أقدارها
فلما رأينا بناء الإمام رأينا الخلافة في دارها
بدائع لم ترها فارس ولا الروم في طول أعمارها
إذا أوقدت نارها بالعراق أضاء الحجاز سنا نارها
لها شرفات كأن الربيع كساها الرياض بأنوارها
ويصف البحترى الربيع وصفاً رائعاً فيقول :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن يتكلم
وقد نبه النيروز في غسق الدجى أوائل ورد كن بالأمس نوماً
يفتقها برد الندى فكأنه يبك حديثاً كان قبل مكتماً
فمن شجر رد الربيع لباسه عليه كما نشرت وشياً منمنماً
أحل فأبدى للعيون بشاشة وكان قذى للعين إذ كان محرماً
ورق نسيم الريح حتى حسبته يحيى بأنفاس الأحبة نعماً

إلى غير ذلك مما حفلت به رياض الأدب ، من صور ومشاهد ، نبضت
بها هذه الحياة المترفة اللاهية .

(ج) ولقد ورث العرب كذلك عن الأماجم غزارة المعنى ودقته ،
وعمق الفكرة وتسلسلها ، وحسن الاستقصاء ، وكثرة الاستطراد ،
وبراعة التحليل . فظهر ذلك بصورة واضحة في آدابهم ، ومأثور أشعارهم ،
ومن هنا رأينا طول النفس يتجلى في القصيدة العربية ، لكثرة الاستطراد
والاستقصاء والتحليل . كما رأينا شعرهم يحمل الكثير من المعاني الدقيقة ،
والأخيلة البعيدة ، والفكرة العميقة .

ومما زاد في ظهور هذه الآثار أن كثيراً من شعراء هذا العصر كانوا

يرجعون إلى أصول غير عربية ، كبشار وأبي العتاهية وأبي نواس ثم ابن الرومي وغيرهم .

يقول أبو إسحق إبراهيم بن موسى :

غزتي بجيش من محاسن وجهها
فلمسا التقى الجيشان أفبل طرفها
ولما تجارحنا بأسياف لحظنا
وناديت من وقع الأسنه والقنا
فصرت صريعاً للهوى وسط عسكر

فعبا لها طرفي ليدفع عن قلبي
يريد اغتصاب القلب قسرا على الحب
جمعت فؤادي في يديها على العصب
على كبدى : يا صاح مالى وللحب
قتيل عيون الغايات بلا ذنب

ويقول إسحق الموصلي :

أخاف عليها العين من طول وصلها
وما كان هجراني لها عن ملالة
أفكر في قلبي بأى عقوبة
سوى هجرها والهجر فيه دماره
فكنت كمن خاف الندى أن يبله

فأهجرها الشهرين خوفاً من الهجر
ولكننى أملت عاقبة الصبر
أعاقبه فيها لترضى فما أدرى
فماقبتة فيها من الهجر بالهجر
فعاذ من الميزاب والقطر بالبحر

ويقول مسلم :

أرادوا لينفخوا قبره عن عدوه
ويقول ابن المعتز في الهلال :

أنظر إليه كزورق من فضة

ويقول سعيد بن حميد :

لم آت ذنباً فإن زعمت بأن
قد تطرف الكف عين صاحبها

أتيت ذنباً فغير معتمد
فلا يرى قطعها من الرشد

ويصور أثر الحضارة والبيئة هذه القصة الطريفة ؛ فقد روى أن لا تماً
لام ابن الرومي فقال له : لم لاتشبه كتشبيهاً ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟
فقال له : أنشدني شيئاً من قوله الذي استعجرتني عن مثله ، فأنشده قوله
في الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة قد أنقلته حمولة من عنبر
فقال له : زدني ، فأنشده قوله في الأذريون - وهو زهر أصفر
في وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة ، والفرس تعظمه بالنظر إليه
وبفرشه في المنازل :

كان آذريونها والشمس فيه كالية (١)
مداهن من ذهب فيها بقايا عالية (٢)

فصاح واغوثاه ؛ تالله لا يكاف الله نفساً إلا وسعها ، ذلك إنما يصف
معاون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أي شيء أصف ا ولكن انظر إذا
أنا وصفت ما أعرف ، ابن يقع قولي من الناس اهل لأحد قط قول مثل
قولي في قوس النعام :

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفا على الجود كنا والحواشي على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر على أحمر في أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أنصر من بعض (٣)

(١) كالية : مخفف من كالية بالهمز أي ناظرة ، من كلاً بصره في الشيء إدارده.

(٢) العالية : نوع من الطيب .

(٣) الخود : الشابة الحسنة الخلق ، وغلائل جمع غلالة (بكسر الغين) وهي
شعار يلبس تحف الثوب .

وقولى فى صانع الرقاق :

مأنس لا أنس خبازاً مررت به يدحو الرقاقة مثل الملح بالبصر (١)
ما بين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر (٢)
إلا بمقدار ماتسداح دائرة فى لجة الماء يلتقى فيه بالحجر (٣)

وقولى فى قالى الزلاية :

رأيته سحراً يقلى زلاية فى رقة القشر والتجويف كالقصب
يلقى العجين لجيناً من أنامله فيستحيل شبايكاً من الذهب

(د) وبتأثير الامتزاج واختلاط العرب بالعجم المتحضرين كثرت
المبالغة والغلو الشديد فى أدب الأدباء ، وشعر الشعراء . . يقول
أبونواس :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

ويقول أبو تمام :

ولو صورت نفسك لم تزدها على ما فىك من كرم الطباع
ويقول بشار فى محبوبته :

إن فى برى جسماً ناحلاً لو توكأت عليه لانهدم

ويقول ابن الرومى :

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

(١) دحاه يدحوه : بسطه .

(٢) قوراء : واسعة .

(٣) انداح : اتسع .

كما كثرت الحكم والأمثال والتعليقات ، العقلية في الأدب : شعره
وثره . .

يقول صالح بن عبد القدوس :

لا يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه
وإن من أدبته في الصبا كالعود يسقى الماء في غرسه
حتى تراه مورقاً ناضراً بعد الذي أبصرت من يبسه
ويقول أبو تمام :

ينال الفتي من دهره وهو جاهل ويكدي الفتي في دهره وهو عالم
ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا لماتت إذا من جهلمن البهائم
وقال بشار :

هي الشريف يشين منصبه وترى الوضيع يزينه أدبه
والصدق أفضل ما حضرت به ولربما ضر الفتي كذبه
وقال أبو نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق
ومن التعليقات الطريفة قول أبي تمام :

ليس الحجاب بمقص عنك لي أملا إن السماء ترجى حين تحتجب
وقوله :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للسكان العالى (١)

(١) عطل من الأدب عطلا ، وعطلا إذا خلا منته ، والعطل : التجرد من الحلى .

وقال العباس بن الأحنف :

لا جزى الله دمع عيني خيراً . وجزى الله كل خير لسانى
نم دمعى فليس يكتم شيئاً . ورأيت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طى . فاستبدلوا عليه بالعنوان

(٥) وبتأثير الامتزاج عربت واستحدثت في اللغة العربية ألفاظ جديدة من لغات الأعاجم ، فزادت ثروتها في الألفاظ . . . وإن كان للامتزاج آثار سيئة ، مثل شيوع اللحن والعجمة واللكنة في الألسنة ، حتى أصبح شعر هؤلاء المولدين لا يحتاج به ، كما كان يحتاج بالشعر القديم .



الطابع الثقافي للعصر العباسي الأول

- ١ -

في العصر العباسي الأول ازدهرت الحياة الثقافية أو العقلية (١) ازدهارا كبيرا، وتلاقت في الحواضر الإسلامية شتى الثقافات التي تمثل حضارات الأمم العريقة وآثارها، في العلم والثقافة.. كانت الدولة مزيجاً من شعوب كثيرة، وكانت عقلية هذا الشعب الجديد يتجلى عليها أثر الثقافات والوراثات.

كان النفوذ فيه للفرس، وانتشرت ثقافتهم انتشاراً كبيراً على أيدي الوزراء وكتابهم الفارسيين، ونقل المثقفون - من الفرس الذين أجادوا العربية والعرب الذين أتقنوا الفارسية - إلى العربية تراث الفرس القديم في الحضارة والثقافة، وإنتاج الذين أجادوا اللغتين من هؤلاء كان صادراً عن عقليتين وثقافتين؛ وكان رجال العلم في هذا العصر أكثرهم فارسيون، حتى قال ابن خلدون: إن حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم (٢) . . . ودخلت الثقافة اليونانية في هذا العصر على الفكر الإسلامي بامتزاج الجنسيتين في الحياة الاجتماعية وبتشجيع الخلفاء لترجمة كتب الطب والنجوم والفلسفة من اليونانية إلى العربية، وإذا كان خالد بن يزيد م ١٨٩ هـ أول من ترجم - أو ترجمت له - كتب النجوم والطب والكيمياء (٣)، فقد عني المنصور م ١٥٨ هـ بترجمة كتب النجوم والطب والفلسفة وتشجيعها، وبعث إلى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله صلته بما لديه من كتب الفلاسفة واستخار

(١) يراد بالحياة العقلية حركة النفس الإنسانية في جميع أنواع العلوم والفنون والثقافات والآداب .

(٢) ٥٤٣ مقدمة ابن خلدون .

(٣) ٢١٣ : ١ البيان والتبيين للجاحظ، ٤٩٧ الفهرست لابن النديم .

لها مهرة الترجمة وكلفهم بإحكام ترجمتها (١) ، بل كان المنصور أول خليفة قرب المنجمين وترجمت له السكتب من اليونانية والرومانية والفهلوية والفارسية والسريانية (٢) ، وكذلك فعل الرشيد ، وأوفد المأمون الرسل إلى ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين ونسخها بالخط العربي وبعث المترجمين لذلك (٣) .

وأُنشأ في بغداد مدرسة لتخريج المترجمين (٤) وهي مكملة لدار الحكمة التي بناها الرشيد للترجمة ، وإذا كانت الدولة قد قبلت التقاليد الإيرانية في أمور الدولة ، فقد أخذت في ساحة الحضارة والثقافة أموراً كثيرة من بزنطة (٥) وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالفكر الإسلامي مباشرة وبوساطة الفرس أيضاً ؛ أما الأتراك فلم يكن لهم مدنية ، وليس لهم ثقافة ، وبعد أن تعلموا العربية لم ينبغ منهم في الأدب والشعر والعلم إلا القليل ، كأحمد بن طولون والفتوح بن خاقان .

وكان للإسلام فوق ذلك كله ثقافة واسعة في الدين واللغة والأدب والشعر ، كانت هي أم شيء أثر في الفكر الإسلامي وكانت المورد الأول للناس جميعاً .

تجمعت هذه الثقافات في العراق في العصر العباسي الأول وأحدثت أثرها في العقول والأفكار ، وكان المتكلمون أكبر عامل في امتزاج هذه الثقافات (٦)

(١) ٤٨٠ مقدمة ابن خلدون ، ٥٥ طبقات الأمام لصاعد الأندلسي ، ٢١ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ، وراجع حركة الترجمة في (٢٢٩ - ٢٣٣ الأدب العباسي لمحمود مصطفي ، ١٧٧ وما بعدها و ٢٦٤ و ٢٦٨ - ٢٧٠ : ١ ضحى الإسلام) .

(٢) ٢٤١ : ٤ وما بعدها مروج الذهب .

(٣) ٤٨٠ و ٤٨١ مقدمة ابن خلدون .

(٤) ٢٣٠ الأدب العباسي لمحمود مصطفي .

(٥) تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد . (٦) ٣٨٠ : ١ ضحى الإسلام .

وصلة بين الفلسفة اليونانية والأدب فقدموا معاني للأدباء والشعراء لم يكونوا يعرفونها .

ولقد شغل بهذه الثقافات الجديدة المترجمة طبقات من المفكرين والعلماء والأدباء والشعراء شغلا كبيرا . . وأقبلوا عليها إقبالا شديداً ، كما أقبل عليها الناشئون ، يحاولون دراستها وفهمها وهضمها ، ليكونوا ثقافتهم تكويناً سليماً وليعدوا أنفسهم للنصب العالية ، والدرجات الرفيعة .

وأخذت العلوم الدخيلة المنقولة إلى العربية ، والمعارف العامة التي تثقفت بها عقول المستعربين ، تدخل إلى المعاهد والمدارس الإسلامية ، حيث تناولها العلماء بالشرح والتعليق والتلخيص ، حتى إذا فضجت الثقافة الفكرية وازدهرت الحضارة في البلاد العربية ، أخذ المسلمون يؤلفون فيها ، ويكتبون في موضوعاتها ، ويستقلون ببحوثها ، فبعد أن كانوا مترجمين ، أصبحوا باحثين ومؤلفين ، وظهرت ثمار هذه النهضة في العواصم الكبرى في العالم الإسلامي : كخراسان والرى وخوزستان وأذربيجان وما وراء النهر والشام ومصر وسواها ، وكانت بغداد كعبة الفلاسفة والعلماء ، ومنبت أهل الفصل ، ومقر نقلة العلم من شتى العناصر والأجناس ، ومن مختلف اللغات .

وكان للطبقات المستعربة - من هنود وفرنس ، وسريان ويونان وروم وسواهم - عقلية مستنيرة ناضجة ، أحدثت أثرها الواسع في العرب الذين اتصلوا بهم وغالطوهم وعاشروهم ، وظهرت ميزاتهم وخصائصهم العقلية في طبقات المولدين ، الذين شهرروا بالنجابة والذكاء وسعه التفكير وخصب الخيال .

ولقد ظهر هذا التأثير الأجنبي في الأدب واللغة واضحا منذ بدأ عصر نفوذ الخلفاء العباسيين الذي بدأ فيه بناء الحضارة ، وذاعت فيه ألوان الثقافة ، وقامت بقيامه حركة الترجمة على ساقها ، وأخذ التأثير الأجنبي يبدو بوضوح في اللغة العربية وآدابها .

زاد امتزاج هذه الثقافات واتصالها ، بتطاول الزمن وتلاقح العقول وظهور آثار حركة الترجمة وتشجيع الخلفاء والوزراء للعلم والعلماء ، فكان هذا العصر أزهى عصور العلم في البلاد الإسلامية .

وفي أوائل العصر العباسي الأول تغلبت نزعة الاعتزال التي أيدها المأمون بكل ما يستطيع وفي آخره وهو عصر النفوذ التركي انتهى سلطان المعتزلة وارتفع شأن المحدثين ، فأمر المتوكل بترك الجدل في القرآن ، واضطهد رؤساء المعتزلة كـ محمد بن أبي الليث في مصر ، وأحمد بن أبي دؤاد في العراق ، من حيث كرم أحمد بن حنبل وسواه من أئمة المحدثين ؛ وكان هذا الاتجاه يحظى بتأييد الأتراك ويعملون له (١) .

ومراكز الحياة العقلية كانت كثيرة متعددة ، فنشطت الدراسات الدينية واللغوية في مصر ، وتفوقت الشام في الشعر والأدب واللغة (٢) ، وكان للعراق الصدارة في العلم والأدب والفلسفة ، فكانت بغداد والبصرة وحران أهم مراكز العلم والحضارة . فالجاحظ والسكندی بهريان ، والبتاني الرياضي الفلكي م ٣١٧ هـ من حران ، وكانت بغداد تجذب العلماء إليها من كل أرجاء العالم الإسلامي واشتهرت بلخ وخوارزم وأصفهان في ميدان التفكير والثقافة . فنبغ منها أبو زيد البلخي م ٣٢٢ هـ أحد تلاميذ السكندی المشهور ، وأبو موسى الخوارزمي صاحب المؤلفات القيمة في الجبر والحساب ، ثم أبو الفرج الأصفهاني مؤلف الأغانى ، وسواهم من العلماء .

وبعد فهذا العصر كان زاخرا بالعلوم ، قديما وحديثا ، كما كان حافلا

(١) راجع ٤١ : ١ ظهر الإسلام .

(٢) راجع ٨ : ١ اليتيمة للشعابي ، ١٧٧ ج ١ وما بعدها ظهر الإسلام .

بالعلماء والمفكرين والفلاسفة . . وكانت العلوم المترجمة شرطاً في تكوين ثقافة الكاتب والأديب ، وراج علم النجوم حتى انتشر بين الخاصة وجمهور الناس (١) والأدباء ، وعلى أى حال فلم تكن مناهج التفسيكرواحدة عند جميع الناس ، وكان الخلاف بين هذه المناهج على أشده في العراق ، ويشور ابن قتيبة في مقدمة كتابه « أدب الكاتب » ، على الحالة في عصره حيث أهمل الناس علوم الدين مع عنايتهم بعلوم الفلسفة والمنطق (٢) ، وكانت جماعة الأدباء يضجرون من الثقافات المترجمة وعلومها ، حتى قال ابن المعتز يصف من يؤثره بصدافته :

فإن تطلبه تقتنصه بحانة وإلا بيستان وكسرم مظلل
ولست تراه سائلاً عن خليفة ولا قاتلاً : من يعزلون ومن يلى
ولا صائحاً كالعير في يوم لذة يناظر في تفضيل عثمان أو على
ولا حاسباً تقويم شمس وكوكب ليعرف أخبار العلوم من أسفل
يقوم كحرباء الظهيرة مائلاً يقرب في اصطرلابه عين أحول
ولكن فيما قد عناه وسره وعن غير ما يعنيه فهو بمعزل

وقد ازدادت الحركة العقلية ازدهارا بعد ذلك ، وظهر أفاذ من الفلاسفة والمفكرين الذين يعتز بهم العقل الإسلامى

وقد نبغ في جميع ألوان الثقافة الدينية والأدبية والفكرية في العصر العباسى كثير من أئمة العلماء :

(١) واشتهر على بن جور الفارسى - وكان كاتباً مترسلاً ذا علم بالنجوم - بادخالها في شعره (٢٩٣ معجم الشعراء) .

(٢) راجع ص ٢ وما بعدها أدب الكاتب بهامش المثل السائر . وكان ابن قتيبة من أهل السنة ومن علماء الدين مع واسع ثقافته اليونانية وسواها (راجع ٤٠٢-٤٠٦ ج ١ حنى الإسلام) .

(أ) فني التشريع الإسلامي نبيخ : أحمد بن حنبل م ٢٤٠هـ، والكرائيسي م ٢٤٥هـ، والزعفراني م ٢٦٠هـ، وداود الظاهري (٢٠٢ - ٢٧٥هـ) ، وإسماعيل ابن إسحاق قاضي بغداد م ٢٨٢هـ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل م ٢٩٠هـ، والحربي م ٢٨٥هـ، ويوسف بن يعقوب القاضي (٢٠٨ - ٢٩٧هـ) ، ومحمد بن داود الظاهري م ٢٩٧هـ .

(ب) وفي التصوف : المحاسبي م ٢٤٣هـ والبسطامي م ٢٦١هـ وسهل القسري م ٢٨٣هـ وأبو سعيد الخزاز م ٢٨٦هـ، وهو أول من تكلم في الفناء والبقاء ، ثم إمام الصوفية الجنيد م ٢٦٧هـ، ثم الحلاج وقتل عام ٣٠٩هـ ببغداد .

(ج) وفي علوم اللغة والأدب : مصعب الزبيري م ٢٢٦هـ، والتوزي م ٢٣٨هـ ، وأبو العميث م ٢٤٠هـ، وابن السكيت م ٢٤٤هـ، ومحمد بن حبيب م ٢٤٥هـ، والمازني م ٢٤٩هـ ، وأبو حاتم السجستاني م ٢٥٥هـ ، والزبير بن بكار م ٢٥٦هـ، والرياشي أبو الفضل العباس بن الفرج م ٢٥٧هـ، والأشنانداني م ٢٥٧هـ، وعمر بن شبة م ٢٦٢هـ، وإبنة أحمد م ٢٧٢هـ ، والطلحي م ٢٧١هـ، والسكري م ٢٧٥هـ، وأبو العباس اليزيدي م ٢٧٨هـ، وأبو حنيفة الدينوري م ٢٨٢هـ، والمبرد م ٢١٠ - ٢٥٠هـ، وثعلب م ٢٠٠ - ٢٩١هـ، والزجاجي البغدادي النحوي م ٣٠٧هـ . وابن السراج تلميذ المبرد والمتوفى عام ٣١٦هـ، والزجاج م ٣١١هـ، والأخفش م ٣١٨هـ، ونفطويه م ٣٢٣هـ، وابن دريد م ٢٢٢ - ٣٢١هـ، ثم ابن الأنباري وسواهم .

(د) وفي علم الكلام ظهر من المعتزلة : بشر بن المعتز م ٢١٠هـ، وثمامة ابن أشرس م ٢٢١هـ، والنظام (٢٠٠ - ٢٣٥هـ) ، وابن أبي ذؤاد (١٦٠ - ٢٤٠هـ) ويحيى بن أكثم م ٢٤٢هـ، والعلاف البصري م ٢٣٥هـ، وابن الراوندي م ٢٤٥هـ ، والمجاهظ (١٥٠ - ٢٥٥هـ) ، وأبو علي الجبائي (٢٣٥ - ٣٠٢هـ) ، ثم ظهر أبو الحسن الأشعري (٢٧٠ - ٣٢٢هـ) ، وقد استمر

المعتزلة في العراق يملكون ويدرسون على يدي الجبائي وتلميذه في الاعترال:
محمد بن عمر الصيمري .

(٥) ومن المفكرين والفلاسفة وأقطاب العلماء : ابن ماسويه الطبيب
م ٢٤٣ هـ ، وابن سهل الطبيب م ٢٥٥ هـ ، ومحمد بن موسى بن شاكر م ٢٥٩ هـ ،
والسكندی م ٢٦٠ هـ ، وبنو المنجم ، وأبو موسى الخوارزمي وهو مديع
الحساب الهندي وأرقامه بين العرب ، والفارابي م ٣٣٩ هـ ، ثم بعد ذلك
ابن سينا م ٤٢٨ هـ ، والغزالي م ٥٠٥ هـ ، والرازي المتوفى م ٦٠٦ هـ وسوام . .
ومن صدور الفلاسفة والمفكرين والرياضيين والمترجمين الذين كان لهم
أثر في الفكر العباسي : حنين بن اسحاق (١٩٤ - ٢٦٠ هـ) ، وأبو معشر
الفلسكي م ٢٧٢ هـ ، والبلاذري م ٢٧٩ هـ ، وابن خرداذبة المتوفى نحو عام
٢٧٨ هـ ، وأبو حنيفة الدينوري م ٢٨٢ هـ ، والسرخسي م ٢٨٦ هـ ، وثابت
ابن قره (٢٢١ - ٢٨٨ هـ) ، واسحاق بن حنين م ٢٩٧ هـ ، والرازي م ٣١١ هـ ،
وسوام .

ترجمة العلوم والآداب الأجنبية

كان للعباسيين شغف شديد بالعلوم والآداب وولع كبير بالمعارف والثقافات ، إذ تنوعت حضارتهم ، واتسع عمرانهم ، وامتد سلطانهم ، وانفسحت أطراف مملكاتهم ، حتى شملت كثيراً من الأمم العريقة في العلم ، الأصيلة في الحضارة والمدنية .

وكانت هذه الأمم التي امتد نفوذهم إليها ، وانبسط سلطانهم عليها ، كالفرس والروم ، ذات علوم وآداب ومعارف ، تمخضت عنها عقولهم ، وتفتقت بها قرائحهم ، أو نقلوها عن غيرها من الأمم التي اتصلوا بها من قديم . وقد وجد العرب أنهم أمام معارف يزخر بها العالم إذ ذاك ، ولاغنى للملكهم عنها ، فأقبلوا عليها بكل ما فيهم من شوق ونهم ، يترجمونها ويعربونها . ويضيفون إلى قديمها جديداً ، تمخض عنه إدرأكهم وتفسيكهم .

فاليونان حكمتها وفلسفتها وطبها ، ولها أعلامها الأفاضل ، كسقراط وأرسططاليس وأفلاطون وأبقراط وجالينوس وغيرهم .

وللسكندانيين شهرتهم في الطب والنجوم .

وللهند ثقافة واسعة مدونة في النجوم والطب والحساب والآداب .

وكان للسريانيين ثقافة واسعة في الطب والفلك ورصد الكواكب ، ولهم مدارس كثيرة تدرس فيها علومهم وآدابهم بالسريانية واليونانية ، كدرسة الرها ، وقنسرين ، ونصيبين .

وللفرس آداب وعلوم انتقلت إليهم من الهند والصين ، ثم من اليونان في أزمنة مختلفة ، فقد ترجموا إلى لغتهم كثيراً من كتب اليونان ، كالمنطق

كما نقلوا من علوم الهند كتباً في النجوم والطب والآداب . هذا بالإضافة إلى ما ورثوه من علوم وآداب أصيلة عندهم .

وكان سابور بن أردشير يبعث البعث إلى بلاد اليونان لجلب كتب الفلسفة ، وترجمتها إلى الفارسية ، وأنشأ مدرسة جنديسابور المشهورة ، وكان أساتذتها من الهنود واليونانيين ، ثم جاء كسرى أفو شروان العادي ، ففتح أبواب دولته للوافدين عليه من الفلاسفة اليونانيين الوثنيين الهاريين من اضطهاد «جوستينيان» قيصر الروم لهم على إثر إقفاله المدارس والمعابد الوثنية وأكرمهم وطلب منهم التأليف والترجمة في الفلسفة والطب والنجوم ، كما أكرم وفادة العلماء الهنود والسريانيين .

واتصل المسلمون في هذا العصر بثقافات تلك الأمم وعلومها وآدابها ، فازدادوا حبا لها ، ومعرفة بقيمتها ، ورغبة ملحة في الاستفادة منها . . وكان الفارسيون الذين وصلوا إلى أعلى مناصب الدولة يشجعون نشرها وتداولها ، كما كان الخلفاء يقبلون عليها ، ويحثون على ترجمتها إلى اللغة العربية .

وهكذا بدأت الترجمة في العصر العباسي : صغيرة ناشئة ، ثم أثمرت ثمراها ، وآتت أكلها بعد قليل .

وكان الباعث على العناية بترجمة العلوم إلى العربية : ما آلت إليه الدولة من حضارة ومدنية مما استلزم تشجيع العلوم والآداب ، وكذلك رغبة العلماء في استخدام المنطق والفلسفة للدفاع عن الدين ، ثم كانت اللغة العربية غالبية على هذه الممالك المفتوحة . فكان لا بد أن تنقل من معارفها وثقافتها أحسن وأروع ما تعزز به من آثار ، ومن هنا نشطت حركة الترجمة . إذ وجدت في اللغة العربية استجابة وسرعة .

ومن البواعث كذلك تشجيع الخلفاء والأمراء والوزراء للترجمة ، التي أصبحت هي الصلة الوثيقة بين العرب وعلوم الأمم القديمة وثقافتها .

ويعتبر كثير من مؤرخي الفكر حركة ترجمة العلوم في العصر العباسي من أعظم الحوادث الفكرية في تاريخ المسلمين ، وليس ثمة شك في قيمة هذه الحركة الجبارة ، التي كان لها أكبر الآثار في سير الحضارة الإسلامية الإنسانية .

ولم يؤثر عن العرب قبل عصر نفوذ الخلفاء العباسيين أنهم ترجموا من كتب الأوائل شيئا . اللهم إلا كناش أمرون في الطب ترجمه ماسرجويه طبيب مروان بن الحكم وأذاع هذه الترجمة عمر بن عبد العزيز في الناس . وكان خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى عام ٨٩ هـ ذالوع بالكيمياء والطب والنجوم فترجم له فيها ، وهو أول من ترجم له في هذه العلوم كما يقول الجاحظ (١) وغيره ، ولكن ذلك لا يدل على أن حركة الترجمة كانت دائمة في عصر بني أمية ، إذ أنها لم تخط خطوة واسعة إلا بعد ذلك العصر .

أما حركة الترجمة في العصر العباسي الأول فيمكننا أن نقسمها إلى أطوار ثلاثة :

١ - فالطور الأول : يبدأ من خلافة المنصور إلى آخر عهد الرشيد ، أي من عام ١٣٦ هـ ، حتى عام ١٩٣ ، وقد مضى عهد السفاح دون عناية منه بالترجمة لقصر حكمه ، ولشغله الشاغل بتأسيس الدولة وتوطيد أركان الخلافة العباسية .

فلما ولي المنصور عني بترجمة العلوم عناية فائقة ، وخاصة الطب والهندسة والنجوم ، وبعث إلى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله أن يرسله بما لديه من كتب الفلاسفة ، واستنار لها مهرة الترجمة وكلفهم

(١) ٢١٣ : ١ البيان والتهيين ، ٤٩٧ فهرست لابن النديم .

ياحكام ترجمتها إلى العربية (١) ، وترجمت له الكتب من اليونانية والرومية والفارسية والسريانية والهندية (٢) .. ولم يترجم له شيء من الفلسفة والمنطق وسائر العلوم العقلية ، وإنما ترجمت بعد عصره ، وكان المنصور معنياً بعلم النجوم عناية فائقة ، وقرب إليه من المنجمين نوبخت المنجم الفارسي وأولاده ، وإبراهيم الفزاري ، كما قرب إليه جورجيس بن بختيشوع السرياني رئيس أطباء مدرسة جنديسابور ، إذ أعجب به واتخذهُ طبيباً له .. ومن أشهر المترجمين في عهده ابن المقفع .

أما المهدي والهادي فقد شغلا بمحاربة البدع والزندقة ، فألهما ذلك عن تشجيع حركة الترجمة .

فلما ولي الرشيد الخلافة كانت الثقافة مزدهرة ، والعلوم منتشرة ، والأذهان متفتحة لقيمة العلم والترجمة ، فأخذ يعمل على تقوية النهضة العلمية بكل مافي قواه من جهد وعزيمة ، فاقرب إليه العلماء ، وكان يستصحب معه كلما سافر مائة عالم ، واتخذ أطباء وتراجمه له من السريانيين ، كآل بختيشوع وآل اسويه ، وقد ترجمت في عهده كتب كثيرة في الطب والنجوم والكيمياء والنبات والحيوان والحيل والفلسفة والأخلاق ، وأنشأ الرشيد في بغداد « دار الحكمة » ، التي كانت تحتوي نفائس الكتب من شتى اللغات ، وقد أعيد في عهده ترجمة الكتب التي سبق ترجمتها في عصر المنصور .

وفي هذا الدور الخطير ترجمت كتب كثيرة ، من أهمها : كلية ودمنة من الفارسية ، وكتاب السند هند من الهندية ، وترجمت بعض كتب أرسططاليس في المنطق وغيره ، وترجم كتاب المجسطي في الفلك ، وأخذ المعتزلة يقرؤون هذه الترجمات ، ويتخذون منها مادة للجدل والمناظرة .

وكان البرامكة يشجعون الترجمة والمترجمين تشجيعاً كبيراً ، ويسخون سخاء قادراً على كل مجهود يتصل بالعلم والثقافة . فكان لتشجيعهم أبلغ

(١) ٨٩٤ مقدمة ابن خلدون ، ٥٥ طبقات الأمم لصاعد الأندلسي .

(٢) ٢٤١ : ٤ المسعودي .

الآثار في ازدهار العلوم وتقدم المعارف ونمو حركة الترجمة وتطورها .

٢ - والطور الثاني لحركة الترجمة يبدأ ببداية حكم المأمون وينتهي بنهايته ، وكان المأمون عالماً متضلماً واسع الثقافة كثير الاطلاع ، وكان نهمه العقلي والعلمي لاحد له ، وقد أولى الترجمة عناية الشديدة واهتمامه البعيد ، فأوفد الرسل إلى ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين لنسخها بالخط العربي ، وبعث المترجمين لذلك ، وأنشأ في بغداد مدرسة لتخريج الترجمة .

وقد كان عصر المأمون أزهى عصور الترجمة ، لأنه كانت له مشاركة في كل العلوم ، وكان يناصر الاعتزال ويحاول تأييد هذه النزعة بمنطق اليونان ولذلك كان ينفق بسعة وسخاء شديد على حركة الترجمة ، حتى أعطى وزن ما يترجم ذهباً ، وكان يحرض الناس على قراءة تلك الكتب المترجمة ، ويرغبهم في تعلمها ، ويخلو بالحكماء ، ويأنس بمحاضرتهم .

وتبع الأمراء والوزراء الخليفة في هذا المضمار ، فوفد على بغداد عدد جم من المترجمين من كل نحلة وطائفة .

وكان المأمون في العرب كبريكليس في اليونان ، وأرغسطس في الرومان ، فأنتم ما بدأ به آباؤه ، واتخذ له بطانة من علماء اليونان والسريان والفرس والهنود ، وأمر ولاته بأن يعيشوا إليه بالكتب التي تقع في أيديهم ، وجعل من شروط الصلح بينه وبين ملك القسطنطينية أن يرسل إليه مجموعة من الكتب النادرة ؛ ومن المترجمين في عهده : الحجاج بن يوسف بن مطر ، ويوحنا البطريق ، ويوحنا بن ماسويه ، وسلم، وقسطا ، وحبيش، واصطفان، وهم مترجمون من اليونانية .

٣ - أما الطور الثالث : من أطوار حركة الترجمة فيبدأ بخلقة المعتصم وينتهي بقتل المتوكل عام ٢٤٧ هـ .

ففي عصر المعتصم فترت حركة الترجمة ، إذ لم يكن للخليفة تحصيل في العلم أو رغبة في المشاركة فيه .

وجاء بعده الواثق ، وكان ذكياً ، واسع الاطلاع ، كبير الثقافة ، يشجع العلم والعلماء ، فذشطت الترجمة في عهده ، واستعادت بعض ما كان لها قبل من نشاط ، وإن كان أكثر ما ترجم في عصره هو الأسماء والخرافات .

وفي عهد المتوكل على الله تمت ترجمة العلوم النافعة ، كالطب والنبات والنجوم ، لأنها كانت تروج عند الخليفة وتلقى تشجيعاً وعطفاً ، وكان المتوكل آخر الخلفاء الذين آزرُوا حركة الترجمة ، وأعانوا على نقل علوم الأمم إلى العربية لغة القرآن الكريم .

١- ومن أشهر المترجمين عن اليونانية: الحجاج بن يوسف بن مطر، وكان هن جملة المترجمين للباءون ، وقام بنقل كتاب إقليدس والمجسطى إلى العربية ، ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحراني .. ومنهم كذلك قسطا ابن لوقا البعلبكي ، وهو من نصارى الشام ، وكان طبيباً حاذقاً ، ترجم وألف رسائل كثيرة في الطب . ومنهم موسى بن شاكر وكان من المترجمين للباءون . وسار على نهجه كذلك أولاده الثلاثة : محمد وأحمد والحسن .

ومنهم آل حنين ، وأولهم حنين بن إسحق العبادى شيخ المترجمين (١٦٤ - ٢٦٤ هـ) وهو من نصارى الحيرة ، ثم ابنه إسحق المتوفى عام ٥٢٩٨ . ومنهم : حبيش الدمشقي وهو ابن أخت حنين بن إسحق وآل بختيشوع وهم من السريان ، وقد خدموا الخلفاء العباسيين من المنصور إلى المتوكل .

وقد ترجم هؤلاء وسواهم كثيراً من علوم اليونان وفلسفتهم وحكمتهم ومعارفهم في المنطق والطب والهندسة والسياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق وغيرها ، ومن أشهر ما ترجموه : كتاب السياسة نقله حنين بن إسحق ، وكتاب الأخلاق ترجمه إسحاق ، وكتب جالينوس وإقليدس . وقد نقل الحجاج بن مطر لإقليدس كتاب أصول الهندسة ، كما ترجموا أصول فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو .

٢ - ومن أشهر المترجمين عن الفارسية: عبدالله بن المقفع، وآل نوبخت، والحسن بن سهل، وجبلبة بن سالم، وإسحق بن يزيد، وهشام بن القاسم، وسواهم .

وقد ترجموا عن الفارسية كتباً كثيرة، من أشهرها: كتاب كلية ودمنة الذى ترجمه ابن المقفع؛ وكتاب خدائنامة، الذى ترجمه كذلك ابن المقفع، وسماه كتاب سير ملوك الفرس، وترجم كذلك الأدب الكبير، والأدب الصغير، والدرة البهية، وكتاب التاج فى سيرة أنوشروان . ومن الكتب المترجمة عن الفارسية أيضاً: عهد أردشير؛ وتوقيعات كسرى، وهزار أفسانة (١)، وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة، وكتاب أدب الحرب، وكذلك عهد أردشير إلى ابنه سابور ترجمه البلاذرى شعرا (٢) إلى العربية، ويقرنه صاحب الفهرست بكتاب كلية ودمنة (٣) . . . وسوى ذلك من نفائس المؤلفات .

٣ - ومن مشهورى المترجمين عن الهندية: منسكه الهندى الطبيب الذى عالج الرشيد، وصالح بن بهلة الهندى الذى دخل بغداد فى عهد الرشيد أيضاً، ونال شهرة واسعة، واشتدت مخالطته للأطباء . . . ومنهم محمد بن إبراهيم الفزارى، وابن دهن .

وقد نقل هؤلاء المترجمون عن الهندية الكثير من كتب الطب والنجوم والفلك والرياضة والحساب والتاريخ والأسماء . وبما ترجم من كتب الأدب الهندى: كتاب سندباد الكبير والصغير، وكتاب بيدبانى الحكمة، وكتاب السند هند - أى الدهر الداغر - فى الفلك وقد ترجمه من الهندية محمد بن إبراهيم الفزارى .

(١) معناه ألب خرافة .

(٢) ١١٣ و ١١٤ الفهرست .

(٣) ١٣٦ الفهرست .

٤ - وقد كان هناك مترجمون عن العبرية والقبطية والسكلدانية . وما نقل عن السكلدانيين كتاب الفلاحة ، وكتاب أسرار السكواكب .. وسواهما من نقائس المؤلفات .

وقد عنى المترجمون عناية خاصة بفلسفة اليونان وحكمتهم ، فترجموا الكثير من آثارهم فيها إلى العربية ، من مثل : مؤلفات أرسطو وشروح علماء مدرسة الاسكندرية القديمة عليها ، وكتب أفلاطون ، وأهم كتب جالينوس في الطب ، وعلى الجملة فقد ترجموا أهم ما ابتكره العقل اليوناني في العلم والفلسفة .

ولكنهم لم ينقلوا إلينا شيئاً يذكر من آداب اليونانيين .. فإذا قرأنا ثبت الكتب المترجمة نجدها تبحث في كل فرع من فروع المعرفة القديمة ، ولا نكاد نعثر على كتاب أدبي يوناني مشهور ترجم إلى اللغة العربية ، مع وفرة ما لليونان والرومان من آثار أدبية عالية في القصص والتثيل .

على أنهم قد ترجموا بعض مؤلفات في علوم قريبة إلى الأدب كالتاريخ والأسفار ، فهنا ابن النديم ينقل في كتابه الفهرست أسماء كتب للروم في هذين الفنين ترجمت إلى العربية (١) .

وتساقط إلى العرب من الأسرى اليونانيين، ومن الموالى الذين اختلطوا بهم من هذين العنصرين ، كثير من الحكم والأمثال ، ، مما تحفل به مصادر الأدب العربي ، كالبيان والتبيين ، وكتاب الحيوان ، وعيون الأخبار ... وترجم لهم بعض هذه الأمثال والحكم ، مما ينسب لفيثاغورس وسفراط وأفلاطون وأرسطو . يروي ابن النديم أن علي بن ربن النصراني نقل كتاباً في الآداب والأمثال على مذاهب الفرس والروم والعرب (٢) . وهذه

(١) ٣٠٥ و ٣٠٦ الفهرست . (٢) ٣١٦ الفهرست .

الأمثال والحكم على أى حال أبسط ألوان الأدب ، وهى شبيهة بما يعرف
منهما عند العرب . وقد كان ولوع العرب بهما حافظاً على ترجمة بعض
ما يؤثر منهما إلى العربية . بعد تجريدتهما بما يختلط بهما من أسماء ، وما يلبسهما
من مظاهر حياة اليونان الاجتماعية . . إذ هما حينذاك قريبان من إلف
العربى ، وليس فيهما ما ينفّر منه من أساطير ، ولا يحتويان على أوزان
شعرية لاتستسيغها العربية .

وكذلك تساقط إلى العرب بعض آراء فى البلاغة والنقد ، مما يؤثر عن
بعض اليونانيين ولكن ذلك كله بعيد عما عرف من روائع الأدب اليونانى
القديم ، كالأساطير والملاحم والتمثيلات ، وعما شروا به من خطابة وكتابة
وشعر غنائى ، فلم تترجم إلى العربية إلاذة هوميروس ، ولا ما شابهها من
الأثار . . مما يدل على أن المترجمين صرفوا نظرهم عنها ، وأعرضوا إعراضاً
عن نقلها الى العربية .

ويمكننا أن نفسر إهمال الأدب اليونانى فى الترجمة إلى العربية بأن العرب
كانوا أكثر الناس اعتراضاً بليغتهم ، واعتداداً بأنفسهم . مما جعلهم يحتقرون
آداب اليونان ، ولا يقدرونها حتى حق قدرها . . وخاصة لبقاء اليونانيين
على النصرانية وبعدهم عن حكم المسلمين ، بخلاف الفرس الذين أساموا ،
وخضعوا للحكم الإسلامى . . ولعل فى هذا ما يفسر لنا غضن نقاد العرب
المتأخرين من أدب اليونان وثقافتهم فى صناعة البيان ، فهذا ابن الأثير يذكر
فى كتاب « المثل السائر » أن الشعر والخطابة فى الأدب العربى لم يتأثرا
بثقافة اليونان البيانية ، وينفى أن يكون هو قد تأثر فى رسائله وكتابته بما
ذكره علماء اليونان فى حصر المعانى ، ويذكر أنه اطلع على ما كتبه ابن سينا
فى الخطابة والشعر فلم يوافق ذوقه ، ورأى أن ما ذكره لغو لا يستفيد به
صاحب الكلام العربى شيئاً (١) .

وكان العرب يؤمنون بأنهم أوفر الأمم حظاً ، وأعلام كعباً ، وأكثرهم آثاراً ، في الأدب والشعر ؛ فهم في غنى عن أن تترجم لهم آداب الأمم القديمة ، وخاصة أن عنايتهم كانت موجهة إلى نقل ما هم في حاجة ماسة إليه من ثقافات ومعارف .

وإنما ترجموا ألواناً من الآداب الفارسية ، لأن الأدب الفارسي على العموم قريب من ذوق العربي كقرب ما بين الفرس والعرب من صلات وجوار ، والآداب الفارسي في جملته ليس فيه من الأساطير والحديث عن الآلهة نظير ما تحفل به الآداب اليونانية الوثنية ، ولهذا كان بعض نقاد العرب المتأخرين يصورون إعجابهم بأدب الفرس ، فهذا ابن الأثير يقول في كتاب «المثل السائر» : إنني وجدت العجم يفضلون العرب في الإسهاب ، مع الاحتفاظ بالجودة ، فإن شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً ، وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم ، كما فعل الفرس في نظم السكتاب المعروف بشاهنامه . وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم ، وقد أجمع فصحاءهم على أنه ليس في لغتهم أفصح منه . وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها ، وتشعب فنونها وأغراضها ، وعلى أن العجم بالنسبة لهم كقطرة من بحر .

ولم يجد المترجمون حائلاً يحول بينهم وبين نقل هذه الآداب الفارسية إلى العربية ، بل كانوا يلقون الكثير من ألوان أن التشجيع من العناصر الفارسية ذات النفوذ والسلطان في الدولة العباسية ، وخاصة الوزراء الذين ينتمون إلى أصول أعجمية ؛ وكان المترجمون يتقربون أحياناً إلى هؤلاء الوزراء بترجمة آدابهم ، التي تمجد تاريخهم القديم ، وقوميتهم الخالدة ، وملوكهم الأجداد وأبطالهم المغاوير ، كما كانوا يتقربون إلى الخلفاء بترجمة الطرائف الأدبية ، والملح الممتعة ، لتكون مادة للمفاكحة والسمر .

وفي هذا جميعه ما يدلنا دلالة واضحة على أنه لم يكن هناك تأثير الأدب اليوناني في الأدب العربي . . أما التأثير الأكبر ، فقد كان لعلومهم وفلسفتهم .

وبذلك نستبين أن الآداب الفارسية كانت أكثر تأثيراً في الأدب العربي من الآداب اليونانية .

ولقد أثمرت حركة الترجمة ثمارها النافعة في العلوم والآداب العربية ، وأحدثت كذلك آثارها الواسعة في لغة العرب ، فقد كانت الترجمة وسيلة لزيادة ثروة اللغة العربية في الألفاظ والأساليب ، ففوق تعريب العرب الأسماء الأجنبية لتأدية أغراضهم ومعانيهم وأفكارهم ، ولتقوم اللغة بمقتضيات الملك والسياسة والاجتماع والحضارة ، كذلك عربوا بعض مصطلحات العلوم ، وأكثروا من التوسع في مدلولات الألفاظ العربية عن طريق المجاز والاستعارة والكناية والتشبيه وما إليها . . هذا غير ما نال الأسلوب من نماء وقوة وحياء وتجديد ودقة تصوير وبلاغة تعبير .

وقد هذب المنطق والفلسفة أفكار الأدباء ومعانيهم ، وصقل إنتاجهم وخيالاتهم ، وغير نظرتهم إلى الأشياء ، فظهر العمق والترتيب العقلي ، وقل خطأ الأديب أو الشاعر فيما يرجع إلى التفكير ، وصار الكاتب يحرص على سلامة الفكرة ، وصحة التقسيم . ويفتقل من المقدمات إلى النتائج ، ويفرق بين الحقائق والمبالغات السكاذبة .

فضلا عن أنه قد نشأت علوم جديدة في عصر الترجمة كانت أثرأ لها ، أمدت اللغة والأدب والشعر بمحصول كبير وثروة واسعة في النواحي اللغوية والأدبية والعلمية .

على أن حركة الترجمة كان لا بد أن يكون لها بعض الأضرار التي عادت على اللغة العربية بأسوأ الآثار ، ومنها :

١ - كثرة استعمال أساليب المنطقيين والفلاسفة وأفعال السكون والبناء للمجهول ووصوغ المصادر الصناعية، مثل الكيفية والكمية والذاتية والعرضية والمائية والحيوانية والإنسانية، وكثرة الفصل بالضمير الغائب، وسوى ذلك مما أورث الألسنة لكثرة، والأساليب عجمة، والمنطق اتواء، والملكات ضعفاً، والفطرة والطبع تعقيداً وضيقاً .

هذا إلى ما نتج عن كثرة المصطلحات ودقة مدلولاتها من شيوع الأسلوب العلمي، واستحداث أصحاب كل علم لغة تاليفية لها رموزها ومعانيها وألفاظها، وصعوبة فهم البعيد عن هذا العلم لأغراض العلماء والكاتبين فيه.. وهذه المصطلحات كثيرة متعددة: ففي الفلك والرياضة نجد: المرصد والزيج والتعديل والنخروط والدائرة والمثلث والمربع وفي الطب نجد: الصيدلة والتشريح والجراحة والتوليد والسوداء والصفراء. وفي الفلسفة نقراً: الجوهر والعرض والتصوير والتصديق والموضوع والمحمول والقياس والشكل والكيفية والكمية والماهية والهوية واللانهاية.. إلى غير ذلك من المصطلحات التي كثرت حتى وضعت لها معاجم خاصة، منها كليات أبي البقاء، وكشاف اصطلاحات الفنون، وكتاب التعريفات للجرجاني المتوفى عام ٨١٦ هـ .

التأثير الأجنبي

في اللغة العربية وآدابها

كان امتزاج العرب بالعجم، وما نشأ عنه من آثار، وما ذاع بسببه من أفكار، خطره القديد، ودويه البعيد، في البيئة الإسلامية العربية.. ومن أظهر ما نتج عن ذلك الامتزاج، وترتب عليه، ترجمة العلوم المختلفة، من شتى اللغات، إلى اللغة العربية كما فصلنا .

ولقد شغل بهذه الثقافات الجديدة المترجمة طبقات من المفكرين والعلماء

والأدباء والشعراء شغلا كبيرا ، وأقبلوا عليها إقبالا شديداً ، كما أقبل عليها الناشئون ، يحاولون دراستها وفهمها وضمها ، ليسكونوا ثقافتهم تكويناً سليماً وليعدوا أنفسهم للمناصب العالية ، والدرجات الرفيعة :

وأخذت العلوم الدخيلة المنقولة إلى العربية ، والمعارف العسامة التي تثقفت بها عقول المستعربين ، يدخل إلى المعاهد والمدارس الإسلامية ، حيث تناولها العلماء بالشرح والتعليق والتلخيص ، حتى إذا فضجت الثقافة الفكرية وازدهرت الحضارة في البلاد العربية ، أخذ المسلمون يؤلفون فيها ، ويكتبون في موضوعاتها ويستقلون ببحوثها ، فبعد أن كانوا مترجمين أصبحوا باحثين ومؤلفين . وظهرت ثمار هذه النهضة في العواصم الكبرى في العالم الإسلامي : كخراسان والرى وخرزستان وأذربيجان وما وراء النهر والشام ومصر وسواها ، وكانت بغداد كعبة الفلاسفة والعلماء ، ومنبت أهل الفضل ومقر نقلة العلم من شتى العناصر والأجناس ، ومن مختلف اللغات .

وكان للطبقات المستعربة - من هنود وفرنس ، وسريان ويونان وروم وسوام - عقلية مستنيرة ناضجة ، أحدثت أثرها الواسع في العرب الذين اتصلوا بهم وخالطوهم وعاشروهم ، وظهرت ميقاتهم وخصائصهم العقلية في طبقات المولدين ، الذين شهررا بالنجاة والذكاء وسعة التفكير وخصب الخيال ، ونحن نعرف أن العرب الذين كانوا بأنفون قبلا من الزواج بالأعجميات ، وبعونه عيباً ومهانة وجناية على الأبناء ، أقبلوا في هذا العصر على الزواج منهن ، لمارأوا من وفرة جاهلن ، ونجاة أولادهن ، حتى ليروى أن أهل المدينة كانوا يرهون في التسرى ، إلى أن نشأ فيهم على بن الحسين ومحمد بن القاسم وسالم بن عبدالله ، ففاقوا أهل المدينة ورعاً وعلماً ، فرضوا فيه وأقبلوا عليه .

فليس عجيباً إذن في هذا العصر أن تكثر طبقات المولدين ، ويكون لها آثارها في الحياة الاجتماعية والعقلية والأدبية .

ولقد ظهر هذا التأثير الأجنبي في الأدب واللغة واضحا منذ بدأ عصر نفوذ الخلفاء العباسيين . أما في عصر بني أمية فكان أثره قليلا محدوداً ، لقلة الاختلاط، وأنفة العربي من الزواج بالأعجميات ، ونفور العربية من الزواج بأعجمي ، ولأن حركة الترجمة لم تكن قد بدأت بعد ، والحركة العلمية لم تكن قد بلغت حد الازدهار . وكان فنون الأدباء والشعراء والخطباء والكتاب لا يزالون يعيشون في بلاد العرب ، أو قريبا من البصرة والكوفة ودمشق ، وكانت طبقات الموالى لا تزال تكون نفسها في اللغة ، وتأخذ بنصيبها من الثقافة العربية ، ولم تكن قد نضجت بعد مواهبها وملكانها الأدبية .

فلما جاء العصر العباسي ، وبدأ بناء الحضارة ، وذاعت ألوان الثقافة . وقامت حركة الترجمة على ساقها ، أخذ التأثير الأجنبي يبدو بوضوح في اللغة العربية وآدابها .

وقد ازدهرت الثقافة العربية وعلومها ازدهارا كبيرا في هذا العصر ، سواء علوم اللغة أو الدين أو الأدب أو الفلسفة ، وتلافت بالثقافات الفارسية واليونانية والهندية ، تلافت هذه الثقافات المتعددة، وكان لكل ثقافة منها شعبة وأنصار ، وإن كان كثير من الأدباء قد جمعوا بين مختلف الثقافات .

ولقد كان للإسلام أثر كبير في هذا الامتزاج ، فإن من أسلم من أبناء الأمم الأخرى كان يقبل على قراءة القرآن ودراسته ، وعلى تعلم العربية وآدابها . .

الثقافات الأجنبية وأثرها في اللغة والأدب

أولى هذه الثقافات الأجنبية هي الثقافة الفارسية ، وترجع صلات العرب بالفرس إلى ما قبل الإسلام ، فقد كان الجوار مدعاة الاختلاط ؛ وسبباً لتوثيق الروابط السياسية والاقتصادية .

ولقد أقام الأكامرة إمارة الحيرة على حدود مملكتهم ، لمحايتها من عدوان القبائل العربية ، ولتأمين تجارتهم داخل الجزيرة ، كما امتدت فتوحاتهم إلى أطراف البلاد العربية كاليمن والبحرين ، وكان من نتيجة هذا الاختلاط شيوع كثير من الألفاظ الفارسية في لغة العرب وآدابهم ، كما يتضح ذلك من شعر الأعشى وعدى بن زيد وأمّية بن أبي الصلت .

وتأثر كذلك بعض الفرس بالأدب العربية ، حتى ليقال إن بهرام جور - وهو فارسي قديم - تعلم في الحيرة ، وأخذ الشعر عن العرب ، ونظمه بالعربية والفارسية .

فلما جاء الإسلام خضعت بلاد الفرس للحكم الإسلامي ، وهاجرت القبائل العربية إلى هذه البلاد ، وهاجر الفرس كذلك إلى البلاد العربية ، وحذق الكثير منهم اللغة العربية وعلومها وآدابها ، فكانوا صلة بين آداب الفرس والعرب .

ثم زاد اتصال الأمتين منذ قامت الدولة العباسية بمساعدة الموالى من الفرس ونقلت الخلافة إلى بغداد ، وأنشئ منصب الوزارة وجعل في الغالب وفقاً على النبغاء الأذكياء من الفارسيين .

ولقد جدد الوزراء والكتّاب الفرس في نشر ثقافتهم وآدابهم والتكئين

لمغارفهم في البيئة العربية ، حتى صار الإسلام بهذه الثقافة والتكئين من تلك الآداب مما يرفع قدر الأديب ، ويجعله ملحوظ المكانة مرموق المنزلة . فإذا كان مطلعاً على تاريخ الفرس وأنظمتهم في الحكم وطرقاتهم في السياسة ، اشتدت الرغبة فيه وكثرت الحاجة إليه .

يقول عبد الحميد الكاتب من وصيته إلى الكتاب : « واعرفوا أيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم على ماتسمون إليه بهممكم ، ، وقال الرشيد للكسائي معلم بنيه : « رونأ من الأشعار أعفها ، ومن الأحاديث أجمعها لمحاسن الأخلاق ، وذاكرنا بآداب الفرس والهند ، .

وأصبح للثقافة الفارسية في بغداد والحوضر العربية مقام كبير ، زاد من شأنه وعظم من خطره حرص الوزراء والكتاب وأرباب النفوذ ممن نبتوا من أصول فارسية على التكئين لها وإشاعتها ، ثم حركة الترجمة الواسعة من الفارسية إلى العربية .

ويظهر أثر الثقافة الفارسية في لغة العرب فيما يلي :

١ - الألفاظ الفارسية التي عربت ونقلت إلى العربية ، وهي كثيرة لاحصر لها ، مثل الفالوذج لما يسمى عندنا « بالوذة » ، واللوزينج (١) ، ، والجوزينج لنوع من الفطائر بحشى باللوز أو الجوز ، والسكاخ وجمعه كواخ وهو مشه للطعام يتخذ من دقيق ولبن وملح ويجفف ، والطباهجة (٢) لطعام من يرض وبصل ولحم ، والسكباج لمرق يعمل من اللحم والخل وأصلها سكبيا وسك بمعنى خل وبابمعى طعام . . إلى غير ذلك من أسماء الأطعمة .

(١) في اللسان : هي من الحلوى شبه القطائف .

(٢) هو اللحم المشرح في القاموس ، وفي شفاء الغليل للشهاب الخفاجي : هو السكباب ، وفي اللسان : ضرب من قلى اللحم .

ومثل : الدوشاب وهو نبيذ النمر ، والجلاب لماء الورد ، والمسطار لخرقة حلوة ، قال الأخطل : « حمراً عيونهم من المسطار ، وغير ذلك من أسماء الأشربة .. ومثل السمور (١) والسنبجاب ، والخشنشار لطير الماء .

ومثل : الدار صيني ، ومعناه شجر الصين ، والجلنار وهو زهر الرمان ، والبستان معرب بوستان و « بو ، معناها رائحة و « ستان ، معناها موضع ، والسكريا ، والتوت ، والأذريون لنور أصفر معرب آذركون أى لون النار ، وكانت الفرس تتفاءل به ؛ إلى غير ذلك من أسماء النباتات .

ومثل : الأسطراب (٢) ، والزيج لخيطة البناء ، والمهندز ، والزئبق ، والإكسیر ، والمغنطيس ، والزرنیخ . . وغير ذلك من مصطلحات العلوم والصناعات .

ومثل : البربط للعود ومعناها صدر العود لشبهه به - وبر بمعنى صدر - ولهم الزير وهما من أوتار العود ، والطيلسان لما يلبس فوق الكتف ، والدرفس العلم الكبير والعسكر ، والتخت (٣) لما توضع فيه اثياب ، والدهقان لرئيس القرية ، والدورق لمكيال الشراب كما في شفاء الغليل ، وفي القاموس المحيط : هو الجرة ذات العروة ، والبيارستان لموضع علاج المرضى وبيار معناه مريض واستان موضع . إلى غير ذلك من الأسماء الفارسية العربية .

وهكذا أخذ العرب كثيراً من السكلمات الفارسية وصقلوها بما يتفق ولسانهم . وكان هذا التعريف موجوداً منذ العصر الجاهلي ولكنه زاد وتما في عصر نفوذ الخلفاء العباسيين .

(١) دابة يتخذ من جلدها فراء

(٢) آلة لقياس ارتفاع الكواكب عند الفلكيين . . وتعرف بواسطة ذلك الأوقات .

(٣) هو الدولاب

٢ - قيام اللغة العربية بمقتضيات الملك والسياسة والحضارة ، بتأثير الثقافة الفارسية ، التي زادت في ثروة العربية ، وجعلتها أفدر على النهوض برسالتها ، وبعثت فيها دماء التجديد والقوة والحياة بزيادة الألفاظ اللغوية عن طريق التعريب والتوسع في مدلولات الألفاظ العربية ، ووضع مصطلحات العلوم .

٣ - ترجمة كثير من المؤلفات الفارسية في الأخلاق والآداب والسياسة والطب والحكمة والفلسفة إلى اللغة العربية ، مما كان له أثره في زيادة مادة اللغة العربية وأغراضها ومعانيها وأفكارها .

وأثرت كذلك الثقافة الفارسية في الأدب العربي تأثيراً كبيراً يظهر بوضوح فيما يلي :

١ - كانت زعامة التجديد في الأدب العربي شعره ونثره في عصر نفوذ الخلفاء العباسيين معقوداً لواؤها بيد المثقفين بالثقافة الفارسية والعربية ، فعبد الحميد الكاتب وابن المقفع هما إماما التجديد في النثر في هذا العصر ، وبشار وأبونواس شقا طريق التجديد للبولدين في الشعر . . وكان نتاج العرب الذين يجيدون الفارسية والفرس الذين يجيدون العربية يجمع خير مافي بلاغات العرب والفرس جميعا من معان وخيالات وأساليب ، لذلك أحدثوا آثاراً واسعة في الشعر والنثر ، فجددوا في المعاني والخيالات والأغراض وطرق الأداء ، وبعد أن كان الأدب في عهد بني أمية عربياً خالصاً ولم يكن للفرس إلا مدارسته وحفظه وروايته ، أصبح في عهد بني العباس يزدان بأحلى وأروع مافي أدب الفرس من معان وأخيلة فتمددت الأغراض واتسع مجال التفكير والخيال وظهر التأنق في التعبير ، مع المحافظة على فصاحة العربية والأخذ بأساليبها ، ويقول الجاحظ عن موسى بن سيار وهو أحد من حذق الفارسية والعربية وأشهر القصاص في هذا العصر : « كان من أعاجيب الدنيا وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ،

ومثله كثير من أجادوا اللغتين ، وجمعوا بين الثقافتين : كابن المقفع وسهل
ابن هارون والفضل بن سهل وسوام ، من كان لهم فضل كبير في رقى الآداب
العربية ، واقتباس المحسنات البديعية ، واتساع الخيال ، واستحكام المعاني
والإبداع والاختراع والتجديد فيها .

وكانت للفرس حكم وأمثال وتصويرات بديعة وأخيلة دقيقة ، وضع
ذلك كله تحت أعين العرب ، وكانت المعاني الفارسية ترشد العربي إلى أمثل
طرق التصوير والتعبير ، وكان الشعراء ينظمون ما يتسرب إليهم من الصور
الفارسية ، كان كسرى أنوشروان مشتهراً بالزرجس ، وكان يقول : « هو
ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر ، فقال الشاعر :

وياقوتة صفراء في رأس درة مركبة في قائم من زبرجد
كان بقايا الطل في جنباتها بقية دمع فوق خد مورد

وكان أردشير بن بابك يصف الورد بأنه در أبيض وياقوت أحمر على
كرسي زبرجد أخضر تتوسطه شذور من ذهب أصفر له رقة الخمر ونفحات
العطر ، فقال محمد بن عبد الله بن طاهر :

كأنهن يواقيت يطيف بها زمرد وسطه شذر من الذهب
فاشرب على منظر مستطرف حسن من خمرة مزة كالجر في اللهب

وكان ابن الرومي يأخذ حكم بهرام جور فينظمها شعراً عربياً . ويقول
بور جمهر : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق فإنها لاتبقى ، وإذا أدبرت عنك
فأنفق فإنها لاتبقى ، فقال الشاعر العباسي :

فأنفق - إذا أنفقت إن كنت موسراً وأنتق - على ما خيلت - حين تعسر
فلا الجود يفي المال والجد مقبل ولا البخل يبقي المال والجد مدبر

وقيل لابن المقفع : لم لاتطلب الأمور العظام ؟ فقال : رأيت المعالي
مضوبة بالمسكاره ، فانتصرت على الخول ضناً بالعافية ، فأخذه العتاي فقال :

وإن جسيمات الأمور مشوبة بمستودعات في بطون الأساود (١)
وكان العتابي الشاعر لصلته بالثقافة الفارسية جيد المعاني والأخيلة ،
وسئل لم كتبت كتب المعجم ؟ فقال : وهل المعاني إلا في كتب المعجم ،
فالبلاغة لنا والمعاني لهم .

ويقول أبو هلال العسكري في رسالته : « التفضيل بين بلاغتي العرب
والمعجم » : « للفرس أشعار لا تضبط كثرة ، ولليونانيين أشعار دون الفرس ، .
٢ - هذا إلى ما جد من فنون أدبية بتأثير الامزاج بين العرب والفرس
وانتشار الثقافة الفارسية ، كالأدب القصصي ، وأدب الزهد ، وأدب المقامة ،
وسواها ، على ما أشرنا إليه سابقاً .

وإن كنا لانكر ما سرى إلى العربية بتأثير الثقافة الفارسية ، من
ضعف المملكات ، وكثرة العناية بالبديع الذي يحول دون البساطة والاعتماد
على الطبع .

وثانية هذه الثقافات هي الثقافة الهندية فلقد اتسعت الفتوحات الإسلامية
وانسابت جيوش العرب المظفرة في كل مكان ، وفتح محمد بن القاسم الثقفي
السند في عهد الوليد بن عبد الملك وذلك عام ٥٩١ هـ .

وقد اختلط بعض الهنود بالعرب ، ودخل العرب بهض جهات من
الهند ، وبدأ يظهر أثر هذا الاختلاط . فتسربت الثقافة الهندية إلى العالم
العربي ، وترجمت بعض مصادرها وأصولها إلى اللغة العربية مباشرة
بواسطة العرب الذين تعلموا العربية ، وعن طريق الثقافة الفارسية التي كانت
قد ألهمت من قبل الكثير من المعارف الهندية .

(١) الحيات العظيمة .

وكانت الهند تشتهر بالحساب وعلم النجوم والطب والصناعات والتأثيل والنحت ، وبالحكمة ، التي كان الهنود معدنها ، وبالآلهيات والرياضيات .

ويقول القفطي في « أخبار الحكماء ، ١١ » : الهندم الأمة الأولى ، كثيرة العدد . نخمة الممالك . قد اعترف لها بالحكمة ، وأقر بالتبريز في فنون المعرفة كل الملل السالفة وكان الصين يسمون ملك الهند ملك الحكمة وينبوع العدل والسياسة ، ولبعد الهند من بلادنا قلت تأليفهم عندنا ، فلم يصل إلينا إلا طرف من علومهم ولا سمعنا إلا بالقليل من علمائهم .

وقد استقدم يحيى بن خالد البرمكي بعض الأطباء من الهند أمثال منسكة . ونبغ من الموالى الذين جلبوا من الهند وغنموا في الحرب ووزعوا على الجند ومن أولادهم : الشعراء والأدباء والعلماء ؛ كأبي عطاء السندی الشاعر ، وكأبي الأعرابي العالم اللغوي المشهور ، وسواهما .

وللهنود نحو وصراف ، ولهم ولع بالشعر ونظمه ، ونقلت عنهم آراء في البلاغة والأدب . قيل لهيلة الهندي : ما البلاغة عندكم ؟ فقال : عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها لك ، ولم أعالج هذه الصناعة فأتق من نفسى بالقهام بخصائصها وتلخيص اطراف معانيها . فترجمت فإذا فيها ما ترجمته « أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الأمة بكلام السوقة .. الخ (٢) .

وعرف العرب من عقائد الهند ومذاهبها وعلومها الكثير ، واستعانوا بالهنود في الفلك ..

وعن الهند أخذ العرب كذلك لعبة الشطرنج ، ونظموا فيها الشعر الكثير الجميل ، قال ابن الرومي في أبي القاسم التوزي الشطرنجي من قصيدة طويلة :

(١) ص ٢٦٦ المدرج . (٢) ٧٩ : ١ البيان والتبيين للجاحظ .

غلط الناس : لست تلعب بالشطرنج لكن بأنفس اللعباء
لك مسكر يدب في القوم أخفى من ديب الفناء في الأعضاء
وأظن اقتراسك القرن فالقرن مناي وشيكة الإرداء
وأرى أن رقعة الأدم الأسمر أرضاً جللتها بدماء
تقرأ الدست ظاهراً فتؤيد به جميعاً كاحفظ القراء

على أن أثر الثقافة الهندية في لغة العرب كان ضئيلاً يتمثل في هذه
الألفاظ الهندية التي عربت ، مثل : الزنجبيل ، وكافور ، والابنوس ،
والبيغاء ، والخيزران ، والأهليلج ؛ وسوى ذلك من أسماء الحيوانات
والنباتات المنقولة من الهندية .

أما أثرها في أدب العرب فيبدو فيما اقتبسته الآداب العربية من القصص
والحكيم الهندية المختلفة . ولقد تأثر الشعراء بحكم الهند وأمثالهم وأقوالهم في
الفلك ، فهذا أبو نواس يقول :

قل زهير إذا حدا وشدا أقل وأكثر فانت مهذار
سختت من شدة البرودة حتى صرت عندي كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفى كذلك الثلج بارد حار

قال ابن قتيبة : وهذا الشعر يدل على نظرة في علم الطبائع لأن الهند تزعم
أن الشيء إذا أفرط في البرد عاد حاراً مؤذياً .

ومن مظاهر تأثير الشعر بأقوال الهنود في الفلك قول أبي نواس في الخمر :

تخيرت والنجوم وقف لم يتمكن بها المدار

يريد أن الخمر تخيرت حين خلق الله الفلك ، وأصحاب الحساب يذكرون
أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفة في برج ثم سيرها من هناك
وأنها لا تزال جارية حتى تجتمع في ذلك البرج الذي ابتدأها منه ، وإذا عادت
إليه قامت القيامة .

وظهرت كذلك آثار هذه الآراء في غير الشعر ، يقول ابن قتيبة :
قرأت في كتاب من كتب الهند : « شر المال ما لا ينفق منه ، وشر الإخوان
الحاذل ، وشر السلطان من خافه البريء ، وشر البلاد ما ليس فيه خصب
ولا أمن ، .

إلى غير ذلك مما أفاده الأدب العربي من الثقافة الهندية .

وثالثة هذه الثقافات هي الثقافة اليونانية ، وحين ازدهرت النهضة العلمية
في العصر العباسي ، وشجع العلماء ترجمة العلوم ، أخذ السريان يترجمون
الثقافة اليونانية من لغتهم إلى العربية ، كما أذاعت السكتب الفارسية المترجمة
الكثير من المعارف اليونانية . . وبذلك بدأت صلة العرب بثقافة اليونان
وعلومهم وفلسفتهم وحكمتهم (١) ، ثم نقل إلى العربية العديد من مؤلفات
اليونان كما أسلفنا .

ويبدو أثر الثقافة اليونانية في لغة العرب فيما اكتسبته من ألفاظ متعددة
عربت مثل : « البرجد ، وهو كساء غليظ مخطط ، والزبرجد ، والياقوت ،
والزمرد ، والقيراط ، والأوقية ، والبلغم ، والبرقوق ، واللويبا ، والترمس ،
والجائليق ، والبطريق .

ومثل : إيساغوجي بمعنى المدخل وسموا به مقدمات المنطق وهي الكليات
الجنس : من الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام . ومثل السفسطة
والفلسفة بمعنى الحكمة ، والهيبولي بمعنى الأصل ، والموسيقا ، والقانون .
إلى غير ذلك من أمثال هذه الألفاظ التي لا عد لها .

(١) كانت مراكز الثقافة اليونانية في الشرق كثيرة ، ومن أشهر هذه المراكز :
الاسكندرية - حران بالجزيرة - جنديسابور .

وقد أثر المنطق اليوناني في الفكر العربي تأثيراً كبيراً إذ أصبح له سلطان على العقول فاصطبغت به طريقة الجدل والبحث والتعبير والتدليل . كما كان للفلسفة اليونانية والطب والرياضة أثر كبير في عقول المسلمين .

وكان المتكلمون أكبر عامل في امتزاج الثقافة اليونانية بالعربية ، وصلة بين فلسفة اليونان وأدب العرب ، فقد قدموا معاني جديدة للأدباء والشعراء لم يكن لهم دراية بها .

على أن الأثر البارز للثقافة اليونانية في أدب العرب يتجلى في نقل بعض الحكايات والأسفار القصيرة وترجمة بعض الحكم والأمثال الخلقية والمعاني الفلسفية فتأثر بها الأدب العربي واكتسب منها سعة في الخيال وتهذيباً في الفكر .

ويهمنا أن نقرر أن الأدب العربي قد أفاد من المعارف اليونانية ولم يستفد من الأدب اليوناني نفسه ، إذ لم تترجم إلى العربية روايته لما أسلفنا .

وكان الباعث على الترجمة من اليونانية إلى العربية عوامل كثيرة ، منها أن حياة الحضارة في الدولة العباسية استلزمت أن تسند بالعلم ، ومنها الرغبة في استخدام الفلسفة والمنطق للدفاع عن الدين ، ومنها غلبة اللغة العربية على الأقطار المفتوحة ، فكان لا بد أن تنقل علوم هذه الأقطار القديمة إلى العربية ، ومن أهم بواعث هذه الترجمة ميل بعض الخلفاء العباسيين إلى العلوم الفلسفية كالمأمون . .

الشعر في العصر الاول

تقديم :

إذا كانت آثار الثقافات المترجمة قد صبغت الحياة العقلية والاجتماعية في هذا العصر بأصباغ جديدة ، فقد كان أثرها في الأدب واللغة متفاوتا ، فظلت مناهج الأداء والأساليب ولغة السكتاب والشعر قريبة مما كانت عليه من قبل ، من حيث نضجت معاني السكتاب وخيالات الشعراء ، وعمقت صياغتهم الذهنية وتفكيرهم العقلي ، إلى حد كبير .

وإذا كانت الثقافات الحديثة قد طغت موجتها على كثير من نواحي الحياة والتفكير ، فإن العربية كانت أعز من أن تخنى رأسها للعواصف الجارحة التي تهدم من صرحها الشاهق ، أو تززع من ثقتها القوية بالنفس . وظلت كما هي لغة التفكير والأدب ، وإن سارت حركة الرقى ، ولم تقف جامدة ضعيفة الإحساس بالحياة .

وإذا كانت الفلسفة اليونانية قد وضعت موضع العناية بالترجمة . فإن الأدب اليوناني لم يترجم منه شيء ، ولم يتأثر به الأدب والشعر في نهضتهما الوثابة في هذا العصر الحافل (١) ، لتباين الأذواق ، ولاعتداد العرب بنفسهم ولغتهم وأدبهم ، ولاختلاف حياة العرب واليونان التي يصورها الأدب ويكون أوضح مثال لها ، وعلى أية حال فإن الثقافة اليونانية قد صبغت عقلية الأدباء والشعراء بآثارها العميقة في التفكير والخيال والمعاني (٢) وطرافة التقسيم .

(١) ٤٥ بارتولد ، ٦٦ الفن ومذاهبه - ٢٨٧ التوجيه الأدبي - ٢٣٥ الأدب العباسي لمحمود مصطفى - ٢٨٠ ج ١ ضحى الإسلام - ٢٤٤ الزيات .

(٢) وقد أفاد الأدب العربي من القصص والحكم اليونانية التي انتشرت في الثقافة الإسلامية وعربت ، كثيرا من الألفاظ اليونانية .

وتأثير الثقافة الهندية في الأدب العربي كذلك كان طفيفا لا يبدو تلك الأفكار التي كانت تتساقط من علم النجوم أو الرياضة في الشعر ، وهذه القصص الهندية التي أولع العرب بها ، ونقلوها إلى العربية ككليلة ودمنة الذي نقلوه من الفارسية إلى لغتهم ، وتلك الحكم التي تشبه الأمثال العربية ، وهذه الألفاظ التي عربوها وأدخلوها إلى العربية .

وأثر الفرس في الأدب العربي كبير ، فهم الذين أشاعوا فيه اللحن والمجون ووصف الراح ، وأدب الزهد تأثر كثيرا بنزعات الفرس ، وعنه نقلت آثار كثيرة من الأدب القصصي ككليلة ودمنة وهزار أفسانه ، والتوقيعات كان للفرس فيها أثر كبير ، وقد ترجمت عن الفارسية توقيعات كسرى ، هذا إلى أنه كان للفرس شعر وأمثال وأدب كثير وضع تحت أعين العرب ، وكان للعرب الذين يجيدون الفارسية وللفرس المتعربين مجال كبير في الأدب كالعنتابى وأبى نواس وبشار وسواهم ، فأخرجوا أدبا عربيا فيه معاني الفرس وبلاغة العرب ، وكان الشعراء ينظمون ما يتسرب إليهم من الصور الفارسية ، كان كسرى أنوشروان مشتهرا بالترجمان ، وكان يقول :
هو ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر ، فقال الشاعر :

وياقوتة صفراء في رأس درة مركبة في قائم من زبرجد
كأن بقايا الطل في جنباتها بقية دمع فوق خد مورد (١)

وكان أردشير بن بابك يصف الورد بأنه در أبيض وياقوت أحمر على كرسى زبرجد أخضر تتوسطه شذور من ذهب أصفر له رقة الخمر ونفحات العطر ، فقال محمد بن عبد الله بن طاهر (٢) :

(١) ٢٣٢ ج ٢ زهر الآداب ، وراجع ص ٧٠ من هذا الكتاب .
(٢) وينسب البيت لأول لعل بن الجهم (٢٣ ج ٢ ديوان المعاني) قال أبو هلال : وهو من قول أردشير : الورد ياقوت أحمر وأصفر ودر أبيض على كرسى زبرجد يتوسطه شذور من الذهب .

كأنهن يواقيت يطيف بها زمرد وسطه شذر من الذهب
فاشرب على منظر مستطرف حسن من خمرة مزة كالجر في اللهب

وأخذ ابن الرومي معنى حكمة إهرام جور (١) فنظمه شعرا (٢). وكان من الفرس كبار الكتّاب الأوائل الواضعين لأساس صناعة الإنشاء (الكتابة الفنية) في الدواوين، وكان منهم شعراء أحدثوا آثارا واسعة في أغراض الشعر ومعانيه، وأوزانه ونوافيه، ونقلوا للخلفاء والأمراء والوزراء كثيرا من آداب الفرس وحكمتهم وأمثالهم وتاريخهم وقصصهم وأسمارهم، مما ظهر أثره في الأدب العربي واضحاً. وإذا كان الأدب في عهد بني أمية عربياً خالصاً في المادة والمعنى، ولم يكن للفرس إلا مدارسته وحفظه وروايته، فقد كان في عهد بني العباس أثرهم أعمق لاني الأسلوب البياني، بل في التفكير والخيال وتأثيرهم تنوعت الأغراض وظهر التناق في النثر والشعر، وطالبت الرفة والدماثة، مع المحافظة على فصاحة العربية والأخذ بأساليبها.

ويمتاز الأدب في هذا العصر بظهور آثار الحياة العقلية فيه، وبصدق تمثيله للحياة الاجتماعية، وبكثرة الحكم وأخبار الزهاد فيه، وبتأليف الكتّاب الجامعة في الأدب كالبيان والتبيين وحيون الأخبار والسكامل والعقد، وبأن الأدب أصبح في هذا العصر صناعة علمية في الإنشاء والتأليف، وأظهر ما يتجلى فيه إبداع التصوير واتساع الخيال والمبالغة الشديدة والإكثار من الحكمة والمثل والبراهين العقلية. وقد أصاب الأدب كساد وانصرف الناس إلى الفلسفة وعلومها عما يبسطه ابن قتيبة في مقدمة أدب الكتّاب بوضوح.

(١) فارسي قديم تعلم العربية في الحيرة وشعر بها، ويقول شمس الدين الرازي في كتاب المعجم: إنه أول من نظم شعراً فارسياً وأخذه عنه العرب وكان علماء الفرس يستهجنون منه قرص الشعر.

(٢) ٢٧٨ ج ٢ وما بعدها زهر الآداب.

ولقد كان ظهور الموالى ، وعلو شأنهم (١) مما أحيى في نفوسهم الشعور القومى ، وذكروهم بما كان لهم من مجد بائد ، وعز قديم ، فعلنت الشعوية ، تنفس عن غيظها المسكظوم طول عهد الأمويين ، وتمجد المعجم بإعلان ما أثرهم ووزرى على العرب بتلمس البئالب لهم ، وتسجيل ذلك فى الشعر ، من أمثال بشار ، والمتوكل ، والخريمى ، ومهيار ؛ وفى الكتب يضعها أمثال أبى عبيدة ، والهيثم بن عدى ، وسعيد بن حميد ، وعلان الشعونى ، وانبرى لهؤلاء من الشعراء والعلماء من يرد عليهم ويدفع عن العرب ، وينتصر لهم ، أمثال محمد ابن يزيد الأموى ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، بل لقد حاول الجاحظ أن يهدم العصية الجنسية بما عالجها فى رسالته مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، حين استشرى شرها ، وكاد يوقع الفتنة فى صفوف الجند أيام المعتصم .

وتحيز المال فى جانب الحكام والامراء ، جعل الأدب يستمر فى اتجاهه القديم إلى ناحيتهم ، ويسير فى ركابهم ، يعلى من شأنهم ، ويتغنى بذكرهم ، وغلب ذلك على أكثر أدب العصر ، وبخاصة نتاج أولئك الذين اتصلت أسبابهم بالقصور ، وذاقوا فى رحابها حلوة النعيم .

وبعد ذلك العصر استمر الأدب فى النمو والازدهار على الرغم من انقسام الخلافة وضعفها . . ويرجع هذا الازدهار إلى تنافس الدول والإمارات الإسلامية فى تشجيع الابداء والشعراء وتمثلهم لبغداد وخلافة بغداد فى العمل على إحاطة عروشهم بالمفكرين وأعلام الشعر والأدب .

وانغماس الابداء فى الحضارة ، ومشاركتهم فى لهرها الخليع ، ومجونها السافر ، مكن لهم من تصويرها فى جميع جوانبها ، فوصفوها فى مظاهرها الرائعة وفى مبادئ الوضعية ، وملا شعرهم بالتحريض على متع الحياة وتحسين الخلاعة والمجون فى صراحة مكشوفة ، وعرى فاضح ، وابتذال مهين ، ومن

(١) الأدب العربى الأستاذ أحمد شعراوى .

شاء فليرجع إلى الأغانى ، أو يتيمة الدهر ، أو دواين كثير من الشعراء ،
ليستطلع ذلك في شعر بشار ، ومطيع بن إياس ، ووالبة بن الحباب ،
ومسلم بن الوليد ، وأبي نواس ، وحسين بن الضحاك ، وغيرهم من الشعراء .

والزهد ، وهو حركة تقاوم هذه المادية الجارفة ، وتصعد عنها بالتنفير
من الدنيا والترغيب في الآخرة ، والتذكير بالموت والحساب ؛ وجد له مجالاً
في تنف لبعض الشعراء والعلماء ، وفي كثير من شعر أبي العتاهية ، وفي كل
ما صدر عن الزهاد والمتقشفين من أقوال . . وكذلك قسوة الحياة
وشقاؤها ، وشظف العيش ، ورق المشرب ، انعكست صورها في كتب
المقامات ، قصصاً للكادحين ، يبتالون على العيش بالمسكر والخداع ، وفي أدب
المحرورين ، سخطاً على الزمان ، وأنينا من البؤس والحرمان . واضطراب
نظام الحكم ، وفساد أدائه ، لم يعدم من ينعى عليه ، ويندد به ، أو من يروم
علاجه ، ويحاول إصلاحه كابن المقفع .

ولو رجعنا إلى ما وصفناه من معالم هذا العصر ، نبحث عن أشد الظواهر
الاجتماعية تأثيراً في الحياة ، ما وجدنا أقوى من التحام العرب بالموالى
وامتزاجهم على الوجه الذى بيناه ، من ظهور الموالى وقوة نفوذهم . فهم
الذين أثروا في المجتمع ، ولو نوا الحضارة ، بما ورثوا عن دولهم الدائلة ،
وحضارتهم الزائلة . وصبغوا الدولة بصبغتهم ، وأدخلوا فيها نظمهم وتقاليدهم ،
وقد تلبه إلى شيء من هذا بعض من عاصر العهد وشهد مجارى الأمور فيه ،
وهذا أبو حيان التوحيدي يصور ذلك كله فيقول : « ضعف أمر الدين ،
وتحلل ركنه ، وتداوله الناس بالغبلة والقهر ، فتطاول له ناس من آل الرسول
صلى الله عليه وسلم بالعجم ، وبقوتهم ، ونهضتهم وعادتهم في مساورة الملوك
وإزالة الدول ، وتناول العز كيف كان . . ألا ترى أن الحال استحال
عجماً كسروية وقيصرية ؟ . هذا الربيع - وهو حاجب المنصور - يضرب
من شمت الخليفة عند العطسة ، فيشكو ذلك إلى أبي جعفر المنصور ، فيقول :
أصاب الرجل السنة ، وأخطأ الأدب ، وهذا هو الجهل ، كأنه لا يعلم أن السنة

شرف من الأدب ، بل الأدب كله في السنة ، وهي الجامعة للأدب النبوي
والأمر الإلهي ، ولكنها العزة بالإثم ، وقد سمو آيين العجم أدبا وقدهوه
على السنة التي هي ثمرة النبوة .

تطور الشعر في العصر العباسي الأول

١ - كان الشعر - ولا يزال - صورة المجتمع في كل بيئة ، ومرآة الحياة
في كل عصر ، وسجل الأحداث في كل زمان ذلك لأنه فيض الخاطر ،
ونبع الشعور ، ونبضة الحس ، وخلجة النفس ، وفورة الوجدان ، ولأن
الشعراء أبلغ من الكتاب استجابة لمظاهر الحياة ، وأسرع تجاوباً مع أحوال
المجتمع ، وأشد تأثراً بأحداث البيئة ، وأعمق شعوراً بأسرار الطبيعة ، وأقوى
إحساساً بنوازع الآمال والآلام .

ومن هنا نرى الشعر في كل زمان ومكان ، صدى للحياة ، وصورة
للمجتمع ، وانهكاساً للآمال والمشاعر ، وتاريخاً صحيحاً لعصره وعصره ، فهو
في الجاهلية ديوان العرب الذي يسجل مفاخرهم ، ويدون مآثرهم ، ويصور
أساليب حياتهم من حرب وسلم ، ونجعة واستقرار ، وبأس ونجدة ، وحماسة
وفتوة ، ونحو ذلك من ألوان خلقهم ، وأحوال عيشهم . وأنت تقرأه فتجد
في صفحاته صورة البادية ، بوعورة مسالكها ، ووعوثة شعابها ، وخشونة
هضابها ، وترى فيه الرمال والكثبان والرسوم والأطلال ، والأباعر
والغزلان ، والصيد والطراد أكثر مما ترى أي شيء آخر .

وهو في ظلال الإسلام صورة للحياة الجديدة ، يتفاعل معها ويستجيب
لدواعيها ، وتتحوّل أغراضه وألفاظه ومعانيه ، تبعاً لما تقتضيه الدعوة ،
وتأثراً ببيئاتها الحسنة ، وتجاوباً مع ما أتبع للدولة من حظ في الحضارة ،

وما استجد من شئون في السياسة ، وما طرأ من عمران وعرقان . فقرأه قد خاض في العصية ، وجال في السياسة ، وصال في المدح والهجاء ، وأيد وعارض ، وجادل وخاصم ، وجد في ميادين المجدين ، وتكشف في محارب الزاهدين ، وتبذل في مواطن الغزل والمجون مع المترفين الإباحيين .

ومع هذا فإنه لم يبعد كثير أعن منهجه الجاهلي ، لأصالة العروبة، وقرب العهد بالبدوة ، وقلة الحظ من الحضارة ، وندرة الامتزاج بالأعاجم ، والترفع عن خلاطهم ، فلم تتغير مناهجه ، أو تتعدد مذاهبه ، أو تتجدد ألوانه ، إلا بمقدار ما سمح به التغيير الطارئ في مناهج الحياة ، وأساليب العيش ، ومظاهر الحضارة . وهو في جاهليته وإسلامه أنغام شجية تهدد الأشجان وتنه العبرات ، وتستثير المشاعر ، وتستفز العزائم ، وتجمل الحياة .

٢ - وإذا كان هذا شأنه والحضارة معدومة أو محدودة ، وخياله المنحج يخلق في آفاق الجمال ، فيبنى من الصخر قصرأ ، وينبت من القفر زهراً ، ويخلق من الرسوم الدوارس ، شخوصاً وأوانس ، ويصور من البعر المتناثر لآلىء وجواهر ... فما بالك به في العصر العباسي ، والحضارة في الأوج ، والمدنية في القمة ، والطبيعة في جلوة ، والأرض في زينة ، والثقافة متنوعة ، والمناظر متجددة ، وال عمران في عنفوان ؟

لقد اتخذ العباسيون عاصمة ملكهم (بغداد) في ديار الأعاجم ، وامتزجوا بهم كل الامتزاج ، واندمجوا فيهم كل الاندماج . وطولوا ألوان من الثقافات ، وأنماط من العيش ، وأنواع من الخلق وأشتات من العادات والتقاليد . . . فكان لهذا كله أثره في نفوس الشعراء ، كما كان له أثره في نفوس العرب جميعاً ، ووجد الشعراء إلى جانب ذلك من المناظر والمظاهر وألوان الحضارة ما لم يألفه خيالهم من قبل ، فهذه رياض ناضرة ، وقصور شاهقة ، ومناظر

موفقة ، وتلك مجالس مفاكحة وسمر ، ومجال منادمة وطرب ، إلى غير ذلك مما يمد الشعر ويغذيه ويثيره وينميه ، ويجعله يخلق في أرحب أفق وأعلى سماء .

كذلك كان الشعراء أبلغ من تأثر بذلك كله ، وأول من استجاب إلى هذه الحياة الجديدة ، لأن نفوسهم أعلق بالترف ، وألصق بالمدينة . وهم كذلك أقرب إلى الخلفاء ، وأدنى إلى مظاهر الحضارة في قصورهم ولهذا رأينا الشعر يخلق في كل أفق ويغرد فوق كل فن ، فهو ينادم على الشراب ، ويعاقر كؤوس الحباب ، ويفاكه السمار ، ويساجل الأوتار ، وينشد الحسن ، ويهتف بالجمال وهكذا انتقل من الصحارى المجردة ، والخيام المطنبة ، إلى الرياض والغياض والقصور والزهور ، والجداول المترقرة أو المروج المنمقة ، ومطارح اللهو والترف والتعجم .

وكان الشعر إذن كالطائر الصداح ، تخرج لهاته خشونة الحياة ، ويخفق شدوه لفح الهجير ، حتى إذا أشرقت شمس الربيع ، وهبت نسائمه ، وتفتح زهره ، وتضوع عطره ، خفق بجناحه طرباً ، وحلق ماشاء فرحاً ، وابتدع أغانين الشدو والغناء وما العصر العباسي إلا ذلك الربيع .

وهكذا يتطور بتطور الأمة العربية ، ويتدرج مع الحياة الإنسانية ، فيكون في الجاهلية أنغام صبي ، وحماسة فتوة ، وعواطف أثرية وفي الإسلام أناشيد جهاد ، وثوران عصبية ، وأطماع حياة ، ثم يستحير شبابه ، ويكتمل في صدر الدولة العباسية ، فيظهر في شعر بشار وأبي نواس وأضرابهما: عبث شباب ، وأغانى طرب ومظاهر ترف . . . ، (١)

وظهر في هذا العصر تياران في الشعر لكل منهما خصائصه ومميزاته : تيار الشعر البدوي بما يشتمل عليه من خصائص فكرية وفنية ، وتيار الشعر الحضري بما يتميز به من سمات وخصائص . .

وسنفصل الحديث في بعض الأسباب لتطور الشعر في هذا العصر . .

(١) الزيات في تاريخ الأدب العربي ص ٤٧

عناية الخلفاء ومنزلة الشعراء

١ - كان الخلفاء والأمراء في عصر نفوذ الدولة العباسية عرباً ، جرى في عروقهم دم العروبة ، وتواصلت ملكتها ، وسحرتهم بلاغتها ، ورأوا في الشعر مجدهم التليد وفخرهم القديم ، فحرصوا على روايته وإحيائه ، واهتزت أربابهم لسماعه وإنشاده ، وخلق أفئدتهم القول الرائع ، والبيان الفائق ، واحتلت عطاياهم المدح الجيد ، واثناء البليغ . ولهذا قربوا الشعراء ، وفرضوا لهم في بيت المال ، وأغدقوا عليهم العطايا والصلوات ، وأغرقوهم بالمنح والهبات حتى تجاوزت آمالهم انتكسب بالشعر للعيش والسكفاف ، إلى انثراء الواسع والغنى السابغ واختران المال ، والأخذ بأكبر نصيب من الرفاهية والبذخ والنعيم . حتى رأيناهم يقتنون الثروات الواسعة . ويسامون الملوك في المنزلة ، ويسارون ذوى اليسار في نعيم العيش ، وترف الحياة ، وامتلاك القصور والضياع .

قالوا : إن سلماً الخامر مات عن خمسين ألف دينار ، ويحدثنا صاحب الأغاني أنه كان يأتي باب المهدي على البرذون قيمته عشرة آلاف درهم ، ولباسه الخز والشى ، وما أشبه ذلك من اثياب الغالية الثمن ، ورائحة المسك والطيب الغالية تفوح منه .

ومروان بن أبى حفصة أعطى مائة ألف دينار غير مرات ، وكان أبو نواس محظوظاً لا يدري ما يصل إليه ، وكان يتساجل في الإنفاق هو والعباس بن الأحنف صريع الغواني ، وكان البحتري ملياً ، قد فاض كسبه ، وكان يركب في موكب من عبده (١) .

وهكذا تفيض كتب الأدب بما لانكاد نصدقه اليوم عن ثراء الشعراء وما كانت تستدره وقام السحرية من مال . ولم يقف الخلفاء والأمراء عند سماع الشعر ، والارتياح لإنشاده ، والعناية بأصحابه ، بل كان لهم به بصير وخبرة ، ومشاركة ، ومعرفة ، وحذق وإلمام . فهذا المنصور يفجعه الدهر في ابنه جعفر ؛ فتستبد الرعدة بقلبه ، ويسد الحزن عليه منافذ السلوى ، فلا يجد سيلا للعزاء إلا قصيدة أبي ذؤيب في رثاء أبنائه ، فيطلب إلى الربيع من ينشده من أهل بيته :

أمن المنون وريها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع ؟

فلا يجد الربيع من يحفظها ، فتكون مصيبته في أهل بيته أشد من لوعته في ابنه ، ثم يبعث إلى القواد والولاة ، حتى يصادف الربيع شيخا مؤدبا ، فيذهب به إلى المنصور ، فينشده المطلع مائة مرة ، حتى إذا بلغ قول أبي ذؤيب : « والدهر لا يبقى على حدثانه » ، عرف موطن الإبداع . فاستعاده مائة مرة ، وهو يقول : سلا أبو ذؤيب عند هذا القول .. وكذلك كان المأمون ، وسبأني من أخباره ما يدل على ذوقه وبصره .

وكان الناس يرفون للشعر منزلته عند الخلفاء ، فيواجهون به أخرج المواقف ، التي يتحاشون المواجهة فيها . كالذي حدث من نقض نقفور ملك الروم عهده مع الرشيد ، بعد أن خضع له وبذل الجزية . فلم يجرؤ أحد على إخبار الرشيد ، حتى بذل يحيى بن خالد الأموال للشعراء على أن يخبروه . فتقدم إليه شاعر من أهل جدة يكنى أبا محمد ، وأنشده :

نقض الذي أعطيته نقفور فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه فتح أذاك به الإله كبير

فلما انتهى من قصيدته ، قال الرشيد : أوقد فعل ؟ ثم غزاه وفتح هرقة وكان الرشيد شاعرا كغيره من الخلفاء العباسيين ، الذين شاركوا في

النهضة الشعرية بقول الشعر ، إلى جانب عنايتهم به ، وإغداقهم على قائله .
يروون أن الرشيد قال في قينته :

تبدى صدوداً وتخفى تحته مقمة فالنفس راضية والطرف غضبان
يا من وضعت له خدى فدله وليس فوقى سوى الرحمن سلطان
وقال في رثاء جارية :

فارت عيشى حين فارقتها فما أبالى كيفما كانا
قد كثر الكلام ولكنتى لست أرى بعدك إنسانا
وقال في جواربه الثلاث : سخر وضياء وخنث :

ملك الثلاث الأنسات عنانى وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعنى البرية كلها وأطيعن وهن فى عصيانى
ماذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطانى

أما الذى لاشك فيه فهو أنه كان أدق حسا ، وأنى ذوقا ، وأصح فهما
وبصرأ به من سواه ؛ ولقد أنشد النعمانى يوماً فى صفة فرس :

كان أذيبه إذا تشوفا قادمة أو قلباً محرقا
فقال له : دع كان ، وفل تخال ، حتى يستوى الشعر .

وقالوا : إن المأمون وصف الشطرنج بقوله :

أرض مربعة حمراء من آدم ما بين إلفين موصوفين بالكرم
هذا يغير على هذا وذاك على هذا يغير وعين الحرب لم تم
فانظر إلى الخيل قد جاشت بمركة فى عسكرين بلا طبل ولا علم

ومنزلة مثل بشار وأبي نواس وأبي تمام والبحترى فى عصرهم معروفة
عما يدل على أنه كان عصر ازدهار للشعر ، وعناية شديدة من الدولة والشعب
بنهضته ، بل لقد كان الكثير من الأمراء وأبناء الخلفاء شعراء مجيدين ،

من مثل إبراهيم بن المهدي وعبد الله بن المعتز وغيرهما ، ويفيض الصولي في قسم من أقسام كتابه الأوراق ، في ذكر الأمراء وأولاد الخلفاء من الشعراء ، ويقال إن المهدي حفظ شعر ذى الرمة في صباه ، ولولديه جمع المفضل الضبي مختاراته «المفضليات» .

هذا إلى سعة الثقافة الأدبية ، ونمو العلوم العربية ، واتساع اللذوق الأدبي باتساع المعرفة والاطلاع ، وغير ذلك ، مما كان له أثره في زيادة العناية بالشعر والشعراء في هذا العصر .

ومن الأدلة على فطنتهم بالشعر وتذوقهم له ، ما يروى عن الأصمعي (١) أنه قال :

كان أبو عمرو بن العلاء (٢) وخلف الأحمر (٣) يأتیان بشاراً (٤) ؛ فيسلمان عليه بنغاية الاعظام ، ثم يقولان : يا أبا معاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتي وقت الزوال ثم ينصرفان ؛ فأتياه يوماً فقالا : ما هذه القصيدة التي أحدثتها في ابن قتيبة (٥) ؟ قال : هي التي بلغتك ، قال : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب ، قال : نعم إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب ، فأحبت أن أورد عليه ما لا يعرف ؛ قال : فأنشدها يا أبا معاذ فأنشدهما :

(١) عبد الملك بن قريب الإمام في اللغة والأدب ، توفي عام ٢١٦ هـ وتجد الرواية في الأغاني : ص ٤١ ج ٣ ، وفي الدلائل ص ١٠ وفي المفتاح ص ٧٥ .
(٢) وفي الأغاني : خلف بن أبي عمرو بن العلاء . وأبو عمرو من أئمة اللغة توفي عام ١٥٤ هـ وخلفه ابنه توفي في أواخر القرن الثاني الهجري .
(٣) من أئمة اللغة والشعر والأدب توفي عام ١٨٠ هـ .
(٤) أبو معاذ امام الشعراء الحداثين توفي عام ١٦٧ هـ .
(٥) قائد من كبار القواد المشهورين في بدء عهد الدولة العباسية .

بكرًا صاحبي قبل الهجير إن ذاك النجاح في التبيكير^(١)

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان : إن ذاك النجاح بكرًا فالنجاح ، كان أحسن ، فقال بشار : إنما بنيتها أعرابية وحشية ، فقلت : وإن ذاك النجاح ، كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت (بكرًا فالنجاح) كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة ، قال : فقام خلف فقبل بين عينيه ؛ فهل كان ماجرى بين خلف وبشار بمحضر من أبي عمرو بن العلاء - وهم من نخلة هذا الفن - إلا للطف المعنى في ذلك وخفائه؟^(٢)

ولم تكن السياسة وحدها هي الباعث على الاحتفال بالشعر ، بل التلذذ به والتأدب بآدابه وتعرف أخبار الماضين فيه ، ولهذا كانوا يذنون مجالس الشعراء ويأمنون بهم في خلوتهم ويقترحون عليهم نظمهم فيما يجول بخواطهم ويسألون العلماء به عما يستغلق من المعاني ويستقدمون الرواة للسؤال عن بيت مفرد ليصلوه بقصيدة أو ينسبوه إلى قائله .

سأل الرشيد أهل مجلسه مرة عن الصدر لقول الشاعر : « ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه ، فلم يعرفه أحد وكان الأصمعي مرصداً فأرسل إليه إسحاق الموصلي وبعث معه ألف دينار فأرسل إليه إن هذا عجز بيت لأبي النشاش وصدرة (وسأله أين الرحيل وسائل) من قصيدته :

إذا المرء لم يسرح سواما ولم يرح سواما ولم تعطف عليه أقاربه
والرشيد من أكثر الخلفاء بحثاً في الشعر ، سأل أهل مجلسه مرة عن معنى قول الشاعر :

(١) البيه تجمده في الدلائل ص ٢٢١ و ٢٤٣ وفي المطوك ص ١٠٢ وفي المفتاح ص ٧٥
(٢) راجع ٩٦ و ٩٧ : شرح الإيضاح للخطيب القزويني بقلم محمد عبد المنعم خفاجي

قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً ودعا فلم أر مثله مخذولاً
فتجادل الأصمعي والسكسائي ولجأ بين يديه في الخصومة وكان رأيه الفاصل
بينهما ... وأعطى الفضل خانماً قيمته ألف وستائة دينار مكافأة على أحسن
بيت قيل في الذئب .. وكان المأمون على غراره ، ولجأ ابن الجهم ولاية من أجل
بيت طلبه فوجده عنده ، وكان المأمون يباليغ في إكرام الشعراء ويعفو عنهم
وإن تطاولوا عليه ، دخل إبراهيم بن المهدي غضبان فقال المأمون : ما بك ؟
فقال نال مني دعبل ، فقال : لك في أسوة أما سمعت ما قال :

أيسومني المأمون خطة عاجز أو مارأى بالأمس رأس محمد
إني من القوم الذين سيوفهم قتلت أذاك وشرفتك بمقعد

فقال : زادك الله حلياً يا أمير المؤمنين ، وذهب عن إبراهيم الغضب .

ولم يجتمع على باب أحد من الملوك ما اجتمع على باب المأمون والرشد
من الشعراء ويشبه بهما سيف الدولة الحمداني و"صاحب بن عباد ، وإذا
ذكر المحبون للشعر المثيبون عليه العارفون بمكانته المميزون لجيده وورثته
فاشد بالبرامكة وآل سهل وآل طاهر .

وقد بلغ من منزلة الشعراء أنهم كانوا يحتكون في أموال الخلفاء
ويفرطون في الدالة عليهم ، ويشفعون فيما لا ترحى الشفاعة فيه ، فيفكون
رقاب العناة ويجيرون من الموت ويدخلون بين الخليفة وخاصته ، وكتب
الأدب مليئة بأخبارهم ؛ وقد بلغ من تأثير الشعر في البيئة الاجتماعية أن
نقشوه على جدران المنازل والأندية وفصوص الخواتم وصدور المجالس
وطرزوه على الستائر والطنافس ، وعلى الأقداح والكاسات وسائر آنية
الذهب والفضة والأعلام والمصائب ، وزينوا به أبدانهم فكتبوه بالحناء
على الحدود والأقدام ، وكان المجتمع العربي كله أصبح ذا نفس شاعرة ملهمة ..

٢ - وهذه أمثلة لعناية الخلفاء بالشعر :

(١) عناية الخلفاء العباسيين في هذا العصر بالشعر والشعراء معروفة مشهورة يروى أن أبادلامة أقبل على المنصور ، فأنشده :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم لقبل اقعدا يا آل عباس
ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلنكو إلى السماء فأنتم أظهر الناس
وقدموا القائد المنصور رأسكو فالعين والأنف والأذنان في الرأس

فهز أريحيته ، وأنساه حرصه وتشدده ، فقال له : بأى شيء تجد أن نعينك ؟ قال أبادلامة : تملأ لي هذه الخريطة دراهم ، فقلت فوسعت أربعة آلاف درهم .

وقال الربيع بن زياد : قلت للمنصور يوما : إن الشعراء بيباك وهم كثيرون ، فقال : اخرج إليهم فاقرأ عليهم السلام ، وقل لهم : من مدحني منكم فلا يصفني بالأسد ، فإنما هو كلب ، ولا بالحية فإنما هي دويبة منتنة تأكل التراب ، ولا بالجبل فإنما هو حجر أصم ، ولا بالبحر فإنما هو لجب . فمن كان في شعره هذا فلينصرف فانصرفوا كلهم إلا إبراهيم بن هرمة الذي دخل فأنشده نصيدة قال منها :

له طينة بيضاء من آل هاشم إذا اسود من كوم الزاب القبائل
إذا ما أتى شيئا مضى كالذى أتى وإن قال إني فاعل فهو فاعل
فقال : حسبك ، هذا عين الشعر ، قد أمرت بخمسة آلاف درهم .
وهذا ابنه المهدي^(١) يدخل عليه عمرو بن سلم الخاسر ، فينشده :

(١) كان المهدي يعجب برائية زهير ويقول : ذهب واقه من يقول مثل هذا
٢٠ : ٢٥٨ البيان والتمهين للجاحظ ط الخانجي ،

أليس أحق الناس أن يدرك الغنى مرجى أمير المؤمنين وسائله
لقد بسط المهدي عدلا ونائلا كأنهما عدل النبي ونائله

فقال: أما ما ذكرت من الجود ، فوالله ما تعدل الدنيا عندي غامى هذا .
وأما العدل فإنه لا يقاس برسول الله أحد فيه ، وإنى لأتجرأه جمهدي ،
ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب . ودخل عليه بعدها فأنشده :

إن الخلافة لم تكن بخلافة حتى استقرت في بني العباس
شدت مناكب ملكهم بخليفة كالدهر يخلط لينه بشماس

فأمر له بعشرين ألف درهم وعشرين ثوباً . ثم دخل عليه بعدها فأنشده :
أفنى سؤال السائلين بسجوده ملك مواهبه تروح وتغتدى
هذا الخليفة جوده ونواله فقد السؤال وجوده لم ينفد

فأمر له بثلاثين ألف درهم وثلاثين ثوباً ، ودخل عليه ابن الخياط فمدحه ،
فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما قبضها فرقها على الناس ، وأنشأ يقول :

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
فلا أنا منه ما أماد ذور الغنى أفدت وأعداني فأتلفت ما عندي

فلما بلغ المهدي ما فعل أعطاه بكل درهم ديناراً .

ودخل مروان بن أبي حفصة على الهادي فأنشده في مدحه :

تشابه يوماً بأسه ونواله فما أحد يدري لايهما الفضل

فقال له الهادي : أيهما أحب إليك ثلاثون ألفاً معجلة أرمائة ألف تدور
في الديوان؟ قال تعجل الثلاثون ألفاً وتدور المائة ألف ، قال : بل تعجلان
لك جميعاً ، فحمل له ذلك .

وروى الصولي عن سعيد بن مسلم قال : إنى لأرجو أن يغفر الله لامهدي

بشيء ، رأيت منه . حضرته وأبو الخطاب السعدي ينشده في مدحه :
ياخير من عقدت كفاه حيزته وخير من قلده أمرها مضر
فقال الهادي : إلا من ؟ وبك . فقلت يا أمير المؤمنين : إنما يعني من أهل
هذا الزمان ، فذكر الشاعر فقال :
إلا النبي رسول الله إن له فضلا وأنت بذاك الفضل تفتخر
فقال ، الآن أصبت وأحسنت ، وأمر له بخمسين ألف درهم (١)

أما الرشيد فقد جاوز عطاؤه للشعراء كل أمل ، وفاقت عنايته بالشعر
كل عناية ، ولا بدع فهو شاعر أديب ، يتذوق الأدب ، ويفهمه فهم العلماء ،
ويتأثر بالشعر أبلغ التأثر ، حتى إنه لما آلمه لحن الملاحين الذين كانوا يتغنون
في دجلة ، أمر أبا العتاهية وهو في السجن أن يعمل لهم شعراً يغنون فيه
ليصلح من أسننهم ، فعمل أبو العتاهية شعراً في الوعظ والتذكير بتقلب
الأيام ، لينغص على الرشيد سروره إذا سمعه ، وقد غاظه منه أنه لم يأمر
بإطلاقه من السجن . فكان الرشيد يسكى وينتعب إذا سمع هذا الشعر
الذي كان منه :

خانك الطرف الطموح أيها القلب الجروح
هل لمطلوب بذنب توبة منه نصوح
كيف إصلاح قلوب إنما من قروح
سبصير المرء يوماً جسداً ما فيه روح
بين هينى كل حى علم الموت يلوح
كلنا في غفلة وال موت يغدو ويروح
نح على نفسك يامسك سكين إن كنت تنوح

تتموتن وإن عمرت ما عمر نوح

ولقد مدحه مروان بن أبي حفصة بقصيدة منها :

وسدت بها دون الثغور فأحكمت به من أمور المسلمين المرائ
وكل ملوك الروم أعطاه جزية على الرغم تسراً عن يد وهو صاغر
ترى حوله الأملاك من آل هاشم كما حفت البدر النجوم الزواهر

فأعطاه خمسة آلاف دينار ، وكساه خلعتة . وأمر له بعشرة من رقيق
الروم ، وحمله على برذون من خاص مراكبه .

ومدحه إبراهيم الموصلي لما ولي الخلافة واستوزر يحيى بن خالد ، فقال :

ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلما أتى هارون أشرق نورها
تلبست الدنيا جمالا بملكه فهارون واليها ويحيى وزيرها
فأعطاه مائة ألف درهم ، وأعطاه يحيى خمسين ألفاً .

وقال المأمون يوماً لمحمد بن الجهم : أنشدني ثلاثة أبيات في المدح
والرثاء ، ولك بكل بيت كورة ، فأنشده في المدح :

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها والجود بالنفس أنهى غاية الجود
وأنشده في الهجاء :

قبحت مناظرهم لحين خيرتهم حسنت مناظرهم لقبح الخبر
وأنشده في الرثاء :

ارادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دل على القبر

وكان المتوكل جواداً ممدحاً ، يقال : ما أعطى خليفة شاعراً ما أعطى
المتوكل . دخل عليه علي بن الجهم ، ويديه درتان يقلبهما ، فأنشده قصيدة
فرمى إليه بكرة ، فقلبها ، فقال : تستنقص بها وهي والله خير من مائة ألف ؟

قال : لا ، ولكنى أفكر في آيات آخذ بها الأخرى ، فقال : قل ، فقال :

بسر من را إمام عدل تغرف من بجره البحار
الملك فيه وفي بديه ما اختلف الليل والنهار
يرجى ويخشى لكل خطب كأنه جنة ونار
يداه في الجود ضربتان عليه كلتاها تغار
لم تأت منه اليمين شيئاً إلا أنت مثله اليسار

فرى إليه بالدرة الأخرى (١) ، ودخل عليه مروان الأصغر بن مروان
ابن أبي حفصة ، فأنشده :

سقى الله نجداً والسلام على نجد وياحبذا نجد على القرب والبعد
نظرت إلى نجد وبغداد دونها لعلى أرى نجداً وهيات من نجد
ونجد بها قوم هوام زيارتي ولا شيء أحلى من زيارتهم عندي
فلما أنم القصيدة نفحه بعشرين ومائة ألف درهم ، وخمسين ثوباً ، وثلاثة
من الظفر ، حتى أنطقه بالشكر في قوله :

تخير رب الناس للناس جعفرأ فلكم أمر العباد تخيراً
فلما انتهى إلى قوله :

فأمسك ندى كفيك عنى ولا تزد فقد خفت أن أطنى وأن أتجبرا
قال المتوكل : لا والله لا أمسك حتى أغرقك بجودي ، ولا تبرح أو تسأل
حاجة ، فسأله ضياعاً كانت قد أقطعت له ، وحيل بينه وبينها ، فردها إليه .
ودخل عليه البحرى وهو جالس ببعض البرك والماء يسقط فيها ،
فقال له : قل في هذا يا بحرى : قال البحرى ولم أكن ذا بديهة ، ولكنى
اعتزلت جانباً ، فقلت :

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ٢١٦

ذات ارتجاس بجنين الرعد مجرورة الذيل صدوق الوعد (١)
مسفوحة الدمع لغير وجد لها نسيم كنسيم الورد
ورنة مثل زئير الأسد ولع برق كسيوف الهند
جاءت بها ريح الصبا من نجد فانتثرت مثل انتشار العقد
فراحت الأرض بعيش رغد من وشى أنوار الربا في برد
كأنما غدرانها في الوهد يلعبن من حبايها بالترد

فقال المتوكل : انظروا ماذا في الخزان من ماء الورد العتيق ، فادفعوه
إلى البحرى . قال فأخذت من ذلك شيئاً كثيراً ، وبعته بمال .

(ب) ولم يكن عطاء الدولة وولاتها وأمرؤها أقل اهتماماً بالشعر، أو بذلا
للشعراء . قالوا إن الزوار كانوا يسمون بالسؤال ، حتى كرمهم خالد بن برمك
وسامم الزوار ، لأن فيهم الأشراف والأحرار وأبناء النعم . فقال بشار :

حذا خالداً في فعله حذو برمك فوجد له مستطرف وأصيل
وكان ذور الآمال يدعون قبله بلفظ على الإعدام فيه دليل
يسمون بالسؤال في كل موطن وإن كان فيهم نابه وجليل
فسامم الزوار سترأ عليهمو فاستأره للجدتين سدول

فأمر له خالد لكل بيت بألف درهم . وكان يعطيه في كل وفادة خمسة
آلاف ، بل إنه أعطاه مرة أربعة آلاف دينار ، ومرة ثلاثين ألف درهم .

وعلى هذا النحو من السخاء كان الخلفاء وائقواد والرؤساء والعظماء
والأثرياء يبذلون للشعراء ، ويغدقون عليهم ، وكأنما أخذتهم رقى الشعر ،
وصرعتهم شياطينه ، فهم يعطون بالبين وبالشمال ، ويتخرقون في هذا العطاء

(١) الارتجاس : صوت الرعد . مجرورة الذيل كناية عن كونها سحابة طويلة
والمزاد بصدق الوعد أن برقها ليس خلها .

حتى كأنهم لا يدرون ماذا يعطون ، وكان الأمراء من حولهم والولاة من قبلهم يصنعون هذا الصنيع ، ويمنعون هذا المنح .

ولو أننا أفضنا في أخبار هؤلاء وتبعنا عطاياهم الجسام ؛ وصلاتهم التي تفوق الخيال ، لما اتسع ذلك المجال ، لحسبنا هذا القبس دليلاً على عنايتهم بالشعر ، وانطباع نفوسهم على حبه ، وإيثارهم للشعراء ، وتقريبهم ، والإسراف في مثوبيتهم ، حتى صارت لهم منزلة لاندانهم منزلة ومكانة لا تساويها مكانة ، فالخلفاء يقبلون شفاعتهم ، ويتقبلون إساءتهم ، ويغضون عن أذامهم ، بل ويستمعون لما يقولونه فيهم من هجاء ، ولقد قالوا إن دعبلاً هجا المأمون بقوله :

أيسومني المأمون خطة عاجز أو مارأى بالأمس رأس محمد
إن الترات مسهد طلابها فاكفف لعابك عن لعاب الأسود
إن من القوم الذين سيوفهم قتلت أحاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خمولة واستنقذك من الحضيض الأوهد

فذهب أبو سعد الخزرمي ، وأنشد المأمون هذا الهجاء ، وقال له : أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن أجيبك برأسه ؟ فقال له : لا ، هذا رجل شجر علينا ، فانخر أنت عليه ، فأما قتله فلا .

ولم يزد المأمون على أن قال : « قاتل الله دعبلاً ، متى كنت خاملاً ؟ وفي حجر الخلافة ولدت ، وبدرها غذيت ، وفي مهدها ربيت (١) » .

وقالوا إن المتوكل غضب على محمد بن البعيث ، لخروجه عليه ، فأرسل إليه من أتى به أسيراً ، فأمر بضرب عنقه ، فأنشده :

أبي الناس إلا أنك اليوم قاتل إمام الهدى والصنح بالناس أجل
وهل أنا إلا جيلة من خطيئة وعفوك من نور النبوة يجبل
فإنك خير السابقين إلى العلا ولا شك في خير الفعاليين تفعل

فقال المتوكل لجلسائه : إن فيه لأدباً ، وأمر بإطلاقه والحقوه عنه .
وهكذا شفع له مقام الأدب . وجاء الشعر ، وما أعظمه من جاه عند
هؤلاء الناس .

بل إن أبعد من هذا دلالة على مكانة الشعراء وعظم جاههم . ما كان
من أبي تمام حين شفع للوائق عند أبيه في ولاية العهد ، فقال :
فاشدد بهرون الخلافة إنه سكن لوحشها ودار قرار
ولقد علمت بأن ذلك معصم ماكنت تتركه بدون سوار

مجالس الشعر والأدب

قوم يرثون هذا الشغف بالشعر ، ويجلون الشعراء ذلك الإجلال ، ويجلونهم
من نفوسهم وقلوبهم تلك المسكاة ، وينزلونهم من عنايتهم ورعايتهم هذه
المنزلة ، فلا يكتفون بما يسد رمقهم ، أو يغني حاجتهم ، بل يغمرونهم بالعطاء
ويغرقونهم بالثراء ؛ ويفعمونهم بالترف والبذخ والنعيم ... قوم هذا شأنهم
لا بد أن تعمر مجالسهم بالأدب ، وتحفل نواديتهم بالشعر ، وتزخر قصورهم
بالشعراء والأدباء ، ولا بدع فهم عرب تترنح أعطافهم نشوة بالأدب ، وتهنز
أريحياتهم نشاطاً له ، وتهفو مشاعرهم صبوة إليه .

ولقد كان للخلفاء والأمراء في هذا العصر - كما كان لغيرهم من رجال الفن
والأدب - مجالس يتفاكرون فيها بالطريف من الشعر ويتسامرون بالغريب
من الرواية ، ويتجادبون الرائع من القول ، ويتبادلون التعليق والنقد ،
ويستجيدون الجيد ويهجنون الضعيف . وكلها تدل على دقة الحس ، ورقة
الشعور ، وسلامة الذوق ، وفطرة البيان . كما تدل على عنايتهم بالأدب ،
واعتبار مجالسه متعة للنفس ، وغذاء للحس ، وأنساً للروح ، ولذة للعقل
والقلب والشعور ؛ وهذا مما يدل على مدى العناية الفائقة التي أولاهم
الخلفاء والأمراء والولاة للشعر والشعراء في هذا العصر .

وهذه بعض أمثلة لمجالس الأدب والشعر في هذا العصر :

١ - قالوا إن المنصور ركب يوماً هجيناً في وقت الهاجرة ، فجعلت الشمس تلمع بين عينيه . فقال لمن حوله : إني قاتل بيتا ، فن أجازته فله جيتي هذه ، وقال :

وهاجرة نصبت لها جيتي يقطع ظهرها ظهر العظاية (١)
فابتدر بشار فقال :

وقفت بها القلوص ففاض دمي على خدي وأقصر واعظايه
فنزح المنصور جبته وهوراكب ، وأعطاها له ، فباعها بأربعمائة دينار .
٢ - وعقد المهدي يوماً مجلساً لمروان بن أبي حفصة حشد فيه وجوه بني العباس فلما اكتمل عقدهم ، دعا مروان فأنشده :

كان أمير المؤمنين محمداً لرأفته بالناس للناس والد
علي أنه من خالف الحق منهمو سقته به الموت الحتوف الرواصد
فأشار إليه فأمسك ، فقال يابني العباس ، هذا شاعر كم المنتقع إليكم
المعادي فيكم ، فأتوه مايسره ، فأعطاه موسى ابنة خمسة آلاف درهم ، وأعطاه
هرون مثلها ، وأعطاه الجميع كل على قدر حاله ، وأعطاه هو ثلاثين ألفاً ،
ثم قال له : وسيايتك مني ما يؤديك إلى الغنى ، فقال مروان : قد رأيت من
قبولك وبشرك وسرورك بما سمعت مني ما سأزداد به شعراً .

٣ - وكان الهادي مغرماً بجمع السلاح ، فلما وقع إليه سيف عمرو
ابن معد يكرب الزبيدي ، عقد مجلساً للشعراء ، واقترح عليهم فيه وصفه
فقال بعضهم :

حاز صمصامة الزبيدي من ييد ن جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا خير ما أغضت عليه الجفون

(١) العظاية : دريئة صغيرة ملساء تشبه سام ايرص .

أخضر اللون بين حديه برد من زعاف يمس فيه المنون
فاذا ما سللت بهر الشمه من ضياء فلم تكدر تستبين
ما يبالي من انتضاء الحرب أشمال سطلت به أم يمينا
يستطير الأبصار كالقوس المشه هل ما تستقر فيه العيون
وكان الفرند والجوهر الجا رى على صفحتيه ماء معين

فمنحه عشرين ألف درهم .

٤ - وكانت مجالس الرشيد أعمر هذه المجالس ، وأحفلها بالأدب ،
لأنه كان عالما شاعراً أديباً ، ذا حس مرهف ، وذوق ناقد ، وبصر بالأدب
وغرام بالشعر ؛ كما كان أجزل الخلفاء عطاءً ، وأبلغهم تأثيراً وتقديراً ؛
وهو الذي شق عليه امتناع أبي العتاهية عن قول الشعر وحضور منادمته
حين أدركته حال الزهد ، فلما لم يفلح في رده عن هذه الحال ، أمر بضربه
ستين عصاً ، ثم سجنه وأقسم ألا يخرج من حبسه ، حتى يقول الشعر ،
ولكن أبا العتاهية أقسم ألا يتكلم سنة إلا بالقرآن أو الشهادة ، فندم الرشيد
وأمر بالتوسعة عليه ، حتى إذا انتهى العام ، قال أبو العتاهية في امرأته :

من لقلب متمم مشتاق شفه شوقه وطول الفراق
طال شوقي إلى فعيده بيتي ليت شعري فهل لنا من تلاق؟

فلما سمع الرشيد الشعر ، أعطاه بدل الستين عصاً ، ستين ألف درهم .
ودخل عليه أعرابي فأنشده ، فقال : يا أعرابي أسمعك مستحسننا ،
وأنسرك متهما ، فقل لنا بيتين في هذين - الأمين والمأمون - فقال : يا أمير
المؤمنين حملتني على الوعر القرد (١) ، وأرجعتني عن السهل الحدر ، روعة
الخلافة ، وبهر الدرجة ، ونفور القوافي على البديهة ، فقال الرشيد : قد جعلت

(١) القرد : ما ارتفع من الأرض .

أعتذارك بدلا من امتحانك ، فقال : يا أمير المؤمنين فنفست الخناق ،
وسهلت ميدن السباق ، ثم أنشد :

بنيت لعبسده الله ثم محمد ذرى قبة الإسلام فاخضر عودها
هما طنباها بارك الله فيهما وأنت أمير المؤمنين عمودها

فقال الرشيد : بارك الله فيك ، فسل ولا تسكن مسألتك دون إحسانك
قال : الهنيدة (١) يا أمير المؤمنين ، فأمر له بمائة ناقة وسبع خلع .

وروى حماد بن إسحاق عن أبيه قال : كنا عند الرشيد ، فحضر الأصمعي
والكسائي ، فسأل الرشيد عن بيت الراعي :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرما ودعا فلم أر مشله مخذولا

فقال الكسائي : كان قد أحرم بالحج ، فضحك الأصمعي وتهانف (٢) ،
فقال الرشيد : ما عندك ؟ فقال : والله ما أحرم بالحج ، ولا أراد أيضا أنه
دخل في شهر حرام ، كما يقال أشهر وأعام إذا دخل في شهر أو عام . فقال
الكسائي : ما هو إلا هذا ، وإلا فما المعنى للإحرام ؟ قال الأصمعي : تخبروني
عن قول عدى بن زيد :

قتلوا كسرى بليل محرما فتولى لم يتمتع بكفن

أى إحرام لكسرى ؟ فقال الرشيد : فما المعنى ؟ قال : يريد أن عثمان لم
يأت شيئا يوجب تحليل دمه ، فقال الرشيد : يا أصمعي ما نطاق في الشعر .

ودخل عليه سهل بن هرون ، وهو يضاحك المأمون ، فقال : اللهم زده
وابسط له في البركات ، حتى يكون كل يوم من أيامه موفيا على أمسه ،
مقصرا عن غده . فقال الرشيد : يأسهل من روى من الشعر أحسنه وأجوده

(١) الهنيدة : مائة من الإبل .

(٢) التهانف : ضحك في فتور واستهزاء .

ومن الحديث أصح وأبلغه ، ومن البيان أفصح وأوضحه ، إذا رام أن يقول لم يعجزه . . قال سهل : يا أمير المؤمنين ما ظننت أحداً تقدمني إلى هذا المعنى . فقال الرشيد : بل أعشى همدان حيث يقول :

وجدتك أمس خير بنى لوى وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت هداً تزيد الخير ضعفاً كذلك تزيد سادة عبد شمس

هـ - ولم يكن المأمون بأقل من أيه فهما للشعر ، وبصراً بالأدب ، وعناية بالأدباء وإفساحاً في مجالسه .

ولقد حضر بمجلسه مرة مروان بن أبي حفصة ، فأنشده :

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلاً بالدين والناس بالدنيا مشاغل

فلم يطرب المأمون ، ولم يسغ ما قال الشاعر ، وأعرض عنه ، فقال مروان لعمار بن عتيل : أعلمت أن المأمون لا يبصر الشعر ؟ فقال عمار : ومن ذا يكون أعلم به منه ؟ والله إننا لننشده أول البيت ، فيسبقنا إلى آخره ، قال مروان : إنه لم يتحرك لقولي . فقال عمار : إنك والله ما صنعت شيئاً ، وهل زدت على أن جعلته عجوزاً في محرابها ، وفي يدها مسابحها ! فن القائم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها وهو المطوق بها ؟ هلا قلت فيه كما قال عمك جرير في عبد العزيز بن مروان :

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

فقال مروان : الآن علمت أني أخطأت .

وقال النضر بن شميل : دخلت على المأمون في سمره ليلة ، فدار الحديث على ذكر النساء ، فروى المأمون عن هشام حديث الرسول « إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد - بفتح السين - من هوز ، قلت يا أمير المؤمنين : حدثنا عوف بن أبي جميلة عن الحسن عن علي كرم

الله وجهه عن رسول الله . إذا زوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها
سداد بكسر السين - من هوز ، وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً ،
وقال يانضر ، كيف قلت سداد بالكسر ؟ فقلت نعم ، لأن السداد بالفتح
لحن ، قال أو تلحنتي . قلت : إنما لحن هشام فتبع أمير المؤمنين لفظه ، قال
فما الفرق بينهما ؟ قلت : السداد بالفتح القصد في الدين والسيدل ، وبالكسر
البلغة وكل ما سددت به شيئاً فهو سداد . قال : أو تعرف العرب ذلك ؟
قلت : نعم ، هذا العرجى يقول :

أضاعوني وأى قتي أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر

قال المأمون : قبح الله من لأدب له ، ثم أمر لي بخمسين ألف درهم ،
ودفع لي الفضل بن سهل ثلاثين ألفاً ، فأخذت ثمانين ألفاً بحرف واحد .

٦ - واجتمع الشعراء في مجلس المعتصم فقال لهم : من كان منكم يحسن
أن يقول مثل قول منصور النيرى في الرشيد :

خليفة الله إن الجود أودية أحلك الله منها حيث تجتمع
إذا رفعت امرأ فآله رافعه ومن وضعت من الأقوام متضع
من لم يكن بأمين الله معتصماً طيس بالصلوات الخمس ينتفع
إن أخلف القطر لم تخلف مخايله أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

فليقل ، فقال محمد بن وهيب الحميري : فينا من يقول خيراً منه ، وأنشد :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمر
فالشمس تحكيه في الإشراق طالعة إذا تقطع عن إدراكها النظر
والبدر يحكيه في الظللاء منبجاً إذا استنارت ليليه به الغرر
فهش له وبالبح في جائزته :

٧ - وكذلك كان المتوكل في مجالسه ، والبعثرى يصول فيها ويجول :

ولقد شهد أبو عنبس الصيمري بعض هذه المجالس ، فقال : كنت في مجلس المتوكل والبحترى ينشده :

عن أي ثغر تبسم وبأي طرف تحتم
حتى انتهى إلى قوله :

قل للخليفة جعفر ال متوكل بن المعتصم
والمجتدى بن المجتدى والمتعم بن المنتقم
أسلم لدين محمد فإذا سلبت فقد سلم

وكان البحترى من أبغض الناس إنشاداً ، وأشدهم غروراً ، فضجر المتوكل وقال لى : أما تسمع ما يقول يا صيمرى ؟ قلت بلى ياسيدي ، فرنى بما أحببت قال بحياتي : اهججه على هذا الروى ، نقلت :

أدخلك رأسك في الرحم وعلبت أنك تنهزم
يابحترى حذار ويحك من قضاغضة ضنغم^(١)
فلقد أسلت بوالديك من الهجا سيل العرم
فبأى عرض تعتميم وبهتسكه جف القلم
وبحق جعفر الإمام م ابن الإمام المعتصم
لأصيرنك شهرة بين المسيل إلى العلم

فجعل المتوكل يضحك ، ويصفق يديه ، وخرج البحترى غاضباً .

(١) قضاغضة : جمع قضاغض وهو الأسد ، ضنغم : جمع ضيفم وهو الأسد .

المحدثون والمولدون

الشعراء المحدثون هم الذين نشأوا في العصر العباسي وتأثروا بمظاهر الحضارة المختلفة فيه ، والمولدون منهم هم الذين نشأوا من أب عربي وأم أجمية ، وبعضهم كانت أصولهم كلها أجمية ؛ وقد يطلق لفظ المولدين على ما يطلق عليهم لفظ المحدثين من شهود العصر العباسي وحضارته ومن اتساع أفق الخيال باتساع المشاهد ومختلف المناظر فيه .

وللمولدين حسناتهم وسيئاتهم أما حسناتهم فيمكن أن نعدّها فيما يلي :

١ - تنازلوا معاني المتقدمين فزادوا عليها وكشفوا عن مواطن الجمال فيها .

٢ - واخترعوا معاني جديدة لم تكن تخطر على بال متقدم .

٣ - وكسوها أسهل الكلام وأعذبه على اللسان وأخفه في السمع وألصقه بالقلب .

٤ - وفتحوا في الأدب العربي فتحاً جديداً بزيادتهم في أغراضه التي جعلته أدباً رقيقاً خليقاً بالعناية به والاحتفال له وصيرته فناً عالياً يهذب النفس ويصقل الفكر ويسمو بالوجدان حين يطالع ما تضمنه من أمثال سائرة وحكم عالية ومواعظ شافية وتصوير لمجالي الطبيعة ومظاهر الكون .

٥ - ولهم في باب الخيال الشعري الصور الرائعة التي تسحر النفس وتجل عن الوصف وحسبك أن تستعرض ما مر بك في فن البيان لتدرك بدائع خيالهم وتعلم ما قدمه المحدثون للأدب العربي من حسنات ومن محاسن المولدين .

٦ - براعة الاستهلال وحسن التخلص والخروج تمام حذقهم وجودة

صنعتهم وعليتهم بأنهم مواطنون إذا وفيت حقها من التجدويد استمالت الأسماع
إليها وعطفت القلوب عليها ومن ابتداءاتهم الحسنة :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحلل الثاني

على أنهم لم يسلموا من العيب فقد نعى عليهم العلماء أموراً ترجع إلى
اللحن فى الإعراب والخروج على أوضاع اللغة وأنهم يسلمون كلامهم حتى
يصيروا به إلى الساقط السوقى وأن لهم معانى غامضة متناقضة واستعارات
بعيدة أو سخرية ينبو عنها الذوق وأن فرط شغفهم بالبديع دعاهم إلى استهلاك
المعنى وإلى أن يصير الكلام ضرباً من الخداع والتزويق لا تأدية للراد
وأنهم قد تدعوهم شهوة الإغراب إلى التشبه بالأعراب فيخلطون بكلامهم
الرفيق العذب وأسلوبهم السهل الممتنع الألفاظ الغريبة ، والحق أن هذا
تحامل وأن المتقدمين وقع لهم مثل هذه الهفوات ولكن العلماء بالغوا فى
الاحتياط لهم والاعتذار عنهم بضروب من التخرىج تكشف عن المقامح
دون أن تمحوها :

إذا كان وجه العذر ليس بين فإن أطراح العذر خير من العذر

فإذا لم يسع المتأخرين ما وسع المتقدمين كنا باغين فى الحكم مجاوزين
حد الإنصاف وقد يقال إن المتأخرين أهل تجويد وفقه فى اللغة وعرفان
للطرود والشاذ فكان عليهم أن يجنبوا كلامهم ما يهجنه وللقائل وجه ولكن
يبدو أن الضرورة تنزل الشعراء فى كثير من الأحيان على حكمها .

ألفاظ الشعر وأساليبه في هذا العصر

تأثرت ألفاظ الشعر وأساليبه بعوامل ثلاثة: الحضارة، والغناء، واختلاط العرب بغيرهم من العناصر الأجنبية.

١ - أما تأثير الحضارة في ألفاظ الشعر وأساليبه فهو شديد الواضح، فقد تغيرت الحياة العربية في هذا العصر الذهبي تغيراً ملموساً يوشك أن يجعلها جديدة كل الجدة في جميع مظاهر العيش والاجتماع. فقد أظلت الحضارة الناس بظلالها، وألوانها، وغمرتهم المدنية بزخارفها وزينتها. حتى رأيناهم يتأنقون في اللباس، ويفتنون في الطعام، ويخرفون في المسكن ويتصنعون في كل مظهر. فلم يعد مسكنهم بالخيمة التي ترفع عمدتها، وتشد أطناها في رمال الصحراء المنبسطة، وإنما هو غرف تزدان بالمناضد، وتزركش بالستائر، وتحلى بالمرصعات، وتقالق بالثريات، وبالقرب منها، قصوراً الخلالة بسقوفها المحلاة، وحيطانها الموشاة، وأرائكها الوثيرة، وثرياتها الناصعة، وأبيائها العامرة، ولياليها الساهرة، وقيانها المغردة؛ ولم يعد طعامهم بالثريد أو الحيس وإنما هو ألوان وأنواع، يتأنقون فيه فيطعمونه في صحاف الذهب والفضة، ويخلطونه بماء الورد والكافور (١)، كما يحلون أواني الشراب بالصور المنقوشة، والحلى المزركشة، على نحو ما يصف أبو نواس في قوله:

تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس

وكذلك كان تأفقهم في الملابس حتى رأينا الرجال يلبسون الثياب المصبغة بألوان الزهر كما يلبس النساء، والنساء يلبسها مطرزة موشاة، وهذا ابن الرومي يشبه بها قوس قزح فيقول:

(١) الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٠١

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً
على الجو دكنا والحواشي على الأرض
يطرزاها قوس السحاب بأخضر على أحمر في أصفر إثر مبيض
كأذيال خرد أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض
وكن يحاين الرؤوس بجلى من الذهب ، ويزينها بالعصابات المنضدة ،
ويحاكين الفارسيات في صبغ الشفاه والحدود .

هذه الحضارة الزاهية بألوانها ، ومظاهرها ، وما فيها من جمال وتجميل
وزخرف ووشى ، وصنعة وتصنيع ، قد انتقلت من الحياة العامة إلى الحياة
الفنية الخاصة ، كما يقول ابن خلدون : وعلى مقدار عمران البلد يكون
جودة الصنائع للتأنيق فيها حيثئذ ، واستجادة ما يطلب منها ، بحيث تتوفر
دواعى الترف والثروة (١) ؛ وهكذا تأثر الأدب بالمدينة والحضارة ، وكان
الشعر دائماً أكثر تأثراً ، وأسرع استجابة للمدينة والتحضّر ، لأنه المجال
للظرف والتأنيق ، والمصور للحسن والجمال ، والمخلق فوق الطبيعة بأجنحة
الخيال . والموضوع الأول للحن والغناء ، ومن مظاهر تأثير الحضارة
في ألفاظ الشعر وأساليبه ، ما يلي :

١ - رقت ألفاظه وعذبت ، ولانت تراكيبه وسهلت ، حتى كاد كل
منهما يسيل رقة حاشية ، وأناقة مظهر ، وعذوبة مخرج ، وسهولة بيان .
فهجرت الكلمات الغريبة ، ووضحت الأساليب ، وأشرقت ديباجة الكلام .

قال البحرى :

| | |
|------------------|-----------------|
| مخلف في الذى وعد | سبل وصل فلم يجد |
| وهو بالحسن مستبد | وبالعدل منفرد |
| يتشنى على قضيد | ب ويفتر عن برد |

قد تطلبت مخرجا من هواه فلم أجد
ضاق صدرى بما أج ن وقلبي بما وجد
وتفضبت أن شكوت جوى الحب والكمد
واشتكأتى هواك ذى ب فإن تعف لم أعد

وقال أبو تمام في وصف الروض :

إن الريح أثر الزمان لو كان ذا روح وذا جسمان
مصوراً في صورة الإنسان لكان بساما من الفتيان
بوركت من وقت ومن أوان فالأرض نشوى من ثرى نشوان
تحتال في مغوف الألوان في زهر كالحديق الروانى
من قانع وناصع وقان عجبت من ذى فكرة يقظان
رأى جفون زهر الألوان فشك أن كل شيء فان

أست ترى أثر الحضارة في رقة اللفظ وصفاته ، وسماحة الأسلوب
وبهائه ، وسجاجة الكلام وإشراقه ؟ . وقد اجتمع مسلم بن الوليد
وأبروناس وأبو الشيبى ودعبل في مجلس ، فقالوا لينشد كل واحد منكم
أجود ما قال ، فأشدهم أبو الشيبى :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذينة حبا لذكرك فلنى اللوم

فقال أبو نواس إنى أرى نمطاً خسروانياً مذهباً (١) . ويحدثنا ابن
رشيق أن أبا العتاهية وأبا نواس والحسين بن الضحاك اجتمعوا يوماً
فقال أبو نواس ، لينشد كل منكم قصيدة لنفسه في مراده ، فأشده
أبو العتاهية :

يا لإخوتي إن الهوى قاتلي فيسروا الأكفان من عاجل
ولا تلوموا في اتباع الهوى فإنتى في شغل شاغل
عيني على عتبة منهلة بدمعها المنسكب السائل

فسلم له أبو نواس وابن الضحاك ، وقالوا : أمامع سهولة هذه الألفاظ
وملاحظة هذا القصد ، وحسن هذه الإشارة ، فلا ننشد شيئاً (١) .

وهكذا لأن عيشهم فلانت ألفاظهم ، ورفت شمائلهم فرقت عباراتهم .

٢ - وكان من أثر هذه الحضارة الوارفة ، والمدنية المشرقة ، ومازدان
به الحياة من قصور ورياض ، وملاعب حسان ، ومجالس لهو وشهو ، أن
خلا أسلوب الشعر من الابتداء بذكر الأطلال وبكاء الديار ، وانصرف
الشعراء عن هذا النحو الذي يذكروهم بالبداوة ، إلى مظاهر الحضارة
وبريقها . ويبدو أن أول من كسر هذا القيد مطيع بن إياس . ذكروا أنه
اجتمع بفتى من أهل السكوفة ، ودار الحديث بينهما في هذا الشأن ،
فقال مطيع :

لأحسن من يبد يحاربها القطا ومن جبلى طى ووصفك ساعدا
تلاحظ عيني عاشقين كلاهما له مقلة في وجه صاحبه ترعى

وجاء أبو نواس فراح يسخر من ذلك الأسلوب القديم كما في قوله :

قل لمن يبكي على رسم درس واقفاً ماضر لو كان جلس

وقوله :

صفة الطول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وقوله :

تبكى على طلل الماضين من أسد لادر درك قل لي من بنو أسد
لا جف دمع الذي يبكى على حجر ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

وقوله :

دع الرسم الذي دثرا يعانى الريح والمطرا
ألم تر ما بنى كسرى وسا بور لمن غربا

وقد كان لهذه الجملة أثرها في الشعراء ، فكان منهم من استبدت به نشوة الراح ، وصرعته حميا الأفداح ، فاستهل قصائده بوصف الخمر . ومنهم من هزه الجمال ، وأرقه طيف الخيال ، فابتدأها بالغزل ، ومنهم من بهره جمال الحضارة ، وسحره بهاء الطبيعة ، فراح يشدو بمحاسنها ، ويتغنى بوشيتها وروائتها ، ويجعل ذلك استهلال قصيده وفتحة موضوعه . وإنا لنرى أبا تمام يمدح المعتصم ، فيقدم بين يدي هذا المدح وصف الربيع ، ويمثل الدهر في حواشيه الزاهية التي يتمايل فيها الثرى ، كمرس تثنى في حلبيها ، وتسكسر في زيتنها :

رقت حواشي الدهر فهمي تمرمر وغدى الثرى في حليه يتسكسر
من كل زاهرة تفرق بالندى فكانها عين إليك تحدر
تبدو ويحجبها الجيم كأنها عذراء تسدو تارة وتخفر
حتى غدت وهداتها ونجادها فتمين في حلق الربيع تبختر

أرأيت إلى الشعر كيف جعلته الحضارة يختال في وشها وزيتنها ورقتها |

٣ - على أن هناك ظاهرة جديدة بدأت تظهر في هذا العصر ، تلك هي أن الشعراء أخذوا يعنون بمطالع القصائد ، ويتخذون لها سمياً آخر غير ذلك كله . فعملو المطلع دالاعلى القصد من أول الأمر ، مشيراً إلى موضوع القصيدة ابتداء ، واختاروا له اللفظ المناسب للمقام رقة أو فخامة ، وسهولة أو جراحة . ومن ذلك ابتداء أبي تمام في مدح المعتصم بعد فتح عمورية :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وقوله في مطلع مرثية :

أصم بك الناعي وإن كان أسما وأصبح معنى الجود بعدك بلقما

وقوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وقد تبع ذلك احتفالهم بختام القصيدة ، فجعلوا البيت الأخير مؤذنا بالفراغ ، مشيراً إلى الانتهاء ، باشتاله على ما تسكن النفس إليه من دعاء أو حكمة أو نحو ذلك .

٤ - وسرى زخرف الحضارة ووشيا ، وما فيها من تصنيع وتجميل إلى الشعر فظهر المحسن البديعي ، وشاعت ألوانه ، من جناس وطباق وتورية ونحو ذلك ، وقد كان أول أمره ساذجاً واضحاً في شعر مسلم وأبي نواس والبحترى ، ثم غلا فيه أبو تمام وأوغل ، حتى غض من جمال شعره ، وما زال الشعراء يلحون فيه ، ويتوسعون في فنونه ، حتى كان آخر من انتهى إليه الإبداع فيه ابن المعتز . ومنفذت عن الصنعة عند المحدثين في بحث خاص .

وانظر إلى الجناس والطباق في شعر مسلم بن الوليد الذي يعد أول من سمي هذه المحسنات بالبديع كما يعد أول شاعر ظهرت هذه الألوان بوضوح في شعره . قال يمدح يزيد بن يزيد الشيباني :

يغشى الوغى وشهاب الموت في يده برعى الفوارس والأبطال بالشعل
يفتر (عند) افترار (الحرب) مبتسماً إذا (تغير) وجه الفارس البطل
موف على (مهج) في يوم ذى (رهج) كأنه (أجل) يسعى إلى (أمل)

واقراً هذا الطباق الذي يعد أهم لون كان يستخدمه البحترى . إنه

طباق لا تعقيد فيه ولا تكلف ، ولكنه بسيط ساذج ، أشبه ما يكون بتداهي
المعاني ، لامشقة فيه ولا صعوبة :

منى وصل ومنك هجر وفي ذل وفيك كبر
وما سواء إذا التقينا سهل على خلة ووعر
قد كنت حراً وأنت عبد فصرت عبداً وأنت حر
أنت نعيمى وأنت بؤسى وقد يسوء الذى يسر

أما أبو تمام فقد كان لتأثره العميق بالفلسفة والثقافات الأجنبية ،
يستخدم ألوان البديع استخداماً فلسفياً ، ويمزجها بالتصوير مزجاً غريباً
حتى يكسد الذهن في فهمه ، ويتعب العقل في إدراكه .

إنه يصف بعيره وما أصابه من تحول وسقم لكثرة الأسفار فيقول :
رعته الفيافي بعد ما كان حقبة رعاها وماء الروض ينهل ساكبه
فلا تجد طباقاً عادياً بين رعته ورعاها ، إنه يعير يعرى الفيافي وترعاها
الفيافي ، وهكذا يمزج بين الطباق والاستعارة والتصوير .

وعلى هذا النحو قوله :

وأحسن من نور تفتحه الصبا بياض العطايا في سواد المطالب
واقراً له في المشاكلة :

أظن الدمع في خدى سيدتى رسوماً من بكائى فى الرسوم
وكذلك كان جناسه يتكى على التصوير ويلتف على التشبيه والاستعارة :

تطل الطلول الدمع فى كل موقف وتمثل بالصبر الديار الموائل
فقد سحبت فيها السحائب ذيلها وقد أخلت بالنور منها الخنائل
وكذلك (التدييع) فى مثل قوله :

كأن سواد الليل ثم اخضراره طيالسة سود لها كفف خضر

وهكذا كان أو تمام بغرب في المحسنات إغرابه في معانيه ، حتى إنها
لستنفد منه جهداً شاقاً ، إذ يغرقها في استعاراته وتصويره ، فيجلبها الغموض .

ومن مطرف الجناس قول البحري :

فإن صدفت عنا فربت أنفـس صواد إلى تلك الوجوه الصوادف

ومن مقلوبه قول العباس بن الأحنف :

حسامك فيه للأحباب فتح ورمحك فيه للأعداء حتف

ب - وأما تأثير الغناء في الشعر في هذا العصر فهو أشد وضوحاً . فقد
كان للغناء - وهو من أظهر مظاهر هذه الحضارة - أثره في انتقاء ألفاظ
الشعر وجودة اختيارها ، وسهولة الأساليب ، وترقيق حاشية التراكيب .

وكانت مجالسه بجانب مجالس الأدب ، أو مندججة فيها ، وقد استجاب
الشعراء للمغنين ، فنظموا لهم المقطوعات الصغيرة التي تناسبهم ، وتخبروا
لهم الألفاظ الرقيقة الرشيقة ، والأساليب السهلة الأنيقة ، والأوزان المستحدثة
القصيرة ؛ وكان من أثر ذلك أن نما الشعر الغنائي المهذب الرقيق ، واحتفل
الشعراء به ، وتسابقوا فيه ، وذهبوا في ترقيق معانيه ، وتهذيب أساليبه كل
مذهب ، حتى كان منهم من تخصص فيه ، كالعباس بن الأحنف ، الذي يقول
عنه صاحب الأغاني : « لولا أن العباس أحقق الناس وأشعرهم وأوسعهم
كلاماً وخاطراً ما قدر أن يكثر شعره في مذهب واحد ويجوده » .

وقد أثر الغناء في أوزان الشعر لأن المغنين كانوا يدخلون في الغناء الحاناً
فارسية ورومية ، فاضطر الشعراء أن يجددوا في أوزانهم ، على النحو الذي
سنتحدث عنه فيما بعد كما يلاحظ أنهم تجنبوا كثيراً - في شعرهم الغنائي -
الأوزان الطويلة ، وقصروها على الأوزان التقليدية الأخرى ، وأكثرها
من البحور المجزوءة التي تلائم الغناء .

ويمكن أن نقول إن الغناء قد أثر في الشعر بوجه عام، غنائياً كان أو تقليدياً، من حيث الموسيقى الداخلية، التي تعنى اختيار الكلمات وترتيبها والمشكلة بين أصواتها ومعانيها. ومن الممكن اعتبار البحترى أربع شاعر يصور هذا الجانب. قال البافلاني: «إنه كان يتتبع الألفاظ وينقدها نقداً شديداً (١) . . . وما يزال يتتبعها حتى يؤلف منها ألفاظاً عذبة، كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات، وقد تحلين بأصناف الحلى (٢). اقرأ له في رثاء المتوكل، وانظر كيف اختار ألفاظه جزلة ضخمة؛ لأنه نثر غاضب كأن لها قعقة السلاح؟ وكيف ربط القوافي بالهاء الساكنة. فصوته ينطلق بالكلمات والمقاطع، ثم ينخفض فجأة كالنائح المتعب:

محل على القاطول أخلق دائره وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره
تغير حسن الجعفرى وأنسه وقوض بادى الجعفرى وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءة فعادت سواء دوره ومقاربه
ولم أنس وحش القصر إذ ربيع سربه
وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره
وإذ صيح فيه بالرحيل فهشكت على عجل أستار وستاره
واقراء له:

لى حبيب قد لج فى الحجر جدا وأعاد الصدود منه وأبدى
يتأبى منعا، وينعم إسعا، فإ، ويدنو وصلا، ويبعد صدا
أغتنى راضياً وقد بت غضباً ن؛ وأسى مولى وأصبح عبداً
وبنفسى أفدى على كل حال شادناً لو يمس بالحسن أعدى
مر بى خالياً فأطمع فى الوص ل وعرضت بالسلام فردا
وتى خده إلى على خو ف فقبلت جلتاراً ووردأ
سيدى أنت ما تعرضت ظلماً فأجازى به ولا خنت عهداً

(١) إجماع القرآن ١٠٦ . .

(٢) المثل السائر لابن الأثير ١٠٦ .

أتراني مستبدلاً بك ما عشت بدليلاً أو واجداً منك ندا
حاش لله أنت أفتن الحاضراً، وأحلى شكلاً، وأحسن قدراً

فأنت زاه قد استوفى كل ما يمكن من وسائل التفوق في فن الصوت ،
فقد كرر الجيم في "شطر الأول ، وكرر الدال في الثاني ، فأحدث في البيت
الأول توافقاً صوتياً ، وفي البيت الثاني يوفق بين الألفاظ ، فيأتي بكلمة
(يتأبى) كأنها مشدودة إلى (نعم) بهذا الرباط المحكم (منعاً) ، وعلى هذا
النحو في شطره الثاني . وانظر إلى الطباق بين يدنو ويبعد ووصلا وصداء .
ثم انظر إلى إقبال كل كلمة أختها في البيت الثالث ، كأن الكلمات من أسرة
واحدة ، ثم إلى قوله : بنفسى أفدى وتشابكهما . وكذلك ما في الآيات من
طباق وتقسيم ومقابلة ، وما في قوافيها من إحكام القرار ، واتحاد عدد
الحروف والسكنات والحركات ، مما يسميه البديعيون بالتطريز ، وهكذا تجد
الجوانب الموسيقية الممتدة (١) .

ج - أما اختلاط العرب بالعجم فهو أشد تأثيراً في ألفاظ الشعر وفي
أساليبه في هذا العصر ، فلقد كان لاختلاط العرب بغيرهم من العناصر
الأجنبية التي لها ثقافتها ولغاتها وألفاظها واصطلاحات علومها وفلسفاتها .
كان لهذا الاختلاط ، بل لهذا الامتزاج أثره في ألفاظ الشعر إلى جانب
آثاره في نواحيه الأخرى :

١ - فقد شاعت في الشعر ألفاظ فارسية بقيت على حالها أو عربت
وصقلت ، وربما كان بقاؤها على حالها للتظرف والتفكك ، على نحو ما كان
يصنع الأعشى وغيره من الشعراء .

يقول أبو نواس :

خبز إسماعيل كالوشى إذا ماشق يرفى

(١) راجع الفن ومذاهبه في الشعر العربي لشوقي ضيف ٥٦ :

إن رفاك هذا أحق الأمة كفا
فإذا قابل بالنص ف من (الجردق) نصفا
أحق الصنعة حتى لا ترى مغرز إشقى (١)

ويقول إبراهيم الموصلي :

إذا ما كنت يوماً في شجها فقل للعبد يسقى القوم (يوا) (٢)
ويقول العماني في وصف من وقف بين الأسود :

لما هوى بين غياض الأسد وصار في كف الهزبر الورد
آلى ينوق الدهر آب سرد (٣)

أما ما صقلوه وعربوه فكثير : كلفظ آذريون معرب آذركون ، أى لون
النار ويطلقونه على ورد أحمر الورق مع سواد الوسط أو اصفراره ، يقول
ابن المعتز :

عيون آذريونها للشمس فيه كالية
مداهن من ذهب فيها يقايا غالية

وكذلك يروز معرب نوروز ، ونحو ذلك .

٢ - كما شاعت في ألفاظ الشعر كذلك الاصطلاحات العلمية التي كانت
تجرى على الألسنة في العلوم الكلامية والفلسفية والكيمائية والهندسية
ونحو ذلك . قال أبو نواس :

وذات خد مورد قوهية المتجرد
تأمل العين منها محاسناً ليس تنفد
فبعضها قد (تأهى) وبعضها (يتجدد)

(١) الجردق في الرغيف معرب كردة : والأشقى المثقب .

(٢) الير لفظ فارسي معناه ملآن وهو بتشديد الراء .

(٣) آب سرد : هو الماء البارد .

ويقول أبو تمام في الخمر :

خرقاء يلعب بالعقول حبابها كتلاعب الأفعال بالأسماء
ويقول :

هب من له شيء يريد حجابه ما بال لاشيء عليه حجاب
فعبير عن العدم بكلمة (لا شيء) الفلسفية .
ويقول :

صاغهم ذوالجلال من (جوهر) الحجر ودصاغ الأنام من (عوضه)
كما يقول :

لن ينال العلا (خصوصاً) من الفتية سان من لم يكن نداءه (عموماً)
ويقول غيره :

محاسنه (هيولى) كل حسن ومغناطيس أفتدة الرجال (١)
وعلى هذا النحو سار الشعراء بعد هذا العصر في الاقتباس من
المصطلحات حتى رأينا المتنبي يقول :

إذا كان ماتنويه فعلاً مضارعاً مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم
د - وبجمل الأمر أن عوامل الحضارة والغناء والامتزاج أثرت تأثيرها
في لفظ الشعر وأسلوبه ، بما طرأ عليهما من رقة اللفظ ، وعذوبة الكلام ،
وببساطة التركيب ، وسهولة الأسلوب ، وإشراق الديباجة ، وجمال الاستعارة
ولطف التشبيه ، واستحداث البديع والإكثار منه ، والإكثار من النظم
في البحور القصيرة ، وابتداع أوزان جديدة ، واستعمال الألفاظ

(١) الهيولى : الأصل .

والمصطلحات الأجنبية ، والعناية بمطالع القصائد وختامها ، والحرص على التناسب بين أجزاء القصيدة .

قال الحاتمي : « مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فني انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب ، غادر الجسم ذاعاهة تتخون محاسنه ، وتخفي معالنه ، وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناع من المحدثين ، يحترسون في مثل هذه الحال حتى يقع الإتصال ، وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة ... وهذا مذهب اختص به المحدثون ، لتوقد خواطرم ولطف أفكارهم ... » .
أما الذي هجر فهو اللفظ الخشن ، والكلمة الغريبة ، والتركيب المتوعر ، والاستهلال بذكر الأطلال .

أوزان الشعر وقوافيه في هذا العصر

١ - حمل الغناء الشعراء على متابعة المغنين بتحرى الأوزان الملائمة للألحان ؛ وابتداع أوزان أخرى تسير فنون الموسيقى والغناء ؛ وقد رجع الخليل أوزان العرب إلى خمسة عشر بجزاً ، وجعلها تليده الأخص ستة عشر بإضافة المتدارك ؛ وراح الشعراء العباسيون يروجون الأوزان القديمة التي تناسب الغناء : كالمقارب والمزج والرمل والخفيف ونحو ذلك ، فإذا ألموا بالبحور الطويلة نوعوا فيها أو جزأوها .

ولم يكتفوا بذلك ، بل أخذوا يبتكرون أوزاناً أوحى بها مزاجهم ،
أودعوا إليها فن الغناء ، فسلم بن الوليد قصيدة مطلعها :

يا أيها المعمود قد شفق الصدود
فأنت مستهام حالفك السهود

(١) راجع كتاب « البناء الفني للقصيدة العربية ، للخفاجي .

وأخرى مطلعها :

نبأ به الوساد وامتنع الرقاد

وصنع سلم الخاسر أرجوزة يمدح بها موسى الهادي على جزء واحد :
موسى المطر غيث بكر عدل السير باقى الأثر

وهكذا ، ويقول ابن رشيق : إنه أول من ابتدع ذلك فى الرجز ؛ وكان
أبو العتاهية مشغولاً باستحداث هذه الأوزان . كان عند قصاب يوماً فسمع
صوت مدقة ، فحكى ذلك فى الفاظ شعره :

للبنون دائرات يدرن صرفها
ثم ينتقينا واحداً فواحداً

ولما روجع فى هذا قال : أنا أكبر من العروض ، وهو الذى يقول :

عتب ما للخيال خبرينى ومالى
لا أراه أتانى زائراً مذ لىالى

ومن العجيب أن يزعم أبو العلاء أنهم استحدثوا فى هذا العصر المقتضب
والمضارع ، وأن الخليل قد سجلهما وليس لهما أصل فى الشعر العربى (١) .

مثال المقتضب قول أبى فواسم :

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب

ومثال المضارع قول أبى العتاهية :

أيا عتب ما يضرك أن تطلق صفادى

٢ - أما ما استحدثوه من الأوزان العامة ، فبعضه استنبطوه من

دوائر البحور المعروفة ، وبعضه جاء على أوزان جديدة .

(١) الفصول والغايات ١٣٢

فالنوع الأول يشمل ما يلي :

١ - المستطيل ، وهو مقلوب الطويل (مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن) مرتين :

لقد هاج اشتياقي غرير الطرف أحور أدير الصدغ منه على مسك وعنبر

٢ - الممتد ، مقلوب المديد (فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن) مرتين :

صاد قلبي غزال أحور ذو دلال كلما زدت حبسا زاد مني نفورا

٣ - المتوافر ، محرف الرمل (فاعلاتك فاعلاتك فاعلن) مرتين :

ما وقوفك بالكائب في العطل ما سؤالك عن حبيبك قدرحل

٤ - الممتد ، مقلوب المجتث (فاعلاتن فاعلاتن مستفع لن) مرتين :

كن لأخلاق التصابي مستمرياً ولأحوال الشباب مستحلباً

٥ - المنسرد ، مقلوب المضارع (مفاعيلن مفاعيلن فاع لاتن) مرتين :

على العقل فعول في كل شأن ودان كل من شئت أن تداني

٦ - المطرد ، صورة أخرى من المضارع (فاع لاتن مفاعيلن

مفاعيلن) مرتين .

ما على مستهام ريع بالصد فاشتكى ثم أبكاني من الوجد

وأما النوع الثاني ، فنه :

١ - السلسلة (فعلن فعلان متفعلن فعلان) وهو من اختراعات

البغداديين :

السحر بعينيك ماتحرك أوجال إلا ورماني من الغرام بأوجال

٢ - الدوبيت ، وهو مأخوذ من الفارسية بدليل اسمه ، لأن (دو)

بالفارسية معناها اثنان . وسمى بذلك لأنه ينظم بيتين بيتين ، ووزنه (فعلن

متفاعلن فعولن فعلن) :

قد أقسم من أحبه بالبارى أن يبعث طيفه مع الأسحار
يانار أشراقى به فاتقدى ليلا فغساء يهتدى بالنار

٣ - القوما وقد اخترعه البغداديون الذين كانوا يوقظون الناس
للسحور في رمضان ، ولعله مأخوذ من قولهم (قوما نشحر قوما) ، ووزنه
(مستعملن فعلان) ، ولغته ماحونة ، ومنه قول بعضهم :

يا من جنابه شديد ولطف رأيه شديد
ما زال بك يزيد على أقل العبيد
ولا عدمننا نوالك في صوم وفطر وعيد

٤ - المواليا ، وهو فن لا تراعى فيه قوانين العربية دائماً وهو على
وزن البحر البسيط ، وأول من نظمه بهض صنائع البرامكة بعد أن نكسبهم
الرشيد وأمر الأيرثوا بالشعر ، فرثتهم جارية بهذا الوزن ، وأخذ صنائعهم
ينوحون عليهم به ، ويكثرون من قولهم (ياموالى) فعرف بهذا الاسم ،
وهو مشهور بين عامة مصر بالموالى . وهو على أنواع ، فقد يجىء مصرعاً
كله ، وقد يختلف مصرع منه ، وقد يخالف بين مصاريعه ، على ما نراه في
المواويل البلدية :

يا عبد ابكى على فعل المعاصى ونوح هم فبن جدودك أبوك آدم وبعده نوح
دنيا غرورة تجى لك فى صفة مركب ترى هو لها على شط البحر وتروح

٥ - كان وكان ، وهو من اختراع البغداديين لنظم الحكايات
والخرافات ثم استعمل فيما بعد للنصيحة والوعظ بحكاية ما كان وكان :

قم يا مقصر تضرع قبل أن يقولوا كان وكان
للبر تجرى الجوارى فى البحر كالاعلام

٦ - أما الموشح فهو أندلسى المنشأة ، أول من ابتدعه هناك مقدم بن
معاقر من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى فى أواخر القرن الثالث ،
ثم انتقل إلى المشرق بعد ذلك ، فهو إذن ليس من مستحدثات عصرنا الذى

ندرسه ، وهم ينظمونه أسماطا أسماطا ، وأغصانا أغصانا ، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتا ، ويلتزمون قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالية فيما بعد إلى آخر القطعة وأكثر ما تنتهي إلى صبعة أبيات (١) وأوزانه كثيرة ، منها (مستفعلن فاعلن فعيل) :

يا جيرة الأبرق البيان هل لي إلى وصلكم سليل

ومنها (فاعلاتن فاعلن مستفعل فاعلن) :

كلى يا سحب تيجان الربا بالخلي

واجعلى سوارك منعطف الجدول

٧ - وكذلك الزجل ليس من مخترعات هذا العصر ، فإنه نشأ بعد نضج الموشحات ؛ إذ أخذ أهل الأماص ينسجون على منوالها بلغتهم الحضريّة من غير التزام إعراب ، وسموا هذا النوع الزجل ، وأول من أبدع فيه ابن قومان الأندلسي ؛ ولا حصر لأوزانه ، حتى قيل : صاحب ألف وزن ليس برجال :

الفراق نار والوصال جنّة والخلايق بعضهم يعشق

ولهب الحجر يتوقّد والوصال م الملاح يشفق

٣ - ولقد تبع بعض هذه الأوزان - كما رأينا - تعبير طرأ على القافية فلم تعد تلتزم كما كان معروفا من قبل ، بل دعاهم الإفلات من قيود الوزن ، إلى الإفلات كذلك من قيود القافية . على أن من أظهر ما طرأ على القافية هو المسقط والمزدوج والخمس .

١ - فالمسقط أن يبتدىء الشاعر بيت مصرع ، ثم يأتي بأربعة أقسمة

على غير قافيته ، ثم يعيد قسماً على قافية البيت الأول ، وهكذا . وربما
خلا من البيت المصرع وكان على أقل من أربعة أقسامه . ومنه :

غزال هاج لي شجننا فبت مكابداً حزناً عميد القلب مرتهاً
بذكر اللهو والطرب
سبتني ظبية عطل كأن رضاها عسل ينوء بخصرها كفل
ثقل روادف الحقب

٢ - والمزدوج يتألف من شطرين من قافية ، ثم من آخرين من
أخرى ، وهكذا ، كقول أبي العتاهية :

حسبك مما تبغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفايا من اتقى الله رجاً وخافاً
ما انتفع المرء بمثل عقله وخير ذخر المرء حسن فعله
ما زالت الدنيا لنا أذى بمزوجة الصفوباً أنواع القذى
إن الشباب حجة التصابي روائح الجنة في الشباب

وهذه المزدوجة لأبي العتاهية تسمى ذات الأمثال ، وله فيها أربعة
آلاف مثل .

٣ - والخمس أن يؤتى بخمسة أقسام كلها من وزن واحد ، وخامسها
بقافية مخالفة الأربعة قبله ، ثم خمسة أخرى من الوزن دون القافية للأربعة
الأولى ، ويتحدد القسم الخامس مع خامس الأولى في القافية :

ورقيب يردد اللحظ رداً ليس يرضى سوى ازديادى بعدا
ساحر الطرف مذجنى الخدورداً إن يوماً لناظري قد تبدى
فتملا من حسنه تكحيلاً
وتصد من فحشه في استباق يمنع اللحظ من جنى واعتناق
أياس العين من لحاظ اعتناق قال جفنى لصنوه : لا تلاقى
إن بيني وبين لقبالك ميلاً

أخيلة الشعر ومعانيه في هذا العصر

أثرت الحضارة بنوعيتها : المادى ، والعقل ، في أخيلة الشعر ومعانيه في هذا العصر تأثيراً بالغاً .

١ - فأما تأثير الحضارة المادية فيهما في هذا العصر فإنه قد وجد الشعراء في مختلف مظاهر الحضارة المادية ، مادة لا تنقطع ، ومدد لا ينفد . وذخراً لا ينضب ، ومعيناً لا ينضب . فتنوعت معانيهم ، واتسعت أفكارهم ، وانتمسح مجال أخيلتهم (١) ، وجادت تشبيحاتهم واستعاراتهم ، ولا بدع فهم يعيشون في مدن تحفل بمظاهر الأبهة والترف ، وتعمر بفنون البهجة والبذخ ؛ وتزخر بمختلف المشاهد والصور ، وتكتظ بمجالى الطرف والسمر وتشرق بمغاني اللهو والغزل والمجون . . ذلك إلى طبيعة جميلة مزدهرة الرياض مترققة الجداول ، هاتفة الأطيوار ، عاطرة الأجواء :

هذه الحضارة المادية خليقة بأن تفتق أكام القريحة ، وتفجر ينبوع الشعاعية ؛ عسية أن تفتح مغالق الفكر ، وتفسح مجال الخيال ، جديدة بأن تذكى الإحساس بالحياة ، وتنمى الشعور بالجمال . . وإنما تستمد التشبيهات

(١) للخيال شأن كبير في الأعمال العقلية وفي الحياة العملية نفسها ، فهو خطوة أولى أرقى من الإدراك الحسى ، ومن مجرد التذكر نفسه ، فالتخيل يعين على استغلال الماضى للمستقبل ، ولولاه لأصبحت الحياة فقيرة كل الفقر . ولما كانت حياة الإنسان النفسية ضئيلة محدودة ، فهو الأصل في تكوين المثل العليا ، وهو الذى يعيننا على فهم الحقائق والفنون .

وتبدو صور الخيال الشعري في : التشبيه والمجاز والكتابة وحسن التعليل والمبالغة وما أشبه ذلك .

من المشاهد، وتتجدد بتجدد المناظر، وتتعدد بتعدد الصور، وإنما يحاق
الخيال حين يتهيأ له الأفق الرحب، وينطلق حيث يغريه الفضاء الفسيح الجميل .
اقرأ أثر الحضارة في التشبيه والخيال عند البحترى وهو يصف الحسان :

لما مشين بذى الأراك تشابهت أعطاف قضبان به وقدود
في حلتي حبر وروض فالتقى وشيان : وشى ربا ووشى برود
وسفرن فامتلات عيون راقها وردان : ورد جنى وورد خدود
وضحككن فاغترف الأقا حتى من ندى غض وسلسال الرضاب برود(١)

واقراً وصف أبى نواس للعب بالصولجان والكرة :

جن على جن وإن كانوا بشر كأنما خيطوا عليها بالإبر
أو سمر الفارس فيهما فانسمر بين رياض مثل موشى الخبر
مككلات بيهار وزهر فانتدبوا في يوم قر وخصر(٢)
إذ ذر قرن الشمس في غب مطر صوالجاً يصبو إليها من نظر
فلم يعب طول ولا شان قصر وقد تنادوا فراموا بالأكبر
أحكما صانعها لما فطر أطف بالإشفاء خرزاً إذ دسر(٣)
فليس للإشفاء بالجلد أثر يحسبن تفاحا تدلى من شجر

وأبو نواس هو الذى ألبس الدمن ثوب الحضارة فقال :

لمن دمن تزدد حسن رسوم على طول ما أقوت وطيب نسيم
تجسافى البلى عنهن حتى كأنما لبسن على الأقواء ثوب نسيم

ولقد كان القدماء يشبهون الحلم بالجبال ويرونه بها :

(١) أى لما ضحككن ظهرت أسنانهن كالألحوان وقد امتلأ بالندى، ندى
الأسنان وريقها .

(٢) القر : البرد . وكذا الخصر .

(٣) فطر ، شق . الأشفاء . خرز يشق به . ودسر . ثقب وطعن .

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنا إذا ما نجمل
ولكن المتحضر غير البدوي، والحلم في بغداد وفي القرن الثالث الهجري
غير الحلم في البصرة وفي القرن الأول : فالحلم الحضري هو الذى يتسم
لكبار الحوادث ، ويتحدث عنها حديثاً يفيض رقة وظرفاً ، حتى كأنه برد
رقيق الحواشى ، كهذا البرد الذى استعاره أبو تمام المتحضر للحلم الحضري ،
حيث يقول :

رقيق حواشى الحلم لو أن حله بكفيك مامارىت فى أنه برد (١)
وهكذا تعمل الحضارة المادية عملها فى تنويع التشبيه ، وتعدد الاستعارة
وتجديد المعنى واختراعه ، وسمو الخيال وإبداعه .

٢ - وأما الحضارة العقلية التى أتت للشعراء العباسيين ، والتى كانت
نتيجة الاختلاط والامتزاج ، والتأثر بمختلف الثقافات . فقد أثرت أثرها
البالغ فى معانى الشعر وأخيلته ، إذ أكسبتها ما امتازت به العقليات الأجنبية
من عمق التفكير ، وبراعة التحليل ، وكثرة الاستطراد ، واستيعاب
المعانى ، وترتيب الأفكار ، وظهور أثر اللقاح واضحاً جلياً فيها ، من حيث
الدقة والعمق ، والتحليل والتفصيل ، والابتكار والتجديد ، والترتيب
والتنسيق ، والتأثر بالمنطق وأقيسته ، والفلسفة وآرائها .

وهكذا جددت الحضارة المادية والعقلية من الشعر ، فأمدته بالخيال
الخصب ، والفكر العميق . والمعنى الدقيق ، ولونته بألوان زاهية كثيرة من
التشبيه والاستعارة ، وصبغته بأصباغ طريفة جديدة من الثقافة والفلسفة ،
ومزجته بحكمة الهند وأدب الفرس وتأمل اليونان .

ولهذا جاء الشعراء العباسيون بالمرقص المطرب ، الذى يهز المشاعر ،

(١) راجع ما كتبه الدكتور طه حسين (من حديث الشعر والنثر) .

ويطير بالقلوب حتى قال أبو الفتح عثمان بن جنى : المولدون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ .

فإن كان المتقدمون قد استقلوا بصحة الأداء ومثانة التعبير وحجة القول فإن للحدثين فضل المعنى الجيد ، والخيال المحلق ، والفكر المنسق .
وسوف نعرض بشيء من التفصيل لأهم ما طرأ على معاني الشعر وأخيلته ، من مظاهر التأثير بهذه الحضارة وألوانها المختلفة :

١ - التجديد في المعاني القديمة : فقد تناول الشعراء العباسيون معاني السابقين ، فتصرفوا فيها بما توحىه بينتهم وحضارتهم ، وما يمليه تفكيرهم وثقافتهم ، وهوروا فيها بالزيادة والنقص ، والإيجاز والاطناب والإجمال والتفصيل والتوليد والتحليل والدقة والاستدراك ، حتى صبغوها بصبغتهم وألبسوها ثوب الجدة والطرافة ، فبدت جديدة كأنها من صنعهم ، طريفة كأنها من اختراعهم ، وبهذا سبقوا الأولين ، وبذروهم في مضمار التنافس والسباق .

يصف النابغة قدرة النعمان ، ويبين أنه لا منجى منه ولا عاصم ؛ فيقول :
فإنك كالليل الذي هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
فيجد الشاعر العباسي أن الليل والنهار يتساويان فيما يدركان ، وأنه كان ينبغي أن يأتي النابغة بما لا قسم له ، حتى يأتي بمعنى مفرد ، وهكذا يقول سلم الخاسر :

فأنت كالدهر مبثوثاً حباته والدهر لاملجاً منه ولا هرب
ولو ملكك عنان الريح أصرفها في كل ناحية ما فاتك الطلب
ويقول البحرى :

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن ينجبهم من خوف بأسك مهرب

وكان الفرزدق يقول في ناقته :

علام تلفتين وأنت تحنى وخير الناس كلمو أمامي
متى تأتي الرصافة تستريحي من الأنساع والدبر الدوامي (١)
فيجعل جزاءها على بلوغ الممدوح أن يريحها من الأنساع والدبر ،
أما أبو نواس فإنه يسخو في الجزاء سروراً بلقاء الممدوح ، فيطلق راحلته ،
ويحرم ظهرها على الركاب ، ويخلع على المعنى بعد ذلك رداء رقيقاً شفافاً
من اللفظ والأسلوب :

وإذا المطى بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام
وكان الشعراء من قديم يصفون بمدوحهم بالبأس والظفر في القتال ،
ويتخيّلون أن الطير قد ألقت ظفرهم حتى إنها لتتبعهم في كل غزاة ، وتخلق
فوقهم في كل ميدان ، ثقة منها بأنها ستغدو معهم خصاصاً وتروح بطاناً من
لحوم الأعداء ، قال الأفوه الأودي :

وترى الطير على آثارنا رأى عين ثقة أن ستار
وقال النابغة :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهدي بعصائب
جوائح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب
فقال أبو نواس :

تأبى الطير غزوته ثقة بالشعب من جزره (٢)
فكان في إيجازه أبلغ مدحاً وأدق معنى . إذ صرح بأن شعبها سيكون

(١) الأنساع : جمع نسع وهو سير يشد به الرجل . والدبر بفتح الحاء : قرح
الدابة جمع دبرة .

(٢) تأبى : تنتظر . الجزر بالتحريك اللحم أو قطعه .

من لحم أعدائه بقوله (من جزره) ثم إنه لم يكتف بتحليلها وقت الغزوة ، بل جعلها تتأبى الغزو وتتبعه ، أما مسلم بن الوليد فإنه جعل مدوحه يعود الطير الشبيع ، إنها لتتبعه في كل رحلة ولو لم تكن رحلة حرب :
قد عود الطير عادات وثقن بها فمن يتبعه في كل مرتحل
ويجيء أبو تمام فيفصل هذا التفصيل .

وقد ظلت عقبان أعلامه ضحى بعقبان طير في الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقاتل
بجعلها تنهل في الدماء ، وتقيم مع الرايات ، وإن لم تقاتل ، وهذه
زيادات لا بد أن تقع في ذهن شاعر كأبي تمام يحلل ويستوعب .
وكان جرير يقول :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهمو غضابا
فقال أبو نواس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

فجعل مدوحه الفرد العالم كله ، على حين جعل جرير القبيلة هي الناس
كلهم ، على أن العالم أشمل وأعم من الناس ، وهكذا يكون بيت أبي نواس
أبلغ وأعم وأبعد في المبالغة ؛ إلى أنه سبق مساق الحكم والكلمات الجامعة .
ولقد قال المحدث بن غيلان فديماً .

ولست بنظار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء في جانب الفقر
فجاء أبو تمام وقال :

يصد عن الدنيا إذا عن سؤدد ولو برزت في زى عذراء ناهد

فزاد في تصوير الدنيا وإغراء الغنى قوله : « ولو برزت . . . » لجدد

بذلك المعنى ، حتى كاد يستبد به ، وهكذا تحس بحجة القديم ، وطرافة التليد ، وأشعر بحسن تصرف العباسيين في المعاني القديمة ، حتى ليكادون يستقلون بها ، ويستبدون بنسبتها .

٢ — ابتكار المعاني ودقتها : أما المعاني الجديدة التي ابتكروها ابتكاراً واستنبطوها استنباطاً ، وخلقوها خلقاً ، فإنها تعي الحصر ، وتفوق العد . ولا بدع فقد كثرت بكثرة المشاهدات ، وتعددت بتعدد المناظر ، وتنوع بتنوع الحضارة ، وتلونت بألوان الثقافة . فكل ماجد في حياة الشعراء من طبيعة متبرجة ، وحضارة زاهرة ، ومدنية وارقة ، وعادات طارئة ؛ ألهمهم جديد المعنى ، ومبتكر الخيال وكل ما وقع في أفكارهم من ثقافة وحكمة وفلسفة أكسبهم استقصاء المعاني في دقة وعمق تفكير ، ولهذا زخر شعرهم وامتأل أديبهم بكل جديد دقيق .

ألا ترى أبا تمام كيف يجعل عطايا المدوح في حاجة إلى تعويذة ؟
وما تعويذتها ؟ إنها نعمة الطالب ، وسؤال السائل :

تكاد عطاياهم يجن جنونها إذا لم يعوذها بنعمة طالب
وهل كنت تسمع بعشق الأذن قبل بشار :

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحياناً
قالوا : بمن لا ترى تهذى فقلت لهم الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وما رأيتك في هذا التشبيه الجديد : أبو نواس يمدح الخمر ولا يشر بها
خوفاً من الخليفة ، كعدي الخوارج ، يحرص على الخروج ولا يحمل السلاح ؟

فكأنى بما أزين منها قعدى يزين التحكيميا
كل عن حمله السلاح إلى الحر ب فأوصى المطبق الأيقينا
ويقول أبو تمام في فضل الحاسد على المحسود :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أناح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
ويصف أبو نواس كؤوس الصهباء ، فيبعث النشوة في نفوس سادحيه :
في كؤوس كأنهن نجوم دوائر بروجها أيدينا
طالعات مع السقاة علينا فإذا ما غربن يغربن فينا
وهذا مسلم بن الوليد يستحسن إساءة الواشي ، فيأتي بجديد ، ويغرب
في التفكير :

يا واشياً حسنت فينا إساءته نجي حذارك إنساني من الغرق
ولا غرر فهو صاحب المعنى الدقيق والفكر الطريف ، أليس هو القائل :
أما الهجاء فدق عرضك درنه والمدح عنك كما علمت جليل
فأذهب فامت طليق عرضك إنه عرض عززت به وأنت ذليل
وأخيراً يقول ابن الرومي :

نظرت فأقصدت الفؤاد بلحظها ثم انثنت عنه فظل يهيم
فالوت إن نظرت وإن هي أعرضت وقع السهام ونزع من أليم

٣ - استقصاء المعاني وتحليلها : ويتصل بهذه الدقة في معاني الشعر
العباسي ، تحليل المعنى وشرحه وتفصيله ، واستقصاء كل ما يتصل به ،
واستيفاء عناصره وألوانه وظلاله ، حتى كان هذا الاستقصاء يضطر الشعراء
إلى الاستطراد ، ومن هنا طالت أنفاسهم في القصائد طولا يلفت النظر ،
ويدعو إلى العجب . وليس ذلك إلا من أثر الثقافة والفلسفة واتساع
الأفكار ، وتتابع المعاني بتتابع الصور والمشاهدات :

ولقد مرت بنا - وستأتي - أمثلة ، استوفى الشاعر فيها المعنى بتحليله
واستيفاء عناصره ، وهذا مثل لإسحاق بن إبراهيم الموصلی ، يتجلى فيه المعنى
الجديد الدقيق المفصل :

أخاف عليها العين من طول وصلها فأجرها الشهرين خوفا من الحجر

وما كان هجراني لما عن ملامة ولكنني أملت عاقبة الصبر
أفكر في قلبي بأى عقوبة أعاقبه فيها اترضى فما أدرى
سوى هجرها والهجر فيه دماره فعاقبته فيها من الهجر بالهجر
فكنت كمن عاف الندى أن يبله فعاذ من الميزاب وانقطر بالبحر

وكان يكفي أبا تمام أن يكذب المنجمين الذين قالوا : إن المعتمهم لا يفتح
عمورية ، فيقول : إن السيف أصدق من الكتب والمنجمين ، ولكنه أخذ
يشرح ويحلل على هذا النحو :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
يبض الصفائح لاسود الصفائح في متونهن جلاء الشك والريب

وهكذا كانوا يشبعون المعنى ، ويحللونه ويفصلونه ، ويحتجون بالبراهين
والأدلة ، ويعرضونه في صور مختلفة ، ومعارض متعددة ، ويقلبونه على كل
وجه ، ويسلكون به كل سبيل . وذلك كله بفضل ما أمدتهم به الفلسفة والعلوم
العقلية من قدرة على التفسير والتحليل ، وما أسعفتهم به الحضارة من وفرة
المعاني والأفكار .

وما زالت هذه الظاهرة تشيع وتوسع حتى بلغت نهايتها — وقد تم التأثير
بالثقافة والحضارة — في أواخر هذا العصر . فرأينا قصائد الشعراء تطول
طولا عجيبا ، بسبب هذا التحليل والتفصيل ، وإشباع المعاني بالأدلة ، وعرضها
في مختلف الصور ، وحسبك أن تقرأ قصائد ابن الرومي لترى كيف
استقرت هذه الظاهرة في شعره .

قال يحسن الحقد ويؤكبه :

لئن كنت في حفظي لما أنام ودع من الخير والشر انتحييت على عرضي
لما عبتني إلا بفضل إبانة ورب امرئ يزرى على خلق محض

ولا عيب أن تجرى القروض بمثلها بل العيب أن تدان ديننا ولا تقضى
وخير سجيات الرجال سجية توفيك ماتسدى من القرض بالقرض
إذا الأرض أدت ربيع ما أنت زارع من البذر فيها فهمى فاهيك من أرض
ولا الحقود المستكنات لم يكن لينقض وتراً آخر الدهر ذو نقض
وما الحقد إلا توأم الشكر في الفتى وبعض السجايا ينتهين إلى بعض
فحيث ترى حقداً على ذى إساءة ثم ترى شكراً على حسن القرض

٤ - قوة التصوير وبعده الخيال : وقد وجد الشعراء في الحضارة المادية
ينبوعاً ثجاجاً للصور ، وأفقاً فسيحاً للخيال ، وأعاتهم الحضارة العقلية
بأفكارها العميقة ، وخيالاتها المبدعة ، وتصاويرها الفنية ، على أن يأتوا
بكل عجيب يبهر ببراعة الوصف ، ويسحر بروعة التصوير ، ويطير بالألباب
في مطارح الخيال .

يقول بشار في وصف الجيش والقتال وهو أعشى :

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى وبالشوك والخطى حمر ثعالبه (١)
غدونا له والشمس في خدر أمها تطالعنا والطل لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه وتدرك من نجى الفرار مثالبه
كأن مثار التقع فوق رموسنا وأسيافنا ليل نهاوى كواكبه

واقرا هذه الصورة الرائعة للهيبة من جلال الممدوح ، التي صورها
البهترى فاستوفى كل عناصر الإجلال والجلال ، وجمع كل الوان العظمة
والمجد ، إذ صور الحجاب يقومون على سدة الممدوح ، فلا يدخلون أحدا
إلا بإذن ، فلما أذن له ودخل ، لم يدر كيف دخل ، لما طالعه من هيبة ،

(١) الحصى : العدد الكثير ، الشوك جمع شوكة : السلاح ، الخطى : الرمح ،
الثعلب طرف الرمح .

وغمره من جلال ، فانهقد لسانه وبهر جناه ، ولا ينطقه إلا ما آنسه من
بشاشة المدوح ، وتهلل أساريه ، وحينئذ دنا فقبل يده ، بل قبل الندى
في يده ، بل في يد امرىء كريم يحياه ، سباط أنامله :

ولما حضرنا سدة الأذن أخرت رجال من الباب الذى أنا داخله
فأفضيت من قرب إلى ذى مهابة أقابل بدر التم حين أقابله
وسليت فاعتاقت جناحى هيبه تنازعنى القول الذى أنا قائله
فلما تأملت الطلاقة وانثى إلى ببشر آفستى مخايله
دنوت فقبلت الندى في يد امرىء كريم يحياه سباط أنامله

وسنقرأ كثيراً من وصف البحترى الذى تتجلى فيه البراعة وروعة
التصوير ، فلنرجع إلى بشار لنرى تصويره لفؤاد المضطرب وعين الساهر :

كان فؤاده كرة ترى حذار البين لو نفع الحذار
بروعه السرار بكل شىء مخافة أن يكون به السرار
جفت عيني عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار

ونترك هذه الصور الواضحة مع ما فيها من براعة الوصف ، وسهو
الخيال ، ونزود منها بوصف البحترى لؤلؤ الثغر ولؤلؤ الحديث :

ولما التقينا واللوى موعد لنا تعجب رأى الدر حسناً ولاقطه
فن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساطه

إلى أبى تمام حيث يمثل مذهب الغموض فى الصور ، والإغراق فى
التصوير ، والشروء فى الخيال ، وحيث تطالعنا فى شعره تلك الأشباح
المتجهمه والصور القائمة ، على ما فيها من سحر تصوير ، وتهاويل خيال .

ولا بدع فابو تمام يتنفس الدم فى معانيه ، لأنه غرق فى الفلسفة إلى
أذنيه وكان أكثر العمراء تأثراً بها . وإن كان البحترى قد تتلذذ عليه فإن
طبيعته البدوية لم تسخ هذه الفلسفات العميقة ، ومن ثم وقف تأثره به عند

الجوانب الظاهرة لشد برع الشعراء العباسيون في التصوير وتجسيم الخيال، وإلباس المعنويات ثوب الحسيات ، وإنطاق الطبيعة والجماد ، حتى ترى الروض يتحدث ؛ والجماد يتحرك . ولكن أباتمام أوغل في ذلك التجسيم ، ولم يكتف بذلك ، بل ركب في الصور ، ومزج بين الاستعارات . فالصورة تعتمد على صورة ، والاستعارة تتكئ على استعارة ، وكل ذلك يلتف على ما كان يولع به من جناس وطباق ونحو ذلك من ألوان التصنيع ، حتى جمل الغموض معظم صورته .

قال يصف السحاب ويخلع عليه صفات الأحياء :

سحاب إذا أقت على خلفه الصبا يدأ قالت الدنيا أنى قاتل المحل
إذا ما ارتدى بالبرق لم يزل الندى له تبعا أو يرتدى الروض بالبقل
إذا انتشرت أعلامه حوله انطوت بطون الثرى منه وشيكا على حمل

وقال يصف روضا :

ومعرس للغيث تخفق فوقه رايات كل دجته وطفاء
نشرت حدائقه فصرن مآلفاً لطرائف الأنواء والأنداء
فسقاه مسك الطل كافور الندى وانحل فيه خيط كل سماء

فقد عبر عن السحب التي يتلأل البرق في أطرافها بالرايات المطرزة التي تخفق بالريح . ولكن ماهذه الصورة المركبة في الشطر الأول من البيت الثالث ؟ أما مسك الطل فهو رائحة الروض العطرية التي تكون بعد الطل ، وأما كافور الندى فهو الرشاش الذي يكون على أوراق الروض كالـكافور، إنها صورة معقدة على كل حال .

وانظر كيف يعطى لصوره ألوانا حسية ملبوسة :

كان سواد الليل ثم اخضراره طيالة سود لها كقف خضر
، لا تبعدن أبداً وإن تبعد فـ أخلاقك الخضر الربى بأباهد

، نضى ضوءها صبح الدجنة فانطوى ليهجتها ثوب الظلام المجرع
، راحت غواني الحى عنك غوانيا يلبس نايًا تارة وصدودا

واقرا هذا التشخيص :

حتى إذا اسود الزمان توخوا فيه فغودر وهو فيهم أبلق
، لدى ملك من أيكة الجود لم يزل على كبد المعروف من فعله برد
، سلوت إن كنت أدري ما تقول إذن جعلت أنمله الأحزان فى أذنى
، تطل الطلول الدمع فى كل موقف وتمثل بالصبر الديار الموائل
، درارس لم يحف الربيع ربوعها ولا مر فى أغفائها وهو غافل

وأخيرا يقول فى وصف الربيع :

لما بكت مقل السحاب حيا ضحكت حواشى خده الترب
فكأنه صبح تبسم عن سحر ضئيل فى ضحى شحب

فإذا انتهينا إلى آخر هذا العصر ، وجدنا فن التصوير الشعرى يستكمل
كل أدواته وأصباغه ، ورأينا الشاعر يتخير لموضوعه ما يناسبه من المرأى
المتعددة والمشاهد المتتابعة ، التى تمر أمام ناظره ، ورأينا الحضارة وقد
صقلت حسه ، وفتقت ذهنه ، والثقافة وقد أورثته الدقة وعمق التفكير ،
حتى نرى فنه قد استوى واستكمل عناصره . وهذا ابن الرومى يسלט عدسة
تصويره على أحذب ، فلا يترك عنصراً ولا يدع لونا أو ظلا ، وإنما يستوفى
كل ذلك حتى تخرج الصورة ناطقة واضحة ، فعنق الأحذب قصير لقصر
أخذه أى عرقه ، ومؤخر رأسه غائب وغائض بين كتفيه ، وهو متوقع
أن يصفح ، وذلك مما يزيد فى انكاشه خوفا من الصفح بل كأنه صفع قبل
ذلك ، فذاق ألم الصفح فهو لذلك أشد انكاشا :

فصرت أخادعه وغاب قذاله فكأنه متربص أن يصفعما

وكأنما صفت قفاه مرة وأحس ثانية لها فتجسما
أرأيت إلى هذه الصورة الناطقة؟ . . . إنه فن التصوير عند ابن الرومي ،
اقرأ تصويره لمخن قبيح الصوت :

وتحسب العين فكيفه إذا اختلفا عند التنخم فكى بغل طحان
وتصويره للبخیل :

يقتر عيسى على نفسه وليس يباقي ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

هـ - التأثر بالفلسفة والثقافات المختلفة : ومن الظواهر التي نلاحظها
في الشعر العباسي تأثره في معانيه بالأفكار الفلسفية العميقة ، والثقافات
المتنوعة التي اصطبح بها هذا العصر ، ولو ذهبنا نتتبع هذه الظواهر لاطال
بنا البحث ، وتشعبت مسالكه ، فحسبنا أن نعرض بعضها الآن :
يقول أبو تمام :

فلوصح قول الجعفرية في الذي تنص من الإلهام خلناك ملهما
والجعفرية قوم من الشيعة ينسبون إلى جعفر بن محمد ويدعون له الإلهام .
ويقول أبو نواس متأثراً بالثقافة الهندية التي عمادها النجوم والرياضة ،
في وصف الخمر :

تخمرت والنجوم وقف لم يتمكن بها المدار
يريد أنها تخمرت حين خلق الله الفلك ، وأصحاب الحساب والنجوم
يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقعة في برج ، ثم
سيرها من هناك . ويقول :

قل لزهير إذا حدا وشدا أقل وأكثر فأنت مهذار
سخنت من شدة البرودة حتى صرت عندي كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفتي كذلك الثلج بارد حار

والهند يزعمون أن الشيء إذا أفرط في البرد عاد حاراً .

وكان تأثير الثقافة الفارسية واضحاً في الحكم الكثيرة التي كانت تنقل عن الفرس ، حتى يُقال إنه اجتمع في ديوان صالح بن عبد القدوس ألف مثل للعرب وألف مثل للعجم ، كما كان تأثيرها جلياً في الصور والأخيلة الدقيقة ، إذ كان لشعراء ينظمون ما يتسرب إليهم من الصور الفارسية ، على نحو ما ذكروا من أن كسرى كان يقول في وصف الزرجس : إنه ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر ، فنظم ذلك شاعر عباسي ، وقال :

وياقوتة صفراء في رأس درة مركبة في قائم من زبرجد
كان بقايا العلق في جنباتها بقية دمع فوق خسد مورد

ويقول أبو العتاهية في الزهد والحكم :

يا عجباً للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا إلى غيرها فإتاما الدنيا لهم معبر
لا نخر إلا نخر أهل التقى غداً إذا ضمهم المحشر
عجبت للإنسان في نخره وهو غداً في قبره يقبر
ما بال من أوله نطفة وجيفة آخره يفخر

أما الثقافة اليونانية فهي أعمق أثراً ، وأوسع مدى في معاني الشعر . لما امتازت به من الدقة والعمق والتحليل : فهذا نوع من الغزل الواهم يتأثر فيه الحسين بن الضحاك بعناصر أفلاطونية ، وتظهر فيه الصياغة الذهنية :

إن من لا أرى وليس يراني نصب عيني بمثل بالأمانى
بأبي من ضميره وضميري أبدأ بالمغيب ينتجيان
نحن شخصان إن نظرنا روحاً ن إذا ما اخترت يمتزجان
فإذا ما هممت بالأمر أو هم بشيء بدأت وبداني

كان وفقاً لما كان منه ومنى فكأنى حكيمته وحكائى
ويقول أبو نواس فى الخمر :
وقد خفيت من لطفها فكأنها بقايا يقين كاد يذهب الشك
ويقول :

صفت وصفت زجاجتها عليها كعنى دق فى ذهن لطيف
ولقد حكى الأمدى أن بعض نقدة الشعر سمع قول العباس بن الأحنف:
وصالكمو هجر وحبكمو قلى وعطفكمو صد وسلكمو حرب
وأتم بحمد الله فيكم فظاظة وكل ذلول من مراكبكم صعب
فقال : هذا والله أحسن من تقسيمات إقليدس (١) : ويقسم بشار العى
على هذا النحو :

وعى الفععال كى المقال وفى الصمت عى كى السلم
وتستمر فى هذا التتبع ، فتجد الفلسفة بغموضها وعمقها وتناقضها
تسرى إلى المعانى ، فتجتمع بين المتنافر ، وتؤلف بين الأضداد ، وتأتى
بالغريب العجيب . كيف يهلك الشئ نفسه ؟ . يقول أبو تمام :
صيغت له شيمة غراء من ذهب لكنها أهلك الأشياء للذهب
وماذا تنتظر من أبى تمام إلا أن يجعل النور مظلماً ، والظلام منيراً ،
والصحو مطراً . والمطر صحواً :

يبضاء تسرى فى الظلام فيككتسى نوراً وتسرب فى الضياء فيظلم
مطر يذوب الصحو منه وبعده صحو يكاد من التضارة يطر

إنه أبو تمام الذى يجمع بين المتنافرات ، ويأتى بالمعنى الغريب غير
المألوف ، ثم يفرغ هذا الفن الفلسفى فى أوعية البديع .

ويقول بشار :

ليس يعطيك للرجاء ولا الخوف ولكن يلد طعم العطاء
فتجد فكرة طريفة وقعت فى ذهن الشاعر العباسى ، إذ يجعل العطاء
بدون غاية مألوفة .

٦ — استخدام البراهين العقلية وحسن التعليل : وكأنهم أحسوا بهذه
الغرابية غير المألوفة ، وهم فى مجتمع يموج بالحوار والنقاش ، فاحتاجوا
إلى البراهين العقلية ، والأقيسة المنطقية ، يدعون بها المعنى الغريب العميق ،
ويقرّبونه إلى المألوف .

قال بشار يشرح الإغضاء عن هفوات الصديق ، ويبرهن على خطأ تتبعها :

إذا كنت فى كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذى لاتعاتبه
فعلش واحداً أوصل أعاك فإنه مقارف ذنب تارة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأى الناس تصفوه شاربه
ومن ذا الذى ترضى ببيجاياه كلما كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وكان أبو تمام يمدح أحمد بن المعتصم ، حتى قال :

إقدام عمر فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس
فقال بعض الحاضرين : الأمير فوق من وصفت : فارتجل أبو تمام
هذا الدليل :

لا تنكروا ضرى له من دونه مثلاً شروداً فى الندى والبأس
فألقه قد ضرب الأفل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

وأبو تمام هو الذى يقول :

وطول مقام المرء في الحى مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد
فأنى رأيت الشمس زبدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

ويقول :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا إن السماء ترجى حين تحتجب

ويقول البحتري :

دنوت تواضعاً وعلوت مجدا ففسأناك انحدار وارتفاع
كذلك الشمس تبعد أن تسامى ويدنو الضوء منها واشعاع

ويقول :

وقد زادها إفراط حسن جوارها خلالاتق أصفار من الحسن خيب
وحسن درارى السكواكب أن ترى طوالع فى داج من الليل غيب

ولهذا شاع فى شعرهم حسن التعليل ، وكثر فى أديهم كثرة ظاهرة .

قال أبو تمام :

إن ريب الزمان يحسن أن يم- دى الرزايا إلى ذوى الأحساب
فلهذا يحف بعد اخضرار قبل روض الوهاد وروض الروابي

ويقول :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسبل حرب للسكان العالى

وتطرد هذه الظاهرة ، حتى نرى الشعراء يكلفون بها تبعاً لكلفهم
بتحليل المعانى وشرحها ، فنجده ابن الرومى يطالع علينا بمعنى جديد ، إذ يجعل
الإسهاب فى الثناء والمدح هجاء للممدوح ويعلل ذلك أحسن تعليل ، ويفسره بأن
المادح يرى أنه لا ينزع عطاء ممدوحه بسمولة لبخله ، بل لابد من أن يطيل
الأسباب ليصل إليه ، كما يطيل الخليل إذا استقى من شر بعيدة الماء :

وإذا امرؤ مدح امرء لنواله وأطال فيه فقد أطال مجاهه
لو لم يقدر فيه بعد المستقى عند الورود لما أطال رشاه
ووجدناه يقول :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها لاوسع مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه بما سوف يلقى من أذاها يهدد

٧ - كثرة الحكم والأمثال : وقد شاعت الحكم والأمثال في شعرهم ،
اقتباساً مما ترجم عن الفرس ، أو من الثقافات الأخرى ، أو ابتكاراً واختراعاً
واستنباطاً ، وقد كان في شعر صالح بن عبد القدوس ألف مثل للعرب ومثلها
للعجم كما قلنا ، وكان لأبي العتاهية أرجوزة بها أربعة آلاف حكمة .
قال بشار :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافى قوة للقوادم
وماخير كف أمسك الغل أختها وماخير سيف لم يؤيد بقائم
وقال صالح بن عبد القدوس :

لا يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجساهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد إلى جملة كذى الضنى عاد إلى نكسه
وإن من أدبته في الصبا كالعود يسقى الماء في غرسه
حتى تراه مورفاً ناضراً بعد الذى أبصرت من يده

٨ - المبالغة والتهويل : وهى ظاهرة تشيع في شعر المولدين من خالطوا
الفرس أو نبتوا من أصول فارسية ، وللفرس غرام بالمبالغة وولع بالتهويل
والاغراق ، وقد كان لشعرائهم ورجالهم في هذا العصر مقام كبير لدى

الخلفاء ونفوذ عظيم ؛ دفعا الشعراء الآخرين إلى محاكاتهم والتأثر بهم فانساق الجميع إلى المبالغة ، وأكثروا منها في المدح بنوع خاص ، طمعا في جزيل الهبات ، وسنى الجوائز .

وينبغي ألا نغفل سبباً آخر ساعد على المبالغة والغلو ، ذلك هو تراحم المعاني وتفتح آفاقها بتأثير الحضارة ، واتساع مناحي التفكير بتأثير الثقافة والفلسفة ؛ وتسابق الشعراء وتنافسهم في ميدان الخطوة والعتاء .

على أن هذه الظاهرة قد ظلت محتفظة بشيء من التعقل والاعتزان ، حتى كان العصر التالي ، لجانب كل إمكان ، وجافت كل مألوف ، واندفع في تيارها جميع الشعراء .

وكان خلفاء هذا العصر يشجعون على المبالغة ، ولا يطر بهم إلا التحويل ، وقد مر بنا أن الشعراء لما اجتمعوا بباب المحتشم لم يقبل منهم إلا من يحسن أن يقول كما قال منصور النرى في الرشيد .

خليفة الله إن الجود أودية أحلك الله منها حيث تجتمع . الخ
فقام محمد بن وهيب وأنشد قصيدته :

ثلاثة تشرق الدنيا بهجتها شمس الضحى وأبولسحق والقدر

وفها يقول :

فالخلق جسم له رأس يدبره وأنت جارحتاه : السمع والبصر

واقرا رصف أبي تمام للمحتشم يوم عمورية ، وأعجب واطرب لهذه المبالغة : جيش من الرعب يتقدمه إلى الأعداء فيفرعهم ، ونفسه وحدها جيش يغنيه عن قيادة الجيوش :

لم يغز قوماً ولم ينهض إلى بلد إلا تقدمه جيش من الرعب
لو لم يقدهم جحفاً يوم الوغى لغداً من نفسه وحدها في جحفل لجب

ولكنها مبالغة معقولة ، فكم من بطل نصر بالرعب ، وغزا بقوة الروح
وبسالة العزيمة ، ويقول البحتري في المتوكل :

فلو أن مشتاقاً تكلف فوق ما في وسعه لسعى إليك المنبر
فتجد مبالغة ولكنها في حدود الإمكان ، ويقول أبو نواس
في الهجاء :

رأيت قدور الناس سوداً من الصلى وقدر الرفاشيين زهراء كالبدر
يبيتها المبعثي بضائهم ثلاث كمنقط الثاء من نقط الخبر (١)
إذا ماتن ادوا بالرحيل سعى بها أمامهم الحولى من ولد الذر
ولو جثنها ملا عبيطاً جزورها لأخرجت ما فيها على طرف الظفر
ويقول بشار الضخم :

إن في بردى جسماً ناحلاً لو توكت عليه لانهدم
ومهما يكن من شيء فإن هذه المبالغات أهون وأيسر من المبالغات التي
ظهرت فيما بعد في شعر المتنبي وغيره .

٩ - تمحيص الأفكار وترتيبها: وأخيراً لقد تنبأ لشعراء هذا العصر من
أسباب الحضارة والوان الثقافة وعمق الفلسفة ودقة المنطق ، ما نرى أذواقهم
ورقى إحساسهم ، وهذب أفكارهم ، ونسق معانيهم ، فجاءت أفكارهم
محصنة ، وعناصرهم منظمة ، ومعانيهم متسقة مرتبة . نقرأ قصائدهم إلا نجد
نبوا في الفكرة ، ولا خللاً في المعنى ، ولا اقتضاباً في الغرض ، ولا
اضطراباً في السياق ، وإنما نجد القصيدة بناء واحداً وهيكل سليماً ، وموضوعاً
متلاحماً النسيج ، مرتب العناصر .

وقد قرأت وستقرأ كثيراً من القصائد ، يتبين لك فيها حسن الربط بين

(١) يريد أن القدر صغيرة جداً حتى إن حواملها الثلاث كمنقط الثاء .

المعاني لكثرتها عندهم ، وصدورها عن فكر مرتب وخيال مهذب . كما يتجلى لك فيها التمهيص والتهديب من شغفهم بالغوص على المعاني واستيفاء عناصرها وترتيب نتائجها على مقدماتها . وهنا تتجلى براعتهم في الانتقال من غرض إلى غرض ، بما يسمى «حسن التخلص» ، وهو يعتمد خلق المناسبة بين المعنيين ، وإيجاد الصلة بين الغرضين ، حتى يوحد بينهما في رفق ولطف ودقة ، فلا يكون بينهما شرود أو تقطع أو اقتضاب .

استهل أبو تمام قصيدته في مدح المعتصم بوصف الربيع ، ثم تخلص إلى المدح هكذا :

خلق أطل من الربيع كأنه خلق الأمام وهديه المنتشر
وكان أبو اس يقول :

تقول التي من بيتها خف مركبي يعز علينا أن نراك آسير
أما دون مصر للغنى متطلب؟ بلى إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بواد جرت فجري من جريهن غدير
دعيني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيها الخصيب أمير
فنى يشترى حسن الثناء بماله ويعلم أن الثابتات تدور

وقال مسلم في يحيى وجعفر :

أجدك هل تدرين كم رب ليلة كأن دجاها من قرونك تنشر
لهوت بها حتى تجلت بغرة كغرة يحيى حين يمدح جعفر

وقال البحتري :

رياض تردت بالنبات مجودة بكل جديد الماء عذب الموارد
إذا راوحها مزنة بكرت لها شآبيب مجتاز عليها وقاصد
كان يدالفتح بن خاقان أقبلت عليها بتلك البارقات الرواعد

وكان من مظاهر ذلك : العناية بمطلع القصيدة ، وجعله مناسباً للمقام ،
مشيراً للمقصود ، كما في قصيدة «عمورية» ، لأبي تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
والاهتمام كذلك بختامها ؛ وجعله مؤذناً بالفراغ ، شافياً للنفس ، متعباً
للمعنى ، على نحو قول الشاعر :

بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله وهذا دعاء للبرية شامل
وإن كان ذلك لم يظهر بوضوح إلا بعد هذا العصر .

أغراض الشعر

إنما يستمد الشاعر موضوعاته من المجتمع الذى يكتبه ، والآق الذى
يظله ، والبيئة التى تنشئه ، والعصر الذى يعيش فيه . ولا شك فى أن لكل
بيئة مظاهر حياتها ، وظواهر طبيعتها ، ولكل مجتمع أسلوب عيشه ، وطابع
حياته ، ونظام تقاليده وعاداته ، ولكل عصر تأثيره فى حياة الناس وأذواقهم
وعاداتهم وتقاليدهم .

ولهذا رأينا أغراض الشعر تختلف باختلاف البيئة ، وتتقارب بتقارب
الأزمان ، وتتطور بتطور المجتمع ، وتتأثر بالحضارة أو البداوة ، بالجمل
أو العرفان .

وفى العصر العباسى تنوعت مشاهد الحضارة ، وتعددت ألوان الثقافة ،
وتجددت أساليب العيش ، وتولدت بالاختلاط عادات ، وجدت فى المجتمع
تقاليد . ولهذا رأينا أغراض الشعر تتجه اتجاهات جديدة ، وتتخذ طابعاً يلائم
ما يوحى به العصر من موضوعات :

١ - فهناك أغراض قديمة أصبحت لا تلائم أذواقهم ، ولا تنسق مع

مدنيتهم ، وقد وجدوا في مشاهد الحضارة ومظاهر الحياة الجديدة ، ما يثنيهم عنها ولذلك هجروها ، بل سخروا منها كل السخرية . ومن هذه الأغراض : بكاء الديار ، ومناجاة الأطلال ، وتتبع الآثار ، ونعت الناقة ، ووصف الصحراء ، ونحو ذلك من مظاهر البادية . وإن كان بعض الشعراء قد ظل على وفائه للقديم ، ورأى أن القول في هذه الموضوعات إبقاء على التراث العربي ، وحفظ لعمود القصيد .

ولقد رأينا حملة أبي نواس على هذه الموضوعات ، وسخرته منها ، وإحلاله وصف الخمر وإعلان محاسنها محلها . . وما زال سادراً في نشوته وتعبره ؛ حتى حبسه الرشيد فأفاق على ذكر الأطلال ، وصحا على نعت القفار ، ولكنها صحوة مخمور يهذى ويسخر ، حيث يقول :

أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا فقد طالما أزرى به نعمتك الخرا
دعاني إلى نعت الطلول مسالمط تضيق ذراعي أن أرد له أمرا
فسمعاً أمير المؤمنين وطاعة وإن كنت قد جشمتني مركبا وعرا

٢ - وثمة أغراض جديدة لم تكن معروفة قبل هذا العصر ، وإنما خلقها الاختلاط بالأعاجم ، أو أوحى بها مشاهد الحياة والحضارة ، أو استحدثتها بعض المعارف والعلوم . وذلك كالغزل بالمذكر ، ووصف العذار ، والخوض في الدعابة والمجون ، والرمي بالأبنة والذم بالرشوة ، وهجاء المغنين ، والتعصب لبعض أنواع الزهر . . . ثم نظم القصص (١) والحكايات ونظم قواعد العلوم من فقه وغيره ، فيما بعد .

(١) ومنها نظم أبان اللاحق (٥٢٠٠ هـ) لكليمة ودمنة ، وبعد كليمة ودمنة من أدب القصص على لسان الحيوان وقد ترجم الكتاب ابن المقفع من الفهلوية إلى العربية ، ويذكر الجاحظ في الحيوان الجزء السابع ما ورد في كليمة ودمنة من أمثال عن الفيل (٧ : ٩٢ الحيوان) .

٣ - أما الأغراض القديمة الأخرى كالمدح والهجاء والرثاء والغزل بالمؤنث ، والوصف والفخر ، والسياسية والزهد ، والحكمة والمثل ونحوها فقد أكثروا منها ، وتوسعوا فيها وطبعوها بطابع العصر والبيئة ، من التحليل والتفصيل ، والمبالغة والتمويل . وسوف نعرض لمختلف أغراض الشعر في هذا العصر...

الغزل

أما الغزل بالمؤنث فيكاد - مع أنه عرض قديم - يكون كله إباحياً في هذا العصر ، وماذا ننتظر من مجتمع تشيع فيه مفان المدنية ، ومفاسد الحضارة ، وتنتشر مجالى اللهو والعبث والمجون ، إلا أن تستعر فيه الشبهوات ، وتثور الغرائز ، وتتفتح مغايق الميول والنزوات ؟ لهذا كاد الغزل العذرى يموت إلا على بعض الألسنة كالعباس بن الأحنف . أما عامة الغزلين ، فقد تبدلوا في وصف المرأة ، وتعهرروا في الحديث عنها ، وأمعنوا في هتك حجاب العفة ، وأخسوا في تناول العورة ، وأعلنوا كل سر ، وكشفوا كل مستور ، وأذاعوا كل سواة . ألم يقل بشار :

أمتى بدد هذا نقبي وشاحى حله حتى انتثر
فدعيني معه يا أمتا علناً في خلوة نقضى الوطر
أقبلت مفضبة تضربها واعتراها بكجون مستعر
بأبي والله ما أحسنه دمع عين يغسل الكحل قطر

والغزل من أهم أبواب الشعر ، وكان يفتتح به القصيد ، اللهم إلا في القليل ، كعمرو بن كلثوم في معلقته التي بدأها بوصف الراح ، وكأبي نواس الذي دعا إلى افتتاح القصائد بذكر الراح :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة السكرم
وتبعه في ذلك ابن المعتز فقال :

أف من وصف منزل بمكاظ غومل
غير الريح رسمه بجنوب وشمال

شهر امرؤ القيس في العصر الجاهلي بغزله واستمثاره وديبيه ، وفي
العصر الأموي عاش شعراء وقفوا حياتهم وشعرهم على الغزل وحده ، فهم
موكلون بالجمال يتبعونه ويصفونه ويتغزلون به ، كعمر (٢٣ - ٩٣) ، وجميل
وقيس بن ذريح وسواهم . وفي العصر العباسي اشتهر بشار بالغزل ، وكذلك
العباس بن الأحنف (١) ، ولحمدان بن أبان اللاحق قصيدة طويلة في وصف
الحب (٢) ، وكان البحترى أرق الناس نسيباً وأملحهم طريقة لاسيما إن ذكر
الطيف وهو الباب الذي اشتهر به ، ولم يكن لأبي تمام حلاوة توجب له حسن
التغزل وإنما يقع له من ذلك التافه اليسير في خلال القصائد (٣) .

وأسلوب الغزل يمتاز بجماله وسلامته وعذوبته مما لا يصلح شيء منه في
مواقف الجدل وأوصاف الحرب ، وإن كان المتنبي يستعمل ألقاظ النسيب
والغزل في ذلك وهو مما لم يسبق إليه وتفرّد به (٤) . . . ويشيع في الغزل
التهاك وإظهار الصباية .

(١) قصر شعره على الغزل من بين فنون الشعر (١١٧ : ٣ الرافعي) ، وكان
شاهراً ظريفاً مفوهاً منطيقاً مطبوعاً ، وكان صاحب غزل رقيق ولم يكن يمدح
ولا يهجو وإنما كان همه كله في الغزل والوصف (١١٩ طبقات ابن المعتز) ويشبهه
بابن أبي ربيعة (١١٩ المرجع ، ٨٣ : ٤ زهر ، ٣٣٥ الشعر والشعراء ، ٦٧ : ١
العمدة) وكان شاهراً مجيداً غزلاً (٩٢ ناص الخصاص) وأشاد به بشار وأبو
نواس والعلاف (٨٣ : ٤ زهر) ، وهو من أوائل الشعراء الجيدين (٦٧ المثل
الساثر) ونوه دهب بقوله : هي الشمس مسكنها في السماء (٢٦٩ : ١ ديوان المعاني) .

(٢) ٥٧ - ٦٢ الأوراق فسم أشعار أولاد الخلفاء .

(٣) ١١٣ : ٢ العمدة .

(٤) ١٦٤ : ١ اليتيمة .

ولابن المعتز مجال كبير في الغزل، والغزل في شعره فن تسرى الجودة والحياة
والدمامة والرقّة والعذوبة في أعطائه، وهو فيه مجيد صاحب طبع مطبوع
ومملكة موهوبة، ولا بدع في ذلك فقد أفعمت نفسه بألوان الجمال، وأشربت
حبه، وغذيت بمتعه وصباباته ولهوه ولذاذاته، وكان لطيف الحس رقيق
العاطفة ملتهب الإحساس والشعور يسقى شبابه الظامى من ينبوع الحب
المتفجر، ويجد من يئته وعصره حرية تسمح له بالهيام بالجمال والتبتل في
معابد السحر والفتنة، فهدا بألحانه الساحرة أناشيد ناطقة بما في نفسه
وعواطفه من حب ووفاء وما امتزج بروحه وسرى في دمه من هيام وشغف
بألوان الجمال، وفن ابن المعتز في الغزل يقف بجانب فن امرئ القيس وابن
أبي ربيعة والعباس بن الأحنف وسواهم من المجيدين في هذا الباب .
ويقول الصولي : « وهو متقدم في الغزل لأن الشعراء الذين أحسنوا
في الغزل حتى تفردوا به وكان الغزل قطعة من شعرهم قليلون وخاصة من
عمل في المذكر والمؤنث، وهو أول من حصل هذا وجعله فنين، وأضاف
إليه فنا ثالثاً سماه مجونا وكثره حتى تقدم فيه من سبقه وتبعه الناس، (١)،
ومن شعره في الغزل قوله :

يا هند حسبك من مصارمتي لا تحكى في الحب بالظن
وقول في شربة محبوبته :
وقلت تعالى يا شريفة نمتزج كمثل امتزاج الماء والخمر نصفين
ومن غزله قوله :

بان الخليط لم تطلق صبيرا ووجدت طعم فراقهم مرا
وكأنما الأمطار بهمدم كست الطلوع غلاتلا خضرا

هل تذكرين وأنت ذاكرة مشى الرسول إليكم سرا
إن يغفلوا يسرع لحاجته وإذا رأوه أحسن العذرا
فطن يؤدي ما يقال له ويزيد بعض حديثنا سحرا
قالت لأتزاب خلون بها وبكت قبل دمعها النعرا
ما باله قطع الوصال ولم يسمح زيارة بيتنا شهرا
حتى طرقت على مخاطرة أطأ الصوارم والقنا الحرا
باليلة ما كان أقصرها لازلت أشكو بعدها الدهرا

فتجد روح ابن أبي ربيعة في الغزل والحوار ، والتهاك من المرأة على حبه ، وإن كان ذلك مما يذمه النقاد في فن الغزل ، فالعادة عند العرب أن الشاعر هو المتنازل المتهاوت (١) ، وإنما توصف المرأة بالحياة (٢) ، ولكنك مع ذلك تجد في القطعة جمالا لا يعدله جمال في وصف الرسول .

ويقول :

لاتلوموني على حب هند سحرتني إنما الحب سحر
ومن غزله قصيدته :
ياغزال الوادى بنفسى أنتا لا كما بت ليلة الهجر بتا
ومنه قوله :

تعاهدتك العماد ياطلل حدث عن الظاهنين ما فعلوا
فقال لم أدر غير أنهم صاح غراب بالبين فاحتملوا
فلا تحليت بالرياض ولا النور ومغناى منهم هطل

(١) ١١٨ : ٢ العمدة .

(٢) ٢٥٤ ديوان ابن أبي ربيعة والنقاد كثيرا ما نقدوا ابن أبي ربيعة في وصفه لتهاك المرأة على حبه (١١١ : ٢ عمدة ، ٢٥٢ ديوان ابن أبي ربيعة) .

على هذا فما عليك لهم ؟ قلت زفير ودمعة همـل
وأنتى مقفل الضمائر من حب سواهم ماخنت الإبل
فقال هلا تبعتم أبدا إن نزلوا منزلا وإن رحلوا
هيات إن المحب ليس له هم بغير الهوى ولا شغل
تركت أيدي النوى تعودهم وجئتني عن حديثهم تسلا
فقلت للركب لا قرار لنا من دون سلمي وإن أبي العذل
حتى تبدى في الفجر ظعنهم وسائق الصبح بالدجى عجل
فلم يكن بيننا سوى اللحظ والد مع كلام لنا ولا رسل

وتجد هنا رقة الأسلوب وجمال الحوار المبتكر وسحر المعاني ولطافتها
كما يسمو بفضن ابن الممنز في الغزل إلى منزلة عالية .

ومن روائع بشار في الغزل ، قوله وقد نهاه الخليفة المهدي عن الغزل :

يا منظر حسنا رأيته من وجه جارية فديته
بعثت إلى تسومنى ثوب الشباب وقد طويته (١)
واقه - رب محمد - ما إن غدرت ولا نويته
أمسكت عنك وربما عرض البلاء وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئا أبيته
ومخضب رخص البنسا ن بكى على وما بكيته
ويشومنى بيت الحبيد ب إذا ادكرت ، وأين بيته ؟
قام الخليفة دونه فصبرت عنه وما قلته (٢)

(١) تسومنى ، من سام يسوم ، إذا أخذ في الحديث في البيع أو الشراء ،
الشباب استعادة بالكناية ، والمراد به نضارته وبهجته وقتوته ، وذلك كله
كناية عن رغبتها في مغازاته .

(٢) من القلى وهو الحجر ، الإغراض .

وتهاى - الملك الهما م^(١) عن النساء وما عصيته
لايل وفيت فلم أضع عهدا^(٢) ولا وأيا وأيته
وأنا المطل على العدا وإذا غلا الحمد اشتريته^(٣)
أصنى الخليل إذا دنا وإذا نأى عنى نأيته^(٤)
وأميل فى أنس الندي م من الحياء وما اشتهيته^(٥)

وهذا النص من شعر بشار يصور عذوبة أسلوبه ، وافتقانه فى معانيه ، وانتعاهه جانبا خاصا فى شعره يشبه الجانب القصصى الذى اشتهر به فى عصرنا إيليا أبو ماضى وكان بشار شديد الذكاء ، واسع الخيال ، ذا ملك قوية فى الشعر يعد من أكبر شعراء عصره ، وزعيم المحدثين كافة ، ومن أصحاب المعانى المخترعة فى الشعر العربى ، وقد تصرف فى كثير من فنون الشعر ومعانيه .

وكان فارسى الأصل وأبوه فيما يقال من سبى المهلب بن أبى صفرة ، وكان ولاؤه فى بنى عقيل من قيس عيلان ، ونشأ بشار فى البصرة نشأة عربية خالصة ، فأتقن اللغة وبرع فى الأدب ، وكان شاعرا محاورا وخطيبا ، واختلف إلى مسجد البصرة وما كان يقام فيه وفى غيره من مجالس المتكلمين

(١) الهام : العظيم الهمة .

(٢) لم أضع العهد : أى لم أحنث به .

(٣) المطل على العدا : المستمر فى إيذائهم . الحمد : الثناء .

(٤) من الدنو وهو القرب . وأصفا الصديق يصفيه مودته : أخلص ووفى لسعد أخوته . والخليل : الصديق . ونأى : من التأى وهو البعد والمراد به الهجر وقطع المودة .

(٥) النديم : الرفيق والمصاحب ، والمشارك فى الشراب والميل فى أنس النديم : القيام بمؤانسته ، اشتهيته : رغبته فيه ، والضمير يعود إلى الكأس أو الراح وهو مضمحل العلم به من المقام .

وأصحاب المقالات الدينية والسياسية فاضطرب بين هذه المذاهب ، وكاد يستقر رأيه على مذهب المعتزلة ، فقد قنن بواصل بن عطاء زعيمهم ، ومدحه ، ثم وقع الخلاف بينه وبينهم فتركهم وهجأهم واستطار الشريينه وبين واصل .

ولقد كان شاعراً مجيداً تأثر بالشعراء الإسلاميين وأخذ عنهم ، وكان يحب جريراً ويؤثره على غيره ، وقد أدركه وهجاه فيما يقول الرواة رغبة في أن ينوه به جرير فيرتفع أمره ولكن جريراً أعرض عنه . وكان بشار عربي النزعة في الشعر ، حريصاً على متانة اللفظ ورصانته ، فلما يميل إلى تجاوز المألوف في الألفاظ والأساليب والوزن والقافية ، ولكن مزاجه الفارسي قد ترك في شعره أثراً ظاهراً ، فسندحت له خواطر ومعان لم تكن تسنح للشعراء من العرب الخالص ، ولا سيما حين كان يتغزل ، فقد مال في غزله إلى نحو من الفتون والمجون لم يعرفه الغزلون من شعراء الحجاز سواء منهم العذريون وأصحاب المجون ، كان بشار صريحاً في غزله قبيح الصراحة أحياناً .

وكان مسرفاً في الرقة إذا تغزل فذمه الوعاظ والقصاص في وعظهم وقصصهم وشكاه أشراف الناس إلى السلطان فنهاه المهدي عن الغزل فاتمى على كره ونفاق . ومع ذلك كان يعاود الكلام في الغزل كما ترى في هذه القصيدة ، وما زال به إسرافه في الغزل الفاجر والهجاء المقذع والشك المريب حتى كاد له بعض خصومه عند المهدي فأمر بضربه حتى مات سنة ١٦٧ هـ .

وفي شعر بشار قوة اللفظ ومتانته إذا جد ، واللين والفتور إذا تغزل أوهول ، وفيه جودة المعاني ودقتها وحسن الاستقصاء لها ، والرواة يجمعون على أنه زعيم الشعراء المحدثين كافة .

ومن شعر ابن المعتز العباسي في موقف وداع قصيدته :

تعادتك العباد ياطلل خبر عن الظاعنين ما فعلوا

فقال : لم أدر غير أنهم صاح غراب بالبين فاحتملوا
وقال : هلا تبعتم أبدا إن نزلوا منزلا وإن رحلوا
وقدمضت أنفا ، ومنها قوله :

كأنما طار من تحتنا قزع على أكف الرياح ينتقل
حتى تبدى في الفجر ظنهم وسائق الصبح بالدجى عجل
فلم يكن بيننا سوى اللحظ والـ سدمع كلام لنا ولا رسل
كم من عداة أبارهم غضبي فلم أقل أين هم وما فعلوا

وأما الغزل بالمذكر فهو غرض جديد من أغراض الشعر العباسي ،
وقد سرى إليهم من الفارسيين ، وأول من نظم فيه : حماد مجرد ، ووالبة
ابن الحباب ، ثم أبو نواس ، وحسين بن الضحاك ، ويحيى بن زياد ، ومطيع
ابن إلياس ، وغيرهم من الشعراء الإباحيين ، ممن كانوا يلتقون على موائد
الشراب ، وبين أيديهم الغلمان والقيان ، فلا يتورعون عن حرام ؛ وسرت
هذه الموجة إلى الشعراء الغزلين ، فطنى الغزل بالمذكر على شعرهم ، ولذمهم
غيرهم حتى شعراء الغزل بالمؤنث فقلبوا ضمير الأثني إلى ضمير الذكر ؛
وبتأثير ذلك أكثروا من وصف العذار والافتنان فيه ، وقذف الناس
بالمرد ، ونبذهم بالابنة ، وغير ذلك من مجالات الكلام ..

وينكر الجاحظ أن يكون العرب قد عشقوا الغلمان ، أو تغزلوا بالمذكر ،
فيقول في رسالته في « النساء » (١) :

لو تعشق العرب الغلمان ، لنسبوا بهم ، ولجاءهم فيه باب النسب ، ولنهاجوا
به وتفاخروا ، ولتنافسوا في الغلمان ، ولجرى في ذلك ما لا يخفى ، ولحدثت

(١) راجعها في رسائل الجاحظ نشر السندوني .

فيه أشعار وأخبار ؛ والذي يدل على سلامتهم من ذلك هدم هذه المعاني ،
وإن كان هناك شيء من هذا فليس هو إلا في بعض من ينزل قارعة الطريق
أو يقرب الأسواق (١) .

ومن الغزل بالمدح أشعار كثيرة عباسية تروى في كتب الأدب العربي
وفي دراوين الشعراء العباسيين .

يقول الشاعر سعيد بن هاشم الخالد في غلام له (٧) :

| | |
|----------------------------|-----------------------------|
| ما هو عبد لكنه ولد | خولنيه المهمين الصمد |
| شد أزرى بحسن خدمته | فهو يدي والذراع والعضد |
| صغير سن كبير منفعة | تمازج الضعف فيه والجلد |
| في سن بدر الدجى وطلعته | فشله يصطفى ويعتمد |
| ممشق الطرف ككله كحل | مغزل الجيد حليه الجيد |
| أنسى وهوى وكل ما ربتى | مجتمع لى فيه ومنفرد |
| مسامرى إن دجى الظلام فى | منه حديث كأنه الشهد |
| ظريف مزح مليح نادرة | جوهر حسن شراره يقد |
| خازن ماني دارى وحافظه | فليس شيء لدى يفترقد |
| ويعرف الشعر مثل معرفتى | وهو على أن يزيد مجتهد |
| وصيرفى القريض وزان | دنائير المعاني الرقاق منتقد |
| وواجد بى من المحبة والرأفة | أضعاف ما به أجد |
| إذا تبسمت فهو مبتهج | وإن تمررت فهو مرتعد |
| ذا بعض أوصافه وقد بقيت | له صفات لم يجوها أحد |

(١) والنص موجود أيضا في ٢ : ٤١٧ و ٤١٨ أمراء البيان لمحمد
كره على .

(٢) معاهد التنصيص للمباسب مخطوطة برلين رقم ٧٢٢٤ ص ١٥٥ ب .

ويقول شاعر آخر (١) :

ألا يا جامع البصر ة لاخربك اقة
وسقى صحنك الغيث من المزن فرواه
فكم من عاشق فيك يرى ما يتعناه
وكم ظبي من الإنس مليح فيك مرعاه
نصبنا الفخ بالعلم له فيك فصدناه
وكم من طالب للشعر بالشعر طلبناه
فما زالت يد الأيا م حتى لان متناه

يقول أبو نواس :

يا بدعة في مشال يجوز حد الصفات
الوجه بدر تمام بعين ظبي فلاة
والقد قد غلام والغنج ضنج فتاة
مذكر حين يبدو مؤنث الخلوات

ويقول الحسين بن الضحاك في غلام يستحم :

وابأبي أبيض في صفرة كأنه تبر على فضه
جرده الحمام عن درة تلوح فيها عكن بفضه
غصن تبدى يثنى على مأكة مثقلة النهضه (٢)
كأتما الرمش على خده طل على تفاحة غضه
صفاته فاتة كلها فبعضها يذكرني بعضه

(١) ٢ : ١٣٠ اليتيمة ، ٦ : ٣١٧ ياقوت الارشاد ، معجم الأدباء .

(٢) المأكة : اللعنة على رأس الورك وللانسان مأكتان .

واستعمل أبو نواس لفظ المذكر في المؤنث فقال :

ياقرا أبصرت في ماتم يندب شجواً بين أتراب
يبكى فيذرى الدمع من نرجس ويلطم الورد بعناب
أبرزه الماتم لي كارها برغم دايات وحجاب (١)
لاتبك ميتاً حل في قبره وابك قتيلاً لك بالباب

المدح

رأينا فيما سبق كيف كان الخلفاء في هذا العصر يتمتعون بالنفوذ الواسع والجاه العريض ، ورأينا كيف كان كلفهم باظهار نفوذهم ، وإعلان هيبتهم ، وإطراء مجدهم ، فقر بوا الشعراء ، وأجزلوا لهم العطاء ، ليعلنوا مفاخرهم على الناس ، ويؤيدوا من هيبتهم في نفوس العامة . فأخذ الشعراء يتنافسون في التمجيد ، ويتسابقون في التعظيم ، ليحظروا بجزيل العطاء وعظيم الهبات . وقد انتهى بهم ذلك إلى المبالغة في المدح حتى قاربوا الكفر ، والتحويل في الثناء حتى خرجوا عن المعقول .

ولإنما دعاهم إلى هذه المبالغة البالغة، رغبتهم في إرضاء غرور الممدوحين وطمعهم في أن ينالوا أكبر الجوائز وأسناها، فقد كان العطاء على قدر المبالغة ، وكان الخلفاء كما رأينا من قبل يتخرقون في العطاء ، ويسرفون في المنج ، حتى أثرى الشعراء ، واقتنوا الثروات الطائلة ، والضياع العامرة .

ولقد رأينا أن المعتصم لم يقبل من الشعراء إلا من يمدحه بمثل مدح النمرى للرشيد ، حتى أشبع محمد بن وهيب رغبته ، وأرضى غروره .

ومحمد بن وهيب هذا هو الذي قال في مدح الحسن بن سهل .

تعظمه الأوهام قبل عيانه ويصدر عنه الطرف وهو محاذر

(١) الماتم : يجتمع الناس في الخير والشر .

به تُجتدى النعمى وتستدرك المنى وتستكمل الحسنى وترعى الأواصر
قسمت صروف الدهر بأسا ونائلا
فمالك موتور وسيفك واتر
ولو لم تكن إلا بنفسك فاخرا لما انتسبت إلا إليك المفاخر

حتى طرب الحسن ونزل عن سريره إلى الأرض ، وقال : أحسنت والله
وأجملت ، ولو لم تقل فى ولا قلت باقى دهرك غير هذا لما احتجبت إلى
القول ، وأمر له بخمسة آلاف دينار ، واقتطعه لنفسه . كما رأينا أن جلساء
المعتصم لم يقنعوا بثبديه أبى تمام له بحاتم فى الكرم ، وعمرو بن معد يكرب
فى الشجاعة ، وإياس فى الذكاء ، فانتقدوه ، حتى اضطر للاعتذار .

ومن صور المدح قصيدة أبى نواس فى مدح الأبهين ويقول منها :

وإذا المطى بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام
قربنا من خير من وطى الحصا فلها علينا حرمة وذمام
ملك إذا علقت يدك بجبله

لا يعتريك البؤس والإعدام

فالبهو مشتمل بيدر خلافة لبس الشباب بنوره الإسلام (١)
سبط البنان إذا احتبى بنجاده فرع الجماجم والسماط قيام (٢)
إن الذى يرضى الإله بهديه ملك تردى الملك وهو غلام (٣)

(١) يريد بالبهو هنا البيت ، ومشتمل : مزدان : ومعنى الشطر الثانى أنه
أعاد للدين سلطانه .

(٢) السبط : السهل الذى لا خشونة فيه ، والبنان أطراف الأصابع
واحدها بنانة . وسبط البنان : الكريم . والنجاد : حائل السيف التى يتعلق بها .
احتبى بنجاده : لبسه ، وفرع الجماجم : علاها . سماط القوم صفهم .

(٣) تردى : لبس الرداء والمراد أنه ولى الخلافة فى .

ملك إذا اعتسر الأمور مضي به رأى يفل السيف وهو حسام (١)
داوى به الله القلوب من العمى حتى أفقن وما بين سقام (٢)
أصبحت يابن زبيدة ابنة جعفر أملا لعقد حباله استحكام (٣)
فسلمت للأمر الذي ترجى له وتقاعست عن يومك الأيام (٤)

والبيت الأول والثاني شديهان بقول الشاعر :

إذا بلغتني وحملت رحلي عرابة فاشرقى بدم الوتين
وقال ذو الرمة :

إذا ابن أبي موسى بلالا بلغته فقام بفأس بين وصليك جازر
وقال عبد الله بن رواحة :

إذا بلغتني وحملت رحلي مسيرة أربع بعبد الحساء
فشانك فانعمى وخلاك ذم ولا أرجع إلى أهلي ورأى
وقال الفرزدق في هذا المعنى :

علام تلفتين وأنت تحتي وخير الناس كلمهم أمامي
متى تردى الرصافة تستريحي من الأتساع والدبر الدوامي

(١) اعتسرت الأمور اشتدت والتوت ، يفل السيف : يثله . والحسام :
السيف القاطع ، يريد أن الأمور إذا صعب حلها كان له فيها رأى نافذ شديد .
(٢) عمى القلوب : ذيفها . السقام بفتح السين المرض .
(٣) زبيدة أم الأمين جاءت به من هارون الرشيد وهي بنت جعفر
ابن المنصور ، الأمل هنا هو المقصود والمأمول . استحكام : قوة . يقول :
صرت أملا يعلق الناس حاجتهم بك فلا يخيب رجائهم ، وقوله (لعقد) إلى
آخر الجملة صفة لقوله أملا .
(٤) تقاعس : تأخر . يقول : إن أيامك خير الأيام .

وقد عاب الرواة ونقاد الكلام قول الشيخ وذى الرمة ، سمع عبد الملك قول الأول فقال : بدست المكافأة حملت رحله وبلغته بغيته فجعل مكافأتها نحرها وقد قال رسول الله للأنصارية التي نجت من الأسر على ناقته صلى الله عليه وسلم فنذرت أن تنحرها : لبئس ما جزيتها . وهما إلى جانب الخطأ في المعنى رديتا الأسلوب يتخذهما النحاة مجالاً لكثير من سخر التأويل . فأما عبد الله بن رواحة . فقد أحسن إليها مع استغنائها عنها ، دعا لها بأن تعيش ناعمة طليقة خالية من الظم لأنها بلغت ما يأمله من الاستشهاد في سبيل الله .

ويقول الفرزدق مخاطباً ناقته : متى تناخى في ساحة أمير المؤمنين تراحمي من عناء الرحيل إلى غيره لأننا نصادف من نداء ما نعيش به أغنياء ، وزاد أبو نواس فأعتق ظمورها من الحمل وحماها من الركوب وجعل ذلك حقاً خليقاً بالرعاية وديننا واجب الأداء ، وكلمة الرجال في بيته تسيء إلى الغرض لأنها تخصص العام وتقيد الإطلاق كما أن حملتي وحملت رحلي في الآيات السابقة حشو جيء بها لإقامة الوزن . وكذلك كلمة زمام في بيت أبي نواس ، وبيت ابن رواحة الأول فيه إطناب ، وكان يفتى عنه أن يقول إذا بلغتني الغاية .

وأبو نواس هو الحسن بن هاني (١٤٥ - ١٩٨ هـ) من شعراء الدولة العباسية ، نشأ في البصرة ، ثم تحول إلى الكوفة ، وأخذ عن والبة بن الحباب وكان والبة شاعراً ماجناً شراً بالخنز و صافاً لها ، ثم انتقل إلى بغداد . وفاق أبو نواس أهل عصره في وصف الخمر ، وكان مستهتراً كأستاذه ، همه الانبعاث في الشهوات وقرض الشعر في أبواب الخلاعة ، ولقد أجاد في جميع فنونه ، وهو من الشعراء القادرين على التصرف في الشعر ، مع متانة الأسلوب وجزالة اللفظ وسلامة النظم ، ويعد من مفاخر العربية والمحسنين إليها ، وتوفي سنة ١٩٨ هجرية .

وهذه هي رائية أبي نواس المشهورة في المدح ، قال أبو نواس يمدح
العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر المنصور :

أيها المتنساب من عفره لست من لبلى ولا سمرة (١)
لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره (٢)
قد لبست الدهر لبس قتي آخذ الآداب من غيره (٣)
فاتصل إن كنت متصلا بقوى من أنت من وطره (٤)
خفت مأثور الحديث غداً وغداً أدنى لمنتظره (٥)
خاب من أسرى إلى بلد غير معلوم مدى سفره (٦)
وسدته ثنى ساعده سنة حلت إلى شفره (٧)

(١) المتناب : القاصد المتردد عليك ، والعفر بضم فسكون وبضمتين : طول
العهد ، والسمر : حديث الليل خاصة ، يتبرأ منه . والمعنى : أيها الزائر بعد
زمان طويل لست من سمارة في لبلى .

(٢) يقول : لا أمنحك من الاتصال بهذه المرأة التي غاتني وستلقى هذا
المصير ، والبيت من قبيل الاستعارة التمثيلية .

(٣) أي صاحبت الدهر حتى تعلت من حوادثه ، وغير الدهر : أحداثه .
(٤) الوطر : الحاجة . والقوى : الأسباب والحبال ، أي اتصل بمن
تحب الاتصال به غيرى فليس بيننا سبب .

(٥) المأثور : المروى . أي خفت ما يرويه الناس من الأحاديث السيئة
في غد ، وإن غداً لقريب .

(٦) الخيبة : ضد النجاح . والإسراء : السير ليلاً . والمدى : الغاية ، والمعنى
خاب من سار على غير هدى ومن لم ينظر في العواقب .

(٧) الشفر : منبت الشعر من الجفن ، والسنة : النوم الخفيف ، وهذا
تكميل لما قبله ، يصف السارى المسافر بأن النوم يحمله على أن يتوسد
ساعده المثنى .

فامض لا تمنن على يدأ منك المعروف من كدره (١)
رب فتیان ربأتهم مسقط العيوق من سحره (٢)
فاتقوا بی ما یریبهم إن تقوی الشر من حذره (٣)
وابن عم لا یکاشفنا قد لبسناه علی غمره (٤)
کنن الشنان فیہ لنا ککمون النار فی حجره (٥)
ورضاب بت أرشفه ینقع الظمان من خصره (٦)
علنیة خوط إسحلة لان متناه المهصره (٧)

(١) المن : ذكر المنعم إحسانه ؛ وذلك مفسد للاحسان ، ومن كلام العرب : المنة تفسد الصنیعة .

(٢) ربأتهم : حرستهم عناية أن یدهمهم العدو ، مسقط : وقت سقوط (العيوق) ، وهو نجم يتلو الثريا ؛ يظهر سحراً ، یفتخر بأنه یحرس إخوانه فی الشدائد .

(٣) یریبهم : یفرهمهم ، یقول : اعتمدوا علی فی دفع ما یحذرون فكننت عند ظنهم .

(٤) کاشفه بالعداوة : أظهره علیها ، والغمر : الحقد ، یقول : أدارى ابن عمی الذی یکنن لی العداوة والبغضاء وأعاشره وكأنی لا أعلم بشيء من أمره .

(٥) کنن : استتر ، والشنان : البغض ، أى توارت البغضاء فی نفسه کتوارى النار فی الحجر .

(٦) الرضاب : الریق ، والظمان : العطشان ، والخصر : البرد ، وینقع : یروی .

(٧) علنیة : سقانیة مرة بعد أخرى ، والخوط : النصن التاعم تشبه به المرأة ، والاسحلة : مفرد اسحل شجر عظیم ینبت بأعلى نجد ، والمهصر جاذب النصن ، یقول : سقانی هذا الریق امرأة لينة كأنها النصن فی تثنها طیعة لجاذبها إليه .

ثم أدنانى إلى ملك يأمن الجاني إلى حجره (١)
تأخذ الأيدى مظالمها ثم تستدري إلى عصره (٢)
كيف لا يدنيك من أمل من رسول الله من نفره (٣)
فاسل عن نوء تؤمله حسبك العباس من مطره (٤)
ملك قل الشيبه له لم تقع عين على خطره (٥)
لا تغطى عنه مكرمة بربا واد ولا خمره (٦)

(١) الضمير المرفوع عائد إلى الحصان الذى قطع الطريق به إلى المدوح .
يقول : بلغنى هذا الحصان مسلكا يحمى اللاجئ إليه ، والحجر : حصن
الانسان .

(٢) تستدري : تلجئ ، والمصر : الملقأ ، أى ينصف الذين يقصدونه
شاكين ، لأنه عادل وسطان محكم .

(٣) النفر : الجماعة ، وهذا البيت معيب لأن حق رسول الله أن يضاف إليه
لا أن يضاف إلى غيره . فكان الأنسب أن يقول من هو من نفر رسول الله ،
فيكتسب هذا الأمير الشرف بالإضافة إلى السيد الرسول الأعظم .

(٤) النوء : النجم ، وكان العرب يربطون بين المطر وظهور نجوم بعينها .
والمعنى : لا تؤمل فى خصب يأتىك به مطر السماء فتدنى العباس خلف من كل
مطر ، وغنى عن كل غيث .

(٥) الخطر : المثل ، يقال هذا خطر له أى مثله ، وقل هنا : معناه فقد
وعدم ، أى لا شبيه لهذا المدوح ولن تقع عين على نظير له .

(٦) لا تغطى : لا تتوارى ولا تستتر ، والرّبى ما ارتفع من الأرض واحدها
ربوة ، والخمر : ماوارك من شجر وغيره ، والمعنى : أنه لا يترك مكرمة إلا فعلها
ولا هنيعة إلا أتمها وأحسنها .

- سبق التفريط رائده وكفاه العين من أثره (١)
وإذا حج القنا علقا وتراعى الموت في صورته (٢)
راح في ثنبي مفاضته أسد يدمى شبا ظفروه (٣)
تتأني الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره (٤)
وترى السادات مائلة لسليل الشمس من قره (٥)
وكريم الخال من يمن وكريم العم من مضره (٦)
فهم شتى ظنونهم حذر الممكنون من فكره (٧)

(١) التفريط : مصدر فرط رسوله : قدمه وأرسله ، والراند : الرجل يرسله أهله يلتمس لهم منزلا خصباً ، يقول : إن العباس رائده - أى الراند منه - يسبق الرسول ويعرف ببصيرته المستور ، ومعنى الشطر الثاني أنه لقوة بصيرته يعرف الأمور بذاتها فلا يحتاج إلى آثارها التي تعينه في المعرفة .

(٢) حج : لفظ ورمى ، والقنا . الرماح ، المفرد قناة ، العلق : الدم ، وتراعى الموت الخ : أى ظهر الموت في أشكاله المتباينة ، فطعين بالرمح ومضروب بالسيف وصريع .

(٣) الثنيان : مثنى ثني بكسر فسكون وهو ما كف من طرف الثوب . والمفاضة الدرع الواسعة . والشبا : جمع شبابة وهي حد السيف أو السنان في طرفه ، يقول : إنه يعود من الحرب مدرعاً كالأسد وقد احمرت ثيابه من دماء الأعداء .

(٤) تتأني : تتعمد وتنتظر . والجزر : قطع اللحم .

(٥) سليل : وليد ، والمعنى المولود من أمه التي هي كالشمس عن أيه الذي هو كالقمر ، وخبيره (قره) للمدوح أو لوالده .

(٦) المدوح خاله يعنى وعمه مضرى .

(٧) شتى : متفرقة متنوعة ، يقول : إن السادات متنوعو الأفكار عما يضمه هو بالنسبة لهم وما يقضى في شئونهم ، غفافة منه وإجلاله .

ومن دراسة هذه القصيدة نجد أبا نواس يؤثر فيها الغريب ، وكأنه أراد أن يرضى أبا عبيدة والأصمعي وأضراجهما من اللذين يحفلون بغرابة اللفظ أو يظهر لهم أنه لا يقل عنهم علماً باللغة وحنفاً لها وهي على ذلك حاملة بالاستعارة الحسنة والأمثال السائرة والمعاني النادرة . يبرز ذلك كله في أسلوب جيد ولفظ جزل ووزن راقص يصلح للغناء والتلحين .

وأحب أن أقف معك عند هذا البيت :

تتأني الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره

وأوازن بينه وبين قول النابغة :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طيري تهتدي بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب

أراد كل واحد من الشاعرين أن يصف الممدوح بأنه قاهر لعدوه ظاهر عليه يتركه عند اللقاء مضرجاً بالدماء، طعاماً لآكلات اللحم من الطير . وأن الطير قد علمت ذلك فهي تتبعه في غدوه إلى القتال واثقة أنها سترجع بطاناً من لحوم أعدائه الذين قتلهم . وقد عمد النابغة إلى وصف شجاعة الممدوح بأن الطير تعلم أن الظفر للمدوح على عدوه فذكر ذلك صريحاً وكنى عن طمئنها في اتساع رزقها عليها بصحبتها له في غدوه إلى الحرب ، وعكس أبو نواس فنص على هذه الثقة ، ودل على قهره لمن ناواه بطريق الفحوى .

وأبو نواس وإن كان متبهماً فقد زاد على النابغة بفضل إيجازه وخفة وزنه وباختيار ألفاظه فكلمة (تتأني) تدل على التقرب والانتظار وأنها مستشرقة لذلك متشوقة إليه ، وكلمة الطير أشمل من عصائب طير ، وكلمة ثقة بالشبع لا يقابلها في كلام النابغة ما يدل على معناها ، وكلمة جزره تدل على أن عدوه عند الحملة به ير بمنزله الإبل تنحر والشباهة تدحج قد استسلمت للقضاء المحتوم

والقدر النازل ، وكلمة « أول غالب » ، في كلام النابغة أضعفت المراد لأنه من الجائز أن يكون أول الحملة له وآخرها عليه ، وغاية القول أن النابغة وإن كان قد سبق فإن أبا نواس قد أحسن في الاتباع وزاد .

وما عيب على أبي نواس في هذه القصيدة قوله :

كيف لا يدريك من أمل من رسول الله من نفره

يروى أن راوية أبي نواس قال عندما سمعه ينشد هذا البيت : إنه كلام ردىء موضوع في غير موضعه لأن سيدنا رسول الله أجدر أن يضاف إليه ولا يضاف هو إلى أحد ، فقال له أبو نواس : ويلك إنما أردت أن رسول الله من القبيل الذى هو منه ، كما قال حسان :

وما زال في الإسلام من آل هاشم دعائم عز لاترام ومفخر
بها ليل منهم جعفر وابن أمه على ومنهم أحمد المتخير

وقال أبو تمام يمدح أبا العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب :

وركب كأطراف الأسننة عرسوا على مثلها والليل تسطو غياهمبه (١)
لأمر عليهم أن تم صدوره وليس عليهم أن تم عواقبه (٢)
على كل موارد الملاط تهدمت عريكته العلياء وانضم حالبه (٣)
رعته الفيافي بعد ما كان حقبه رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

(١) أطراف الأسننة : أسنة الرماح . عرسوا : نزلوا ليلا . يقول إن هؤلاء الركب ركبوا على مثل أسنة الرماح وهي كور الجمال التي تشبه الأسننة في الصلابة والمضاء .

(٢) أمى هؤلاء الركب ركبوا لأمر وهو نيل العطاء من الممدوح .

(٣) الملاط : عضد البعير والموار : المتحرك . والحالب : عرق يتصل بأسفل البطن وهو كنية عن الضمور .

إليك جزعنا مغرب الملك كلما

- هبطنا ملا صلت عليك سباسبه (١)
إلى سائب الجبار بيضة ملكه وآمله غاد عليه فسالبه (٢)
وقد قرب المرمى البعيد رجاؤه وسهلت الأرض العزاز كتابه
سما للعلا من جانبيها كليهما سمو عباب الماء جاشت غواربه (٣)
فقول حتى لم يجد من ينيله وحارب حتى لم يجد من يحاربه
وأين بوجه الحزم عنه وإنما مرأتى الأمور المشكلات تجاربه (٤)
أرى الناس منهاج الندى بعد ما عفت
مهايمه المثلى ومحت لواجه (٥)
ففى كل نجد فى البلاد وغار هواهب ليست منه وهى مواهبه (٦)
إذا ما امرؤ ألقى بربعك رحله فقد طالبتة بالنجاح مطالبه (٧)

(١) جزعنا الأرض . قطعناها عرضا ، ومغرب الملك . الشام ، وكان أبو تمام بها وكان بمدوحه بخراسان ، والملا . الصحراء ، وصلت عليه . أثنت عليه ، والسباسب جمع سبب . الأرض للمستوية .

(٢) بيضة الملك . حوزته وأصله ، وآمله طالب العطاء منه ، يقول : إنا سرنا إلى من يسلب الجبار ملكه وطالب العطاء منه يسلبه ماله ، فهو سائب ملك الجبار ومسلوب المال من الطالبين .

(٣) يريد بجانبي العلا الشجاعة فى الحرب والكرم ، والعجاب معظم الماء وجاشت زخرت وغواربه أعلى أمواجه .

(٤) أين بوجه الحزم أى كيف يشكل عليه الحزم وتجاربه مرآة للمشكلات ومرأتى جمع مرآة .

(٥) المهايع والقواحب الطرق الواضحة .

(٦) لما علم الناس الكرم كانت هباتهم ليست منه وهى فى الحقيقة منه لأنه هو الذى عليهم .

(٧) أى من زل هتك وأنى رحله بملك من نوح مطلبه .

وهكذا كان المدح يهز أعطافهم ، ويشير أريحيتهم ، ويستدر عطاءهم
وهكذا كان الشعراء يمعنون في المبالغة ، ويهولون في تصوير الممدوح ،
لأنهم يرون ذلك السحر الذى يخلب العقول ، والرقى التى تختلب الصلوات ،
وكان من أثر ذلك أن وجدنا بعض الشعراء تغريهم كثرة العطاء ويهون
عليهم أمر الدين ، فيدونون من الشرك أو يقعون فيه كما قال أبو نواس :
وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

وكما يقول :

حتى الذى فى الرحم (لميك صورة) لنؤاده من خوفه خفقان

وقد ظل الشعراء يببالغون فى المدح ، ويفرقون فى الثناء ، وينافس بعضهم
بعضا فى ذلك ، حتى رأينا هذه الظاهرة تشيع وتتسع فيما بعد ، وتبلغ نهايتها
فى الغلو والتحويل ، ولقد ذكروا أن المستعين بالله قال لشعرائه : لا أقبل
إلا من قال مثل قول البحرى :

ولو أن مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لسعى إليك المنسبر

فقال البلاذرى : قد قلت فىك أحسن مما قال البحرى ، فقال مات ،

فأنشده :

ولو أن برد المصطفى إذ لبسته يظن اظن البرد أنك صاحبه
وقال وقد أعطيته ولبسته نعم هذه أعطافه ومناكبه

فقال المستعين : ارجع إلى بيتك وافعل ما أمرك به ، فرجع ، فبعث
إليه سبعة آلاف دينار ، وضمن له كفايته مدة حياته .

شعر السيامة والعصية

١ - ورثت الدولة العباسية ما خلفه العصر الأموى من إحياء العصيات
بين الجباية والمضربة ، فقد بقيت هذه الأحقاد مضطربة ، لا ينجب لها ضرام

ولا تبدأ ثورة . ومن ثم أخذ شعراء الفريقين يترشقون بالهجاء ويتساجلون بالفخر . وكان من شعراء اليمانية : مسلم بن الوليد ، وأبو نواس ، ومن المضرية الحكم بن قنبر ، قال مسلم يفاخر قريشاً :

فاخرتنا بما بسطنا لها الفخـ ر قريش وغرنا مستعار
ذكرت عزها ، وما كان فيها - قبل أن تستجيرنا - مستجار
إنما كان عزها في جبال ترتقيها كما ترقى الوبار (١)
أيها الفاخرون بالعز والعز لقوم سواهمو والفخار
أخبرنا عن الأعر : أأنت صور حين اعتلى أم الأنصار ؟
فلنا العز قبل عز قريش وقريش تلك الدهور تجار

٢ - وكان الموالي في العصر الأموي يكونون الحقد للعرب ، ويضمرون لهم العداوة ، بسبب احتقار الأمويين لهم ، وترفعهم عنهم ، وقد هموا بالدفاع عن أنفسهم ، والإشادة بمفاخرهم ، وتعداد مثالب العرب ، ولكن حريتهم كانت مكبوتة ، بحيث لم يجترأ على إعلان ذلك منهم إلا القليل .

فلما تسمعوا نسيم الحرية في العصر العباسي ؛ واعتد الخلفاء بهم هذا الاعتداد الذي عرفناه ، بدأوا يجهرون بالعداوة ، ويعلنون المثالب ، ويذيعون مفاخرهم وأمجادهم . ومن هنا أخذت الشعوبية تظهر بوضوح بين العرب والعجم ، بحيث يصح اعتبارها غرضاً جديداً من أغراض الشعر . وكان من شعراء الموالي الشعوبيين : بشار وديك الجن والحريبي والمتوكلي .

٣ - وكان الشعر السياسي يأخذ مكانه بين هذه العصبيات ، ويحتل أرفع المنازل ، لأنه يتصل بسياسة الدولة ، ويتعلق بالخلافة .

كان لبني العباس شعراء يعتمدون عليهم في إذاعة محامدهم ، والاحتجاج

(١) الوبار بكسر الواو جمع وبرة بفتحها وهي دويبة كالسنور .

لهم في استحقاق الخلافة ، وأولوئهم بها درن بنى على . ومنهم : مروان
ابن أبي حفصة وعلى بن الجهم ، وأبان بن عبد الحميد . وكذلك كان للعلويين
شعراؤهم الذين يذودون عنهم ، ويتعصبون لهم ، ويهجون الخلفاء العباسيين ،
ويلاحون شعراءهم المتعصبين . ومنهم السيد الحميري ودعبل الخزاعي ،
ومسلم بن الوليد . قال مروان بن أبي حفصة يخاطب بنى على :

خلو الطريق لمعشر عاداتهم حطم المناكب يوم كل زحام
وارضوا بما قسم الإله لكم به ودعوا وراثته كل أصيد سامي
أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثته الأعمام ؟
وقال الحميري وكان علوياً :

إذا أنا لم أحفظ وصاة محمد ولا عهدده يوم الغدير المؤكدا
فإنى كمن يشرى الضلالة بالهدى تنصر من بعد التقي وتهودا
ومالى وتيم أو هدى وإنما أولو نعمتى فى الله من آل أحدا
وإن امرأ يلحى على صدق ودم أحق وأولى فيهمو أن يفندا

ولقد أحسن الرشيد إلى دعبل ، وأعطاه عشرة آلاف درهم ، وخلع
عليه وأركبه ، حين سمع بعض المغننيات تغنى من شعره :

أين الشباب وأية سلكا لا أين يطلب ضل بل هلكا
لا تعجبي يا سلم من رجل ضحكك المشيب برأسه فسكى
ياليت شعري كيف يومكا ياصاحبي إذا دمي سفكا ؟
لا تأخذوا بظلامتى أحداً قلبي وطرفي فى دمي اشتراكا

فلم يخفف هذا من عصية دعبل للعلويين ، ولم تنسه المكافأة السخية
حقدته على العباسيين . فلما مات الرشيد قال يمدح أهل البيت ويهجو ، :

وليس حى من الأحياء نعلمهم من ذى يمان ولا بكر ولا مضر

إلا وهم شركاء في دماهمو
قتل وأسر وتحريق ومنهبة
أرى أمية معذورين إن قتلوا
أربع بطوس على القبر الزكي إذا
قبران في طوس خير الناس كلهمو
ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا
هيئات كل امرئ رهن بما كسبت
كما تشارك أيسار على جور^(١)
فعل الغزاة بأرض الروم والخزور^(٢)
ولا أرى لبني العباس من عذر
ما كنت تربيع من دين علي وطر
وقبر شرمو ؛ هذا من العبر^(٣)
على الزكي بقرب الرجس من ضرر
له يداه نخذ ماشئت أو فذر

الوصف :

الوصف (٤) تصوير خواص الأشياء الحسية والمعنوية (٥) ، أو هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات (٦) ، وأحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثله عيانا (٧) ، وما استوعب أكثر معاني الموصوف حتى كأنه يصوره لك (٨) .

والوصف أكثر أبواب الشعر العربي ، وكثير من النقاد يرى أن الشعر

(١) الأيسار : لاهبو الميسر ، والجزر : النوق يقامرون عليها .

(٢) الخزور بفتح الخاء والزواى جيل من الناس ضيقو الميون .

(٣) يريد قبر موسى الكاظم .

(٤) ويعد ابن رشيق الطرد والخريبات من باب الوصف (٢ : ٢٨٠) العمدة) ويتابعه في ذلك كثير من النقاد ، ويمدون أيضا شعر الطبيعة من باب الوصف

(٢٥٢ التوجيه الأدبي) .

(٥) الأسلوب للشايب .

(٦) ٧٠ قد الشعر .

(٧) ٢٧٨ : ٢ العمدة .

(٨) ١٢٣ صناعتين .

إلا أقله راجع إلى باب الوصف (١) ، وقد وصف شعراء الجاهلية كل ما وقعت عليه أعينهم من شتى ألوان يبتهم التي عاشوا فيها ومظاهر الحياة التي ألفوها في هذه البيئة ، وكان امرؤ القيس وأبو دؤاد وطفيل الغنوي والنابعة الجمعدى من وصاف الخيل (٢) كما كان طرفة وأوس بن حجر وكعب ابن زهير ٢٤٤ هـ ، والشماخ من وصاف الإبل (٣) وكان عبيد بن الأبرص مجيدا في وصف المطر (٤) ، واستمر الأمر كذلك في العصر الإسلامي ، وانفرد بعض الشعراء بالتفوق في بعض الأوصاف ، فكان الشماخ من أوصف الناس للقوس والخمر (٥) ، وكان ذو الرمة أوصف الناس لومل وهاجرة وفلاة وقرادوحية (٦) وأحسن الناس وصفا للمطر (٧) ، ويذكر بعض الباحثين أنه يكاد يكون أكبر شعراء الوصف في العصر المتقدم كله (٨) ، وكان ابن أحرر وهو إسلامي قديم وشاعر مجيد وصافا للحيات وعلى قوله احتندت الشعراء (٩) وللتغلي أجود قصيدة قيلت في وصف القط (١٠) ،

-
- (١) ٢٧٨ : ٢ الممددة : ٢٥١ التوجيه الأدبي .
(٢) اقرأ وصف الجوارى الخمس لخيل آباتهن (١٧٨ : ١ الأملى) ،
ومقصودة أبي صفوان الأسدي في وصف الخيل (٣٤٠ : ٢ الأملى) .
(٣) ٢٨٠ : ٢ الممددة . ١٢٥٠ : ٣ الرافعي .
(٤) راجع قصيدتيه الخائية والقافية في وصف المطر (١٧٣ : ١ الأملى :
١٧٨ : ١ الأملى أيضا) واجمع وصف الأعراب للمطر (١٧١ و ١٧٣ :
١ الأملى) .
(٥) ١٠٩ الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ٢٠١٠ : ٢ الممددة .
(٦) ٢٧ الشعر والشعراء (٧) ٣٠ المرجع .
(٨) ٢٥٢ التوجيه الأدبي .
(٩) ٣٧ المؤلف .
(١٠) راجع ١٦٩ : ٥ الحيوان .

ولعميد بن أيوب العنبري إجابة وشهرة في وصف الصحارى والمجاهل
وما فيها من حياة وكائنات (١) ، وكان مزاحم العقيلي ينعت الفلوات فيجيد
وشهد له بذلك الفرزدق وجريرو والأخطل عند عبد الملك (٢) ، وكان الراعي
أوصف الناس للإبل (٣) ، كما كان الفرزدق والخطيبه يجيدان صفات الخيل
والقسي والنبل (٤) ... وفي العصر الجاهلي هجر الشعراء الأوصاف التقليدية
في الشعر العربي فدعا مطيع إلى وصف الجمال لا إلى وصف المهامه والقفار:

لأحسن من يبدنحار بها القطا ومن جبلى طى ووصفكما سلعا
تلاحظ عيني عاشقين كلاهما له مقلة في وجه صاحبه ترعى

ودعا أبو نواس إلى أن تفتح القصائد بأوصاف الراح :

صفة الطول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم
وقال :

ياربع شغلك إني عنك في شغل لاناقي ميك لو تدرى ولا جلى
وتابعه في ذلك ابن المعتز فقال :

أحسن من وقفة على طلل ومن بكاء في أثر محتمل
كأس مدام أعطتك فضلها كف حبيب والنقل من قبل
وقال :

أف من وصف منزل بعكاظ فحومل

وكان أبو نواس شعوبيا في مذهبه كما يقول هو :

عاج الشقي على رسم يساتله وعجت أسأل عن خمارة البلد
تبكى على طلل الماضين من أسد نكلت أمك قل لي من بنو أسد

(١) راجع ٥٠ : ٦ الحيوان .

(٢) راجع ١٥٥ : ٢ ديوان المعاني .

(٣) ٢٨٠ : ٢ العمدة .

(٤) ٢٨٠ : ٢ العمدة .

ومن نعيم ومن قيس ومن يمن ؟ ليس الأعراب عند الله من أحد ولم يكن يدعو إلى فكرة أدبية جديدة بل إلى إدخال أنواع من المجون في الشعر^(١) ، ولكن ابن المعتز كان ناقداً يبحث في الصلة بين الأدب والحياة ويحاول أن يلائم بينهما، وينادى بتحضر الشعر وترك البداوة فيه ، والنقاد يختلفون في هذه المناهج ، فابن قتيبة يدعو إلى المحافظة على سنن العرب في ابتداء القصائد بذكر الديار والنسيب ثم وصف الرحلة إلى الممدوح وانتقال إلى المدح^(٢) . ويرى ابن رشيق أنه لا معنى لذكر الحضرى الديار إلا مجازاً^(٣) ، وأن ليس بالمحدث من الحاجة إلى وصف الإبل والقفار لرغبة الناس في الوقت عن ذلك الصنمات وعلمهم بأن الشاعر إنما يتكلفها والأولى في هذا الوقت صفات الخمر والقيان^(٤) .

وقد أجاد الشعراء العباسيون في الأوصاف إجادة بالغة وجاءوا فيها بالتشبيه المفرط البعيد^(٥) ، على حين كان من قبلهم يجرّون في أوصافهم على الصدق ويسيروا في ظل الحقائق القرينية وهذا مذهب من مذاهب العرب في أن يصفوا الشيء على ما هو وعلى ما شوهد من غير اعتماد لإغراب ولا إبداع^(٦) ، وأشهر قصائد الوصف سينية البحرى التي ليس للعرب مثلها كما يقول ابن المعتز^(٧) ، وبرع ابن الرومى في التصوير وخاصة فيما كان

(١) ١٨٢ مقدمة لدراسة بلاغة العرب لضيف .

(٢) ١٤ و ١٥ الشعر والشعراء .

(٣) ١٩٩ : ١ العمدة . (٤) ١٧٩ : ٢ العمدة .

(٥) راجع ١٢٤ : ٣ الرافعى - والوصف مناسب للتشبيه ومشتغل عليه وليس به ، والفرق بينهما أن الوصف إخبار عن حقيقة الشيء والتشبيه مجاز وتمثيل (٢٧٨ : ٢ العمدة) .

(٦) ١٨٩ الموازنة .

(٧) ٢١٨ : ١ و ٦٤ : ٢ ديوان المعاني ، ٥٠٢ الأدب العباسى لمحمود مصطفى ، ٣٣ رسائل ابن المعتز ، ٧ و ٨ مقدمة ديوان البحرى .

يرجع منه إلى باب التهمك والسخرية ، وكان الحدوني من أصلح الناس شعراً وأقدرهم على الوصف وكان عامة شعره في طليسان ابن حرب^(١) ، واشتهر بجودة الوصف ابن المعتز^(٢) ثم كشاجم بعده^(٣) والصنوبري وهو وحيد نفسه في صفة الأزهار وأنواع الأنوار^(٤) ، وكذلك أبو طالب المأموني^(٥) (٣٨٣ هـ) وله شعر كثير في الأوصاف^(٦) ، وكذلك السري الرفاء وعلى ابن إسحاق الراجحي^(٧) (٣٥٢ هـ) ثم ابن خفاجة وابن حمديس^(٨) ، ولم يكن المتنبى من أهل الأوصاف كما يرى الواحدى^(٩) .

وقد اشتهر ابن المعتز بالإجادة في الأوصاف كلها كما مرى القيس في الجاهليين وأبي نواس والبحري وابن الرومي^(٨) في المحدثين ، ورسم صرراً صادقة لكل ما وقعت عليه عينه من أمور الحياة ومظاهر الحضارة ، وفي وصفه رقة وسلاسة ودقة وتفصيل وابتداع في الأسلوب وتجديد في التشبيه والاستعارة وإكثار من الصور الحية الرائعة ، وقد نمي ملكته في نفسه

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز .

(٢) ٢٧٩ : ٢ العمدة .

(٣) اشتهر بوصف آلات المنادمة (١٢٦ : ٣ الرافعي) ، وكان يجيد الوصف ويحققه (٢٥٠ رسائل البلغاء) ، وله كثير من قصائد في الوصف (راجع ٢٨٢ - ٢٨٥ : ٢ العمدة ، ١٠٤ : ٢ وما بعدها زهر الآداب) .

(٤) ٢٥٠ رسائل البلغاء .

(٥) ١٤٩ : ٤ اليتيمة - وله ترجمة في اليتيمة (١٤٩ - ١٧٩ : ٤) .

(٦) ١٢٠ و ١٢٦ : ٢ الرافعي .

(٧) ويرد عليه العكبري ذاهباً إلى أنه كان يحسن الأوصاف في كل فن (١٦٥ : ٤ العكبري) .

(٨) ويجعلهم ابن رشيق من الذين أجادوا في كل الأوصاف (٢٧٩ : ٢ العمدة) .

دقة حسه واطف شعوره وامتلاء ذهنه بمشاهد الجمال وروائع الخيال ورواق الحضارة ، وأنه يقول الشعر إرضاء لنفسه وتصويراً لحسه مما صرفه إلى الإجابة في هذا الباب الذي تناول فيه وصف ألوان معيشته ومظاهر حياته وأنواع ترفه ولهوه ، وأتى في ذلك بالرائع البليغ والجيد الممتاز وظهر فيه طابعه الخاص من أوصافه الملوكية التي تستمد صور الأوصاف من صور حياته التي كان يجيهاها أميراً وولى عهد وشخصية بارزة من شخصيات أسرة الخلافة العباسية التي أغرقها النرف في عصره إلى حد بلغ في ذلك مبلغ الأساطير .

وهكذا ظهرت براعة العباسيين في الوصف وقدرتهم على التصوير وقد ساعدتهم على الإجابة فيه وأسمو بخياله ومعانيه ، مارددناه من مظاهر الحضارة وألوان الثقافة وكثرة المشاهدات ، مما يفتح أحكام الشعاعية ، وبنى الإحساس بالجمال ، ويقوى ملكة التصوير . ولقد نضجت خواطرهم بكثير من الأوصاف التي تناولت كل ما وقعت عليه عيونهم .

ومن نماذج الوصف قول علي بن الجهم يصف الورد :

| | |
|------------------------------|-------------------------------|
| لم يضحك الورد إلا حين أعجبه | حسن الرياض وصوت الطائر الغرد |
| بدا فأبدت لنا الدنيا محاسنها | وراحت الراح في أنوابها الجدد |
| وقابلته يد المشتاق تسنده | إلى الترائب والأحشاء والسكد |
| كأن فيه شفاء من صبابته | أو مانعاً جفن عينيه من السهد |
| بين النديمين والخلين مصرعه | وسيره من يد موصولة يسد |
| ما قابلت طلعة الريحان طلعتة | إلا تبينت فيه ذلة الحسد |
| قامت بحجته ريج معطرة | تشقى القلوب من الأوصاب والسكد |
| لا عذب الله إلا من يعذبه | بمسمع بارد أو صاحب نكد |

وقال ابن الرومي يصف القيان العازفات على الأعداد :

| | |
|------------------------|----------------------------|
| وقيان كأنها أمهات | عاطفات على بذبها حوائى |
| مطفلات وما حملن جنينا | مرضعات ولسن ذات لبان |
| ملقحات أطفالهن ثديا | ناهدات كأحسن الرومان |
| مفحات كأنها حافلات | وهى صفر من درة الألبان |
| كل طفل يدعى بأسماء شتى | بين عود ومزهر وكران |
| أمه دهرها تترجم عنه | وهو بادى الغنى عن الترجمان |

ومن أجل قصائد الوصف وصف البحترى لإيوان كسرى ، وفي هذه القصيدة الرائعة يصف البحترى الإيوان بالمداثن، ويرثى دولة الفرس قال :

| | |
|-------------------------|--------------------------------|
| صنت نفسى عما يدنس نفسى | وترفعت عن جدا بكل جبس (١) |
| وتماسكت حين زعزعى الدهر | ر التماساً منه لتعسى ونكسى (٢) |
| بلغ من صباية العيش عندى | طفقتها الأيام تطفيف بخس (٣) |
| حضرت رحلى الهموم فوجهم | ت إلى أبيض المداثن عنسى (٤) |
| أتسلى عن الحظوظ وآسى | لمحل من آل ساسان درس (٥) |

(١) الجدا : العطاء . الجبس : الجبان اللثيم .

(٢) تماسكت : ثبتت واعتصمت . زعزعى : حركنى بعنف أى حين نالتنى خطوبه . التماساً : طلباً ومحاولة . التعس : الهلاك والشر . النكس : أن يتقلب الرجل على رأسه ، والمراد الهزيمة والسقوط .

(٣) بلغ : جمع بلغة وهى ما يكفى من العيش ولا يفضل . الصباية : البقية . طفقتها : نقصتها . البخس : الغبن والظلم .

(٤) حضرت رحلى الهموم : طرأت على الأحزان . والعنس : الناقة القوية .

(٥) آسى : أحزن . وآل ساسان : أكاسرة الفرس . درس : دارس .

ذكر تزيهم الخطوب التوالى
وهم خافضون فى ظل عال
حلل لم تكن كأطلال سعدى
ومساع لولا المحاباة منى
نقل الدهر عهد من عن الجد
فكان الجرماز من هدم الأند
لو تراه علمت أن اللبالي
وهو ينبيك عن عجائب قوم
فإذا مارأيت صورة أنطا
والمنايا موائل وأنوش
ولقد تذكر الخطوب وتفسى (١)
مشرف يحسر العيون ويخسى (٢)
فى قفار من البسابس ملس (٣)
لم تطلقها مسعاة عنس وعبس (٤)
ة حتى غدون أنضاء لبس (٥)
س وإخلاله بنية رمس (٦)
جعلت فيه مائما بعد عرس
لا يشاب البيان فيهم بلبس (٧)
كية ارتعت بين روم وفرس (٨)
وان يزجى الصفوف تحت الدرفس (٩)

(١) التوالى : المتالفة .

(٢) هم : آل ساسان . خافضون : ناعمون . عال : أى قصر مرتفع وهو القصر الأبيض . يحسر العيون : يضعفها إذا نظرت تبين ارتفاعه . يخسى : يؤلم .
(٣) الحلل : جمع حلة طائفة من البيوت . والبسابس : القفار . ملس : خالية .
(٤) المساعى : المسكارم . لم تطلقها : لم تقدر عليها . عنس وعبس : قبيلتان .
(٥) أنضاء جمع نضو : المهزول من الحيوان أو الثوب البالى ، وليس : استعمال أى أبلاها الدهر .

(٦) الجرماز : بناء كان عند أبيض المدائن ثم عفا أثره وكان عظيما بجوار القصر . والرمس : القبر .

(٧) البيان : المنطق الفصيح . اللبس : عدم الوضوح .

(٨) أنطا كية : بلد بالشام ضمت إلى تركيا إبان احتلال الفرنسيين لاسوريا ، وفيها وقعت معركة بين الفرس والروم وقد صورت فى الإيوان . ارتعت : فزعت .

(٩) موائل : قائمات تنتظر العمل وقت الحرب ، وأنوشروان أحد الأكاسرة

يزجى : يسوق ، والدرفس : العلم الكبير .

في اخضرار من اللباس على أصفر يختال في صبيغة ورس (١)
وعراك الرجال بين يديه

في خفوت منهم وإغماض جرس (٢)
من مشيح يهوى بحامل ربح ومليح من السنان بترس (٣)
تصف العين أنهم جد أحيا . لهم بينهم إشارة خرس (٤)
يغتنى فيهم إرتياب حتى تتقراهم يداى بلس (٥)
وكان الإيوان من عجب الصنمة . جوب في جنب أرعن جاس (٦)
يتظنى من الكتابة أن يبدو . لعين مصبح أو مسمى (٧)
مزجما بالفراق عن أنس إلف عز ، أو مرهقا بتطبيق عرس (٨)
هكست حظه الليالى وبات المش ترى فيه وهو كوكب نحس (٩)
فهو يبدى تجسداً وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرسى (١٠)

-
- (١) الورس نبات ذو صبغة حمراء .
(٢) خفوت : سكون صوت ، الجرس : الصوت .
(٣) المشيح : الحذر ، المليح : الذى يخاف ويحذر أيضا ، والترس : الجنب .
(٤) تصف العين : يخيل إليها .
(٥) يغتنى : يزيد ، ارتياب : شك ، تتقري : تتبع .
(٦) الجوب الخرق ، والأرعن الجبل ذو الرعن وهو أنف يتمدم الجبل .
الجلس الجبل العالى فكان الإيوان بالنسبة إلى القصر الأبيض العظيم الذى
يشمل الإيوان وغيره من الغرف ، والمقاصير : خرق فى جانب جبل أرعن
وجعل الجبل أرعن لما فيه من الأجنحة والظنف ، والآيات الآتية توضح
هذا التشبيه .
(٧) يتظنى : يظن ، أن يبدو : وقت أن يبدو ، ومزجما مفعول ثان ،
ليتظنى : أى أنه يظن وقت ظهوره للعين مزجما بفراقه أليفا أو عروسا .
(٨) المشتري : كوكب سعد .
(٩) التجلد : تكلف الجلد والصبر ، الكلكل : الصدر أى نازلة ،
مرسى : من الإرساء والنزول .

لم يعبه أن يز من بسط الديار
 مشمخر تعلو له شرفات
 لا بسات من البياض فسات
 ليس يدري أصنع إنس لجن
 غير أنى أراه يشهد أن لم
 عمرت للسرور دهرأ فصارت
 فلها أن أعينها بدموع
 ذلك عندي وليست الداردارى
 غير نعى لأهلها عند أهلى
 أيدوا ملكنا وشدوا قواه
 وأعانوا على كتاب أريا
 وأراني من بعد أكلف بالأث

باج واستل من ستور الدمقس (١)
 رفعت في رءوس رضوى وقدس (٢)
 هر منها إلا غلائل برس (٣)
 سكنوه أم صنع جن لإنس
 يك بانيه في الملوك بنكس (٤)
 للتعزى رباعهم والتأسى
 موقوفات على الصباية حبس
 باقتراب منها ، ولا الجنس جنسى
 غرموا من زكاتها خير غرس (٥)
 بحمارة تحت السنور حمس (٦)
 ط بطعن على النحور ودعس (٧)
 مراف طرا من كل سنخ وجنس (٨)

- (١) بز : سلب ، والديياج : الثوب سداه ولحمته حرير ، والدمقس :
 الحرير الأبيض .
 (٢) مشمخر : عال ، ورضوى وقدس : جبلان ، شرفات : ما أشرف من
 بناء القصر ، يشبه القصر في ضخامته وارتفاعه بهذين الجبلين .
 (٣) الغلائل جمع غلالة : وهى شعار يلبس تحت الثوب ، والبرس : بكسر
 الباء وضمها القطن أو ما يشبهه .
 (٤) النكس : الضعيف الذئب . (٥) زكاتها : نمانها .
 (٦) السنور : كل سلاح من حديد ، وحمس : شيمان ، يشير إلى بلاد
 الفرس في إقامة الدولة العباسية .
 (٧) أرياط : قائد حبشى فتح اليمن قديماً ، ثم خلفه القائد أبرهة صاحب
 الفيل وأبناؤه ، ثم طرد سيف بن ذى يزن الأحباش بمعاونة الفرس ،
 الدعس : الذود والطعن .
 (٨) أبلج : أولع ، السنخ : الأصل والمنبت .

والشاعر أبو عبادة الوليد بن عبيد البحرى الطائى صاحب القصيدة تخرج على أبى تمام ، ولكننه لم يسلك فى شعره نفس الطريقة التى سلكها أستاذه ، وإنما كان يتوسط بعض الشئ فى الناحية العربية الخالصة ميلا ظاهراً ، فجاء فى شعره شئ من البديع ، والحرص على الصنعة وعلى التدقيق فى المعانى ، ولكن عنايته باللفظ الجزل على أسلوب الفحول من شعراء القرن الثانى ظاهرة جليلة ، والبحرئى وصاف بارع فى الوصف ، ولكن ميله إلى وصف الحضارة المادية أشد من ميله إلى وصف المعانى ، وهو مصور ماهر لعواطف النفس ، قادر على أن يرثى فيسيك ، وعلى أن يستعطف فيعطفك ، ويبلغ الغاية فى ذلك من نفسك دون أن يتكلف فيه عناء ، وهو غزل خفيف الروح إذا نزل ، مادح موفق إذا مدح .

وقد أحيا البحرئى عمود الشعر العربى بعد أن زعزعه تجديد بشار وأبى نواس وأبى تمام ، ويمثل فى شعره غاية الذوق والترف الفنى ؛ وأثر الحضارة فى الشعر وفى صناعته ، وموسيقاه وعبودية الناظر ، وأسلوبه . مما يضرب به المثل ، ومن ثم قال النقاد : « أبو تمام والمتنبى حكيمان ، والشاعر البحرئى » .

والبحرئى كما يقول عبد القاهر فى كتاب « أسرار البلاغة » : إنك لا تكاد تجد شاعراً يعطيك فى المعانى الدقيقة من التسهيل والتقريب ورد البعيد الغريب إلى المألوف القريب ، ما يعطى البحرئى ، ويبلغ فى هذا مبلغه .

وهذه القصيدة فى جهاتها ترشد إلى البحرئى وخصائص شعره ، وتدل على مكانته من البلاغة ومنزلته فى الشعر ، وطبقته بين الشعراء العباسيين ، وكفى البحرئى مجدداً أن يكون له مثل هذه القصيدة . فهى فريدة فى الشعر العربى ، وقد سبق بها البحرئى إلى فن جديد فى الشعر العربى هو وصف الآثار والمدن البائدة .

فهى من أروع ما نظم من قصائد الوصف ورثاء الأثار والدول في الشعر العربي .

ويبدو أن البحترى نظمها وهو في قمة مجده الشعرى، وقد ذكرها مرتين في شعره ، مرة منهما وهو يمدح ابن ثوابة :

قد مدحنا إيوان كسرى وجئنا نستثيب النعمى من ابن ثوابة
ولم يختر يافوت من كل شعر البحترى سوى هذه السيفية .

ووحدة القصيدة ظاهرة ، فهى فى موضوع واحد ، وفكرة واحدة ، وهى مرتبطة العناصر متصلة الأجزاء بعضها ببعض الآخر . وقد وفق الشاعر فى وصف الإيوان ، ووصف إعجاب به وبينائه وبناته ، وفى رسم شعوره ، وهو واقف أمامه يتأمل هذا الأثر الكبير ، ويخضع لجلاله .

وقد بدأ الشاعر قصيدته بالثورة على الزمان ، والنقمة على الحظوظ وعلى رضاه بالإقامة فى العراق وتركه الشام وطنه ؛ فرأى أن يرحل إلى مدائن كسرى عساه يجد فيها ما يزيل همه .

ويأخذ الشاعر فى وصف القصر الذى به إيوان كسرى ، فنوره عالبا شاهقا ، حتى لتضعف العين أن تبين مدى ارتفاعه . وبين ما كان له من سلطان واسع ، وذكر مجد الفرس القديم ، وحضارتهم التى لا تساويها ما كان للعرب فى صحرائهم قبل الإسلام من مفاخر وآثار وأطلال دراسة ، ولا يصل إليها ما كان لقبائلهم من أعمال . . لكن الدهر لم يبق على حظوظ هذه الأثار ، ولم يحافظ على عهدهما ، فصارت هذه القصور وكأنها قبور .

ورقف الشاعر أمام صورة فى هذا القصر ملكت عليه قلبه ، وهى صورة معركة حربية دارت عند مدينة أنطاكية بين الفرس والروم ، وقد

أجاد المصور تمثيل الرهبة التي تسيطر على المعركة حتى ليخيل لرائبها أن الموت مائل فيها ، يريد أن يختطف النفوس ، بينما كان أنو شروان واقفا تحت عمله الكبير يحرض الجيش على القتال ، ولم ينس المصور أن يلون ثوب كسرى وجواده ، وأن يجيد تصوير المتحاربين حتى لكانهم أحياء حقا ، فيندفع الشاعر إلى الصورة يتحسسها بيده ليرى الصورة هي أم حقيقة .

ويعضى الشاعر بعد ذلك في وصف الإيوان ، فيصوره كأنما هو من عمل الطبيعة ، لامن صنع الإنسان ، ويتخيله كثيبا أزججه فراق صاحب يؤنسه أو زوج أرهقه طلاقها ، فانقلبت سعادته شقاء ، ومع ذلك فهو يكافح أحداث الدهر ، والدهر يريد تحطيمه . إنه جليل في العين لم ينقص من جلاله خلوه من البسط والستور .

ويتساءل البحترى في دهشة مما أحاط به ، وتمسكه من جلال روعة صنع هذا الصرح : أهو من صنع الإنس للجن ، أم من صنع الجن للإنس ؟ .

ويعضى البحترى متخيلا ما كان عليه القصر من ازدحام الوفود ببابه وامتلائه بالمغنيات يخطر في أرجائه ، وكأنما كان ذلك من وقت قريب وكأنما قد فارقه السكان أمس أو أول أمس .

ويختم القصيدة بدمعة يذرفها على هذا القصر الذي عمر بالسرور دهرأ ثم صار موطن عزاء وتأس .

وهنا يذكر الشاعر البحترى أسباب تمجيده لهذا الأثر العظيم ، وهي : أيادى الفرس على العرب في إقامة الدولة العباسية وثبيت أركانها ، وأياديهم كذلك في القديم في طرد الحبشة من أرض اليمن ، وسبب آخر كذلك هو أن الشاعر رجل يحب الماجدين من أى شعب وأية أمة .

وصف الطبيعة :

ويتصل بشعر الوصف شعر الطبيعة ووصفها اتصالاً وثيقاً .

فالتبيعة توحى للشعراء في كل عصر بكثير من المعاني والآثار الأدبية الرائعة ، وقد اثن بها الشعراء وصوروها في مختلف مظاهرها ورسموا لها صوراً تجمع غالباً بين صدق الأداء وبراعة الوصف وإظهار الدقائق والتفاصيل وحرارة الإحساس .

صورها شعراء الإغريق وخاصة هوميروس في إلياذته (١) ، كما صورها الشعراء الجاهليون في قصائدهم وآثارهم التي تشابهت رغم تعددها وخلت من مظاهر التنوع والكثرة وخصوصية التصوير ، ولكنها على أى حال صورة صادقة لتلك البيئة ، فامرؤ القيس في معلقته يذكر المطر والبرق كما يذكر يوم الغدير ولذاته في نظرة عابرة ، والأعشى يصف روضة من الرياض في لاميته ؛ وعنتره يصف الذباب وهو يغنى بها في معلقته كما يصف فرسه والمعارك التي خاضها ، وهكذا نجد في الشعر الجاهلي والإسلامي صوراً كثيرة لمظاهر الطبيعة القريبة من نجوم وسماء وأنها وأماكن وقفار ورمال .

وفي العصر العباسي أخذ الشعراء يهتمون بأوصاف الطبيعة من ربيع ورياض وأزهار وأنهار وبرك ، ومن سماء ونجوم وكواكب ، ورواية أبي تمام في الربيع ، وهائية البحترى في وصف بركة المتوكل وجيميته في الربيع

(١) ويرى بعض الباحثين أن شعر الطبيعة شعر حديث ليس له صلة بالأدب اليوناني القديم (راجع ٩٨ الفن ومذاهبه في الشعر العربي) .
ملاحظة : شعر الطبيعة هو الشعر الذي يمثل الطبيعة أو بعض ما اشتملت عليه ، والطبيعة : الحى بما عدا الإنسان ، والصامت كالحدايق والحقول والغابات والجبال وما إليها (ص ١١ شعر الطبيعة في الأدب العربي تأليف السيد نوفل ط ١٩٤٥)

مثل جيدة لشعر الطبيعة في هذا العهد . وللغزال يحيى بن الحكم البكري
الشاعر الأندلسي المشهور لامية مشهورة^(١) وصف فيها البحر ورحلته إلى
قسطنطينية موقداً من قبل عبد الرحمن بن الحكم بن هشام عام ٢٢٥ هـ إلى
امبراطور الروم في مهمة سياسية ومنها :

قال لي يحيى وصرنا بين موج كالجمال
وتولتنا رياح من دبور وشمال
فراينا الموت رأى العين حالا بعد حال

ولعبد الصمة بن المعذل قصيدة طويلة في روضة جميلة^(٢)؛ واشتهر
السرى والصنوبرى م ٣٣٤ هـ ، والثنوخى م ٣٨٤ هـ بالروضيات^(٣) ، ولابن
وكيع م ٣٩٣ هـ قصائد في الرياض^(٤) .

وفي الحق أن العباسيين قبل أبي تمام والبحترى وابن الرومي وابن المعتز
كانوا قلما يلجأون إلى تصوير الطبيعة التي عاشوا فيها ، وقد ألم بها البحترى
وأبو تمام إلاما دون أن يتصلحها بأعماق قلوبها ، وأقبل ابن الرومي عليها
يصورها تصوير العاشق المفتون حيث أروع بالطبيعة وتصويرها وكان يحبها
حبا جما فلا فرق عنده بين الطبيعة والشعور ولا يسكاد ينظر إلى إنسان إلا
تذكر الروضة والبستان^(٥) ، وقد علل العقاد ذلك يونانيتها^(٦) .

(١) ١٤٤ : ١ نصح الطيب .

(٢) ١٥ : ٢ ديوان المعاني ، وراجع . ٤ : ٢ المرجع نفسه .

(٣) ٣١ : ٢ المرجع .

(٤) راجع ٣٢٩ - ٣٣١ : ١ اليتيمة .

(٥) راجع ٢٨٢ - ٢٨٨ ابن الرومي للعقاد .

(٦) ٢٨٢ المرجع ، وينقد ذلك الرأي صاحب الفن ومذاهبه في الشعر العربي ،

(٩١ و ٩٩) .

وراثته اليونانية أصل فنه الأدبي عند العقاد، ويضيف إليها طاء حسين الثقافة اليونانية الإسلامية التي كان يتتقنها الشعراء في القرن الثالث (١) ، ففيه يونانية أصلية ويونانية مكتسبة أهم من الأولى ، وفيه أيضا إسلامية مكتسبة ففي فنه عناصر ثلاثة تؤثر فيه لا عنصر واحد (٢) :

وكان ابن المعتز شاعر الطبيعة (٢) ووصافها الممتاز ، وله كثير من الآثار في وصف شتى مظاهرها من رياض وأزهار وقصور وطيور وبرك وميادين ومن نجوم وكواكب وأفلاك وسوى ذلك من شتى أوصاف الطبيعة ، كان يعيش مع الطبيعة عيشة الهائم المتبطل والفنان الشاذي والمصور المفتون ؛ منحها شعوره وشعره وهيامه وفنه أكثر من أى شاعر آخر سبقه وأولع بتصوير كثير من مظاهرها المتعددة .

وإن شئت فانظر إلى تصويره للربيع ، حدث جعفر بن قدامة قال : كنت أسرح مع ابن المعتز في يوم من أيام الربيع بالعباسية والدنيا كالجنة المرخرفة فقال :

حبذا آذار شهر فيه للنور انتشار
ينقص الليل إذا جا ، ويمتد النهار
نقشه آس ونسر ين وورد وبهار^(٤)
وعلى الأرض اخضرار واصفرار واحمرار

(١) ٢٣٧ من حديث الشعر والنثر .

(٢) ٩٣ الفن ومذاهبه .

(٣) ويقول أحد الباحثين عنه : كان يحب الطبيعة ويفتن بها لكنه تستهويه الصورة قبل كل شيء ، وهو في إخراجه للصور والأشكال يمتال ويتأق ويكتفى بالإشارة ويستخدم براعة مجيية (١٨٢ شعر الطبيعة في الأدب) ، فهو مفتون بالطبيعة يرى فيها صوراً جذابة (١٨٨ المرجع) .

(٤) ١٤٥ : ٩ الأغاني .

فكأن الروض وشى بالغت فيه التجار
وانظر إليه يصف الروض والأزهار والطبيعة :

والروض مغسول بليل بمطر جلالنا وجهه اثرى عن منظر
كالعصب أو كالوثى أو كالجوهر من أبيض واحمر واصفر
والشمس في اضحاء جوا أخضر كدمعة حائرة في محجر
نسقى عقارا كالسراج الأزهر يديرها كف غزال أحور
تخبّر عيناه بفسق مضمّر يعلم الفجور من لم يفجر

وأبو هلال يعجب بهذه الأوصاف (١) ؛ ومن شعره كذلك في
وصف روضة :

تضاحك الشمس أنوار الرياض بها كأنما نثرت فيها الدنانير
ويأخذ الريح من دخانها عنقا كأن تربتها من مسك كافور (٢)

ويقول :

وانظر إل دنيا ربيع أقبلت مثل النساء تبرجت لوناة
والريح قد باحت بأسرار الندى وتنفس الريحان بالجنات

وهو من قول ابن الرومي :

أصبحت الدنيا تروق من نظر بمنظر فيه جملاء للبصر
تبرجت بعد حياء وخفر تبرج الأثني تصدت للذكر

ومن روائع شعر الطبيعة قصيدة أبي تمام في وصف الربيع ، ومنها :

(١) ديوان المعاني . ٢ : ١٦

(٢) ٢١٤ : ١ فوات .

- رقت حواشي الدهر فهي تمرمر وغدا اثري في حليه يتكسر (١)
بذلت مقدمة المصيف حميدة ويد الشتاء جديدة لانكفر (٢)
لولا الذي غرس الشتاء بكفه قاسى المصيف هشاً لا ثمر (٣)
كم ليلة آسى البلاد بنفسه فيها ويوم وبـله متعجز (٤)
مطر يذوب الصحو منه وبعده صحو يكاد من الغضارة يقطر (٥)
غيثان فالأنواء غيث ظاهر لك وجهه والصحو غيث مضم (٦)
وندى إذا دهنت به لمم اثري خلت السحاب أتاه وهو معذر (٧)
أربعنا في تسع عشرة حجة حقاً فإنك للربيع الأزهر (٨)
ما كانت الأيام تسلب بهجة لو أن حسن الروض كان يعمر (٩)
أولا ترى الأشياء إن هي غيرت سمجت وحسن الأرض حين تغير (١٠)
يا صاحي تقصيا نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تهور (١١)

-
- (١) تمرمر : تتمايل ، الثرى : التراب ، الحلى : الزيتة ، يتكسر : يتثنى .
(٢) بذلت : امتنت .
(٣) الهشائم جمع هشيم وهو النبات اليابس المتكسر .
(٤) آسى : مساوى أو أنال ، الوبل : المطر ، المتعجز : السائل من المطر .
(٥) الغضارة : الخصب والسعة ، يقطر : يسكب الماء .
(٦) الغيث : المطر ، الأنواء : تجمع الأمطار .
(٧) اللمة : الشعر المجاور شحمة الأذن أضافها للثرى وهي الأرض مجازاً .
خلت : ظننت ، المعذر : الذى نبت له عذار وهو الشعر النازل على اللحيين .
(٨) الحججة : المرة والسنة .
(٩) يعمر : يعيش كثيراً .
(١٠) سمجت : قبحت .
(١١) تقصيا : تلجعا آخره .

تريا نهاراً مشمسا قد شابه زهر الربى فكأنما هو مقمر (١)
دنيا معاش للورى حتى إذا حل الريح فإنما هي منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها نوراً تكاد له القلوب تنور (٢)
من كل زاهرة تفرق بالندى فكأنها عين إليك تحدر (٣)
تبدو ويحجبها الجيم كأنها عذراء تبدو تارة وتخفر (٤)
حتى غدت وهداتها ونجادهما فتبين في حلل الريح تبخر (٥)

إن الريح سحر وشباب . وروعة وجمال . ونور ونور . وورد وزهر ،
وطبيعة طليقة متفتحة ، وحياة فتية متجددة ؛ والريح دائماً قد ألهم الشعر
روائع القصائد ، وغرر الفرائد والقلائد فلا بدع أن يلهم الشاعر
العربي الكبير الخالد أبا تمام فينطق بهذا الوصف الرائع الجميل .

يقول أبو تمام : إن الدهر بمقدم الريح رقت حواشيه فهمى تتمايل ،
والثرى امتلاً زهوراً ونباتاً فهو يتمايل بتمايلها .

والريبع قد اشترك في ميلاده مقدمة المصيف الجميدة ويد الشتاء
الجديدة التي لا تكفر . فلولا غراس الشتاء الذي قدم بكفه له بالماء
والنماء لما أثمر الريع زهراً وروحاً وربحاناً ، ولرعى الناس في الصيف
هشام لا تنبت ولا تتمر .

وكم ليلة أعطى الريع البلاد فيها بنفسه وجوده ، وكم يوم أغدق على

(١) شابه : خالطه ، الربى : التلال . (٢) النور الزهر .
(٣) تفرق : تجرى جرياً سهلاً ، تحدر : تسكب الدمع .
(٤) الجيم : النبات المغطى الأرض ، العذراء : البكر ، تخفر : تستحي .
(٥) الوهدات : المتخفضات . النجاد : المرتفعات ، الفتة : الطائفة ،
الحلل : الثياب ، تبخر : تتمايل .

الحياة والناس المطر والماء فتقلب الأرض على يديه من صحو إلى غيم ومطر،
ومن مطر إلى صحو مشرق فتان نضر يكاد من خصبه يسيل الماء ، فالأرض
بالربيع في غيتين : غيث ظاهر هو المطر المنسكب ، وغيث خفي هو الصحو
غب المطر الذي تمتلئ الأرض فيه بالنبات والزهور ، وفي الربيع يتساقط
الندى على وجه الأرض حتى ليظن أن السحاب مطرها مطرا خفيفا .

ثم يخاطب الشاعر الربيع الذي صادف بدؤه في التاسع عشر من
ذى الحجة أو في عام ٢١٩ هـ . فيقول له : إنك حقا للربيع الأزهر
المشرق الجميل .

ويذكر الشاعر أن الربيع سوف ينهى وحسنه سوف يتبدد ، وجماله
سوف ينقص . فيقول في أسف : إن الدهر ما كان يسلب بهجته لو أن حسن
الرياض كان دائما أبدا لا يزول ولا يحول .

ثم يقول الشاعر إن من الأشياء ما إذا ناله تغيير قبح وصار دميما
ولكن حسن الأرض وجمالها في تغيير الفصول من شتاء إلى ربيع إلى
صيف فخريف ، والفصول تسير حتى تكتمل بالربيع ، الذي تكتمل به
الأرض بهجة وجمالا .

ثم يخاطب صديقيه المتخيلين فيقول لهما : لو أنسكا أمعنتما النظر لرأيتما
كيف تنتقل الأرض من حالة إلى حالة وكيف تبدو كل يوم بوجه جديد ،
والذي يمعن النظر للطبيعة في الربيع يعجبه : نظر شمع الشمس الذي
يتساقط بالنهار على الزروع وعلى زهور الربيع ، فيبدو النهار وكأنما هو ليل
مقمر منير .

وما أروع منظر الدنيا في الربيع ، إنها قبله دنيا معاش وسمى للناس ،
فإذا حل الربيع فإنها تنقلب فتصبح دنيا جمال وبهجة وسرور
ومتعة خالصة .

وما أروع منظر الزهور بين الحشائش والنباتات حيث تبدو تارة وتحجبها النباتات أخرى ، فكأنها عذراء تظهر محاسن وجهها تارة ، ثم تختفي تارة أخرى ، وما أبدع ما اكتست به هضاب الأرض ووهادها من نبات وحشائش حتى لتبدو وكأنها فئتان وجماعتان تنمايلان في حلال الربيع . حيث تأخذ بطونها تخرج على ظهرها الزهر والزرع والنبات الذي تسكاد القلوب تنور به ، و اعجب لما تخرجه الأرض في الربيع من زهرة تترقق بالندى فتفتح ويتساقط من فوقها حتى لتظنها عينا تطار عليك وترنو إليك . وهكذا يصف أبو تمام الربيع وأثره في إيقاظ الطبيعة ، وإحياء الأرض وما تمتلئ به الدنيا فيه من جمال ونضرة وحسن ساحر .

وفي أسلوب أبي تمام كثير من ألوان الصناعة الشعرية ، وكثير من صنعة البديع من طباق وجناس ومقابلة وسواها ، وذلك فن اشتهر به أبو تمام ، وتفوق فيه . ولغة أبي تمام هنا حسنة وألفاظه فيها بعض الغرابة : ومن بين ألفاظه لفظة « مشعجر » .

ووصفه للربيع في جملة وصف لمظاهره المادية الخارجية .

والصنوبري (٥٣٣٤ : ٩٤٥ م) (١) في الربيع :

| | |
|---------------------------------|------------------------------|
| إن كان في الصيف ريجان وفاكهة | والأرض مستوقد والجو تنور |
| وإن يكن في الخريف النخل محترقا | فالأرض عريانة والجو مقرر |
| وإن يكن في الشتاء الغيث متصلا | فالأرض محصورة والجو مأمور |
| ما الدهر إلا الريح المستنير إذا | جاء الربيع أتاك النور والنور |
| تبارك الله ما أحلى الريح فلا | تغرر فقايسه بالصيف مغرور |

والصنوبري من كبار شعراء الطبيعة في الأدب العربي ، يجمع إلى ذلك ولوعا شديدا بالسماء والضياء والهواء ، مع التطلع إلى أسرارها الجميلة ، وكان كشاجم صديقا له .

(١) ٦١ : ١ فوات الوفيات لابن شاعر .

الصيد والطرْد :

من باب الوصف شعر الطرد والصيد ، وقد كثر في العصر العباسي الصيد ووصف اقتراسه ، وكان مألوفاً ببساطة في الشعر الجاهلي لأنه كان مألوفاً في الحياة الجاهلية الساذجة ، وفي شعر النابغة مثل كثيرة له ، وكذلك عند بعض الشعراء سواء : وفي العصر الإسلامي هجر الناس اللهو وعاشوا حياة كلها جد وإقدام ونشاط وعمل ، فانصرفوا عن الصيد إلا قليلاً منهم كالشعر دل ابن شريك^(١) فله في الصيد والطرْد أراجيز حسان^(٢) .

وفي العصر العباسي نبغ أبو نواس في الطرد وكاد أن يخلق هذا الباب خلقاً جديداً ، فنظم الأراجيز في وصف كلاب الصيد : وآلاته واقتراسه ووصف الرحلات التي كان يقوم بها للصيد واشتهر بالإجادة في هذا الباب وعكف عليه تجويداً وتجديداً ولم يتابعه أحد من الشعراء بعده فيه إلا ابن المعتز الذي اشتهر بالصيد والطرْد شهرة أبي نواس^(٣) ، ويشيد بطردهما الخاتمي في مناظرته للمتنبّي^(٤) ، وللناشي م ٢٩٣ هـ طرديات على أسلوب أبي نواس^(٥) .

وقد وصف "شعراء الصيد ورحلاته وآلاته من كلاب وفهود وبزاة وغربان وصقور وسواها من أساحة ، ووصف لذاته به وطرده فيه ، كل ذلك في قصائده يغلب أن تكون من الرجز ويغلب عليها صبغة الغريب ، وهي مع ذلك

-
- (١) شاعر إسلامي من بني غطفان وكان شاعر فصيحاً وفارساً شجاعاً (٣٦٦ : شرح الحماسة) .
(٢) ١٣٩ المؤلف . (٣) ٢٨٠ : ٢ : العمدة ، ١٢٥ : ٢ : الرافعي .
(٤) ٥٠٩ : ٦ : معجم الأدباء .
(٥) ٤٧١ : ١ : وفيات الأعيان .

جميلة ساحرة دقيقة الوصف والتصوير والتشبيه ، وطرديات ابن المعتز هي
الباب السابع من ديوانه ، وفيها كثير من الصور البيانية الجميلة والتشبيه
الساحرة البديعة مما يرفع من مكانته في هذا الفن الذي لا ينطق فيه إلا القليل
من الشعراء ، يقول يصف كلبة الصيد :

| | |
|-----------------------|-------------------------|
| لما تعرى أفق الضياء | مثل ابتسام الشفة للبياء |
| وشمطت ذرائب الظلماء | قدنا لعين الوحش والظباء |
| داهية محذورة اللقاء | تحملها أجنحة الهواء |
| أسرع من جفن إلى إغضاء | ومخطفها موثق الأعضاء |
| كأثر الشهاب في السماء | ويعرف الزجر من الدعاء |
| بأذن ساقطة الأرجاء | كوردة السوسنة الشهباء |
| ذا برئن كثقب الحذاء | ومقلة فليلة الأفذاء |

صافية كقطرة من ماء

ويقول :

| | |
|--------------------|---------------------|
| لما غدونا بسحر | نأخذ أرضا ونذر |
| وقام رام فابتدر | أوتر قوسا وحسر |
| إذا رمى الصف انتثر | فارتاح من حسن الظفر |

ويصف كلاب الصيد فيقول :

عواصف مشابهات للأمد لما عدون وعدت خيل الطرد
فبلغ نهاية الجودة في تشبيهها بالعاصفة ، ويشبهها بزوبعة
الرياح فيقول :

وزوبعة من بنات الرياح تزيك على الأرض شدا عجب

لها مجلس في مكان الرديف كتركبة قد سبها العرب
وقال في البازي :

بحز أعناق الرياح حوا
ومامها قبضا ونقدا وخرا
يطلب في رؤوسهن كنزا

والبيت الأخير في نهاية الروعة والجودة ، ويقول في كلبة صيد :
وكلبة غدا بها فتيان أطبقهم من يده الزمان
كأنها إذا تمطت جان والنجم في مغربه وسانان
والصبح في مشرقه حيران كأنه مصبح عريان
فستجد روعة لا يماثلها روعة في التصوير والوصف .

الخزريات :

ومن الوصف شعر الخزريات ، وهو كثير في العصر العباسي ووصف
الخز ومجالسها قديم في الشعر العربي ، وكان الأعرابي هذه الصناعة
في الجاهلية (١) ، ومن أموا بوصفها عمرو بن كلثوم في معلقته ، وبعد عهد
الجاهلية اشتهر بوصفها أبو عجين الثقفي (٢) وعمرو بن حسان بن هاني (٣)
ويزيد بن معاوية (٤) والوليد بن يزيد (٥) وقد ذهب به الشراب كل

(١) ٢٤ حلبة الكعبية للنواجي . (٢) ١٦٢ الشعر والشعراء .

(٣) ٢٣٢ معجم الشعراء .

(٤) ٣٤٢ و ٩٧ حلبة الكعبية ، وله فيها أشعار (٣٠ و ٤٠ و ٤٨ و ١٢٢ و ١٣٩

حلبة الكعبية) وربما كان ذلك من دعاية خصومه السياسيين .

(٥) ٩٨ حلبة الكعبية ، والأغاني .

مذهب (١) ، ثم أبو الهندي (٢) . . وجاء العصر العباسي وأغرق الشعراء في وصف الخمر ، وبالغوا في ذمها وأسرفوا في الحديث عنها ، والدعوة إليها ، وجعلوا القصيدة وقفا على هذا الفن أو استملوها بتحسين شربها ، بدلا من وصف الأطلال . أما قبل هذا العصر فلم يكن واصف الخمر فناً مستقلاً من فنون الشعر . وكان الشعراء يلون بها إلاماً ، ويتحدثون عنها في غير إغراق ولا سرف . حتى جاء أبو الهندي عبد المؤمن بن عبد القدوس الرياحي من مخضرمي الدولتين ، وكان رقيق الدين ، فاسد الخلق ، مدمناً للخمر ، فأخذ يمجدها ويحضى عليها ويزينها للناس ، كما في قوله :

قل للسرى أبى قيس أنهجرنا ودارنا أصبحت من داركم صددا
أبا الوليد أما والله لو عملت فيك الشمول لما فارقتها أبدا
ولا نسيت حمياها ولذتها ولا عدلت بها مالا ولا ولدا

ثم جاء أبو نواس وندماؤه ، فقدموها في المطالع ، وأفردوا لها القصائد ، وأمعنوا في نعتها ما وسعهم الإمعان ، وأغرقوا في مدحها ما وجدوا السبيل إلى الإغراق ، وأكثروا من القول فيها حتى غلبت على شعرهم ، وحتى بلغ ما قاله أبو نواس فيها بضعة آلاف من الأبيات .

ومن فرائده الخمرية :

ياشقيق النفس من حكم نمت عن ليلي ولم أنم (٣)
فاسقنى البكر التي اختمرت بخمار الشيب في الرحم (٤)

(١) ٣٢٨ : ٤ العقد ، وراجع ترجمته في مذهب الأغاني (٥٧ - ٩٢ : ٧) ، والوليد هو الذي جمع ديوان العرب وأشعارها وأنسابها وأخبارها وأخبارها (١٣٤ فهرست) .

(٢) ٢٢ و ٩٦ حلبة السكيت ، ٤١ : ٢ الكامل ، ٣٢٢ : ٤ العقد ، ٥٨ - ٦١ طبقات الشعراء لابن المعتز .

(٣) حكم : مخلاف من اليمن ينسب إليه أبو نواس .

(٤) خمار الخمر ما يعلوها من الزبد .

ثم انصت الشباب لها
فهي لليوم الذي بزلت
عتقت حتى لو انصلت
لاحتبت في القوم مائلة
قرعتها بالمزاج يد
في ندامى سادة زهر
فتمشت في مفاصلهم
فعلت في البيت إذ مزجت
فاهتدى سارى الظلام بها

بعد ماجازت مدى الهرم (١)
وهي ترب الدهر في القدم (٢)
بلسان ناطق وفم
ثم قصت قصة الأمم
خلقت للسيف والقلم
أخذوا اللذات من أم
كتمشى البرء في السقم
مثل فعل الصبح في الظلم
كاهتداء السفر بالعلم

ولابن طباطبا (٥٣٥٢) :

أترك الشرب والأنوار دائمة
والغصن يهتز كالنشوان من طرب
لا، والتي تركتني يوم فرقتها
وهذه هي سينية أبي نواس المشمورة في وصف الخمر، قال أبو نواس في الخمر:
ودار ندامى عطلوها وأدلجوا
مساحب من جر الزقاق على الثرى
بها أثر منهم جديد ودارس (٤)
وأضغاث ريحان : جنى ويابس (٥)

(١) انصت أجب . (٢) بزلت بالمجهول صبت وسالت .

(٣) ٤٩ المغرب لابن سعيد .

(٤) الندامى جمع ندمان جليتك على الشراب . عطلوها أخلوها ، والإدلاج السير أول الليل، والدارس البالى . يريد الشاعر داراً اجتمع فيها بصحبه وشربوا فيها الخمر ثم تركوها وتركوا فيها آثاراً جديدة وقديمة بالية .

(٥) الزقاق جمع زق وعاء الخمر . الثرى التراب النسدى أراد الأرض ، والأضغاث جمع ضغث الحزمة من العشب ، والجنى الحديث العهد بانقطع . وهذا البيت يبيان الأثر الذى تركوه من الخطوط على الأرض من جر الزقاق ومن حزم الرياحين اليابسة لطول العهد على قطعها والحديثة التى قطعت لوقتها .

حبست بها صبحي وجددت عهدهم وإني على أشمال تلك لحابس (١)
تدور علينا الراح في عسجدية حبثها بأنواع التصاوير فارس (٢)
قرارتها كسرى ، وفي جنباتها مهأ تدريسها بالقسى الفوارس (٣)
فللنخر مازرت عليه جيوبهم وللساء مادارت عليه القلائس (٤)

دراسة لهذه القصيدة :

أقام أبو نواس أياما في رفقة كريمة عليه يتمتعون في ظل عيش رخي ،
وحياة خالية من الهموم ، تدار عليهم الخمر في كئوس ذهبية فأراك صورة
الشرب يتساقون الكئوس ويتهادون بالرياحين وقد ذبل بعضها وبقي بعضها
غضا جديدا كعمد الشارين به ، وأراك الكئوس الفارسية وقد تألق
صانعوها فزينوها بصورتها جمالا ، فهذه صورة كسرى في قرارة الكئوس
وفي جوانبها فوارس تصطاد الوحش ، وأراك مقدار الخمر في الكئوس
وكية الماء فيها .

(١) يريد أنه ألزم من صحبه هذه الدار حيث توفروا على اللهو والشراب
وأعادوا العهد على مثل هذا العيث ، وهو حريص على أمثال هذه شديدا للاهتمام بها .
(٢) الراح الخمر . والعسجدية منسوبة إلى المسجد أي الذهب ، والمراد أن
الكئوس منحبة ، وحبها منحها . وفارس : الدولة المعروفة .

(٣) قراراتها أسفلها ، والمها جمع مهاة البقرة الوحشية . وإدرى الصيد ختله .
والقسي جمع قوس . والفوارس جمع فارس راكب الفرس - والمعنى أن الكئوس
محللة بصورة كسرى في أسفلها ، أما جوانبها فمحللة بصور فرسان ينتهزون غفلة
المها ليرموها بسهام أقواسهم .

(٤) الجيب طوق القميص . والقلائس جمع قلنسوة ، يقول : إنهم كانوا
يشربون الخمر عروجة ، يصبون الخمر حتى تبلغ أعناق صور الفوارس ثم يمزجونها
بالماء حتى تغطي رؤسهم .

وهذه القصيدة تصور لك ثورة أبي نواس على القديم فهو فيها لا يبكي
طللاً ولا يقف على رسم ، إنما يبكي داراً للهو والمجون قضى فيها أياماً ثم تركها
وفي نفسه حنين إليها وشوق إلى استعادة مثلها . وقد كان أبو نواس ينحى
على المقلدين من الشعراء وصفهم لحياة البادية وهم يعيشون في حياة حضرية
بلغت الذروة في الرقي الاجتماعي والثقافي .

وشاعرية أبي نواس كما تبدو في هذه القصيدة قوية فياضة متأججة
الشعور مضطربة العاطفة ، ملتهبة الإحساس ، والشاعر هنا مؤمن بالتجديد
حريص عليه يسير على أسلوب القصيدة العربية ومنهجها في شعره في كل
شئ ؛ إلا في عرض قصيدته ، الذي كان جله في وصف الخمر ، والدعوة إلى
ترك مساءلة الأطلال .

وقد كان أبو نواس مفخرة من مفاخر العربية وآدابها ، وكان شعره
من أقوى مظاهر التجديد في الشعر العباسي ، لذلك عد رأس مدرسة من
مدارس المحدثين بعد بشار ومدرسته الشعرية . وقد جمع أبو نواس في
شعره خلاصة من معاني شعر المتقدمين من الجاهليين والإسلاميين ،
وأضاف إليها صوراً جديدة من معانيه المبتكرة ومعاني الذين عاش بينهم
من المحدثين الحضريين المثقفين بالحضارات والعلوم الموروثة عن أمم شتى ،
وبالحضارة الإسلامية العربية وعلومها وآدابها على ما بين هؤلاء المحدثين من
تابن في الجد والحزل ، وأشهر من حاكاه شاعرنا منهم وصب على قوالب
معانيه : بشار بن برد . وقد كانت أكثر معاني أبي نواس المبتكرة وتشبيهاته
البديعة في الخمريات التي فاق فيها كل من سبقه من أمثال الأعمش والأخطل
والوليد بن يزيد فيما نسب إليه من الخمريات إن صدقاً أو كذباً ؛ ثم في النزول
بالمذكر ، ولاغرابة في ذلك فعنه وعن شيطانه والبة شاع هذا النوع وذاع ،
ومن معانيه استمد شعراء المولدين بعده . على أن له في الأغراض الجديدة
معاني لم يحم حولها شاعر ، كما أن له فيها وفي غيرها معاني مبتكرة .

والمشهور عنه في قصائده البليغة أنه كان يقولها طويلة ثم ينحى عليها
بجذف الردىء والمكرر ، وبالتهذيب والتثقيف حتى تصير كلها عيوناً .
فهو من أمثال زهير والحطيئة والأخطل ، ولذلك كانت قصائده الجيدة
قصيرة . وكان إذا مدح أصدقاءه ومن له عليه دالة راعى أسلوب الحضريين
في دمايته ولينه ورقة نسجه . ومهد للديح بدم الديار والأطلال والنوق
والجمال ، ودعا إلى معايرة المدام ومبادرة اللذات واستماع الأغاني ومباكرة
الرياض ونحو ذلك ، وهذه الطريقة ابتدعها أبو نواس أو كاد . وكذلك
كان يرقق القول في المقطعات والخريات ، ويسف إلى أن يقارب .

الحكمة :

الحكمة هي آثار التفكير في الإنسان والمجتمع والوجود والحقائق
والأشياء وهي ثمرات العقل الإنساني والإحساس الفكري بالحياة .

والحكمة قديمة في الشعر العربي نجدها في الجاهلية في شعر زهير وأضرابه
وفي الإسلام في شعر كعب الغنوي (١) وكثير من الشعراء ، وكان الحارث
بن كلدة طبيب العرب المشهور شاعراً إذا حكمة في شعره (٢) .

وكان عمران بن حطان أشعر الناس في الزهد (٣) ، وكان القطامي كثير
الأمثال في شعره (٤) وكان أبو بكر بن محمد بن عبيد الله الكوفي جل أشعاره
آداب وأمثال وأدرك الدولتين (٥) . ثم جاء عصر المحدثين ،

(١) كان يقال له كعب الأمثال لكثرة ما في شعره من الأمثال (٢٤١ معجم
الشعراء) . (٢) ١٧٢ المؤلف للأمدى .

(٣) ٩١ المرجع .

(٤) ٢٤٤ معجم الشعراء .

(٥) ٤١ المرجع .

فأكثرها من الحكمة كصالح بن عبد القدوس وأبي العتاهية ومحمود الوراق ، كان صالح من الشعراء الفلاسفة وجميع شعره في الحكمة والأمثال ، وكان مذهبه مذهب السوفسطائية الذين يزعمون أن الأشياء لاحقيقة لها وله كتاب سماه المشكوك^(١) وكان أبو العتاهية لا يسكاد بخلي شعره مما تقدم من الأخبار والآثار^(٢) ، وأكثر شعره في الزهد والأمثال^(٣) ، وكان أكثر شعر محمود الوراق أمثالا وحكما وواعظ ، وليس يقصر بهذا الفن عن صالح بن عبد القدوس^(٤) . ولأبي تمام كثير من الحكم الاجتماعية في شعره .

وكانت الحكمة في العصر الجاهلي مستمدة من تجارب الشاعر وآرائه الخاصة في الحياة ، وفي العصر الإسلامي كثرت الحكمة وتنوعت بما دخلها فوق ذلك من أثر القرآن والحديث وعلومهما في التفكير والأخلاق والاجتماع ، وفي بدء عصر المحدثين أضيف إلى تلك العناصر الحكمة الفارسية التي احتذاها الشعراء ونظموا كثيرا من معانيها ، ثم جاءت الفلسفة والحكمة اليونانية ، فلقحت العقول بلقاح جديد ظهر أثره في هذا الفن في العصر الثاني على يد أبي تمام م ٢٣١ هـ ، وابن الرومي م ٢٨٣ هـ ، والناشيء الأكبر م ٢٩٣ هـ ثم المتنبى والمعري .

ويصف المتنبى الحياة والناس فيقول في حكمة عالية^(٥) .

(١) ١٣٢ و ١٣٣ ج ٣ الرافعي .

(٢) ٢٣٨ ج ١ الكامل للمبرد .

(٣) ١٢٢ ج ٤ الأغاني .

(٤) ١٧٤ طبقات الشعراء لابن المعتز .

(٥) المتنبى شاهد أواخر العصر العباسي الأول وأوائل العصر العباسي الثاني

فهر مختصر م .

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأنه ما عانا
وتولوا بغصة كلهم منه وإن سر بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لياليه وإكن تكدر الإحسانا
وكأنا لم يرض فينا بريب الد هر حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قنائة ركب المرء فى القنائة سنانا
ومراد النفوس أصغر من أن تتعاضى فيه وأن نتفانى
غير أن انقى يلاقى المنايا كالحات ولا يلاقى الهوانا
ولو ان الحياة تبقى لحتى لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بد فن العجز أن تكون جبانا

الزهد :

وهو فن جديد نشأ فى الشعر العباسى بتأثير كثرة الترف ، والدعوة
إلى الرجوع إلى البساطة ، وتغليب النظر إلى جانب الفقراء ، ونقد المجتمع ،
على أن فى شعر الزهد جانباً من جوانب الدين الذى يوجب البساطة فى كل
شئ ، ومن شعراء الزهد فى هذا العصر : أبو العتاهية ، وصالح بن عبد
القدوس ، وأبان بن عبد الحميد الكاتب ، الذى نظم كتاب كليله ودمنة
للسمر والموعظة ، وقد أخذ الشعراء ينظمون فى هذا الباب وإن لم يكن
لهم فيه معيار ، كأبي نواس وغيره .

ونماذجه فى ديوان أبى العتاهية كثيرة ، فقد أكثر أبو العتاهية فى شعره
من الدعوة إلى الزهد والرغبة عن الملذات والانصراف عن الدنيا ،
فهو يقول فى شعره :

رغيف خبز يابس تأكله فى زاوية
وكوز ماء بارد تشربه من صافية
وغرفة ضيقة تنسك فيها خالية
أو مسجد بمزل عن الورى فى ناحية

تدرس فيه دفترًا مستندا بسارية
خير من الساعات في فيء القصور العالية
ومع ذلك فقد كان في ثراء عريض (١) .

ويقول أبو العتاهية يخاطب الخليفة ، مصورا في شعره للغلاء
في بغداد :

| | | |
|-----------------------|-----------------------|---------|
| من مبلغ عنى الإمام | نصائحنا | متوالية |
| إنى أرى الأسعار | أسعار الرعية | غالية |
| وأرى المكاسب نزرة | وأرى الضرورة فاشية | |
| وأرى غموم الدهر را | ثمة تمر وغادية | |
| يرجون رفدك كى يروا | عما لقوه العافية | |
| من يرتجى للناس غير | ك للعيون الباكية ؟ | |
| من مصليات جوع | تمسى وتصبح طارية | |
| من يرتجى لدفاع كرب | ملة هى ماهية ؟ | |
| من للبطون الجائعا | ت وللجسوم العارية ؟ | |
| يا ابن الخلائف لا فقد | ت ولا عدمت العافية | |
| إن الأصول الطيبا | ت لها فروع زاكية | |
| ألقىت أخبارا إلب | ك من الرعية شافية (٢) | |

(١) راجع ١٣٩ و ١٥٣ ج ١ ضحى الإسلام .

(٢) ٣٠٤ ديوان أبي العتاهية .

الفخر:

١ - يرى ابن رشيق أن الفخر هو المديح نفسه ، ولكن الشاعر يخص نفسه وقومه (١) ، ويراه أديب يحدث تأريخاً لفضيلة الفرد والجماعة (٢) ، وفي الحق أن الفخر إشادة الشاعر بنفسه أو قومه وتنويهه بأدبه أو حسبه ، ولا يدعو إليه عاطفة الأثرة والأناية في كل وقت ، بل قد يكون الشاعر مضطراً لأن يساجل خصومه ويسجل على أعدائه ما خفي عنهم من صفاته وآدابه ، أو ما جحدوه من مآثره وفضائله ، وليس من شك في أن حب النفس عاطفة من العواطف ، وأن الشعر مجال للعواطف الشخصية والإنسانية جميعاً ، والذي يطالب به الشاعر حين يفترح هو الصدق والتجرد عن مظاهر الكبرياء وتمثيل الحقائق الواقعة التي لا تزكى إلى الخيال بل إلى الواقع نفسه في صورتها وتصويرها .

وللشعراء المحدثين ، ولا بن المعتز من بين المحدثين مجال كبير في الفخر ، وشعره فيه كثير ، ويشيد بفخره الأدباء والنقاد جميعاً ، فيذكره ابن شرف منوهاً بافتخاراته الملكية وهمانه العلوية (٣) ، ويقول البافلاني : وتجد لابن المعتز في مواقع شعره من القلب في الفخر وغيره ما لا تجد لغيره لأنه إذا قال :
إذا شئت أو قرت البلاد حوافرا وسارت ورائي هاشم ونزار
أوقال :

قد تردت بالمكارم دهرا وكفتني نفسي من الافتخار
أنا جيش إذا غدوت وحيدا ووحيد في الجحفل الجرار
أوقال :

أيها السائل عن الحسب الآ طيب ما فوقه لخلق مزيد

(١) ١٣٦ ج ٢ العمدة .

(٢) ٩٩ ج ٢ الرافعي .

(٣) ٢٤٩ رسائل البلغاء .

نحن آل الرسول والعترة الحق وأهل القرى فماذا تريد؟
ولنا ما أضاء صبح عليه وأنته رايات ليل سود
ويقول من قضيدة له :

وأسمر للجد والمكرمات إذا اكتحلت أعين بالسكرى
فانظره في هذه القصيدة كلها ، ثم في جميع شعره ، تعلم أنه ملك الشعر ،
وأنه يليق به من الفخر خاصة ، ثم ما يتبعه مما يتعاطاه ما لا يليق بغيره بل ينفر
عن سواه (١) .

ولأبي نواس (٢) في عزة النفس وهو من المعاني القريبة من الفخر ،
والآيات عالية الطبقة في البلاغة ، ويصف فيها أبو نواس انفعالاته النفسية
وصفاراتها :

ومستعبد لإخوانه بثرائه لبست له كبرا - أبر - (٣) على كبر
إذا ضمنى يوما وإياه محفل يرى جانبي وعزاً (٤) يزيد على الوعر
أخاله في شكله ، وأجره (٥)
على المنطق المنزور (٦) والنظر الشزر (٧)

(١) ٢٠٩ و ٢١٠ إيجاز القرآن .

(٢) من شعراء الدولة العباسية (١٤٥ - ١٩٨ هـ) .

(٣) أبر (فعل ماض) فيكون معناها غلب وقهر ، ويصح أن تكون أفعل
تفضيل فيكون معناها أعظم قهراً وغلبة . والمعنى من يتخذ غناه وسيلة لاستعباد
إخوانه ، وتكبره عليهم - فإني ألبس له كبرا يغلب كبره ويقهره ، أو كبرا أعظم
قهرًا وغلبة من كبره . (٤) صعباً .

(٥) أطلعته ، أو أقطع لسانه . (٦) القليل .

(٧) النظر الشزر ما يكون بجانب العين ، بغضا وإعراضا ، ومعنى البيت
أنى أخالف الفنى المتحجرف في كل ما يكون منه ، وأقطع لسانه وأوديه ، لما يتكلفه
من قلة الكلام والنظر الشزر .

وقد زادني تيبها^(١) على الناس أني أراني أغناهم ، وإن كنت ذا فقر
فوالله لا يبدى لساني حاجة إلى أحد حتى أغيب في القبر
ولو لم أنل فضلا لكانت صياني فعي عن جميع الناس - حسبي من الفخر

العتاب :

ومن نماذجه قول ابن الرومي يعاتب صديقه أبا القاسم الشطرنجي :
يا أخي أين عهد ذلك الإخاء أين ما كان بيننا من صفاء
كشفت منك حاجتي هنوات غطيت برهة بحسن اللقاء
تركنتي ولم أكن سيء الظن أسىء الظنون بالأصدقاء
يا أخي هبك لم تهب لي من سه يك حظا كسائر البخلاء
أفلا كان منك رد جميل فيه للنفس راحة من عناء
يا أبا القاسم الذي كنت أرجو ه لدهري قطعت متن الرجاء
لا أجازيك عن غرورك إيا ي غرورا وقبت سوء الجزاء
بل أرى صدقك الحديث وماذا ك لبخل عليك بالإغضاء
أنت عيني وليس من حق عيني غض أجفانها على الأقداء
ما بأمثال ما أتيت من الأمر يحل الفتى ذرى العلياء
بذل الوعد للأخلاء سمعها وأبي بعد ذلك بذل العطاء
فعدا كالخلاف^(٢) يورق للعين ويأبى الإثمار كل الإباء

وفي أبيات ابن الرومي السالفة صورة لصناعته الشعرية ومذهبه في
نظم القصيدة ، فهو يعتمد على الحجاج العقلي وكثرة التوليد للمعاني

(١) كبرا .

(٢) هو شجر الصفصاف .

والاشتقاق لها والزيادة فيها والدخول إلى مغالقتها . . وهو لا يترك منطقاً معقولاً في عتاب صديقه إلا ذكره ، ولا باباً من الأبواب يدخل منه لتأييد حجته إلا دخل منه ، وعتاب ابن الرومي هنا عتاب كله حجج وأدلة وأقيسة ، وهذا من باب المذهب الكلامي الذي ذكره علماء البديع في المحسنات المعنوية للأسلوب .

وألفاظ ابن الرومي عذبة سهلة وأساليبه تلمس فيها بساطة التعبير ، وصدق العاطفة وعمق التجربة ودقته في تناوله الفن لأسلوب الصياغة الشعرية ، والتشبيه التمثيلي في آخر هذه الأبيات تشبيه دقيق بليغ ، إذ شبه وعد صديقه الخلاب الخادع بمظهر شجرة الصفصاف الجميل المونق ، الذي ليس وراءه ثمرة ولا فائدة .

وابن الرومي شاعر مجيد . وعلم من أعلام القريظ في القرن الثالث الهجري ، ويمد في الطبقة الثالثة من شعراء المحدثين ، وهي الطبقة التي كان من أبطالها : أبو تمام والبحري وابن المعتز ، وورثت مجد الشعر بعد طبقة أبي نواس ، وكان لها منهجها الأدبي الخاص ، الذي يقوم على العناية بالصناعة الشعرية ، وعلى توليد المعاني وعمق الخيال .

ولد أبو الحسن علي بن العباس بن جريج الرومي عام ٢٢١ هـ ، من أبوين مختلفي الأرومة ، فأمه تنحدر من عنصر فارسي ، وأبوه ينحدر من عنصر رومي ، كان يحتفظ بطبيعته الشاعر ويمتد به طول حياته ، كان مولى الحفيد من أحفاد الخليفة أبي جعفر المنصور ، وولد في بغداد في دار بازاء قصر مولاه ، ومات والده في طفولة الشاعر ، فنشأ ابن الرومي في ظلال والدته وأخيه الأكبر يعيش هو وأسرته على مال ضئيل خلفه لهم أبوه ، وأخذ يتزود بقسط من ثقافة عصره . فلم يلبث أن أحاط بكل ما يمكن أن يحاط به من العلوم والآداب ، ونمغ في الشعر ، ونظم القريض وطارت شهرته في سماء بغداد ، ولكن هذه الشهرة لم تنمعه ، كان فقيراً يريد أن يعيش ، وجامعاً

يريد أن يأكل ، وظمان يريد أن يروى ، وخلق الثياب يبحث عما يلبسه ،
وقصد بشعره رجالا الدولة في عصره مادحا لخرموه العطاء ، فعاش ساخطا
على الحياة والأحياء :

في دولتي أنا مغضوب وفي زمني عودي ظمى بلارى ولا بلل

كان شابا جميلا قوى الملكات ، مزودا بشتى ألوان الثقافة ، فلم يغنه
ذلك شيئا في حياته ، وكان يسمع ويرى حياة الترف التي يحياها في عصره
كثير من الناس ، فتمنى لنفسه حظا من النعمة ، فلم يحظ بباطل ، وهو الشاب
الذي ذاق ألم اليتيم والشاعر المرهف الإحساس ، فاشتد سخطه على الناس
وأمطرهم وابلا من أهاجيه ، التي بغضته إلى الكثير وزادت من آلامه
في الحياة . تزوج فأعقب ثلاثة أولاد فقدم جميعا . وفقد بعدم أخاه ثم زوجته
وأمه ؛ فعاش حزينا مهموما .

وكانت هذه الحياة الحافلة بالأحداث سببا في هذه الطيرة التي لازمت
ابن الرومي طول حياته ؛ عاصر المعتصم والوائق والمتوكل المنتصر والمستعين
والمعتز ، والمهتدي والمعتمد ، وتوفي في عهد المعتضد سنة ٢٨٣ ، أو ٢٨٤ هـ
كما يقول ابن خلكان .

وكان للدم الرومي وأثر الوارثة ، ولحياة الشاعر وبؤسه ، ولثقافته وبيئته ،
ولمشاعره المرهفة ووجدانه الرقيق ، كان لذلك كله أثره البعيد في شاعرية
الشاعر وفنه الأدبي ، الذي كان صورة مكبرة لكل ألوان هذه الحياة ،
اجتمعت له دقة الملاحظة والإحساس ، وعمق الشعور بالمتناقضات في
نفسه وفي زمنه ، فولدت في نفسه روح السخرية ، وأشاعت في فنه هذا
اللون الجيد من ألوان الشعر والشعور ، وهو فن الهجاء ، الذي امتاز به
الشاعر وأجاده ، حتى حين يهجو من لم يؤذ به بشيء ، كما يقول يهجو مغنيا من
قصيدة طويلة :

ومسمع لا عدمت فرقته فإنها نعمة من النعم
مجلسه مأتم اللذات والقصف وعرس الموم والسدم
كأنتى من طول ما أشاهده أشرب كأسى بمزوجة بدمى
إذا الندامى دعوه آوته تنادموا كأسهم على الندم
وكان لبؤسه فى الحياة وفقده كثيرا من الأجزاء ، أثر واضح فى إجادته
فن الرثاء ، وداليتة فى رثاء ابنيه من أجود قصائد الرثاء ومطلعها :
بكاؤكما يشنى وإن كان لا يجدى فجودا فقد أودى نظير كما عندى

وكذلك جيميته فى رثاء يحيى العلوى الذى قتل عام ٢٥٠ هـ ، وميميته
فى رثاء البصرة حين ضربها الزنج عام ٢٥٧ هـ (١) . وشغف قلب ابن الرومى
بالحياة ، وتطلعه إلى متعها ولذاتها ، وحياته فى مظاهر الحضارة التى كانت
تغمر عصره ، وأثر الوراثة فى نفسه ، كل ذلك جعله من أعظم الوصافين فى
القرن العربى ، وقصيدته فى وحيد المغنية مثل من أمثلة هذه الإجابة ،
ويقول منها :

| | |
|--------------------------|--------------------------|
| يا خليلى تيمتى وحيد | ففؤادى بها معنى عميد |
| غادة زانها من الغصن قد | ومن الظبي مقلتان وجيد |
| تتجلى للناظرين إليها | فشقى بحسنا وسعيد |
| تتغنى كأنها لاتغنى | من سكون الأوصال وهى تيمد |
| مد فى شاقصوتها نفس كاف | كأنفاس عاشقها مديد |
| قراه يموت طورا ويحيا | مستلذ بسيطه والنشيد |
| خلقت فتنه : غناء وحسنا | ما لها فيهما جيما نديد |
| هى شىء لا تسأم العين منه | ولها كل ساعة تجديد |

(١) ذاد عن مقلتى لذيد المنام
، أمامك فانظر أى نهجيك تهج
شغلها عنه بالدموع السجام
طريقان شتى مستقيم وأهوج

منظر ، مسمع ، معان من اللـهـو ، هناد لما يجب عثيد
وكذلك نونيته في يوم المهرجان مثل ساحر لوصف ابن الرومي الجيد
ومنها في وصف المغنيات وآلات الغناء اللاتي يحملنها :

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بفيها حواني
مطفلات وما حملن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان
كل عود يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عته وهو بادی الغنى عن الترجمان

إلى غير ذلك من روائع قصائده في الوصف والتصوير ، كما أجاد في
وصف الخمر وفي وصف الأخلاق والعواطف ، ويبلغ في العتاب الغاية في
الجودة ، كما في فصيده في عتاب أبي القاسم الشطرنجي ، التي مطلعها :

يا أخي أين عهد ذاك اللقاء أين ما كان بيننا من صفاء

وله آيات في المدح تحوز الإحسان والإجادة ، ومنها نونيته في أبي
الصقر ، ومطلعها :

أجنت لك الوجد أغصان وكشبان فيهن نوعان تفاح ورمان
ويقول فيها :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمرى ولكن منه شيبان
وكم أب قد علا بابن ذرى شرف كما علت برسول الله عدنان

ويمتاز ابن الرومي بتفضيله المعنى على اللفظ كما كان المتنبي ، فهو يطلب
صحة المعنى ولا يبالي حيث وقع من هجونة اللفظ وخشونته ، كما يقول ابن
رشيق (١) . كان بديع المعاني بعيدا ، كثير الاختراع والتوليد فيها ،
والاستقصاء لها ، لا يترك فيها بقية لغيره ، والقدرة التامة في تشويق المعاني
وتفصيلها هي أخص خصائص شاعرية ابن الرومي ، ويقول ابن رشيق

فيه : « إنه أكثر الشعراء اختراعا للمعاني ، أما أسلوبه فجمع بين الجيد والردىء وروح الصنعة ظاهرة فيه ، وإن كانت في شعره أقل منها في شعر ابن المعتز ، لم يكن ابن الرومي يعنى بهذيب شعره وتنقيحه ، ولو أسقط رديته لكان في ذلك أجود الشعراء ، وفي الغالب أن شعراء المعاني كابن الرومي وأبي تمام ، فلما تهض أفاضهم بأداء معانيهم ، وقد كان ابن الرومي لا يحفل باللفظ إلا بقدر أداء المعنى . وتمتاز قصائده بطول انفس ، مما لا يجاريه فيه إلا ابن هانيء الأندلسي ، وقد ساعده على الإطالة أسلوبه الخاص في تناول كل معنى من معانيه بالإضافة والشرح ، وتقليبه على كل نواحيه كما تمتاز قصائده بالانسجام والوحدة في تأليفها ، حتى لكانها قطعة واحدة ، وؤلفة تأليفا منطقيا لا عوج فيها ولا ضعف ولا استطراد .

وخياله خيال يقظ ، حسي في غالب شعره ، يترك الحبس إلى عالم العقل أحيانا ، أوتى ملهكة التصوير ولطف التخيل ، وبراعة اللعب بالمعاني والأشكال .

ولا تكاد تجد شاعرا اختلف النقاد في منزلته الأدبية مثل ابن الرومي ، أهمله صاحب الأغانى إجمالا ، يعلله بعض بالخصومات الأدبية التي كانت بين ابن الرومي والأخفش ، أما تاذ أبي الفرج ، ويعلله آخر بأن ابن الرومي كان شيعيا وأبا الفرج كان أمويا . وقال آخرون : إن روح السخط على ابن الرومي كانت لا تزال متأججة اللهب ، لأهاجيه في رجالات الدولة ، وأعلله أنا بأن أبا الفرج لم يرتض مذهب ابن الرومي في الشعر ، ونهجه في نظم القريض . يقول القاضي الجرجاني عنه في وساطته : « وقد نجد كثيرا ينتحل تفضيل ابن الرومي ، ويخلو في تقديمه ، ونحن نقرأ القصيدة الواحدة من شعره ، وهي قد تناهز المائة أو تزيد ، فلا نعثرفها إلا بالبيت الذي يروق أو البيتين . ثم قد تنسلخ قصائد منه ، وهي واقفة تحت ظلها جارية على رسلها (١) ، لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافي ، وانتظار الفراغ

(١) الرسل : التؤدة .

منها (١) ، ويقول ابن رشيق في عمدته : « وأما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر ، لكثرة اختراعه ، وحسن افتنانه ، وقد غلب عليه الهجاء (٢) ، . ويقول ابن شرف القيرواني فيه : « وابن الرومي شجرة الاختراع ، وثمرة الابتداء ، وله في الهجاء ، ما ليس له في الإطراء ، ولقد كان واسع العطن ، لطيف الفطن (٣) ، . ويقول المعري عنه في رسالة الغفران : « وابن الرومي أحد من يقال إن أدبه أكثر من عقله ، وكان يتعاطى علم الفلسفة (٤) » : ويقول فيه ابن خلسكان : « هو صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ، ويبرزها في أحسن صورها ، ولا يترك المعنى حتى يستوعبه إلى آخره ، ولا يبقى فيه بقية » . ويقول المسعودي فيه : « كان من مختلفي معاني الشعر ، والمجودين في القصير والطويل ، وكان الشعر أقل أدواته ، ، وقد أشاد به أديب العصر الحديث وعدوه شاعر الفن والتصوير في الشعر العربي ، ويقول ناقد من المحدثين : إنما جنى عليه وغربه عند أهل عصره ، وفي أذواقهم ، تفرد ، ووحدة ذوقه وبعده عن أذواق الناس ، فلم يألفوه ولم يطر بواله ، طربهم لأشباهه الذين ينظرون إلى الحياة بأعينهم ، ويتناولون المعاني على طريقتهم (٥) ، وقد صور ابن الرومي رأيه في شعره في قصيدته التي يقول فيها :

قولا لمن عاب شعر مادحه أما ترى كيف ركب الشجر
ركب فيه اللحاء (٦) والخشب اليباس والشوك دونه الثمر
وكان أولى بأن يهذب ما يخلق رب الأرباب لا البشر
فليعذر الناس من أساء ومن قصر في الشعر ، إنه بشر

(١) ٥٤ وساطة .

(٢) ٢٢٥ : ١ العمدة .

(٣) رسائل الانتقاد .

(٤) ١٦٦ - ١٦٤ رسالة الغفران .

(٥) مقدمة ديوان ابن الرومي للعقاد . (٦) قشر الشجر .

الهجاء والمجون :

كان الهجاء باعث العصية والخصومات السياسية مألوفاً في هذا العصر، يظهر في باب الشعر السياسي، ويتجلى في ثوب التعصب القبلي، ويستعلن في الأحقاد الشعبية.. وهناك لون جديد من الهجاء لم تدع إليه عصية، ولم تثره خصومة سياسية؛ وإنما كان مرجعه إلى السخرية والتنادر والتهكم، إزجاء للفراغ وإظهاراً للبراعة في التقبيح وتوليد المعاني فيه.

فلقد كان من أثر المدنية انتشار المفاسد، وذيوع المثالب، وكثرة الفجور؛ كما كان من آثارها ارتفاع الأذواق، حتى لم تعد تسبخ كثيراً من المناظر المألوفة من قبل، أو ترضى عن كثير من العادات الشائعة حينذاك.

فلما ضعف الوازع الديني. وتوفرت أسباب الراحة، واتسعت أوقات الفراغ، ولان جانب العيش. وجد الشعراء في هذه السوءات والمثالب والمفاسد، وفي تلك المناظر الشاذة، والعادات القديمة، مادة واسعة للهجاء، ومنبعاً فياضاً يستمدون منه ما يتندرون به في مجالسهم، ويتفككون في أسماهم وما يتسابقون فيه من إظهار البراعة في الوصف والإبداع في السخرية والإضحاك.

ولقد راحوا يتتبعون العورات، ويتقصون العثرات، ويترصدون للعيوب، ويرمون بما شاع من لواط وأبنة ورشوة ونحو ذلك، كما راحوا يذمون اللهى، ويهزأون بالخلق المشوهة والأنوف الكبيرة، ويستهنون أصوات المغنين، ويسخرون من عادات المتزمتين، وصاغوا ذلك كله في شعر مقذع مضحك، يفريك بالضحك من التصوير قبل أن يفريك بالإشفاق على من قبل فيه.

وهكذا شاع المجون وانتشرت سمومه، بسبب المدنية والإباحية وضعف وازع الدين، قالوا إن مطيع بن إلياس مر يحيى بن زياد وحما

ابن اسحق ، فقال لها : فيم تتحدثان ؟ قالا : في نذف المحصنات ، فقال : أفي الأرض محصنة تقذفانها .

ومن شعر بشار يهجو بخيلا :

كأن عيد الله لم يلق ماجداً ولم يدرك أن المكرمات تكون
إذا جثته في حاجة سد بابها ولم تلقه إلا وأنت كمين
وقال يهجو المهدي مشيراً إلى تفرد وزيره يعقوب بتدبير الأمور :
بنى أمية هبوا طال نومكمو إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خلافة الله بين الزق والعود

ويقول أبو نواس يهجو بخيلا :

رغيف سعيد عنده عدل نفسه يقبله طوراً وطوراً يلاعبه
ويخرجه من كفه فيشمه ويجلسه في حجره ويخاطبه
وإن جاءه المسكين يطلب فضله فقد ثكلته أمه وأقاربه
يكر عليه السوط من كل جانب وتكسر رجلاه وينتف شاربه
ويقول كذلك في قدر بخيل :

ينص بملقوم الجرادة صدرها وينضج ما فيها بعود خلال
وتغلي بذكر النار من غير حرها
وتنزلها عفواً بنير جمال

ويهجو البحتري الخثعمي بكبر الأنف فيقول :

رأيت الخثعمي يقل أنفياً يضيق بعرضه البلد الفضاء
سما صعداً فقصر كل سام لهيبته وغص به الهواء
هو الجبل الذي لولا ذراه إذن رقت على الأرض السماء

ولقد قرأنا لابن الرومي بعض صورته (الكاريكاتورية) البارعة .

رأينا تصويره الأحذب ، فلنشهد هذه الصورة لجمحة المغنى :

رأيت جمحة يخشى الناس كلهمو إذا هو عاينوه الفالج الذكرا
تخاله أبدأ من قبسح منظره مجاذباً وترأ أو بالماً حجرا
كانه ضفدع فى لجة هرم إذا شدا نغماً أو كرر النظرا
لو كان لله فى تخليدنا قدر مع قربه ماأردنا ذلك القدرا

ويقول فى صلعة أبى حفص :

ياصلعة لأبى حفص بمردة كأن ساحتها مرآة فولاذ
زن تحت الأكف الواقعات بها حتى ترن بها أكتاف بغداد
ويهجو عمرأ فيقول :

وجبهك يا عمررو فيه طول وفى وجوه الكلاب طول
والكلب واف وفيك غدر ففبك عن قدره سفول
وقد يحامى عن المواشى وما تحامى ولا تصول
وأنت من أهل بيت سوء قصتهم قصة تطول
وجوهمم للورى عضلات لكن أقتاءهم طبول
مستغلمان فاعلن فعولن مستغلن فاعلن فعول
بيت كعنك ليس فيه معنى سوى أنه فضول

ويقول :

لو أن قصرك يا ابن يوسف كله لبر يضيق بها فضاء المنزل
وأناك يوسف يستعيرك إبرة ليخيط قد قبسه لم تفعل

وهذه ليلة من ليالى أبى نواس الماجنة :

وأحور ذمى طرقت فناءه بفتيان صدق مازى منهمونكرا
فلما قرعنا بابه هب عاتقاً وبادر نحو الباب ممتلئاً ذعرا
وقال : من الطراق ليلا فناءنا؟ فقلت له افتح ، فنية طلبوا خمرنا

فأطلق عن أبوابه غير هائب
ومر أمام القوم يسحب ذيله
فقلت له : ما الاسم حيث قالى
فكعدنا جميعاً من حلاوة لفظه
فقلت له جثناك نبتاع قموة
فقال اربعوا عندى الذى تطلبونه
فقلت فاذا مهرها قال مهرها
فقلت له خذها وهات نعاطها
فشك بأشفاء له بطن مسند
وجاء بها والليل ملق سدوله
ريبة خدر راضها الخدر أعصرا
إذا أخذتها الكأس كادت بريجها
ومازال يسقينا ويشرب دائبنا
وأطلع من أزراره قرأ بدرا
يجاذب منه الردف فى مشيه الخصر
دعاني أبى (سأبا) ولقبنى (شمرأ)
نجن ولم نسطع لمنطقه صبرا
معتقة قد أنفدت قدماً دهرأ
قد احتجبت فى خدرها حقباً عسرا
إليك فسقنا نحوه خمسة صفرا
فقام لإيها قد تملى بنا بشرا
فسالت تحاكى فى ثلاثها البدرا
مدلا بأن وافى محيطاً بها خبرأ
فكانت لها قلباً وكان لها صدرأ
تخال بها عطراً وما مزجت عطرا
إلى أن تغنى حين مالت به سكرأ

ومن مجونه قوله فى تفضيل الغلمان :

وعاذلة تلوم على اصطفاى
فقلت لها جهلت فليس مثلى
بذا أوصى كتاب الله فينا
بفضل البنين على البنات

الثناء :

قال أبو تمام يرثى محمد بن حميد الطوسى :

كذافليجل الخطب، وليفدح الأمر
توفيت الآمال بعد محمد
فليس لعين لم يفيض ماؤها عذر
وأصبح فى شغل عن السفر السفر (١)

(١) السفر : المسافرون ، يقول : إنه بموته انقطعت الآمال لأن الناس لم يكونوا يأملون إلا فيه ، وشغلت الناس الرزينة فيه عن أسفارهم وقضاء حاجاتهم.

وما كان إلا مال من قل ماله
وما كان يدري مجتدى جود كفه
ألا في سبيل الله من عطيات له
فتى كلما فاضت عيون قبيلة
فتى دهره شطران فيما ينوبه :
فتى مات بين الطعن والضرب ميته
وما مات حتى مات مضرب سيفه
وقد كان فوت الموت سهلا فرده
ونفس تعاف العار حتى كأنما
فأثبت في مستنقع الموت رجله
غدا غدوة والجد نسيج ردايه
تردى ثياب الموت حمرا ، فادجا
كان بنى نيهان يوم وفاته
يعزون عن ثاو تعزى به العلا
وأنى لهم صبر عليه وقد مضى
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة
فتى سلبته الخيل وهو حمى لها

وذخر آمن أمسى ، وليس له ذخري
إذا ما استهلكت أنه خلق العسر
فجأج سبيل الله ، وانثغر انثغر
دما ضحكته عنه الأحاديث والذكر (١)
فتى بأسه شطر ، وفي جوده شطر
تقوم مقام النصر إذ فاته النصر
من الضرب واعتلت عليه القنا السمير
إليه الحفاظ المر والخلق والوعر
هو الكفر يوم الروح أودونه الكفر
وقال لها: من تحت إخمصك الحشر (٢)
فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
لها الليل إلا وهي من سندس خضر
نجوم سماء خر من بينها البدر
ويكى عليه البأس والجود والشعر
إلى الموت حتى اشتشهدا هو والصبر
ولكن كبيرا أن يقال : به كبير
وزته نار الحرب وهو لها جمر (٣)

(١) يقول : إنه ما من قبيلة دحرت في الحرب حتى فاض الدم من عيونها إلا ذكره الناس بالفخر لأنه هازمها .

(٢) يريد أنه قد ثبت للبوت فلا تتحول رجله إلى أن يموت حتى كأن الحشر من تحتها .

(٣) بزته ، يقال بزّه وبزّه ، سلبه .

وقد كانت البيض المآثير في الوغى
أمن بعد ظل الحادثات محمداً
إذا شجرات العرف جذت أصولها
لئن أبغض الدهر الختون لفقده
لئن غدرت في الووع أيامه به
لئن ألبست فيه المصيبة طينا
كذلك ما تنفك تفقد هالكا
سقى الغيث غيثا وارت الأرض شخصه

وإن لم يكن فيه سحاب ولا قطر
وكيف احتمالى للغيوث صنيعه
مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة
غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبر
ويغمر صرف الدهر نائله الغمر
رأيت الكريم الحر ليس له عمر
عليك سلام الله وقفا فإنى

وأبو تمام رأس مدرسة من مدارس المحدثين ؛ وهو أبو تمام حبيب
ابن أوس الطائي ، يعد رأس الطبقة الثالثة من المحدثين ، وصاحب الطريقة
التي تؤثر المعنى وتحتفل به وتتعمد الإكثار من البديع انتهت إليه زعامة
الشعر في عصره فلم يكن أحد من الشعراء يستطيع أن يجرى معه في ميدان
وحسبك أن البحتري سئل عن نفسه وعن أبي تمام فقال : إنما أكلت
العيش به .

ولد بقرية جاسم على ثمانية فراسخ من دمشق عام تسعين ومائة من
الهجرة ثم انتقل إلى مصر صغيرا فكان يسقى الماء بجامع عمرو وكان المسجد

(١) المآثير : جمع مأثور ، والسيب المأثور القديم المتوارث ، وبواتر :
جمع باتر وهو القاطع . وبتر : جمع أبتر ، أى مقطوعة .

إذ ذلك معهدا تدرس فيه العلوم والآداب فعكف على العربية يروها
ويدرسها حتى حفظ الكثير من شعر العرب ، ونبغ في قرض الشعر ،
ثم خرج إلى بغداد فمدح المعتصم ووزيره ابن الزيات والحسن بن وهب
صاحب ديوان الرسائل ، ثم ولاء الحسن بريد الموصل فأقام بها إلى أن مات
سنة إحدى وثلاثين ومائتين من الهجرة .

وقصيدته هي في الرثاء ، وهو أوسع فنون الكلام مجالاً وأحفل أبواب
الأدب بالحكمة ، وأحرى أن تجد فيه الخبر النادر والمثل السائر والموعظة
البالغة ، والمرثي قائد عظيم طالما خرج إلى القتال حميداً ورجع مظفراً
منصوراً ، ذلك القائد هو محمد بن حميد الطوسي من بني نهبان قبيلة من طيء
التي ينسب إليها الشاعر .

خرج هذا القائد لمحاربة بابك الخرمي رئيس الطائفة المنسوبة إليه
الخارجة على الخلفاء ، والتي ملأت الأرض فساداً ، وامتدت ثورتها من
عهد المأمون إلى عهد المعتصم ، ولم يحالف الحظ القائد في هذه المعركة فقتل
سنة ٢٢٤ هجرية فرثاه أبو تمام بهذه القصيدة .

وقد بدأ القصيدة فعظم من شأن الخطب ووصف العيون التي لا تفي ماء
شئونها بالبخل ، ونسبها إلى التقصير ، فقد مات عميد الناس في كل ناحية
وموضع آمال العفاة والبائسين ، وذكر أنه مات مجاهداً فسهل موته السيل
إلى غزو البلاد وأنه طالما رجع من الغزو مظفراً منصوراً فأطلق السنة
الشعراء بالثناء عليه وترك وراه عيوناً دامية تبكي قتلاها وتنعى موتها ،
وأن هذا المرثي قضى عمره بين يومين : يوم يقتل فيه الأعداء ويوم يحسن
فيه إلى الفقراء :

فيوم لإلحاق الفقير بذي الغنى ويوم رقاب بوكرت لحصاد

ثم اعتذر عنه بأنه لم يقتل حتى أبلى بلاء حسناً ، وحتى تعطلت آلات

القتال فتثلت السيوف وتكسرت الرماح ، وكانت السيليل إلى النجاة ميسورة
والهرب من الموت ممكنا ، ولسكنه أثر جميل الذكر وحسين الأحدوثه
ما بق الدهر ، ورأى صبراً على الموت أكرم ، وأن وقوف ساعة في ساحة
الموت تعقب حمداً وتورث مجداً :

وإذا لم يكن من الموت بد فن العجز أن تموت جباناً

أقد عاش البطل جليداً ، وغدا إلى المعركة حميداً ، وسقط في ساحة
المجد شهيداً ، فما أتى الليل إلا وهو ينعم مع الشهداء في دار الخلود . ثم
أقبل على عشيرته الأفرين يواسيهم فذكر أن الرزء عام والمصيبة شاملة حتى
إن الفضائل تندبه وتبكي عليه وإن كان الصبر غير مستطاع فقد ذهب بذها به
ومثله لا ينسى لأنه كان كريم النفس عظيم الخلق رضى العشرة يغضى حياه
وتواضعا .

ثم تعجب من الحرب كيف تقتل مسعرا ، ومن الفوارس كيف تقتك
بحاميا ، وذكر أن آلات القتال فقدت من يحسن استعمالها ويظهر في الحروب
مزيتها ، وأن السكرم ذهب من الناس فقد قطعت أصوله . وذبلت أوراقه ،
ومص الثرى بقية الماء من العود فأصبح هشياً تدره الرياح ، ثم وصف العيش
بعده بأنه مر لا يطاق . والحياة بغيضة يهرب المرء منها ويتمنى الموت من أجلها ،
وقد كانت في أيامه كريمة سعيدة ينعم الناس في ظلها ويتساقون كؤوس
السعادة في جنباتها . لسكنها الأيام لا تؤمن لجنتها ولا تدوم حبرتها . ثم ذكر
أن الفجعية عمت العرب جميعاً فهم ما جورون فيه ومعزون به ، ولا تزال المنايا
تختار من يعم رزؤه ويحل مصابه . ثم سأل الغيث أن يتعهد قبره بالسقيا ،
ولسكنه عاد فأنكر ذلك على نفسه لأن في القبر البحر الذي تنشأ عنه هذه
الأمطار ، وسأل الله في ختامها أن ينزل زحماته عليه ، وتأس بأن عادة الموت
أن ينزل بالسكرام ، ويكلف بكل شريف .

ولقد أخذ نقاد الأدب على أبي تمام مأخذ كثيرة : منها رداءة مطلعها
وأنه سرق جل معانيها ، وحذا حذو كثير من الشعراء في خيالها . ذكروا
أنه أخذ قوله :

كأن بنى نهبان يوم وفاته

من قول صفية الباهلية :

كنا كأنجم ليل بينها قر

وقوله :

أمن بعد طى الحادثات محمدا

من قول أبي نواس : « طوى الموت ما بيني وبين محمد ،

وقوله :

لئن عظمت فيه مصيبة طيء

من قول عبد الله بن أيوب :

جلت رزيتة فعم مصابه

وقوله :

توفيت الآمال بعد محمد

من قول مكنف السلمي يرثى ذفافة :

روى الأغانى قال قال محمد بن موسى كنا عند دهب فذكرنا أبا تمام

فثلبه وقال : هو سروق للشعر ، ثم أخرج دفتراً فإذا فيه : قال مكنف

السلمي يرثى ذفافة العيسى :

| | |
|--------------------------------|------------------------------|
| ألا أيها الناعي ذفافة ذا الندى | تعست وشلت من أناملك العشر |
| إذا ما أبو العباس خلى مكانه | فلا حملت أثى ولا مسها طهر |
| ولا أمطرت أرضاً سماء ولا جرت | نجوم ، ولا لذت لشاربها الخمر |

كأن بنى القمعاق يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر
توفيت الآمال بعد ذفافة وأصبح في شغل عن السفر السفر
يعزون عن نار تعزى به العلا ويكي عليه المجد والبأس والشعر
وما كان إلا مال من قل ماله وذخر المن أمسى وليس له ذخر

وذلك إسراف منهم في النقد ، وتحامل لا يقوم في بعضه على أساس ،
فإن هذه المعاني مشتركة بين الشعراء ، وليس أحد أولى بها من غيره ،
ولا نسي أن دعبلًا كان منافساً لأبي تمام معاصراً له وبينهما من الخصومة
ما يدعونا إلى الشك في خبره ، وأبو تمام شاعر وراوي سن للناس طريق
اختيار الشعر وحفظ منه ما لم يحفظه أحد ، فإذا جرى في شعره على معاني
المتقدمين وأساليبهم وأخيلتهم فذلك راجع إلى كثرة محفوظه وانطباع
الصور في شعوره ، لا إلى سرقة متعمدة الجأه إليها جذب في تفكيره أو إملاق
في لغته . . وأبو تمام الرجل الذي يخضع اللغة لمعانيه العميقة وأخيلته
المبتكرة ويأني بالنأى البعيد فيدنيه منك ويقربه إليك وقد تجد عسرا في
بلوغ مرامه لكنه على كل حال لا تعوزه المادة ولا تشعر باستجداته
وقصور باعه لكن ذلك لا يعفيه من المؤاخذة ، فقد أخذ بيت صفيية ونقله
إلى شعره بمعناه وأكثر ألفاظه وقصر عن اللحاق به مع احتذائه له وأخذه
منه ، وكذلك أيضاً تقصيره عن سبقه من الشعراء في قوله : رأيت الكريم
الحر ليس له عمر .

قال طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتجدد
وقال الحماسي :

وقالوا ماجداً منكم قتلنا كذاك الروح يكلف بالكريم
وقال الخارجي : إن الشراة قصيرة الأعمار .

وقال هو في قصيدة أخرى فبلغ الغاية :

إن تبتخل حدثان الموت أنفسكم
ويسلم الناس بين الحوض والعطن
فالماء ليس عجيباً أن أعذبه يفنى ويمتد عمر الأجن الآسن
فرفع التمثيل من شأن المعنى وبوأه من النفوس موضعاً مرضياً ،
 واحتج لذلك احتجاجاً مقبولاً . وكم كان من الحرى بأبي تمام أن
يتحدث في قصائد الرثاء إلى الناس في سهولة ويسر ، وأن يعدد
مناقب المرثى ، دون احتفال بالصنعة أو إسراف في التماس وجوه البديع ،
 وكان ينبغي أن يشغله الحزن عن توخيها وتوفير العناية عليها ، ويندر أن
تجد بيتاً من أبياتها خالياً من صنعة ، ولكنها متينة رائعة تدل على مهارة
فائقة وحذق عجيب . انظر إلى هذه الاستعارات الجميلة : توفيت الآمال .
فاضت العيون دماً . ضحكك الأحاديث . مات مضرِب سيفه . ثياب الموت .
يبكى عليه البأس . استشهد الصبر . طى الحادثات محمداً . شجرات العرف .
سقى الغيث غيثاً . في لحده البحر . يحيا به الثرى . والطباق في مثل : بكت ،
وضحكك ، وطى ، ونشر ، وأبفض ، ويحب ، وألبست ، وعريت ، وبدو ،
وحضر ، وحرر ، وخضر .

والجناس في مثل : انثر الثغر ، مضرِب سيفه من الضرب . بواتر وبتو .
إلى غير ذلك من ضروب البديع الذي كان معنياً به ومتوافراً عليه ، وكان
يخرجه أحياناً إلى التسكف : كأنثر الثغر مثلاً ، أراد أن يجانس وقوع
في هذا الثقل ، ومثله من قصيدة أخرى له :

قرت بقران عين الدين وانشترت

بالأشترين عيون الشرك . فاصطلمها

وفى القصيدة يقول أبو تمام :

وقد كان فوت الموت سهلاً فرده
ونفس تعاف العار حتى كأنما
إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر

وهو شبيه بقول الخاسية :

أبوا أن يفروا والقنا في نحورهم
ولو أنهم فروا لكانوا أعزة
وأن يرتقوا من خشية الموت سلماً
ولكن رأوا صبوا على الموت أكرماً

ومما لا ريب فيه أن أبا تمام أخذ منها وقصر عنها ، لأن محمول كلامه أن الفرار كان ممكناً ولكن كان يلزمه العار فأبت نفسه الدنية ، فردها إلى الموت ، ومحمول كلامها أنهم أبوا الفرار والموت يهجم عليهم ويأخذ بنفوسهم وعلم النجاة بأيديهم والفرار لا عار فيه لأنهم أعذروا بل هو بقاء وحياة .

ومن صور الرثاء قول ابن الرومي يرثى ابنه محمداً :

بكاؤكما يشقى وإن كان لا يجدى
ألا قاتل الله المنايا ورميها
فجودا فقد أودى نظيركما عندي (١)
من القوم حبات القلوب على عمد
فله كيف اختار واسطة العقد
وآنست من أفعاله آية الرشد
بعيداً على قرب قريباً على بعد
وأخلفت الآمال ما كان من عهد
فلم ينس عهد المهد إذ ضم في اللحد
إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد (٢)
لقد أنجزت فيه المنايا وعيها
لقد قل بين المهد واللحد لبته
ألح عليه النزف حتى أحاله

(١) بكاؤكما : الخطاب إيميني ، ولا يجدى : لا ينفع ، وأودى : هلك .

(٢) الجادى : الزعفران ، وهو أصفر .

وظل على الأيدي تساقط نفسه

ويذوى كما يذوى القضيب من الرند (١)
عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له
وما سرني أن بعته بثوابه
ولا بعته طوعا ولكن غصبته
وإني وإن تمتع بابني بعده
وأولادنا مثل الجوارح أيها
لكل مكان لا يسد اختلاله
هل العين بعد السمع تكفي مكانه
لعمري لقد حالت بي الحال بعده
ثككت سروري كله إذ ثككته
أريحانة العينين والأنف والحشا

ألا ليت شعري هل تغيرت عن هدى
سأسقيك ماء العين ما أسعدت به
وإن كانت السقيا من الدمع لا تجدي
أعيني جودا لي فقد جدت للثرى
بأنفس مما تسألان من الرند
كأنى ما استمعت منك بضممة
ولا شمة في ملعب لك أو مهد
وإني لأخفي منك أضعاف ما أبدى
محمد ما شيء توهم سلوة
لقلبي إلا زاد قلبي من الوجد
أرى أخويك الباقيين كليهما
يكونان الأحزان أوري من الرند
إذا لعبا في ملعب لك لذعا
فوادى بمثل النار عن غير ما قصد

(١) الرند : نبت طيب الرائحة له زهر أصفر يسمى الزينب ، وقد يسمى به الأس وهو نوع من الريحان .

(٢) معد من أعدى : بمعنى نصر وأعان .

(٣) النيب : جمع ناب وهو الناقة المسنة .

والرثاء من أهم موضوعات الشعر، واشتهر بالإجادة فيه أوس (١) والأعشى وأبو زيد الطائي وليبدم (١٤١ هـ، و متمم بن نويرة وأبو ذؤيب ومالك بن الرب وكعب بن سعد (٢)، وانفردت به الخنساء، ثم اشتهر بعد ذلك حسين بن مطير والسكيت في مراثيه للعلويين ودعبل في مراثيه معاهد العلويين، ثم أبو تمام وهو من المعدودين في ذلك، (٣)، ومثله ديك الجن وهو في هذا أشهر من حبيب (٤)، وللبحتري في الرثاء آيات رائعة ومنها مراثيه في المتوكل، وكذلك ابن الرومي كما في مراثيه لولديه «بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدي».

الشعر الحماسي :

ومن روائحه قصيدة أبي تمام في فتح عمورية .

وكان أبو تمام صاحب مذهب في الشعر، وأميرا في دولته منذ مطلع القرن الثالث الهجري حتى وفاته، كان يتخير ألفاظه تخيرا شديدا، ويجتهد في الصناعة البديعية ويدقق فيها غاية التدقيق وخاصة في الجناس والطباق وبالغ في تجويد صياغته مبالغة شديدة، دقق في معانيه أشد التدقيق، وتكاف تجويدها أشد التكاف، وأهمل اللفظ أحيانا حتى يفتر وأحيانا حتى أفسدته العناية، وتكلف البديع إلى حد شديد، حتى كاد يقطع الصلة بين الشعر والطبع، ويجعله صناعة فنية عميقة، وقد أكثر في شعره من ضرب المثل، ومن الحكمة، وأغنى اللغة العربية بمعان لم تكن مألوفة فيها .

(١) ومراثيه : «أيتها النفس أجلى جزعا ، عند الأصمعي لم يبتدىء أحد من الشعراء مرثية أحسن من ابتدائها (٣٤ : ٣ الآمال) .

(٢) وقالوا ليس للعرب مرثية أجود من بائيته في أخيه أبي المغوار (١٧٨ : ٢ ديوان المعاني) .

(٣) ١٤١ : ٢ العمدة .

وعمورية إحدى مدن الروم في آسيا الصغرى ، وكانت قلعة عسكرية
حصينة ، ففتحها المعتصم ودك حصونها ، فقال أبو تمام هذه القصيدة :

- السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب (١)
بيض الصحائف لاسود الصحائف في
متونهن جلاء الشك والريب (٢)
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أوثر من الخطب (٣)
فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أنوابها القشب (٤)
يا يوم وقعة عمورية انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الحلب (٥)
أبقيت جد بنى الإسلام في صعد والمشركين ودار الشرك في صيب (٦)
تديير معتصم بالله منتقم لله مرتغب في الله مرتقب (٧)

(١) الأنباء : جمع نبا وهو الخبر . المعنى : السيف أصدق بما تضمنته الكتب ،
وكان المنجمون يحدزون المعتصم من فتح عمورية في هذا الأوان ، وقالوا له : إنا
نجد في الكتب أنها لا تفتح إلا في وقت نضج التين والعنب فلم يستمع المعتصم لهم .
(٢) الصفايح : جمع صفيحة : السيف العريض ، والصحائف : جمع صحيفة :
القرطاس المكتوب ، والمعنى : إن السيوف البيضاء هي التي تجلو الشك وتزيل
الريب لا الصحائف المكتوبة .

(٣) فتح الفتوح : هو فتح عمورية ، وكانت عزيزة على الروم ، محصنة غاية
التحصين ، ودافع عنها جيش الروم دفاع الأبطال . وكانت ذات موقع استراتيجي عظيم .

(٤) تبرز : تظهر القشب : جمع قشيب أى جديد .

(٥) المنى : ما يتمناه الإنسان . حفل جمع حافل وهي الناقة التي امتلأ ضرعها .
الحلب : الحلبية من اللبن . معسولة : حلوة ، والمعنى : إن أمانينا عادت وهي حافلة
بالسرور لتتحقق ما أملت .

(٦) الجد : الحظ . صعد : صعود . صيب : انحدار .

(٧) التدبير : تقدير الشيء على الوجه السليم المأمول الفوز .

لم يغز قوما ولم ينهد إلى بلد إلا تقدمه جيش من الرعب (١)
لوم لقد جحفلا يوم الوغى لغدا من نفسه وحدها في جحفل لجب (٢)

وهذه القصيدة من عيون الشعر العربي ، وهي طويلة اخترنا منها هذه الأبيات وتمثل الجزالة غاية التمثيل ، وتمتاز بوحدة القصيدة ، وبصدق عاطفة الشاعر فيها ، وبقوة التصوير . وروعة النسيج ، ودقة معاني الشاعر فيها .

وأبو تمام فيها ينوه بالمعتصم الخليفة وبجيشه وبالانتصار الذي أحرزه في هذه المعركة الخالدة باستيلائه على عمورية وذلك حصونها ، وتشديت شمل المدافعين عنها ، وبالتحكم بعد ذلك في آسيا الصغرى مركز التخطيط العسكري الروماني ضد العالم العربي الإسلامي آنذاك .

أبو تمام يشيد بهمة المعتصم وعزيمته ، ويقول : إن سيفه وهو الذي يحل المشكلات ؟ لانبوءات المنجمين ، وإن فيه الفصل بين الجد واللهم ، ثم يتحدث عن عظمة هذا الفتح وأهميته وأنه أكبر من خطب الخطباء ومن نثر الناثرين . ثم يذكر الفتح وأنه أرضى الأمانى فهى به في عيد جديد ، وأنه جعل حظ المسلمين في صعود حظ والكافرين في هبوط .

وأنه كذلك أثر لحنكة المعتصم وتدير وشجاعة هذا الخليفة العظيم الذي نصر بالرعب يتقدم جيشه وكأنه معه جيش آخر غير الجيش المحارب ، والذي يغنى هو بنفسه وشجاعته عن الجيوش الكشيفة والجنود الباسلين .

وهنا نجد التجربة الشعرية قوية ، والعاطفة الفرحة بانتصار المسلمين ملتهبة ، وخيال الشاعر يقظا مشبوبا ، ومعانيه كثيرة عليها مسحة من ثقافة عالية وذهن خصب ، مع المبالغة في المعاني ، ومع الحرص على صناعة البديع ؛ من سجع وطباق وجناس ومقابلة ومبالغة وسواها .

(١) نهد الرجل : نهض . الرعب بسكون العين أى الفزع والخوف .

(٢) الجحفل : الجيش العظيم . الوغى : الحرب . اللجب : الكشيف .

نماذج أخرى من الشعر

١ - لأحمد بن محمد الإفريقي الشاعر المعروف بالمتيم وكان في بخارى في
أواخر القرن الرابع الهجري (١) .

| | |
|------------------------------|--------------------------------|
| تلم على ترك الصلاة حليلتي | فقلت: اعربي عن ناظري، أنت طالق |
| لماذا أصلى وأين باعى ومنزلى؟ | وأين خيولى والحلى والمناطق؟ |
| وأين عبيد كالبدور وجوهم؟ | وأين جوارى الحسان العواتق؟ |
| أصلى، ولا فتر من الأرض يحتوى | عليه يمينى ا إنى لمنافق ا |
| بلى، إن على الله توسع لم أزل | أصلى له ملاح فى الجو بارق |
| فإن صلاة السبيء الحمال كلها | مخارق ليست تحتمن حقائق |

٢ - ويقول ابن الرومى فى تفضيل النرجس على الورد :

| | |
|------------------------------|-----------------------------|
| خجلت حدود الورد من تفضيله | خجلا توردها عليه شاهد |
| لم يخجل الورد المورد لونه | إلا وناحله الفضيلة عائد |
| للنرجس الفضل المبين وإن أبى | آب وحاد عن الطريقة حائد |
| فصل القضية أن هذا قائد | زهر الرياض وأن هذا طارد |
| شتان بين اثنين هذا موعد | بتسلب الدنيا وهذا واعد |
| ينهى التديم عن القبيح بلحظة | وعلى المدامة والسماع مساعد |
| اطلب بعقلك فى الملاح سمية | أبد فإنك لا محالة واجد |
| والورد إن فكرت فرد فى اسمه | ما فى الملاح له سمي واحد |
| هذى النجوم هى التى ربتها | بحيا السحاب كما يربى الوالد |
| فانظر إلى الأخوين من أدناهما | شها بوالده فذاك الماجد |
| أين الحدود من العيون نفاسة | ورياسة لولا القياس الفاسد |

وفي هذه القصيدة صنعة لطيفة يقول فيها عبد القاهر: عمل ابن الرومي على قلب طرفي التشبيه فشبه حمرة الورد بحمرة الخجل ، ثم تناسى ذلك وخذع عنه نفسه وحملها على أن تعتقد أنه خجل على الحقيقة ثم لما اطمأن ذلك في قلبه واستحكمت صورته طلب لذلك الخجل علة فجعل علته أن فضل النرجس ووضعه في منزلة ليس يرى نفسه أهلا لها ، فصار يتوب من ذلك ويتخوف عيب العائب وغميرة المستهزيء . ويجد ما يجد من مدح مدحة يظهر الكذب فيها ويفرط حتى تصير كالمزء بمن قصد بها ، ثم زادته الفطنة الثاقبة والطبع المتمر في سحر البيان ، مارأيت من وضع حجاج في شأن النرجس وجهة استحقاقه الفضل على الورد فجاء بحسن وإحسان لا تكاد تجد مثله إلا له وبما هو خليق أن يوضع في منزلة هذه القطعة ، ويأحق بها في لطف الصنعة قول أبي هلال العسكري :

زعم البنفسج أنه كعذاره حسنا فسلوا من قفاه لسانه
لم يظلموا في الحكم إذ مثلوا به فلشد مارفع البنفسج شأنه

٣ - علي بن الجهم يتحدث عن الورد :

لم يضحك الورد إلا حين أهجه حسن الرياض وصوت الطائر الفرد
بدا فأبدت لنا الدنيا محاسنها وراحت الراح في أنوابها الجدد
وقابلته يد المشتاق تسنده إلى الترائب والأحشاء والكبد
كان فيه شفاء من صبابته أو مانعا جفن عينيه من السهد
بين النديمين والخلين مصرعه وسيره من يد موصولة بيد
ما قابلت طلعة الريحان طلعتة إلا تينت فيه ذلة الحسد
قامت بحجته ريح معطرة تشق القلوب من الأوصاب والكمد
لا عذب الله إلا من يعذبه بسمع بارد أو صاحب نكد

٤ - مروان بن أبي حفصة يحتج للعباسيين بأنهم عصبة النبي فهم ورثته،

وليس لأبناء فاطمة أن يرثوه ، وذلك من قصيدة له في مدح المهدي :

| | |
|------------------------------|-------------------------------|
| يا ابن الذي ورث النبي محمداً | دون الأقارب من ذوى الأرحام |
| الوحى بين بنى البنات وبينكم | قطع الخصام ، فلات حين خصام |
| أنى يسكون وليس ذلك بكائن | لبنى البنات وراثة الأعمام (١) |
| ما للنساء مع الرجال فريضة | زلت بذلك سورة الأنعام |
| خلوا الطريق لمعشر عاداتهم | حطم المناكب يوم كل زحام |
| وارضوا بما قسم الإله لكم | ودعوا وراثة كل أصد حامى |

٥ - مسلم بن الوليد يفاخر قريشا ، وكان من شعراء الجباية :

| | |
|----------------------------|-----------------------------|
| فاخرتنا بما بسطنا لها العذ | ر قريش ونخرها مستعار |
| ذكرت عزها ، وما كان فيها | قبل أن تستجيرنا مستجار |
| إنما كانت عزها في جبال | ترتقيها كما ترقى الوبار (١) |
| أيها الفاخرون بالعز والعز | لقوم سواهمو والفخار |
| أخبرونا عن الأعر : أألمة | صور حين اعتلى أم الأنصار؟ |
| فلنا العز قبل عز قريش | وقريش تلك الدهور تجار |

٦ - دعبل الخزاعي في رثاء الشباب :

| | |
|-------------------------|----------------------------|
| أين الشباب وأية سلسكا ؟ | لا أين يطلب؟ ضل ، بل هللكا |
| لا تعجبي ياسلم من رجل | ضحك المشيب برأسه فبكي |
| يا ليت شعري كيف يومسكا | يا صاحبي إذا دمي سفيسكا |
| لا تأخذنا بظلامتي أحدا | قلبي وطرفي في دمي اشتراكا |

(١) أى وراثة مثل وراثة الأعمام .

(٢) جمع وبرة : دويبة كالسنور .

رواية الشعر

في العصر الأموي نشطت حركة إحياء الشعر الجاهلي وروايته وتلقيه شفاها من أفواه الأعراب والعجائز وشيوخ القبائل وحكاتها ومعمرها . وقد اشتدت حركة الرواية في العصر العباسي عصر التدوين والتأليف ، وضاعف الاهتمام بها كثرة ما دس على الشعراء من شعر ، وما نحلوا من قصائد ، لذلك اتسمت حركة الرواية بسمة نقدية غالبية .

وقد كانت العرب أمة بدوية ، ومن ثم لم يعرفوا الاستقرار الذي يدفعهم إلى العلم ، ويؤهلهم للحضارة ؛ ولم يجلسوا إلى العلم ، ولم تمكنهم ظواهر حياتهم وعوامل بيئتهم من أن يمسكوا بالقلم أو يخطوا باليراع ، ولذلك كانوا يعتمدون على الذاكرة يخزنون فيها ما عرفوا ، ويحتقنون بين ثناياها ما يتردد بينهم من ألوان المعارف . ففي ذاكرة العربي ما يعتز به ويحافظ عليه من أنساب القبائل وأشعارها ومفاخر أيامها ومآثور وقائعها ، كأنه مسطور في كتاب ومدون في صحائف ، لا يند عنه شيء ، لأن الحافظة الواعية تصونه ، والذاكرة القوية المطبوعة تحميه .

ولقد وصل إلينا الكثير من الغرائب عن رواة العرب وسعة حفظهم مما يمدده بعض الناس وهماً من الأوهام أو خيالا من الأخيلة . ولكنها القدرة البارعة التي لم تعتمد على الكتب ولم تعول على الكتابة والتدوين . ويحدثون أن العربي كان يعرف سلسلة نسبه ، ويعرف كذلك أنساب القبائل ، فلا يغيب عنه شيء ولا يتسرب الخطأ إلى شيء مما روى .

وكان للعرب عناية خاصة برواية الشعر ، إذ هو سجل مفاخرهم ، وديوان مآثرهم ، وجمع أحداثهم وقائعهم ، وعلمهم الذي لم يكن لهم علم

أجل منه ، وكان لكل شاعر راوية خاص يتلمذ عليه ويروي عنه ، ويحتج لقوله ، ويظهر محاسنه ويذيع أشعاره ، فامرؤ القيس كما يقولون راوية أبي دؤاد الأيادي ، وزهير راوية أوس بن حجر ، والأعشى راوية المسيب بن علس . والخطبة راوية زهير وابنه كعب . . وهكذا .

وفي عهد الدولة الأموية نشطت الرواية ، وانتعش رجالها كما ذكرنا ، ووجدوا تشجيعاً من الولاة والخلفاء لأغراض سياسية معروفة وليستعينوا بما يرون على فهم القرآن ومعرفة بلاغته ، وإدراك سموه وعظمته ، ورأى العرب أن إحياء الشعر العربي والحرص على روايته إحياء لتاريخ حافل يمتازون بأحداثه ، ويفاخرون بوقائعه ، ويتمجدون بما يحدث عنه من مكرمات ومآثر .

ومن ثم حرصوا أشد الحرص على الرواية ، وتلقف أشعار القدماء ، ومعرفة آدابهم ، وأخذوا يشدون إليها الرحال ، ويكابدون مشاق السفر والانتقال ، وأصبحت البراعة في رواية غرائب الشعر تعدل القدرة في إنشائه ، والحفاوة بالرواية في قصور الخلفاء ومجالس الولاة لا تقل عن العناية بالشعراء المجودين ؛ والفحول المبرزين - وبذلك راجت سوق الرواية ، ونفقت بضاعتها ، وانقطع لها جماعة من أصحاب الملكات القوية وذوى الفطر الموهوبة ، أخذوا يرحلون إلى البادية ، يشافهون الأعراب ويجمعون الغريب ، وينقلون ما ورثوه من هذا التراث المجيد ، وكانوا متحرجين في روايتهم ، مثبتين في كل ما يوصل إليهم ، فلا يأخذون إلا بمن صحت عربيتهم ، وبعدوا عن كل تأثير أجنبي ، كتميم وقيس ، وأسد وهذيل ، وبعض من كنانة ، وبعض من طى . أما القبائل التي جاورت قطراً أعجمياً أو اتصلت بأمة غير عربية يظن أنها تأثرت بها أو نقلت عنها شيئاً من لهجتها فلم يأخذ الرواة عنها شيئاً . وقيل إن الرواة الذين كانوا يقصدون قبائل البادية لم يأخذوا عن لحم وجذام لأنهما جاورا أهل مصر ، ولا عن بكر لمجاورتهم للفرس ،

ولا عن ثقيف لمخالطتهم تجار اليمن ، ولا عن قضاة وغسان حلولهم بالشام وهكذا .

ولقد وجد كذلك من أعراب البدو قوم أتوا قوة الذاكرة ووفرة الحفظ ، فأخذوا يرتحلون إلى الحواضر حاملين مامعهم من بضاعة مزجاة ، وتجارة رابحة . وبذل لهم الخلفاء والأمراء من جزيل العطايا وسنى الهبات ما يشجعهم على الرواية والانقطاع لها .

ولقد جرت الرواية في عصر بني العباس على سنتها في عصر بني أمية إذ ظل الرواة يرحلون إلى البادية ، وبقي الأعراب الحافظون ينتقلون من البادية إلى الحاضرة لبيع ما عندهم من أشعار . وعرض ما يختزنون من آثار ، حتى فسدت لغتهم ، ولانث أسنتهم ، وضعفت فصاحتهم ، ففقت الثقة بهم ، وبارت بضاعتهم ، ولم يعد يرغب فيها أحد .

وكانت الرواية أول الأمر هواية نفوس ألفتها ورغبت في قلوب أحببها وسجبت عند بعض الناس ، حملتهم على أن يحفظوا ويختزنوا ما راهم من أشعار ، وملك قلوبهم واستولى على مشاعرهم من القصائد ، ومن طبيعة المنبعث بشعوره ، المتجه بإحساسه ، الذي لا يسيره غرض ، ولا تطنى عليه منفعة ؛ أن يتحرى الصدق فيما ينقل ، ويتوخى الصحة فيما يجمع .

ولما وضحت شدة الرغبة في الرواية فيما عندهم ، وقوة الحرص عليها ، وكثر ما أعقد على الرواة من العطايا والمنح أخذوا يجعلون عليهم مهنة تدر عليهم المكسب وتجلب لهم الربح . وبعد أن كانت الرواية هواية نفس أصبحت رغبة كسب ، فقل فيها بعض الشيء الاعتصام بالأمانة ، والحرص على الصدق ، والمبالغة في تحرى الصواب . وبذلك وجه الرواة الذين أضافوا إلى الحق باطلا ، وإلى الواقع خيالا ، وإلى الحادثة أحداثا .

كل ذلك لأن همهم الكسب ، ووكدتم أن يروج ما اخترعوه ، ويسير في الناس ما وضعوه ، فينالهم من وراء ذلك الأجر ، ويصيبيهم ما أملوا من كسب . وأسباب الانتحال في الرواية كثيرة ، فمنها :

١ - كان الأعراب يتخذون الرواية وسيلة للكسب ، وسبب الاجتلاب الرزق فيفقدون إلى الحواضر بما عندهم للحصول على المال . فإذا نفذ ما يحفظون عمدوا إلى الوضع والاختراع . ويحدثنا محمد بن سلام الجمحي أن ابن داود بن متمم بن نويرة ، قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي من الميرة . فأتاه أبو عبيدة وابن نوح فسألاه عن شعر أبيه ، وقاماله بحاجته وكفياه مؤونته ، فلما نفذ شعر أبيه متمم جعل يزيد في الأشعار ويضعها ، فإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم والوقائع التي شهد بها . فلما توالى ذلك علما أنه يفتعله . ويقول الأصمعي عن أعرابي اسمه أبو ضمضم إنه أنشد لمائة شاعر كلهم يسمى عمرا . ويقول الأصمعي : فعددت أنا وخلف الأحمر فلم نقدر على ثلاثين .

٢ - حرص الرواة على إرضاء الأمراء وذوى الجاه وأصحاب النفوذ برواية ما تطرب له نفوسهم ، وتفتح له أسماعهم ، من مدائح يزعمون أن آباءهم مدحوا بها في القدم ليرضوا غرورهم ، كما قال ابن سلام : أخبرني أبو عبيدة عن يونس قال قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري فقال : ما أطرفتنى شيئاً . فعاد إليه فأشده القصيدة التي في شعر الحطية مدحا لابن موسى الأشعري . فقال : ويحك ، يمدح الحطية أبا موسى ولا أعلم به وأنا أروى للحطية ولكن دعها تذهب في الناس .

وصاحب الأغانى يروى أن حمادا تقرب إلى خاله بن عبد الله القسري

باختراع آيات فسبها إلى قيس بن الحداية يمدح بها أسد بن كرز حين نزل
به قوم فأكرمهم وأحسن إليهم وتحمل عنهم ما أصابوا من دماء - قال
على لسان قيس :

وقد حللنا بقسرى أخی ثقة كالبدر يجلو دجى الظلماء والأفقا
لا يجبر الناس شيئاً هاضه أبداً يوماً ولا يرتقون الدهر ما فتقا
كم من ثناء عظيم قد تداركه وقد تقام فيه الأمر وانخرقا
يقول أبو عمرو الشيباني : إن حمادا أنشد خالداً هذه الآيات فوصله .
والتوليد فيها بين جداً .

٣ - عدم تخرج بعض الرواة من الكذب والاختلاق ، لشهوة تحسبها
أنفسهم ، وشفاء لداء يتغلغل في صدورهم ، ورغبة في إظهار السبق
والتفوق ؛ وقد كان على رأس هؤلاء الكذابين الوضاعين : حماد وخلف
الأحر ؛ أما حماد فيقول عنه المفضل الضبي : « لقد سلط على الشعر من
حماد ما أفسده فلا يصلح أبداً ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ أخطيء في روايته
أم يلحن ؟ قال لبيته كان ذلك . فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب .
ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم .
فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ، ويدخله في شعره ويحمل ذلك
عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يميز الصحيح منها إلا عند عالم
ناقد ، وأين ذلك ؟ » .

ولقد أقر حماد بحضرة الخليفة المهدي وهو ولي للعهد بما زاده من
عنده في شعر زهير بن أبي سلى ، حتى أمر حاجبه فأعلن في الناس أنه
يبطل رواية حماد .

وأما خلف فإنه كان كما يقول ابن سلام ، أفرس الناس بيت شعر .

ويقال إنه وضع لأهل الكوفة أشعاراً كثيرة ثم نسك في آخر حياته فأنبأهم بما وضع فلم يصدقه أحد . واعترف هو للأصمعي بأنه وضع أشعاراً . وقبل إنه وضع لامية العرب على الشنفرى ولامية أخرى على ثابت شراً رويت في الحماسة .

٤ - على أن بعض الحفاظ من الرواة كانوا حين يتزاحم لديهم ما حفظوا قد يختلط عليهم بعض المتشابه ويلتبس لديهم المتقارب في المعنى أو في الوزن أو المتفق في الروى . فقد يخلطون أبيات قصيدة بأبيات قصيدة أخرى ، أو ينسبون أبيات شاعر إلى شاعر آخر وهكذا ، حتى نسبوا الأبيات الآتية إلى ابن الدمينة وإلى نحو أربعين شاعراً وهي :

أضى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهم بالليل جامع
نهارى نهار الناس حتى إذا بدا لى الليل شاقنى إليك المضاجع
لقد ثبتت فى القلب منك محبة كما ثبتت فى الراحتين الأصابع

ولقد كثرت الرواة كثرة عظيمة ، ومن بينهم حماد الراوية المتوفى عام ١٥٥ هـ ، وخلف الأحمر المتوفى عام ١٨١ هـ ، وأبو عمرو الشيباني ، وأبو عمرو بن العلاء م ١٥٤ هـ ، والأصمعي م ٢١٧ هـ ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى م ٢١٣ هـ ، وسواهم ؛ وقد ختمت طبقة الرواة بالمبرد (٢٨٥ هـ) وتعلب (٢٩١ هـ) ، فإليهما انتهت الرواية ، وبهما ختمت ؛ وحركة رواية الشعر فى هذا العصر هى التى حفظت لنا أشهر القصائد القديمة ، وهى التى جعلت الرواة يقبلون على تدوين دواوين الشعراء ، وجمع شعر القبائل المختلفة كهذيل وغيرها ، وقد خلقت لنا هذه الحركة أعمالاً جليلة فى البعث الأدبى وفى إحياء الشعر القديم ، وكانت مقدمة لحركة النقد والتحصيص التى تلت حركة الجمع والرواية والتدوين .

طبقات الشعراء

شعراء العصر العباسي الأول كثيرون ، ويختلفون باختلاف نزعاتهم السياسية والاجتماعية والفنية :

١ - فهناك شعراء لهم صبغة سياسية ومن بينهم مروان بن أبي حفصة وكان عباسي الهوى ، وكذلك أبو تمام وابن المعتز ، من حيث كان دعبل شيبي الهوى والنزعة .

٢ - وهناك شعراء تغلب عليهم النزعة الاجتماعية ، وفي مقدمتهم أبو نواس شاعر اللذة ، وابن الرومي شاعر الهجاء في عصره ، والبحترى شاعر المجتمع بأوسع ما نتصوره من دلالة .

٣ - وهناك شعراء شهروا بمذاهب فنية وهم شعراء الصنعة الذين سنتحدث عنهم بعد قليل ؛ وعلى الجملة فقد كان من أشهر شعراء هذا العصر :

١ - الطبقة الأولى من العباسيين وهم مخضرمو الدولتين كابن هرمة (١٥٠ هـ) ، وأبي دلامة (١٦١ هـ) ، والحسين بن مطير الأسدي ، وأبي حية النخري ، وسديف بن ميمون ، وأبو الهندي ، وبشار (١٦٧ هـ) وهو لإمامهم ويعند لإمام المحدثين كذلك ، وصالح بن عبد القدوس (١٦٧ هـ) وحامد عجرد (١٦٨ هـ) ومطيع بن إياس (١٦٩ هـ) والسيد الحميري (١٧٣ هـ) ، ومروان بن أبي حفصة .

٢ - والطبقة الثانية طبقة المحدثين الذين نشأوا في صدر الدولة العباسية ، ومنهم أبو نواس (١٩٨ هـ) وهو لإمامهم ، ووالبة (١٧٥ هـ) ، وسلم (١٨٦ هـ) ، والعباس بن الأحنف (١٩٢ هـ) ، وأشجع السلي (١٩٥ هـ) وأبي العتاهية (٢١١ هـ) ، ودعبل (١٤٨ - ٢٤٦ هـ) وسواهم .

٣ - والطبقة الثالثة طبقة أبي تمام (٢٣١ هـ) والبحترى (٢٨٤ هـ) وابن الرومي (٢٨٣ هـ) وابن المعتز (٢٩٦ هـ) وهي طبقة طارت شهرتها في كل مكان .

الطبع والصنعة عند المحدثين

١ - بين القدامى والمحدثين من النقاد خلاف كبير في تحديد معنى الطبع والصنعة : يرى الأولون أن التهذيب الفنى للأسلوب هو الصنعة ، فالصنوع هو المثقف المهذب من الشعر ؛ أما الطبع فهو خلو الأثر الأدبى من آثار التجويد والتنقيح ، ويرى الآخرون أن شعور الشاعر بنفسه حد بين الطبع والصنعة ، فإذا كان الشعر صادقاً مؤثراً فهو من شعر الطبع ، وإلا فهو مصنوع متكلف ، والأدب المطبوع عندهم من كان غير مقلد في معناه أو في لفظه ، وكان صاحب موهبة في نفسه وعقله لا في لسانه فقط .

ورأى المحدثين المعاصرين من النقاد اصطلاح جديد في معنى الطبع والصنعة . وأرى أن الأولى في تحديد معناها أن نجمع بين الرأيين الذين يتلاقيان ولا يتناقضان ، فالطبع هو الملكة القادرة في نفس الشاعر والأديب التي توحى إليه بفنه وأدبه وحي الفطرة والطبيعة واستجابة لعواطفه ومشاعره دون تكلف وتعب في الصوغ أو استجداء لترى الأسلوب و"صناعة" ؛ أما الصنعة فهي إحساس الشاعر أو الأديب بآثار الجمال الفنى وتزلف الأداء وزخرف الأسلوب ، رغبة لهذا الجمال والتزلف والزخرف ؛ وهيامه الفنى بها ، وقصده إليها ، وتعنده لها في شعره ، حتى يطلب الفن للنمى ويستأهم الجمال للجمال ، ويستوحى الشعر من ملكاته الفنية التي استبدت بها هذه النزعة ، مما يطنى على نفس الشاعر وشجوره وعواطفه وإحساسه بالحياة .

ويجمع جمهور النقاد في القديم والحديث على عيب الصنعة والتصنيع ، وسموا المصنعين من الشعراء في العصر الجاهلى : عبيد الشعر ؛ وعابوا شعرهم ، قال الأصمى الأديب الراوية الناقد م ٢١٦ هـ : زهير والنابعة وأشباههما عبيد الشعر ، وقال : الخطيئة - وهو شاعر إسلامى مشهور - عبء لشعره ،

قال الجاحظ إمام الأدباء والنقاد م ٢٥٥ هـ : عاب الأصمعي شعره حين وجده كله متخيراً مستويًا لمسكان الصنعة والتكلف والقيام عليه ، وكان الأصمعي يستحسن التفاوت في الشعرية لأنه مظهر الطبع وخلو الشعر من آثار الصناعة ، وعلى هذا الرأي يسير بعض المحدثين ممن يرى أن التفاوت في شعر الشاعر دليل على عبقريته وطبعه ، ويعدده العقاد الآية الناطقة على شاعرية المتنبي وعظيم مكانته في الشعر .

ولقد كان الشعر العربي أثراً للفطرة والبديهة ، واستجابة لمشاعر الشاعر وشعوره بالحياة في الجاهلية وكان أكثره ارتجالاً أو ما يشبه الارتجال ، ينظمه الشاعر على البديهة ، ويأتي به عفو الخاطر ، ترد إلى ذهنه المعاني وتتابع ، فتنتال عليه الألفاظ وتأتيه الأساليب شعراً وشعوراً وسجراً وجمالاً ؛ كل ذلك في سهولة وتدفق وفطرة دون تثقيف وتهذيب وتنقيح ، حتى قال الجاحظ : وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجمالة فكرة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى جملة المذهب والعمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالاً ، وتنتال عليه الألفاظ اثنيلاً .

وفي العصر الجاهلي بدأ لون جديد من ألوان التهذيب والصنعة في الشعر على يد أوس وزهير وتلاميذهما .

كان أوس بن حجر من أصحاب التنقيح ، وكان يسمى محبراً لحسن شعره ، وتتلذذ عليه زهير ، وكان طفيل الغنوي كذلك ، وكان النمر بن توبل من أصحاب التثقيف والتهذيب ، وكان أبو عمرو بن العلاء الناقد الراوية م ١٥٤ هـ يسميه السكيس لحذقه بالشعر ، والنقاد يعدون النابغة الذبياني أيضاً من المصنعين ، ويقول أنصار الصنعة : إن امرأ القيس أيضاً كان يتقف شعره ويعيد النظر فيه فيسقط رديته ويثبت جيده ، وكان امرؤ القيس راوية أبي دؤاد الأيادي ، وكان يلوذ به في شعره ويتوكأ على

معانيه كثيراً ، ولكن شعر امرئ القيس ينفي عنه الصنعة والتصنيع ،
و فرق بين أن يجيء عفواً في شعره بعض آثار الصناعة الفنية وأن يكون
مصنوعاً ينحت فنه كما ينحت الفنانون تماثيلهم .

وأبرز رجال هذه المدرسة على أى حال هو زهير ، قال بعض النقاد :
عمل سبع قصائد في سبع سنين كان يسميها الحوليات . وكان زهير يصنع
الحوليات على وجه التثقيف والتهديب ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره
فيها - خوفاً من النقد والنقاد - بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة
أو ليلة ؛ وقيل كان ينظم القصيدة في شهر ثم لا يزال يهذبها حتى يمر عليها
الحول ؛ وقيل : بل كان يعمل القصيدة في ستة أشهر ويهذبها في ستة
أشهر ؛ وقال الجاحظ : كان زهير يسمى كبار قصائد الحوليات . وقد سار
تلامذة زهير على نهج أستاذهم كالحطيمية الشاعر الإسلامي وسواه .

وكان هذا المذهب الفني في الشعر الجاهلي - مذهب الصنعة والتصنيع -
أثراً للتنافس بين الشعراء وقيام الأسواق الأدبية كهكاظ وسواه بالحكومة
الأدبية بينهم وكان النابغة تقام له قبة في عكاظ ويتحاكم إليه الشعراء ؛ كما
كان أثراً للتكسب بالشعر واتخاذها وسيلة للثراء وعكوف الشعراء المصنعين
على تجويد مدائحهم ليستخرجوا بها سني الهدايا والألطف من مدوحهم ؛
وكان ارتباط الشعر الجاهلي بالغناء ورغبة بعض الشعراء في التجويد
والتجديد في المعاني من أسباب نشأة هذا المذهب الفني أيضاً .

وإذا نظرنا إلى الشعر الجاهلي نفسه وجدنا الفرق كبيراً بين آثار
أصحاب الطبع والبديهة كطرفه وامرئ القيس ومهامل وآثار الشعراء
المصنعين .

والمعلقات السبع وهي من أشهر القصائد الجاهلية في البلاغة الأدبية
وأحفلها بمواهب الشاعرية والفن والخيال وخصب المملكات ، كلها من آثار

الطبع الأدبي الموهوب ، وليس فيها شيء من مظاهر الصناعة الفنية : فمعلقة امرئ القيس أروع صورة لحياة الشاعر وترفه وطره ، ومعلقة عمرو بن كلثوم ملحمة تاريخية تصور التاريخ القومي والحربي والسياسي لقبيلة الشاعر « تغلب » ، ومعلقة عنزة حديث عذب جميل بين الحب والحرب والبطولة ، ومعلقة زهير دعوة للسلام وتنفير من الحرب ووصف لأهوالها وويلاتها ، ويسكاد يسكون زهير فيها أشبه شيء بالمطبوع ويسكاد أسلوبه فيها يبعد عن الصناعة وأثارها الفنية ، وشتان بين هذه المعلقة وبين بائنة النابغة ، كلبني لهم الخ ، أو بينها وبين قصيدة زهير « صحا القلب عن سلى ، لبعث ما بين الأثر المطبوع والمصنوع .

واستمر مذهب الصنعة بعد العصر الجاهلي ، يظهر في شعر الخطيئة والراعي النهرى وغيرهما حتى جاء العصر العباسي .

٢ - كان الشعراء المحدثون - وهم الذين نشأوا في ظلال الدولة العباسية وفي ظلال الامتزاج الذي حدث بين العرب والامم الأخرى - يقصدون إلى ألوان خاصة من الأساليب الساحرة التي يتجلى فيها ترف الفن وجمال الصنعة وسحر الأداء ، من استعارة وتشبيه وجناس وتطبيق ومقابلة وحسن تعليل وسوى هذه الألوان ، التي يقصدونها قصدا ويفتنون فيها افتنانا ، ويحرصون على توشية شعرهم وقصائدهم بها وتجميل آثارهم بزخرفها . وكان الراعي مقدمة لهذا اللون من الصنعة ، فكان كثير البديع في شعره (١) .

وأول من فتح البديع من المحدثين بشار وابن هرمة (٢) ، ولم يكن في المولدين أصوب بديعا منهما (٣) ، ثم اتبع بشارا وابن هرمة مقتديا بهما العتابي والنمرى ومسلم وأبو نواس (٤) ، فالعتابي يذهب شعره في البديع (٥) ،

(١) ٣٤٢ : ٣ البيان
(٢) ١١٠ : ١ العمدة
(٣) ٥٥ : ١ البيان
(٤) ١٩٠ : ١ العمدة
(٥) ٢٤٢ : ٣ البيان

وكان يحتذى حذو بشار في البديع (١) ، وكان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن وعلى الفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من المولدين كالفري ومسلم وأشباههما (٢) ، وأستاذه بشار أبو المحدثين وأستاذهم (٣) ، وكانت تباين طبقات شعره فيصعد كبيرها ويهبط قليلها بكثيرها وكذلك كان حبيب (٤) ، وكان أبو نواس ثاني بشار في منزعه لفظا ومعنى وكثيرا ما صب على قواله وجرى في مضماره . حتى قال الجاحظ فيهما : هما واحد والعدة اثنان ا بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قط قولاً ولا تعب من عمل شعر ، وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بلا أذن ، وليس بعد بشار مولد أشعر من أبي نواس (٥) ، وكان أبو نواس يشبهه بالنابغة (٦) ، وكان أسير المحدثين شعرا (٧) . والصنعة واضحة بشكل ملبوس في ميميته :

وذى رحم قليت أظفار ضغنه بجلى عنه وهو ليس له حلم (٨)

على أن هذه الصنعة الشعرية لم تصبح ظاهرة فنية مقصودة وتهديباً أدبياً واسماً للشعر ومذهباً جديداً ما ثورا إلا على يد المحدثين عامة (٩) وعلى أيدي مسلم وأبي تمام على الخصوص ، فسلم أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ولم يكن في الأشعار المحدثه قبله إلا النبد اليسيرة وهو زهير المولدين وكان يبطل في صنعته ويجيدها (١٠) ، بل هو فيما زعموا

(١) ١ : ٥٥ البيان . (٢) ١ : ٥٤ البيان .

(٣) راجع ٢ : ٣٠ الأغانى ، ١ : ١١٠ ، ١ : ١٣ ، ٢ : ٢٥٠ موشح ص ٣ طبقات ابن المعتز . وكان الأصمعي يقول هو خاتمة الشعراء (المولدين) (٣ : ٢٣ الأغانى)

(٤) ٢٦٣ رسائل البلغاء من رسالة الانتقاد لابن شرف .

(٥) ١٦١ العصر العباسى للاسكندرى .

(٦) ١ : ١١٠ العمدة . (٧) ٣ : ١٧٣ العمدة .

(٨) وهى فى ديوانه ، وتنسب لعن بن أوس خطأ .

(٩) ١ : ١٧٣ العمدة . (١٠) ١ : ١١٠ العمدة .

أول من قال هذا الشعر المعروف بالبديع وهو الذى لقب هذا الجنس بالبديع واللطيف^(١) ، وأول من أفسد الشعر بالبديع^(٢) ، ويشيد به النقاد جميعا فى مذهب الصنعة والبديع منوهين بأثره فى هذا الباب^(٣) ، كان يتخذ الصنعة مذهباً يطبق عليه نماذجهم بيتا بيتا، فعنى بضروب التصنيع والزخرف المختلفة من جناس وطباق واستعارة ومشاكلة وأقام ألفاظه وتعايره كما يقيم المثالون تماثيلهم ، وحقا كان مسلم زعيم التصنيع فى عصره فقد استطاع أن يجعله الغاية من صنع نماذجهم فالقصيدة عنده لاتعبر عن خواطر وإنما تعبر عن ألوان^(٤) .

٣ - وعمت موجة التصنيع بعد مسلم ، وعلى نمطه وحذوه سار أبو تمام والبحترى . فكانا يطلبان الصنعة ويولعان بها ، فأما حبيب فيذهب إلى حذونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التصنيع المحكم طوعا وكرها يأتى الأشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة ، وأما البحترى فكان أملح الناس صنعة وأحسن مذهباً فى الكلام يسلك منه دماعة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة^(٥) ، كان لأبى تمام مذهب فى المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء^(٦) ، وربما أسرف فى المطابق وفى المجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها^(٧) ، ولا يجمع الاستعارة اجتماعها فيما نظمه^(٨) ، وهو أول من شرع البديع وأنبع عيون التقسيم والتصريح

(١) ٢٠ : ١ معاهد التنصيص .

(٢) ٨ الموازنة .

(٣) ٦٨ المثل السائر ، ١٠٩ طبقات ابن المعتز ، ٢٧٢ معجم الشعراء ، ٢٤٨

رسائل البلغاء ، ١٣٢ : ٤ زهر الأدب .

(٤) ٨١ و ٨٣ الفن ومذاهبه . (٥) ١٠٩ : ١ العمدة .

(٦) ١٦٨ : ٧ مهذب الأغانى . (٧) ٩٦ إحصاء القرآن .

(٨) ٩٢ رسالة الغفران .

والاستعارة وأرى الناس غرائب أنواع الجناس (١) ، وعلى أى حال فأبو تمام ومسلم هما اللذان طرقا إلى الصنعة ومعرفة طرقا سابلة وأكثرها منها في أشعارهما تكثيرا سهلا عند الناس على أن مسلما أسهل شعرا من حبيب وأقل تكلفاً (٢) ، وكان أبو تمام يستخدم في صناعة شعره وشئ التصنيع الذى عرف عند مسلم من طباق وجناس ومشاكله ، وتصوير وأضاف إليها شيئاً آخر من الثقافة والفلسفة وعقد فيها تعقيدا فكان يعتمد في تصويره على صيغ التدييج وقد استوعب الفلسفة والثقافة وحولها إلى فن وشعر فالطباق والجناس والمشاكله كل ذلك وسواه تجتمع في شعره فيجمله الغموض في كثير من جوانبه وأجزائه وهو الغموض الفنى الذى آخذه به النقاد فهو يبتكر أفكاراً وصوراً جديدة ولكن يحس بأن اللغة لا تستطيع أن تودى ما يريد وجانب الغموض والمعانى العويصة في شعره هو الذى أثار ضجة واسعة حول شعره تشبه تلك الضجة التى شبت في فرنسا حول مذهب الرمزيين حين تبرز من مذهب البرناسيين، وكان أبو تمام يستخدم الطباق استخداماً معتاداً يلونه بأصباغ فلسفية وكان يسميه توافر الأضداد (٣) وهو المقابلة ، وكان البحترى يتشبه بأبي تمام وينحو نحوه ويجذو حذوه في البديع (٤) .

وكان لا يرى في التجنيس ما يراه أبو تمام (٥) ويقل التصنع له فإذا وقع في كلامه كان في الأكثر حسناً رشيقياً، وتصنعه للطبقة كثير حسن وعمقه في

(١) ٣٠٥ الريحانة للشهاب من ظلامه أبي تمام التى ذكرها الشهاب الخفاجى في ريحانته (٣٠٤ - ٣٠٩) وقد صنفا الخالدى على لسان أبي تمام يشكو فيها الطائي من الواعظ الموصلى الذى كان يغير على شعر أبي تمام في كلامه وشعره .
(٢) ١١٠ : ١٠ العمدة . (٣) راجع ١١١ و ١١٥ و ١٢١ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٣١
الفن ومذاهبه في الشعر العربى . (٤) ١٨٣ : ٧ مهلب الأغانى .
(٥) أى من إسرافه فيه .

وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة في السلامة (١) والبحترى على
أى حال لم يكن متفلسفا ولم يكن من رجال الفكر العميق ، كان بدويا أعرايا
فظلت أدوات الصناعة عنده ساذجة بسيطة (٢) ، كان يتتبع الألفاظ وينقدها
نقدا شديدا كما يقول الباقلاني ، وكانت ألفاظه كأنها نساء حسان هليمن
غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى كما يقول صاحب المثل السائر ،
بل كانت كالعسل حلاوة (٣) .

أما ابن الرومى فقد كان من الشعراء الذين يؤثرون المعنى على اللفظ
فيطلبون صحته ولا يباليون حيث وقع من هجنة اللفظ وخشونته (٤) ، فكان
يصنع شعره على طريقة المدرسة المحافظة ولم يستطع أن يخرج إلى المدرسة
الحديثة مدرسة التصنيع (٥) ، فهو حديث في ثقافته ولكنه لا يستطيع
أن ينهض في فنه بألوان التصنيع وزخارفه وحقا قد شغف بالتصوير ولكن
هذا الشغف لا يخرج به إلى مجال المصنعين (٦) ، وهو مع ذلك قد يأتي بألوان
الزخرف الفنى في شعره ، ولكن دون أن يتخذها مذهبا ، وكان يستخدم
الطنابق والجناس في شعره ، وهو يشبه البحترى في ذلك إلا أن البحترى يكثُر

(١) ٩٦ إجماع القرآن .

(٢) ٩٠ الفن ومذاهبه .

(٣) ٣٥ طبقات ابن المعتز ، والأمدى يفضل ابتداءاته (٥٥ : ١ العمدة)
وكان مقصرا في الخروج من النسيب إلى المدح (٤١ إجماع القرآن) ، ويفضله
الجرجاني بجودة الابتداء على حبيب والمتنبى وفضلهما عليه بالخروج والخاتمة
(٢٠٥ : ١ العمدة) .

(٤) ١٠٦ : ١ العمدة ، وابن الرومى أكثر الشعراء اختراعا للبعاني (٢٣٢
٢ العمدة) ، وأدبه أكثر من عقله وكان يتعاطى علم الفلسفة (١٦١
رسالة الغفران) .

(٥) ٩٤ الفن ومذاهبه .

(٦) ٩٥ المرجح .

من الجناس ، وقد استعار من أبي تمام صيغ التدييع (١) .

٤ - وانتهى علم البديع والصنعة إلى ابن المعتز وختم به (٢) ؛ كان ابن المعتز هو الشاعر الذى انتهت إليه الصناعة الشعرية فقد كان يحب الفن للفن وينظم الشعر ليلهو به ، وكان فى العباسيين كالوليد فى الأويين ، وكان متكلفا مجيدا فى تكلفه كما كان الوليد مطبوعا مجيدا فى طبعه . ويقول عبد القاهر فيه : وطريقة ابن المعتز طريقة أبى تمام ولم يكن من المطبوعين (٣) ، وكان عبد القاهر يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع ، ويصف ابن رشيق صنعة ابن المعتز فيقول : وما أعلم شاعرا أكمل ولا أعجب تصنيعا من ابن المعتز فإن صنعته خفية لطيفة لا تكاد تظهر فى بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر وهو عندى أطفأ أصحابه شعرا وأكثرهم بديعا وافتتانا وأقربهم قوافى وأوزانا ولا أرى وراه غاية لطالبا فى هذا الباب (٤) ؛ ولقد صدق ابن رشيق فى حكمه الأدبى على ابن المعتز وصنعته فإن له من روائع الصنعة وسحر البديع وجمال الأداء ولطف الأساليب ودقة المذهب وحلاوة الصياغة فى صناعته ما يروع القارىء ويستبد بأعجاب المنصف من النقاد ، وكان أبو تمام متكلفا للبديع وكان البحترى وابن المعتز يجريان مع الطبع ، وكان مسلم يتهج نهجا وسطا ، (٥) . . . ولا شك أن ذلك أثر لعصر ابن المعتز وبيئته وحياته ووجدانه وشعوره ، وآية ناطقة بحبه للجمال السارى فى الحياة .

وقد استمر مذهب الصنعة بعد ابن المعتز منهجا فنيا لكثير من الشعر حتى العصر الحديث .

(١) وكان يلتزم حركة ما قبل الروى فى أكثر شعره (١٣٣ : ١ العمدة) وكان يلتزم ما لا يلتزم فى القافية (١٣٧ و ١٣٨ : ١) العمدة وقد يلتزم الحرف وحركته قبل الروى (١٧٢ سر الفصاحة) . (٢) ١١٠ ج ١ العمدة .
(٣) ٢٦٢ أسرار البلاغة . (٤) ١٠٩ و ١١٠ ج ١ العمدة .
(٥) ١٧٠ وما بعدها الأسلوب الشايب .

تراجع للشعراء :

ابن المعتز الخليفة العباسي الشاعر

حياته :

ولد أبو العباس عبد الله بن المعتز في شعبان سنة ٢٤٧ هـ ، أو ٢٤٩ كما يقول ابن خلكان ، في بيت الخلافة ، وولي والده المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العرش عام ٢٥٢ هـ . ومكث فيه ثلاث سنين ، قتل بعدها بيد الأتراك الذين كان يبدم جميع أمور الدولة إبان هذه الفترة الحافلة ، وكان لنسكبة والده أثر عميق في حياته ونفسيته .

تلقى ثقافته في الدين واللغة والأدب على شيوخ العربية وأئمتها ، الذين حفل بهم هذا العصر الزاهر بألوان العلوم والثقافات والآداب ، وكان من أساتذته المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ ، وثعلب المتوفى سنة ٢٩١ هـ ، وسواهما من فحول العلماء .

وظهرت شاعريته في أول عهده بالشباب ، فامتلات بها حياته ، كما انصرف عن مؤامرات السياسة إلى حياة العلم والأدب ، فكان البليغ الساحر والشاعر المجيد ، والناقد الزايق على خصائص الأدب والبيان . وله مؤلفات كثيرة جيدة منها : كتاب البديع ، وفصول القائل ، وطبقات الشعراء ، وديوانه مطبوع في جوارين في مضر والشام .

عاصر ابن المعتز بعد وفاة والده أربعة من الخلفاء العباسيين ، هم : المهدي (٢٥٥ - ٢٥٦) ، والمعتد (٢٥٦ - ٢٧٩) ، والمعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩) ، والمكشفي (٢٨٩ - ٢٩٥) ، وعاش بينهم معتزاً بشخصيته ، نبيل النفس ، عظيم الخلق ، يظهر انصرافه عن الخلافة ، وهو في نفسه ناظم على الحياة التي ملكت سواه مقاليدها ، وقبض عليه عدة مرات أطلق بعدها سراحه ، ووضع موضع المراقبة ، وكان يقول في شعره :

من يشتري حسبي بأمن نخول من يشتري أدبي بمحظ جهول ؟
ولسامات ابن عمه الخليفة العباسي المكتفي بالله عام ٢٩٥ هـ ، ولى
الأزك ابنه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلاً ، فنار الناس في بغداد ،
وانتهت هذه الثورة المسالمة بخلع المقتدر ، وتولية ابن المعتز الخلافة عام
٢٩٦ هـ ، ومكث فيها ليلة واحدة ، حيث قاوم حزب المقتدر هذه الثورة تؤيده
القوة الحربية في الدولة ، وقبض على ابن المعتز ، ووزيره محمد بن داود بن
الجراح ، وقتلا عام ٢٩٦ هـ ، وبذلك انتهت حياة شاعر كبير ، من شعراء
العربية المعدودين .

بيئته :

عاش ابن المعتز في بغداد وسر من رأى ، في البيئة العامة التي امتاز بها
القرن الثالث ، والتي حفلت بألوان الحضارة ، وشتى فنون العلوم والثقافات
والآداب ، كما عاش في بيئته الخاصة الحافلة بألوان الترف والنعم والمجد ،
في قصور الخلفاء والأمراء ، وكان لذلك كله أثره الواضح في شخصيته
وشاعريته .

شاعريته وخصائصها :

١ - أرهفت نفسية ابن المعتز وحياته وبيئته وثقافته ، مشاعره ووجدانه
وإحساسه ، فنشأ شاعراً بطبعه ، ملهم الشاعرية ، قوى الملكات (١) .
ونظم الشعر يرضى به عواطفه ، ويصور فيه مشاعره ، وما يختلج في
صدره من آمال وآلام ، وما تزخر به حياته من مظاهر الترف والحضارة .
فشعره صورة لحياته الخاصة أولاً ، وللحياة الطبقة المترفة ثانياً ، وللاتجاهات
العليا في السياسة والاجتماع والآداب أخيراً ، وهو فوق ذلك صورة صادقة

(١) ويروي عن ابن مجاهد (٨٢٢٤) : من قرأ لأبي عمرو ، وتمذهب للشافعي ،
ودوى شعر ابن المعتز فقد كمل ظرفه (٢ : ١٠٣ طبقات الشافعية للسبكي) .

للفن الخالص ، الذى يؤمن بالفن للفن ، لا لأغراض الحياة وحاجاتها ، لأنه كان يحيا حياة فنية خالصة ، فلم يكن ينظم الشعر لمجد أو لمال أو لرضاء خليفة ، إنما كان ينظمه لنفسه ، ليرضى به نفسه ووجدانه وذوقه .

٢ - وقد أجاد فى الشعر السياسى ، كما أجاد فى الفخر ، والإخوانيات ، والغزل . وخرياته فيها دقة معان ، ورقة تصوير ، وكثير تشبيهات ، وفنه فيها يقف بجانب فن أبى نواس فى خمرياته .

وكذلك كان فى الصيد والطرده مجيداً مبدعاً ، يقتفى فيه آثار امرئ القيس ، وأبى نواس والعتاب والشكوى من الغنون الشعرية التى تفوق فيها .

وكذلك بلغ ابن المعتز فى الوصف حد الجودة والإبداع ، ورسم صوراً صادقة لكل ما وقعت عليه عينه ، من مناظر الطبيعة ومظاهر الحضارة ، ووصفه وصف وجدانى ، له موسيقى هذبة ، وفيه رقة وسلاسة ، ومرح وطبع ودقة وعمق ، وابتداع فى الأسلوب وتجديد فى التشبيه والاستعارة ، وقد نمت ملكته فى نفسه دقة حسه ، ولطف شعره ، وامتلاء ذهنه بمشاهد الجمال ، وروائع الخيال ، ورونق الحضارة ، وأنه كان يقول الشعر لرضاء لنفسه ، وتصويراً لحسه ، بما صرفه إلى وصف الطبيعة ، ومجالس الأئس ، ومطارده الصيد .

أما المدح والهجاء والرثاء والزهد ، فكان نصيب ابن المعتز منها قليلاً ، ترك الزهد لأبى العتاهية ، والرثاء لأبى تمام ، والهجاء لابن الرومى ، والمدح للبحتري ؛ وعاش هو شاعر الترف والفن والجمال . وهو مشهور بجودة قطعه الشعرية كما يقول ابن رشيق (١) .

٣ - ومعانى ابن المعتز تتصل بنفسه وحياته ، وهو فيها دقيق

الفكرة بعيد المنزع ، محكم التصوير ، مجدد مبتكر حيناً ، ومقلد أحياناً أخرى .

٤ - وخياله الشعري خيال واقعي ، يستمد من صور الوجود وحقائقه وألوان الحياة الحسية ومظاهرها ، ما ينطق به من خيال ووصف وتصوير وخياله النشط يعنى بمحسات الأمور ؛ ومرئياتها المشاهدة دون أن يكلف نفسه الجرى وراء عالم المثل والمعنويات .

ويمتاز أسلوبه : بكثرة التشبيه وروعته ، وجودة التصوير ودقته ، وبالرونق والعدوية . في جزالة تشبيح في أعطافه حيناً ، وسهولة ورقة يفيض بها شعره أحياناً ، مع جمال في ترف البيان وألوان البديع ، مما حدا فيه حذو بشار ومسلم وأبي تمام . وتشبيح في أسلوبه الصياغة الفنية ، المتمثلة روحاً وحياة وموسيقى ووضوحاً ، في قرب ، أخذ ، وجودة قريحة ، وحدة خيال كما يقول :

والصبا ممتلىء حاجة وأملا

منزله الشعرية :

ابن المعتز أديب ساحر ، وشاعر ملهم ، وشخصية بارزة بين الشخصيات التي نبغت في القرن الثالث الهجري ، وهو أمير التشبيه في الشعر العربي القديم والحديث .

يعد في الطبقة الثالثة من المحدثين ، وهي الطبقة التي خلفت طبقة أبي نواس ، وطبقة بشار زعيم المحدثين .

ويعدون معه في طبقته أباتمام والبحترى ؛ وبعض النقاد يجعل ابن الرومي وابن المعتز طبقة رابعة من طبقات المحدثين ، ويجعل أباتمام والبحترى حاملي راية الطبقة الثالثة في المحدثين .

ويقول ابن رشيق : طبقة حبيب والبحترى وابن المعتز وابن الرومي

طبقة متداركة ، وتلاحقوا ، وخطوا على من سواهم من الشعراء (١) .
ويقول: «وليس في المولدين أشهر اسما من أبي نواس ثم حبيب والبحترى
ثم تبعهما في الاشتهار ابن الرومي وابن المعتز ، فطار اسم ابن المعتز حتى صار
كأبي نواس في المحدثين ، وامرئ القيس في القدماء (٢) » .

المدرسة الأدبية التي يمثلها ابن المعتز :

المدرسة الأدبية التي يمثلها ابن المعتز ، هي مدرسة المحدثين ، التي قاد
زمامها أبو تمام والبحترى ، والتي امتازت بميزتين :
الأولى : هي التعمق في المعاني واستنباطها ، مما يتجلى لك في شعر أبي
تمام وابن الرومي واضحاً ملموساً .

والثانية : هي الصناعة الشعرية المتأنقة ، التي تطلب ألوان الجمال في الأداء ،
وتعتمد على النرف البياني في الأسلوب ، من : جناس وطباق ، وتشبيه
واستعارة وتمثيل ، وكانت العرب - كما يقول ابن رشيق - «لا تنظر في
أعطاف شعرها ، بأن تجنس أو تطابق أو تقابل ، أو تترك لفظة للفظة ،
أو معنى لمعنى ، كما فعل المحدثون ، ولكن كان نظرها في فصاحة الكلام
وجزأته ، وبسط المعنى وإبرازه ، وإتقان بنية الشعر ، وما وقع فيه من هذا
النوع فمن غير قصد ولا تعمل ، مما عرفوا وجه اختياره على غيره حتى صنع
زهير الحوليات على وجه التثقيف والتنقيح ، وأول من فتق البديع للمحدثين
بشار وابن هرمة ، ثم قلدهما فيه مسلم ، والعتابي ، والنري ، وأبو نواس ؛
واتبع هؤلاء أبو تمام والبحترى وابن المعتز . فأنهى علم البديع والصنعة
إليه ، وختم به (٣) .

(١) ٨٣ ج ١ العمدة .

(٢) ٨٢ ج ١ العمدة .

(٣) ١٠٨ - ١١٠ ج ١ العمدة .

فإن المعتز إذاً هو الشاعر الذي انتهت إليه الصناعة الشعرية المتعمدة المتكلفة . فقد كان يحب الفن للفن ، وينظم الشعر ليلموبه ، وكان في العباسيين كالوليد في الأمويين ، وكان متكلفاً مجيداً في تكلفه ، بقدر ما كان الوليد مطبوعاً مجيداً في طبعه ، ويصف ابن رشيق صنعته فيقول : « وما أعلم شاعر أكمل ولا أعجب تصنيعاً من ابن المعتز ، فإن صنعته خفية لطيفة ، لا تكاد تظهر في بعض المواضع ، إلا للبصير بدقائق الشعر ، وهو عندى اللطف أصحابه شعراً ، وأكثرهم بديعاً واقتناباً ، وأقربهم أوزاناً وقوافي ، ولا أدرى وراه غاية لطالبا في هذا الباب ، ^(١) .

ويقول الجرجاني فيه : « وطريقة ابن المعتز طريقة أبي تمام ، ولم يكن من المطبوعين ^(٢) ، وكان الجرجاني يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع .

ويقول أبو الفرج في وصف شعره وخصائصه : « هو وإن كان فيه رقة الملوكة ، وغزل الظرفاء ، وهلملة المحدثين ، فإن فيه أشياء كثيرة تجرى في أسلوب المجيدين ، ولا تقصر عن مدى السابقين ، وليس يمكن واصفاً لصبح في مجالس اللهو بين ندامى وقيان وعلى ميادين من النور والبنفسج والرياحين إلى غير ذلك ، أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام البسيط الرقيق الذي يفهمه كل من حضر ، إلى جيد الكلام ووحشيه ، وإلى وصف البيد والمهامه ، والظبي والظليم ، والناقة والجمل ، والديار والقفار ، . والأصغمانى يشير بذلك إلى أن أسلوب ابن المعتز فيه جيد كثير وإلى أن رقة أسلوبه غالباً ترجع إلى حياة الملك التي تستلزم الترف وإلى وصفه لألوان اللهو التي تستدعي رقة الأسلوب ، وإلى بعد نفسية الشاعر غالباً عن أغراض الشعر البدوي ، فرقة شعره ودقة تشبيهاته أثر من آثار البيئة فيه .

(١) ١٠٩ ج ١ العمدة .

(٢) ٢٦٢ أسرار البلاغة .

ويقول ابن شرف القيرواني في رسالة الانتقاد : ابن المعتز ملك النظام له التشبيهات المثلية والاستعارات الشكلية ، والإشارات السحرية ، والافتخارات العلوية ، والغزل الرائق ، والعتاب الشائق ، ووصف الحسن الفائق .

فن ابن المعتز في التشبيه :

طارت شهرة ابن المعتز الأدبية والفنية في باب التشبيه ، وأتى في ذلك بما سحر الناس وخلد في صفحات الشعر والأدب . وسار المثل في القديم والحديث بتشبيهات ابن المعتز لأنها أظهر سمته وأبلغ تعبير عن شاعريته وتصويره لفنه ، وفي الحق أننا لانجد التشبيه ملكة من الملكات الفنية عند شاعر من الشعراء كما نجده عند ابن المعتز ، ولانجد هذه الكثرة مع تلك الجودة عند أحد سواه . وكان ابن المعتز يقول : إذا قلت كأن ولم آت بعدها بالتشبيه ففرض الله في (١) .

وجميع النقاد يعترفون لابن المعتز بمكانته الأدبية الكبيرة في باب التشبيه ، يقول الباقلاقي : وأنت تجد في شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذي يشبه السحر وقد تتبع من هذا ما لم يتبع غيره ، وانفق له ما لم يتفق لغيره من الشعراء (٢) ، ويقول الثعالبي : تشبيهات ابن المعتز يضرب بها المثل في الحسن والجودة ، ويقال إذا رأيت كاف التشبيه في شعره فقد جاءك الحسن والإحسان ولما كان غذى النعمة وريب الخلافة ومنقطع القرين في البراعة

(١) ١٤٦ ج ١ مباحث التنخيص . ٦٩٣ ج ١ دائرة المعارف للبستاني ، ومقدمة ديوان ابن المعتز المطبوع ببيروت وينسبها الرافعي لذي الرمة (٢٥ ج ٢ آداب العرب للرافعي) ، وهو غير صحيح .

(٢) ٢٠٧ إعجاز القرآن للباقلاقي .

تهياً له من حسن التشبيه ما لم يتبها لغيره ممن لم يروا مارآه ، ولم يستحدثوا ما استحدثه من نفائس الأشياء وطرائف الآلات (١) .

ويقول المطوعى : جل كلام ابن المعتز فى التشبيه عن أن يمثل بنظير أو شبيه (٢) : ويقول العباسى : هو أشعر الناس فى الأوصاف والتشبيهات (٣) ويقول ابن رشيق : قالت طائفة الشعراء ثلاثة ، جاهلى ، وإسلامى ، ومولده فالجاهلى امرؤ القيس ، والإسلامى ذو الرمة ، والمولده ابن المعتز ، قال ابن رشيق وهذا قول من يفضل البديع وبخاصة التشبيه على جميع فنون الشعر (٤) ويقول : ولا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه فينقاد إليها طبعه ، ويسهل عليه تناولها كان المعتز فى التشبيه (٥) ، ويقول الحصرى : وليس بعدذى الرمة أكثر افتناناً وأكبر تصرفاً فى التشبيه من ابن المعتز (٦) ، ويقول الدميرى : هو صاحب التشبيهات التى أبدع فيها ولم يتقدمه من شق غباره (٧) . ويشيد بتشبيهاته كثير من الباحثين (٨) وقد وضع عبد القاهر هذه التشبيهات موضع الدراسة والتقد وأشاد بها فى الأسرار . وتوضع تشبيهات ابن المعتز مع روائع الشعر العربى ، قال الخوارزمى : من روى حوليات زهير واعتذاريات النابغة وخمريات أبى نواس وزهديات أبى العتاهية ومراثى أبى تمام ومدائح

(١) ١٨٢ ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب .

(٢) ١٧٤ ج ١ زهر الآداب .

(٣) ١٤٦ ج ١ معاهد التنصيص .

(٤) ٨٢ ج ١ العمدة .

(٥) ٢٥٥ ج ١ العمدة .

(٦) ٢١٩ ج ١ زهر .

(٧) ٨٣ ج ١ دميرى .

(٨) ٢٢٢ ج ٢ شذرات ، ٢٧٠ الوسيط . ٢٤ العصر العباسى السباعى بيومى

٢٤٩ رسائل البلغاء .

البحترى وتشبيهات ابن المعتز لم يخرج إلى الشعر فالمرتبة أولى به . ويقول
بعض المحدثين : فن الناس ابن المعتز بتشبيهاته كما أسكرهم أبو نواس
بخمرياته (١) .

وقد قلده الشعراء في فن التشبيه وساروا على نهجه فيه . فكان تميم
ابن المعتز يحتذى حذو ابن المعتز في التشبيهات ويقف بجانبه ويفرغ فيها على
قالبه (٢) . وكان العقيلي أبو الحسن علي بن الحسين من أئمة المدرسة التي تعنى
بالتشبيه وتجيده وهو من شعراء القرن الخامس وسلك مسلك أبي نواس
وابن المعتز في الخمر وتوليد المعاني (٣) . وكذلك احتذاه في تشبيهاته :
ابن وكيع الشاعر م ٣٩٣ (٤) ه وأبو نواس والوأراء (٥) ، وابن خفاجه ،
وسواهم .

ترجع بواعث هذه الملمكة المصورة في نفس ابن المعتز وأسباب تلك
القدرة البارعة على تقدير الأشياء ، وعلى تشبيهه بعضها ببعض إلى ذهنه
الخصب ، وعقليته الناضجة ، وثقافته الواسعة ، وإلى إحساسه الدقيق
ومشاعره المرهفة ، وهيامه الفني يتذوق الجمال وتصوره وتصويره ، وإلى
مظاهر الحضارة وترف الحياة التي عاش فيها ، وإلى مذهب الصنعة الشعرية
الذي آثره ليبدل بترف الأسلوب على ترف الخيال والفكر والحياة .

ويمكننا أن نصور التشبيه في فن ابن المعتز ، تصويراً واضحاً ، على نمط
من التفصيل ، فتقول : إنه يمتاز بميزات كثيرة ، أهمها ما يأتي :

أولاً : كثرة التشبيهات في شعره كثرة هائلة ، حتى لا تخلو قصيدة من

(١) ويشيد بها كثير من علماء الأدب والبيان . (٢) ١٨٣ ج ١ زهر .
(٣) ٢١٤ ج ١ ظهر الإسلام . (٤) راجع ١٥٢ المثل السائر
(٥) شاعر مطبوع منسجم الألفاظ عذب العبارة حسن الاستعارة جيد
التشبيه (١٤٦ ج ٢ فوات الوقيات) .

قصائده ، ولاقطعة من مقطوعاته ، من عدة تشبيهات نادرة ساحرة ، وكانت هذه الملمكة القوية ظاهرة ملووسة في فن ابن المعتز في سائر شعره ، وشتى أغراضه ، وإن كثرت ظهورها في أوصافه وخمرياتة وغزله وطرده ، وهو في هذا يبذل جميع الشعراء ، الذين لم يكثرت التشبيه في شعرهم هذه الكثرة ، فقد عكف ابن المعتز على التشبيه وأفرغ فيه جهده ، وراح يوشى به شعره ، ويطرز به قصائده ، ويظهر فيه براعة معدومة النظير .

ثانيا : تشبيهات ابن المعتز تشبيهات حسية يعنى فيها بتصوير المحسات ، ياخر اجها في مظاهر حسية يستمدتها من بيئته ، هو بصور مظاهر الطبيعة وشتى ألوان الحضارة المادية ، في صور لها سحرها وجمالها الفنى الرائع . ولما يعنى بتصوير الوجدانيات والعقليات . لأن خياله لم يؤثر أن يتجاوز نطاق الحياة المادى وجمالها الحسى إلى دائرة التخيل والتصوير للحقائق المجردة البعيدة عن مظاهر الإحساس في الحياة ، وفاضت صنعة - كما يقول بعض المحدثين (١) - بأصباغ الزخرف الحسى ، الذى لم ينعص في بحار الفلسفة . وهى مع ذلك تفيض رقة ، وتسيل عذوبة ، وتمثل الحضارة المترفة في أروع صورها وأجلها . بما يفيض بالخيال الرائع ، ويرز مكان هذه الحياة المترفة التى نشأ فيها وغالطها ابن المعتز ، بما فيها من مداهن التبر ، وأرائى الفضة وصحاف الذهب المحلاة بأنواع الجواهر الكريمة ، واللالىء النادرة حتى ليخيل إلى القارىء أن هذا الصبغ - مع عذوبته وعدم بلوغه حد التكلف - قد استحال على يد ابن المعتز ، إلى صبغ آخر جديد وذلك هو سر تفردده في هذا اللون . ثم هذه التشبيهات الحسية يدور أكثرها على الأشياء المدركة بحاسة البصر ، أكثر من سواها من المحسات ، ولابن المعتز فن مستقل في تصوير الألوان خاصة من بين سائر المبصرات ، يبلغ فيه غاية الجودة والإحسان ، وسبأتى كثير من مثل

(١) ٨٧ و ٨٠ الصبغ البديعى في اللغة العربية - مخطوط .

ذلك في شعره وتشبيهاته . وكان ابن المعتز إذا اضطر إلى تشبيهات عقلية ،
استمد صورها من المظاهر الحسية في غالب الأحيان ، فيقول :

رددت إلى التقي نفسي فقرت كما رد الحسام إلى القراب
أو يقول :

اصبر على مهنض الحسود فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله
أو يقول :

لا تجمعوا بالله ويحكمو غلظ الوعيد ، ورقة الوعد

ثالثا : وابن المعتز في تشبيهه مصور بارع ، ينقل لك بريشته على صفحة
شعره البديع صورة مطابقة كل المطابقة لما يصوره من أشياء ، هوقى في
تصويره ، وغنى بخياله المصور ، وذهنه الخصب ، الذي يقدر الأشياء ، ويقدر
الصور بمقدارها ، ثم يخرجها تشبيها شعريا يمثل أصله في كل خصائصه التي
أرادها الشاعر ، وصوره من أجلها . ثم هو لم يجب أن يمثل عواطفه في
تشبيهاته ، لئلا تخرج عن حقائق الأمور التي تمثلها أمام العقل ، وفي رؤية
البصر ، ثم هو يظهر لك إصباغ صورته كلها دون أن يمزجها بعضها ببعض ،
أو يلوونها بلون خاص .

رابعا : وظاهرة أخرى في تشبيهات ابن المعتز هي دقة التصوير التي امتاز
بها وبلغ فيها منتهى الإجازة ، وتقدم بها على كثير من الشعراء الوصافين .
فإنه كان يوضح الشبه بين الشئيين توضيحا بالغاً مهما اختلفا في الجنس
وتباعدة في الخيال ، وكثيرا ما كان يجمع أعناق المتنافرات في ربة .
ويعقد بين المتباينات معاند النسب والألفة ، مما يدل على دقة الفكر ولطف
النظر ونفاذ الخاطر ، وما يعطيه الناقد في كثير منه منزلة الحاذق الصانع ،

والمصور الملمهم الذى سبق إلى اختراع نوع من الصنعة حتى صار إماما فيه ،
وأسمى من بعده عبالا عليه ، وتبعاً له .

فالبنفسيج زهر غرض يرف ، تبصر فيه زرقة أوراقه وحررة ساقه ، يشبهه
ابن المعتز لابزهر مثله ولا بنبات آخر شبيه به ، ولكن يشبهه بلهب نار
لا يستطيع سوى الحاذق أن يتخذ منه له مثالا ، ثم لم يكتف بذلك ، بل دق
فى التصوير ، ونظر نظرة خاصة غريبة ، فشمه بورقة النار ، أول ما اشتعل
فى الكبريت ، فبلغ غاية التصوير ، وملك زمام الإجابة ، حين يقول :

ولا زوردية تزهر بزرقها بين الرياض على حمر البراقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار فى أطراف كبريت

والصبح حين يظهر فى حواشى الظلمة ويدفع الليل دفعا يشبهه ابن المعتز
بأشخاص الغربان ، ولسكنه يجعل الغربان بيض قوادم الريش ، ثم يجعل
الغربان ذاهبة فى الفضاء ، طائرة فى جو السماء ، يدفعها الخوف لا الرجاء ،
فبيدع فى ذلك كله غاية الإبداع حين يقول :

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى نظير غرابا ذا قوادم جون^(١)

فيجيد الشبه والتصوير . وتمام التدقيق والسحر فى هذا التشبيه ، فى أن
جمل ضوء الصبح ، لقوة ظهوره ، ودفعه لظلام الليل ، كأنه يحفز الدجى
ويستعجلها ، ولا يرضى منها بأن تتمهل فى حركتها . ثم صور ذلك كله فى
قوله : نظير غرابا ، دون أن يقول غراب أو غراب بطير ، وذلك لأن
الغراب وكل طائر إذا كان هادئا واقفاً فى مكانه فأزعج وأخيف وأطير منه
كان ذلك أسرع لطيرانه ، ومسيره إلى حيث لا تراه العيون ، وليس كذلك
إذا طار عن اختيار ، لأنه يجوز أن يصير إلى مكان قريب من
مكانه الأول .

(١) الجون : الأبيض والأسود من الأضداد ، والمراد به هنا الأسود .

والشمس في تموج شعاعها وفي إشراقها واستدارتها يشبهها ابن المعتز بتموج نور المرأة ، ولا يقنع بذلك بل يحمل المرأة في كف الأشل فيقول :
« والشمس كالمرأة في كف الأشل » . . . ويصور أشعة الشمس في تالأؤها وإشراقها ووقوع أشعتها على الأرض بالذهب المصبوب على الأرض فيقول في إجادة :

وشارق يضحك من غير عجب كأنه صب على الأرض ذهب

خامساً : وابن المعتز يسبغ على صورته في التشبيه ظل حياته المترفة المفعمة بألوان النعيم . فيشبهه الأذريونة بكتوس الذهب التي يحفظ فيها الطيب وفيها بقية منه ، ويشبه النرجس بكتوس الدر التي في حشوها العقيق ، ويشبه العنب بمخازن البلور . . إلى آخر هذه الأوصاف التي استمدتها الشاعر من حياته وبيئته .

أثر حياة ابن المعتز وبيئته في شعره :

شعر ابن المعتز صور أدبية جميلة تمثل حياته المترفة أنم تمثيل ، ففيه صور كثيرة مستمدة من الأزهار والورد والجواهر السكرية وحياة الملوك ومظاهرها المختلفة .

فومثلاً يصف العنب فيشبهه بمخازن البلور ، حين يقول في ابتداء وتجديد :

كأنه مخازن البلور لم يبق منه وهج الحرور
إلا ضياء في ظروف نور

ويصف الهلال أول ظهوره ، حيث يرى قوساً من بياض ، محاطاً بالظلام ، فيشبهه بزورق من فضة ، قد أثقلته حمولة من عنبر ، والعنبر أسود والزورق حين يكون مثقلاً بما يحمل لا يبدو منه فوق سطح المساء إلا جزء صغير أشبه ما يكون بالقوس .

ثم جعل ابن المعتز الزورق من فضة ، ليسكون الجزء البادى منه فوق سطح الماء أبيض متألثا شبيها بالقوس الفضى الصغير الذى ينير من القمر حين يكون هلالا ، ومن هنا جاءت روعة هذه الصورة وطاقاتها ، وذلك حيث يقول ابن المعتز فى وصف الهلال :

أنظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

ويصف الهلال أيضا فيصوره بصورة منجل من فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا ، والنرجس هنا يشير إلى ظلام الليل ، والمنجل شبيه بقوس الهلال ، والفضة تشير إلى ضوء الهلال ، والمنجل لا يستعمل إلا فى الحصد ، ولذلك تم ابن المعتز هذه الصورة الجميلة حين جعل المنجل يحصد من زهور الظلام النرجس وحده ، أى يحصد ما يمثل الظلام فى السكون ، فيقول ابن المعتز فى إجازة بارعة فى وصف الهلال :

كنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا

ومن من الشعراء يستطيع أن يصور هذه الصور الرفيعة ؟ إن الشاعر المحروم لا يمكن أن يتحدث عن الفضة والذهب والبلور والزهور فى شعره مثلما تحدث عنها ابن المعتز ، وقد سبق بيت ابن المعتز الذى يصور فيه أشعة الشمس وقد أرسلت على الأرض بالذهب المصبوب عليها ، وهو :

وشارق يضحك من غير عجب كأنه صب على الأرض ذهب

ويقول ابن المعتز يصور لهب النار المرتفع من الموقد بأشجار الذهب :

وموقدات بن يضر من اللهب

يشبعنه من لحم ومن حطب

يرفعن نيرانا كأشجار الذهب

وهذه الصورة رائعة لأحد بلحاها ، وهى جديدة التصوير .

موازنات أدبية :

١ - يقول البحرى فى وصفه العناق :

ولم أفس ليلتنا فى العنا ق لب الصبا بقضيب تعنيا
أخذه ابن المعتز وزاد عليه فى المعنى وفى جودة التصوير ، ودقة
التعبير ، فقال :

فلو ترانا فى قيص الدجى حسبنا فى جسد واحد
وهنا نرى ابن المعتز يرق فى الأسلوب والتعبير والوصف ، ويجيد فى
التصوير إجابة بارعة .

٢ - وقال كثير :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأهناق الملى الأباطح
أخذه ابن المعتز فقال :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير
فقوله : « سالت عليه شعاب الحى ، يقابل الشطر الثانى كله من بيت
كثير . فهو أرجو ، على أن « سالت عليه شعاب الحى ، أبلغ فى التصوير
من قول كثير .

٣ - وقال أبو نواس فى الراح :

كان صغرى وكبرى من فقاغها حصباء درعلى أرض من الذهب
أخذه ابن المعتز فأجاد حين يقول :

من كيت كأنها أرض تبر فى نواحيه لؤلؤ مغروس
ف نجد ابن المعتز يعقد الصورة تعقيداً فنياً واضحاً ، ويرسمها بإجادة دون
أن تهتر اللوحة التى رسمها ، ونجده مع ذلك مجدداً ، وإن كان لأبى نواس
شرف السبق وبساطة الأداء .

ع — والعامّة تشبه الورد بالخند والخند بالورد . وهو من المبتذل ، إلا إذا أضيفت إليه زيادة تنقله من العامى إلى الخاصى ، أوضم إليه معنى يشفع به ، كما قال على بن الجهم :

عشية حيانى بورد كأنه خدود أضيفت بمضمين إلى بعض

وهذا من قصيدة ، مدج بها إبراهيم بن المهدي ، ولما سمع إبراهيم منه هذا البيت ، زحف حتى صار في ثلثى الفراش ، وقال : يا فتى شهبوا الخدود بالورد وأنت شبيت الورد بالخدود (١) . على أن في بيت ابن الجهم زيادة تبعده عن الابتذال . وهو إضافة بمضمين إلى بعض .

وقال ابن المعتز في هذا المعنى ، يصور بياض الورد وما في جوانبه من احمرار :

بياض في جوانبه احمرار كما احمرت من الخجل الخدود

فأبدع في التصوير والتشبيه . قال القاضى الجرجاني في وساطته : ولو اتفق له أن يقول حمرة في جوانبها بياض لكان قد طبق المفصل ووافق شبه الخجل (٢) ، قال عبد القاهر : إلا أنه لعله وجد الأمر كذلك في الورد ، فشبهه على طريق العكس ، فقال هذا البياض حوله الحمرة كهذه الحمرة حولها البياض في وجنة الخجل (٣) ، ويقول ابن رشيق : البيت من سوء المقابلة وإن عده القاضى الجرجاني غلطا في التشبيه (٤) .

ه — وقال أبو نواس في الراح :

إذا عاب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا

أخذه ابن الضحاك وأحسن :

(١) ١٥٨ ج ٢ زهر الآداب . (٢) ١٥١ وساطة .

(٣) ١٧٢ أسرار . (٤) ١٧ ج ٢ العمدة .

كأنما نصب كأسه قر يكرع في بعض أنجم الفلك
وقال ابن الرومي فيه ، وكان أحسن منهما :
فكانها وكان شاربها قر يقبل عارض الشمس
وقال ابن المعتز فزاد عليهم جميعاً :
وكأنه وكان الكأس في فمه هلال أول شهر غاب في شفق
وهو أحسن ما رصف به كأس على فم .

٦ - ولما كان ابن الرومي هو أقرب شاعر إلى ابن المعتز من طبقته ،
فسنوازن هنا في إيجاز بين قصيدتين للشاعرين في موضوع واحد ، نرى من
هذه الموازنة مدى فن كل من الشاعرين ، ولكن هذه الموازنة لاتعطينا حكماً
حاسماً على شاعرية أيهما ، لأنه كثيراً ما يأتي أحد الشاعرين بمعان في
موضوع القصيدة لا يأتي بها الآخر ، ومع ذلك فأنا أعرض هاتين القطعتين ،
اللتين اخترتهما من شعر الشاعرين لتقاربهما في الخيال ، ووحدهما في
الموضوع ، فوق وحدثهما في الوزن . قال ابن الرومي من قصيدة في وصف
مجلس الراح :

شمس من الحسن في مصفرة ضاهت بلون لها مصفرها
في وجنات تحمر من خجل كأن ورد الريح حمراً
يسمى إليها بكأسه رشاً أنشه الله وذكرها
في كفه كالشهاب لاح على ظلياء ليل دجت فنورها
إن برزت للهواء غيرها أو قرعت بالمزاج كدرها

ويقول ابن المعتز في مجلس الراح أيضاً من قصيدة :

ومجلس جل أن تشبهه جن به مزهر ومزار
وزانه من بنى العباد رشاً بالجيد والمقتلين سحار

قد ركبت كفه مشعشة إريقها في السكس هدار
يلع فيها من كل ناحية كوكب نوره إليك نظار
فظلت في يوم لذة عجب وافي به للسعود مقدار
وقابل الشمس فيه بدر دجى يأخذ من نورها ويمتار .

١ - في هاتين القطعتين وصف للساقى والراح ، وفي قطعة ابن الرومى
زيادة وصف القيمة التى تغنى في مجلس الراح .

٢ - وصف ابن الرومى الساقى بالأنوثة ، ووصفه ابن المعتز بالسحر .

٣ - شبه ابن الرومى نورالراح فى السكس ، بالشهاب فى ظلام الليل ،
أما ابن المعتز فقد شبه السكس بالبدر ، والراح بالشمس . وجعل السكس
يأخذ من نورها ويمتار .

٤ - وصف ابن الرومى الراح بأنها أصفى من الماء والطف من الهواء ،
ووصفها ابن المعتز بكوكب نور متوقد .

٥ - ألفاظ ابن المعتز موسيقية . وأعذب من ألفاظ ابن الرومى .

٦ - وابن الرومى فى جملة الأمر يركب الصور ويمزج التشبيهات
ولكن ابن المعتز يقف عند حدود التصوير ، لا يعتمد لمزج تلك الأصباغ
بعضها ببعض ، بل يزجها مجتمعة دون اتحاد أو امتزاج .

٧ - وابن الرومى يفوته أحيانا ما هو أبلغ فى الوصف . وأروع فى
أداء الغرض . من حيث لا يفوت ذلك ابن المعتز . كما رأينا فى وصف ابن
الرومى للساقى بالأنوثة ، ووصف ابن المعتز له بالسحر .

وابن المعتز يتفوق على ابن الرومى تفوقا ظاهرا حين يصف مظاهر
الترف والملوكية فى حياته . . ويروى أن لائما لام ابن الرومى ، وقال له :
لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال : ألا تشدنى شيئا من
قوله ، الذى استعجزتني عن مثله ؟ فأشده قوله فى الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة قد أنقلته حولة من عنبر
فقال زدني ، فأثسده قوله في الأذريون (وهو زهر أصفر في
وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة) :

كأن آذريونها والشمس فيها كالية
مبدهن من ذهب فيها بقايا غالية

فصاح : واخواناه لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، ذاك إنما يصف ماعون
بيته ، لأنه ابن خليفة ، وأنا أى شيء أصف ؟ ولكن انظر إذا وصفت
ما أعرف ، أين يقع قولى من الناس ، هل لأحد قط مثل قولى فى
قوس الخمام :

يطررها قوس السحاب بأخضر على أحمر فى أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أفلت فى غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض
وقولى فى صانع الرقاق :

ما أفس لأفس خبازا مررت به يدحو الرقاقة مثل الملح بالبصر
مايين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر
وقولى فى قالى الزلاية :

رأيته سحرا يلقى زلاية فى رقة القشر والتجويف كالقصب
يلقى العجين لجينسا من أنامله فيستحيل شبايكا من الذهب

نقد لشعر ابن المعتز :

أولا : يأخذ بعض الكتتاب على ابن المعتز أنه لا يزيد فى صورته الفنية
على أن يعطيك نسخة لما يرسم لك ، دون أن يعبر فى تصويره عن خلجات
نفسه ومشاعره ، فهو حين يشبه الهلال بزورق من فضة أنقلته حولة من

عبر ، لا يزيد على أن يعطيك نسخة من صورة الهلال ، لا علاقة بينها وبين إحساسه ومع ذلك فلم يحسن في نقل نسخة تامة الشبه بالحلال ، ويكفي أن تتصور الهلال في خيالك ثم تتصور بجانبه زورق ابن المعتز ، لتدرك الفارق الكبير ، وتعلم مقدار ما شوه ابن المعتز من منظر الهلال الجميل . وكذلك تصويره للهلال بمنجل الفضة الذى يحصد من زهر الدجى نرجسا ، فضلا عن أنه لا تشابه بين الهلال والمنجل إلا في الشكل الخارجى ولا صلة بينهما في الطبيعة إلا صلة النظرة البصرية . فضلا عن ذلك راح ابن المعتز يصنع المنجل من الفضة ، ثم يجعله يحصد النرجس ، وليكن لهذا النرجس زهر ، وليكن هذا الزهر نابتا في الدجى ، وليس وراء ذلك كله شيء من العاطفة والإحساس أو إدراك شيء من خفايا الجمال ، وأسرار العاطفة .

وهذا نقد لا يقوم على أساس ، ويتلخص فيما يلى :

١ - أن البيتين السابقين لا يصوران الهلال تمام التصوير .

٢ - أن التشبيه عند ابن المعتز فن خالص ولكن لا حياة فيه .

٣ - أنه في تشبيهه بعيد الفكرة ، بعيد عن الوضوح .

١ - وردنا على الأول هو أن ادعاء عدم تصوير البيتين للهلال تصويرا تاما سفسطة . ويناقض الناقد نفسه فيه ، ولما شبهه هوجو الشاعر الفرنسى الهلال بمنجل من ذهب راع أعلام الأدب الفرنسى ، فكيف يراعون لو كانوا يعلنون بما أتى به ابن المعتز .

٢ - وردنا على الثانى هو أن فن ابن المعتز في التشبيه لا يخلو كله من التعبير عن عواطفه وشعوره ، وما خلا من ذلك فإنما كان الشاعر فيه يساير الفن الخالص ، لئلا تبعد الصور التى يرسمها عن حقائقها المرسومة ، وأى ضمير على الفنان في ذلك ، وهل اتفق النقاد بعد على أن الفن تصوير ، وعاطفة تلون هذا التصوير بلونها الخالص ؟ اللهم لا ، على أن الفن وحده

مهما سار في طريقه بعيدا عن العاطفة ، فهو وحده مظاهر يستثير
العاطفة والوجدان .

٣ - وردى على الثالث هو أن نظرية الوضوح والخفاء في الأدب ،
لا تزال محل بحث النقاد الآن ، ولم يتفق عليها بعد اثنان ، فالجناح حين
كان ينادى بالوضوح والإفهام ، وبأن البليغ من الكلام ما كان معناه إلى
قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك ، إنما كان يدعو إلى أن يجتهد المتكلم في
تهذيب اللفظ وترتيبه ، وصيانتها من كل ما أخل بالدلالة ، وعاق دون
الابانة ، ولم ير أن خير الكلام العامى المرذول . والقاضى الجرجاني لم
يحاسب المتنبي في وساطته على عمقه في التفكير والتصوير ، لأن ذلك سمة
عامة في شعر المحدثين ، وعبد القاهر في أسرارها يقسم الغموض إلى ما سببه
التعقيد في الأداء فيرده ، وإلى ما سببه الدقة في المعنى فيشيد به ، ويرى أن
المعاني الشريفة لا بد فيها من بناء ثان على أول ، وردت إلى ساق ، ورأى
بعض الباحثين من المحدثين : أن الغموض في فن المتنبي هو سره بقرينه
الشاعرة ، التي ارتفعت به إلى مقام الخالدين من الشعراء .

ثانيا : ومن ردى الشعر قول ابن المعتز :

أرى ليلا من الشعر على شمس من الناس

فالجمع بين الليل والناس ردى ، وقد وقع هنا باردا ، كما يقول
أبو هلال (١) :

ثالثا : ويأخذ بعض النقاد على ابن المعتز قوله في وصف كتاب قد
شكلت حروفه :

بشكل يرفع الإشكال عنه كأن سطره أخصان شوك

لأنه مدح الكتاب يجعل سطاوره شوكا ، وإن كان لا حظ أشبه التام في صورته ، لكنه بالدم أشبه (١) .

ويمكن أن يقال إن ابن المعتز إنما لاحظ الشكل في الشبه دون ماسواه .

نماذج لشعر ابن المعتز

١ - من شعره في الغزل :

| | |
|-----------------------------|---------------------------|
| قف خليلى نسأل لشرة (٢) دارا | أو محلا منها خلاء قفارا |
| ألبستنى سقما أقام وسارت | واستجابت قلبي إليها فطارا |
| لى حبيب مكذب بالأماني | جعل الدهر موعدا وانتظارا |
| أيها الركب بلغوها سلاحي | واتقوا أخذ طرفها السحارا |

٢ - وله في وصف الخمر .

| | |
|--------------------------------|-------------------------------|
| يامن يفندنى فى اللهو والطرب | دع ماتراه وخذرايى فحسبك بي |
| أفى المدامة تلحانى وتعذلى | لقد جذبت جوحا غير منجذب |
| وقد يباكرنى الساقى فأشربها | راحا تريح من الأحزان والكرب |
| مازال يقبض روح الدين مبرله (٣) | حتى تغلغل سلك الدر فى الثقب |
| وأمطر الكأس ماء من أبارقه | وأثبت الدر فى أرض من الذهب |
| ومسبح القوم لما أن رأوا عجبها | نورا من الماء فى نار من العنب |
| لم يبق فيها البلا شينا سوى شبح | يقيمه الفان بين الصدق والكذب |

٣ - وقال فى الفخر :

أيها السائل عن الحسب الأاطيب ، ما فوهه لخلق مزيد

(١) طراز الجالس

(٢) اسم محبوبة كان يتغزل بها الشاعر ، ويتلاعب باسمها كثيرا فينطق به : شر ، وشريرة

(٣) الميزل المثقب الذى يثقب به ختم الدن ، والمصفاة أيضا

نحن آل الرسول والعترة الحق وأهل القربى فماذا تريد ؟
ولنا ما أضناه صبح عليه وأنته رايات ليل سود
وما كنا رق الإمامة ميرا نا ، فن ذا عنا بفخر يجيد ؟

ع - وله كذلك في الفخر والشكوى :

خليلي إن الدهر ماتريانه نصبرا، وإلا أى شيء سوى الصبر ؟
سألتك يا الله ما تعلمه ساني ولا تكتها شيئا فعندك خبري
أرفع نيران القرى لعفاتها

وأضرب يوم الروع في ثغرة النحر ؟
وأسأل نبلا لا يجاد بمثله فيفتحه بشرى ويختمه عذرى ؟
ويارب يوم لا يزول ظلامه مددت إلى المظلوم فيه يد النصر
فسبحان ربى ما القومى أرى لهم كوامن اضغان عقاربها تسرى
إذا ما اجتمعنا فى الندى تضاءلوا

كما خفيت مرضى الكواكب فى الفجر
بنو العم لا بل هم بنو الغم والأذى
وأعوان دهرى إن تظلمت من دهرى

النثر الفني في العصر العباسي الأول

نهض النثر الفني في هذا العصر نهضة لم يبلغها قبل ذلك في عصر من العصور ، فقد رقت الأساليب ، وعذبت الألفاظ ، وعمقت المعاني ، وسمت الأخيصة ، واعددت الأغراض ، واتسقت الأفكار . وذلك كله بما نبتا للعباسيين من حضارة ومدنية وتعدد في صور الحياة ، ومظاهر العيش ، وبما توفر لهم من ألوان الثقافات وأنواع المعارف^(١) الأجنبية .

وقد كان ابن المقفع من أشهر الكتاب الذين وضعوا أصول النثر الأدبي الفني في الأدب العربي ، وقد أسهم مع عبد الحميد السكاكيب في دعم كيان هذا النثر ، وكان عبد الحميد من كتاب الدولة الأموية ، وشهد ابن المقفع جانباً من أول عصر الدولة العباسية ، وخلفته طائفة من الكتاب تأثروا به تأثراً واضحاً بعيد المدى في تطور النثر الأدبي والكتابة الفنية ، ومنهم : يعقوب ابن داود وزير المهدي ، وأبو الربيع محمد بن الليث الذي كتب للمهدي والهادي والرشيد ، والقاسم بن صبيح ، وسهل بن هرون^(٢) ، ويحيى بن برمك ، ثم ابنه : جعفر بن يحيى (١٤٢ - ١٩٧ هـ) وأخوه الفضل ، والحسن ابن سهل^(٣) ، وأخوه الفضل^(٤) ، وأحمد بن يوسف^(٥) ٢١٢ م ، وهـ مرو

(١) راجع بلاغة بني العباس في البيان والتبيين للجاحظ (٣ : ٢٦٦ - ٢٨٧ ط الحانجي) .

(٢) راجع : ٥٥ : ١ البيان ، ٢٨٢ : ٢ زهر ، ٢٦٠ : ٣ زهر الآداب أيضاً .

(٣) يشيد به الجاحظ (١ : ٨٤) البيان ، وله كلمة يعرف بها أنواع الآداب

١٩٥ : ١ زهر .

(٤) تهنأه يحيى البرمكي وضمه إلى المأمون (٧٤ المسكافاة) وأشاد الحمري

ببلاغته (١٦ - ١٩ : ٢ زهر) .

(٥) له ترجمة في الأوراق قسم أخبار الشعراء (٢٠٦ - ٢٣٦) وكافعال =

ابن مسعدة ٢١٧ هـ ، والعتابي م ٢٢٠ هـ (١) ، ومحمد بن يزيد وزير المأمون (٢) .

وفي القرن الثالث الهجري بلغ النثر الفنى منزلة سامقة ، وامتاز بسهولة العبارة وانتقاء الألفاظ وجودة الأسلوب ، كما امتاز بجودة المعاني واختراعاتهم ودقة الأخيلة وابتداعهم ، وظهور آثار الثقافات الحديثة وخاصة اليونانية فيه بل الاحتفال بها والطمع فيما سواها بما شكاه منه النقاد (٣) ، ومال الكتاب إلى الإطناب حتى قال ابن قتيبة : « ولو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان ، أما بعد فإني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى الخ ، لم يعمل هذا الكلام في أنفسهم عمله في نفس مروان ، ولكن الصواب أن يطبل ويكرر ويعيد ويبتدىء ويحذر وينذر ، (٤) . والإطناب مذهب فارسي حتى في الأساطير وكتابة التاريخ ، يقول ابن الأثير : « والعجم يفضلون العرب في الإطالة فإن شاعرهم يذكر كتابا من أوله إلى آخره شعرا وهو شرح قصص

= الطبقة في البلاغة ولم يكن في زمانه أكتب منه ، وله شعر جيد (١٤٨ ج ٢ زهر) ، وكان ممن نبلوا بالكتابة (١١ ج ٣ العقد) ، وهو أول من افتتح الكتابة في التهانى بالنيروز والمهرجان (٩٥ ج ١ ديوان المعاني) .

(١) راجع ١٧٥ فهرست ابن النديم ، ٣٥٢ معجم الشعراء .

(٢) راجع ٤٢٤ معجم الشعراء .

(٣) ص ٢ أدب الكتاب لابن قتيبة بهامش المثل السائر ، ٢ و ٣ و رسائل الجاحظ حيث يقول الجاحظ : « والناس من الكتاب إذا وطئ مقعد الرياسة يكون أول بدوه الطعن على القرآن في تأليفه وألا يرتضى من الكتب إلا المنطق الخ ، ومثل ذلك يقول ابن قتيبة ، وهذا ينفي رأى ابن الأثير من أن الكتاب والشعراء لم يتأثروا بثقافة اليونان (٢٠ المثل السائر) .

(٤) راجع مقدمة أدب الكتاب

وأحوال كما فعل الفردوسى فى نظم الشاهنامه وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس ، وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها (١) ، ولم يحفل الكتاب فى أوائل العصر العباسى الثانى بالبديع ، والتأنيق الكثير فى الأسلوب ، ويعيب البديع الجاحظ بأن كلامه بعيد الإشارات قريب العبارات قليل الاستعارات ليس له لفظة مصنوعة الخ ، (٢) ، كما عابه الباقلانى بقرب كلامه وكثرة الاقتباس فيه (٣) .

وكان حامل لواء الطريقة الجديدة إمام البيان الجاحظ ، واقتدى به كتاب عصره ، كالصولى وابن الزيات والحسن وسليمان ابن وهب وسعيد ابن حميد وأحمد بن إسرائيل والحسن بن مخلد وابن المدبر وسواهم من الكتاب الذين نشأوا فى هذا العصر وجمعوا بين الأدب والنقد والبلاغة العربية والدخيلة وقرأوا كتب الفرس واليونان والهند وظهر أثر ذلك فى تفكيرهم وإنتاجهم وآثارهم الأدبية المتعددة الألوان .

وقد تأثر بأسلوب الجاحظ الأدباء الذين آلت إليهم الزمام الأدبية بعده ، كابن المدبر والحسن بن وهب وابن المعتز الخليفة العباسى الشاعر الأديب المشهور . وآخر من تأثر بالجاحظ هو التوحيدى (المتوفى عام ٥٤٠٠ هـ : ١٠٠٩ م) ، وقد ذاع فى النثر فى هذا العهد ألوان كثيرة : كأدب التهمك والسخرية ، والرسائل الإخوانية ، والرسالة الأدبية ، والتوقيع ،

(١) ٤ ج ٢ المثل السائر ، وقد وجدت رسائل مطولة وكثيرة فى هذا العصر كرسالة الخنيس (١٠٧ - ١١١ ج ١٢ - ابن طيفور مخطوط) .
(٢) ٨٢ مقامات البديع - المقامة الجاحظية ، ٢٠٩ ج ٢ زهر .
(٣) راجع ١٩٤ إعجاز القرآن .

والمقامة ، والأدب الوصفي ، وأدب الطبيعة ، وأدب القصة ؛ وسوى ذلك من فنون النثر الأدبي في هذا العصر الزاهر المتعدد الثقافات .

وقد ألفت في هذا العصر كتب أدبية جامعة : كالبيان والتبيين ، والحيوان للجماحظ ، وأدب الكاتب ؛ وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والكامل للبرد . وكذلك وضعت أصول النقد والموازنة والبيان على أيدي الجماحظ وابن سلام وابن قتيبة وابن المعتز وقدامة بن جعفر وسوام . . ولا عجب إذا قلنا إن النثر الأدبي قد بلغ ذاية نهضته وهنقوان قوته في هذا العصر الحافل .

ولسوف سنتحدث بالتفصيل عن كل لون من ألوان انثر في هذا العصر ، مبينين العوامل التي أثرت فيه ، والظواهر التي جدت عليه .

(١) الخطابة في العصر العباسي الأول

صور من الخطابة :

١ - خطب أبو العباس بالشام بعد مقتل مروان بن محمد فقال :

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، وأحلوا قومهم دار البوار ، جهنم يصلونها وبئس القرار ، فكص بكم ي أهل الشام آل حرب وآل مروان ، يتسكعون بكم في الظلم ، ويتهورون بكم في مداحض الزلق ، يطأون به حرم الله وحرم رسوله . ماذا يقول زعماءكم غداً ؟ يقولون : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار » : إذا يقول الله عز وجل : « لكل ضعف ولكن لا تعلمون » .

أما أمير المؤمنين فقد امتدح بكم التوبة ، واغفر لكم الزلة ، وبسط لكم الإقالة ، وعاد بفضله على نقصكم ، وبجلبه على جهلكم . فليفرخ روعكم^(١) ولتطمئن بكم داركم ، ولتعظمكم فصارع أولئكم ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلوا .

٢ - وخطب سليمان بن علي عم أبي العباس ، فقال :

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين » ، قضاء مبرم ، وقول فصل ، وما هو بالهزل . الحمد لله الذي صدق عبده ، وأنجز وعده ، وبعداً للقوم الظالمين ، الذين اتخذوا الكعبة غرضاً^(٢) ، والقيء إرثاً ، والدين هزواً ، وجعلوا القرآن

(١) يقال أفرخ روعه : أى خلا قلبه من الهم وعلى هذا يكون معنى أفرخ خلا ، ومعنى الروع القلب ، أما قولهم : أفرخ روعه بفتح الراء فالروع هنا الخوف .
(٢) إشارة إلى ما نال الكعبة من بني أمية من هدم وتدمير في فتنه الزبير .

عضين^(١)، ولقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، فكأين ترى من بشر معطلة وقصر مشيد^(٢) ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد ، أمهلوا والله حتى نبدوا الكتاب ، واضطهدوا العترة ، ونبدوا السنة ، واعتدوا واستكبروا ، وخاب كل جبار عنيد ، ثم أخذهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً .

٣ - وخطب أبو جعفر المنصور بالمدائن عند قتل أبي مسلم الخراساني فقال :

« أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تسروا غش الأئمة : فإنه لم يسر أحد قط منكراً إلا ظهرت في آثار يده ، وفلتات لسانه ، وصفحات وجهه ، وأبداه الله لإمامه بإعزاز دينه ، وإعلاء حقه .

إنا لن نبخسكم حقوقكم ، ولن نبخس الدين حقه عليكم ، إنه من نازعنا عروة هذا القميص ، أجزرناه خبيء هذا الغمد ، وإن أبامسلم بايعنا وبايع الناس لنا ، على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه ، ثم نكس بنا فحكمتنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق له ، من إقامة الحق عليه .

٤ - ومن خطبة للمنصور :

يا عباد الله لا تظالموا ، فإنها مظلة يوم القيامة ، والله لو لا يد خاطئة ،

(١) العضة. الفرقة ، وجمعها عضون ، والعضة بالهاء الكذب وجمعه عضون أيضا . فعنى جعلوا للقرآن عضين ، جعلوه أجزاء ، فقال بعضهم إنه شعر ، وقال آخرون هو سحر ، وقال غيرهم كهانة . وقيل جعلوه كذبا .

(٢) المشيد : المطلى بالشيد وهو الجص ، والمشيد كسكرم ، المطول

وظلم ظالم ، لمشييت بين أظهركم في أسواقكم ، ولو علمت مكان من هو أحق بهذا الأمر منى لأنيته حتى أدفعه إليه (١) .

٥ - ومن خطبة للسفاح في الكوفة حين بويع بالخلافة :

يا أهل الكوفة ، أنتم محل محبتنا ؛ ومنزل مودتنا ، أتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، ولم يذنبكم تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ، وأنا كم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا (٢) .

٦ - خطبة للمأمون :

خطب المأمون وقد سلم الناس عليه بالخلافة حين بلغه بخراسان قتل أخيه ، إذ أقبل الناس للتسليم عليه بالخلافة ، فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال :

أيها الناس إني جعلت لله نفسي ، إن استرعاني أموركم أن أطيعه فيكم ، ولا أسفك دما عمدا إلا تحمله حدوده ، وتسفك فرائضه ، ولا آخذ لأحد مالا ولا أثانا ولا نحلة (٣) تحرم على ، ولا أحكم بهواي في غضبي ولا رضاي ، إلا ما كان في الله وله ، جعلت كله لله عهدا مؤكدا ، وميثاقا مشددا .

إني أفي رغبة في زيادته إياي في نعمتي ، ورهبة من مسألته إياي عن حقه وخلقه ، فإن غيرت أو بدلت كنت للغير (٤) مستأهلا ، وللنكال (٥) ،

(١) ٣ : ٢٣ جمهرة خطب العرب

(٢) ٢ : ٢١٣ شرح ابن أبي الحديد

(٣) نحلة أعطاه والاسم النحلة

(٤) الغير : الأحداث

(٥) النكال : العقاب

معرضاً وأعوذ بالله من سخطه وأرغب إليه في المعونة على طاعته ، وأن يحول بيني وبين معصيته^(١) .

وهذه الخطبة في مناسبة معروفة وموقف رهيب ، إذ خطب بها المأمون الناس لما بلغه قتل أخيه الخليفة ، وقد أقبل الناس عليه يبأيعونه بالخلافة ، وفيها يعلن المأمون سياسته نحو رعيته ، وهي أنه سوف يلتزم ما ألزمه الله به في معاملة الشعب ، ويعلن احترامه للدماء والأموال ، وأنه لن يحكم بهواه في رضا ولا غضب ، وأنه يلتزم نفسه العمل بما ألزمه به الله عز وجل ، ويرني بعهد مع الله رغبة في زيادة نعمته ، ودفعاً لحسابه ومسأله . . ويؤكد المأمون العهد وأنه لن يغير أو يبدل شيئاً منه وإلا كان للخطوب وللعقاب مستحقاً ، ثم يتعوذ بسخط الله وبرغب إليه في المعونة على طاعته ، وأن يباعد بينه وبين معصيته . . وأسلوب الرسالة فيه إيجاز شديد ، وتشتمل على حكم عالية ، مع البلاغة النادرة والروعة الفاتقة ، مما يدل على علو منزلة المأمون في البلاغة ، وثبات قدمه في الفصاحة .

ه - خطبة داود بن علي على منبر الكوفة :

كان داود بن علي بن عبد الله بن عباس خطيب بني العباس وأحد مؤسسي دولتهم ، نشأ هو وإخوته - وكانوا اثنين وعشرين رجلاً - في قرية الحميمة من أعمال عمان^(٢) ، وكان الوليد بن عبد الملك أجلى علي بن عبد الله بن عباس وأهل بيته إليها غضباً عليه ؛ وخوفاً من ثوبه إلى الملك والخلافة .

وأخذ هو وإخوته عليهم وأديهم عن أبيهم على حبر قریش وابن حبرها

(١) ١١٩ و ١٢٠ الجزء الثالث من جمهرة خطب العرب لأحمد صفوت

ط ١٩٣٣

(٢) بلدة على خط سكة الحديد الحجازية وهي الآن مقر إمارة شرق الأردن

وبليغها ووارث علم أبيه عبد الله بن عباس وعابد أهل زمانه ، كما أخذوا الفصاحة من البدو النازلين فيهم من قبائل لخم وجذام وتوخ ورضان وقيس فانطبعت فيهم صفات البسود من الشجاعة والبصر بالقتال وإباء الضيم والاستقلال وفصاحة اللسان والبطش وحب الانتقام ، وجانبهم صفات الحضرة من الانغماس في الترف والملاذات والعكوف على الملاهي .

وكان دأود أحد النابغين من إخوته في هذه الصفات ويؤيد عليهم أنه كان بليغهم ولسانهم وأخطبهم في وقته . وعاجلته منيته قبل أن يستطير سلطانه في الدولة . ولأه أبو العباس - عقب بيعته بالكوفة - ولاية الكوفة وسوادها ، ثم ولاية إمارة الحاج في هذه السنة ، وولاه معها ولاية الحجاز واليمن واليمامة ، فقتل من ظفر بهم من بني أمية في مكة والمدينة في هذا العام ١٣٢ هـ - وهو أول موسم مأسكة بنو العباس ، وخطبهم الخطبة الآتية بعد ، ثم ذهب عقب الموسم إلى المدينة ، فتوفي بها بعد شهرين من قدومه إليها في شهر ربيع الأول سنة ١٣٣ هـ .

ولداود خطبة بليغة خطبها يوم بيعة أبي العباس السفاح على منبر الكوفة ، وهي . والحمد لله ، شكراً شاكراً إنا والله ماخرجنا لتحفر فيكم نهراً ، ولا لنبنى فيكم قصرأ ، أظن عدو الله أن لن نقدر عليه ، أن أرخي له من خطامه حتى عثر في فضل زمامه ؟ فالآن (١) حيث أخذ القوس باريها وعادت القوس إلى النزعة (٢) ، ورجع الملك في نصابه في أهل بيت النبوة والرحمة ، (والله لقد كنا نتوَجع لكم ونحن في فرشنا) ، أمن الأسود والأحر ، لكم ذمة الله ، لكم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكم ذمة لعباس ، لا ورب هذه البنية - وأوما بيده إلى الكعبة - لا نبيج منكم أحداً .

(١) ظرف لأمن الأسود .

(٢) جمع نازع وهو الرأى يشد الوتر إليه ليضع فيه السهم .

وهذه الخطبة الموجزة البليغة الرائعة تتضمن كل ما يمكن أن يقوله خطيب في هذا المقام ، وكل ما كان يجب أن يقوله هذا الشائر العظيم في هذه المناسبة .

وقد اشتملت على حمد الله وشكره على هذا النصر العظيم ، وعلى نفي أن يكون العباسيون قد قاموا بثورتهم لغرض شخصي ، من حب السيطرة أو حب الدنيا ؛ وعلى بيان مثالب الأمويين ومساوئهم في الحكم . كما تضمنت التصريح بعودة الخلافة إلى أهلها وأصحابها من آل النبي الذين خرجوا لينتصروا للشعب الإسلامي الثائر ؛ ثم أمن داود بن علي الناس ، اللهم إلا الأمويين خصوم العباسيين والمطاردين منهم بعد أن دالت الدولة لهم ، وأخذوا منهم مقاليد الخلافة ، وزعامة الإسلام .

وأسلوب الخطبة يمتاز بالجزالة والقوة والبلاغة ، وبالإيجاز ، مع ما فيها أحيانا من سجع مطبوع . ولا شك أن هذه الخطبة تمثل الملكات العربية السليمة في هذا العصر .

٦ - ووصى عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ابنه فقال :
« أي بني ، إني مؤد حق الله في تأديك ، فأد إلى حق الله في الاستماع مني ، أي بني . كف الأذى ، وارفض البذا (١) واستغن عن الكلام بطول الفسك في المواطن التي تدعوك فيها نفسك إلى الكلام ، فإن للقول ساعات يضر فيها الخطأ ، ولا ينفع فيها الصواب . واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشياً ، لأنه يرديك بمشورته ، واعلم يا بني أن رأيك إذا احتججت إليه وجدته نائماً ، ووجدت هواك يقظان ، فإياك أن تستبد برأيك ، فإنه حينئذ هواك ، ولا تفعل فعلاً إلا وأنت على يقين أن عاقبته لا ترديك ، وأن نتيجته لا تجني عليك ، » .

(١) البذاء : السفه والالغاش في المنطق .

٧ - وخطب المأمون خطبة الجمعة فكان بما قال :

« أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله وحده ، والعمل لما عنده والتنجز لوعده ، والخوف لوعيده . فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه وعمل له وأرضاه ، فاتقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقئ بما يزول عنكم ويفنى ، وترحلوا عن الدنيا ، فقد جد بكم (١) ، واستعدوا للموت فقد أظلمكم ، وكونوا كقوم صيح فيهم فاندبوا ، وعلوا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستدلوا . فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثاً ، ولم يترككم سدى ، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به ، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة الواحدة لجذيرة بقصر المدة ، وإن غائباً يحدوه الجديدان الليل والنهار لجذير بسرعة الأوبة ، وإن قادماً يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة » .

٨ - وخطب عبد الله بن طاهر بن الحسين الناس وقد تهباً لقتال الخوارج فقال : « إنكم فئة الله ، المجاهدون عن حقه ، الذابون عن دينه ، الذائدون عن محارمه ، والداعون إلى ما أمر به من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاية أمره ، الذين جعلهم رعاة الدين ، ونظام المسلمين . فاستنجزوا موعود الله ونصره ، بمجاهدة عدوه وأهل معصيته الذين أشروا وتمردوا ، وشقوا العصا (٢) ، وفارقوا الجماعة ، ومرقوا من الدين ، وسعوا في الأرض فساداً ،

(١) الجدل في الأمر : الاجتهاد وضد الهزل ، وقولهم « أجندك لانفعل ، بكسر الجيم استخلاف بالحقيقة ، وبالفتح استخلاف بالبخت ، وإذا قيل « وجدك لانفعل » فتح لاغير .

(٢) أصل العصا الاجتماع والائتلاف وشقوا العصا أى شقوا الاجتماع والائتلاف وفرقوا الجماعة ، وأصل ذلك أن الحاديين يكونان في رفقة فإذا فرقهما الطريق شقت العصا التي معها فأخذ هذا نصفها وهذا نصفها ويضرب لكل فرقة .

فإنه يقول تبارك وتعالى : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، .

فليكن الصبر معقلكم الذى إليه تلجأون ، وعدتكم التى بها تستظهرون ، فإنه الوزر المنيع الذى دلسم الله عليه ، والجنة الحصينة ، التى أمركم الله بلباسها ، غصوا أبصاركم ، واخفتوا أصواتكم فى مصافكم ، وامضوا قدما على بصائرهم فارغين إلى ذكر الله والاستعانة به كما أمركم الله ، فإنه يقول : « إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، أيدكم الله بعز الصبر ، ووليكم بالحياطة والنصر ، .

٩ - حوار بين المأمون وإبراهيم بن المهدي :

لما ظفر المأمون بعنه إبراهيم بن المهدي (١) أمر بإدخاله عليه ، فجىء به يحجل فى قيوده ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال له المأمون : لاسلم الله عليك ولا حفظك ولا رعاك ولا كلاك يا إبراهيم ، فقال له إبراهيم على رسلك يا أمير المؤمنين ، ولى النار محكم فى القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، ومن مد له الاغترار فى الأمل هجمت به الأناة على التلغى ، وقد أصبح ذنبى فوق كل ذنب ، كما أن عفوك فوق كل عفو ، فإن تعاقب فبحقك ، وإن تعف فبفضلك ، ثم أنشأ يقول :

ذنبى إليك عظيم وأنت أعظم منه
نخذ بحقك أو لا فاصفح بفضلك عنه
إن لم أكن فى فعلى من الكرام فكنه

(١) لما عقد المأمون ولاية العهد لعلى الرضا العلوى أنكر العباسيون عليه ذلك وخلعوه من الخلافة وبايعوا بها عمه إبراهيم بن المهدي فأسرع إليه المأمون فمهرب وتوارى ولكن المأمون ظفر به .

فأطرق المأمون ملياً ثم رفع رأسه فقال : إني شاررت أبا إسحق والعباس في قتلك فأشارا على به ، قال : فما قلت لها يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت لها : بدأنا له يا أحسان ونحن نستأمره فيه ؛ فإن غير فآله يغير ما به ، فقال : أما أن يكونا قد نصحك في عظم قدر الملك وما جرت عليه عادة السياسة فقد فعلا ، ولكن أريد أن تستجلب النصر لإلّا من حيث عودك الله . ثم استعبر باكباً ، فقال له المأمون : ما يبكيك ، قال : جذلا ، إذ كان ذنبي إلى من هذه صفته في الإلّعام ، ثم قال يا أمير المؤمنين إنه وإن كان جرمي يبلغ سفك دمي فإلّ أمير المؤمنين وتفعله يبلغاني عفوه ، ولي بعدهما شفاعاة الإفرار بالذنب ، وحرمة الأب بعد الأب ، قال المأمون : القدرة تذهب الحفيظة ، والندم توبة ، وعتفو الله بينهما وهو أكبر ما يحاول ، يا إبراهيم لقد حببت إلى العفو حتى خفت ألا أوجر عليه ، أما لو علم الناس مالنا في العفو من اللذة لتقربوا إلينا بالجنايات ، لا تريب عليك يغفر الله لك ، ولو لم يكن في حق نسبك ما يبلغ الصفح عن زلتك لبلغك ما أملت حسن توصلك ، ولطيف تصلك ، ثم أمر برد ماله وضياعه .

١٠ - دخل معن بن زائدة الشيباني على المنصور وقد أسن فقارب في خطوه فقال له المنصور : لقد كبرت سنك يا معن . قال : في طاعتك يا أمير المؤمنين ، قال : وإنك لجلد . قال على أعدائك يا أمير المؤمنين ، قال : وإن فيك لبقية ، قال هي لك يا أمير المؤمنين ، قال فأى الدولتين أحب إليك ؟ هذه أم دولة بني أمية ؟ قال : ذلك إليك يا أمير المؤمنين إن زاد برك على برهم كانت دولتك أحب إلى .

١١ - ومن أقوال الوعاظ ما يروى أن ابن السماك دخل على الرشيد ، فقال له الرشيد : عظمي . قال : يا أمير المؤمنين ، اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك غداً واقف بين يدي الله ربك ، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لها : جنة أر نار ، فبكي الرشيد حتى اخضلت لحيته ، فأقبل الفضل بن الربيع

على ابن السماك فقال: سبحان الله ا وهل يتخالج أحد شك في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله ، فأقبل ابن السماك على الرشيد ، وقال : إن هذا ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم ، فاتق الله وانظر لنفسك ، فبكى الرشيد حتى أشفق عليه الحاضرون .

تطور الخطابة في هذا العصر

أسباب رقيها :

كان قيام خلافة بني العباس انقلاباً خطيراً هز المشاعر ؛ وأثار الخواطر وأهاج النفوس ، وقلب الأوضاع ، ودفع إلى كثرة الجدل والمناظرة ، واستدعى تأليف الجماعات ، وقيام الكثير من الدعوات ، وحض الناس على التشيع لبني هاشم ، وإعلان السخط والإنكار على بني أمية ، وسياستهم الجائرة ، وما اقترفوه من سيئات ، وارتكبه من منكرات .

ولاشك أن حدثاً جليلاً مثل هذا الحدث ، لا بد أن يستعان فيه بالخطابة على جذب القلوب ، وكسب الأنصار ، وتحسيس المتشيعين ، وتأجيج نار البغض على الدولة الغابرة ، ودفع الجنود بالبلاغة الباهرة إلى خوض المعارك القاهرة الظاهرة .

وكان من شأن بني العباس أن يقيموا الدعاة ، ويبثوا الخطباء في كل مكان يملئون بالحجة الساطعة حقهم في خلافة المسلمين ، وإمامة الناس بعد سيد المرسلين

كما كان من شأنهم أن يعنوا عناية بالغة بالمواسم الدينية ، والأعياد الإسلامية فهم يخرجون في مواكب رائعة وجوع حاشدة ، ويسرون بين الصفوف المرصوفة ، حتى يصلوا إلى المسجد ، ثم يدخلون في خشوع ووقار

وأبهة وجلال ، وعظمة وبهاء ، ويؤمنون الناس ويخطبونهم ، ويلقون عليهم بليغ العظات ، ورائع الآيات ، حرصا منهم على الظهور بمظهر الإمامة الدينية ، والزعامة الروحية ، وإعزاز الدين ، والغيرة على الإسلام ، لأن هذا المظهر هو الذى تأسس به ملكهم وقامت عليه دولتهم .

لذلك كان للخطابة في عهد نفوذ الخلفاء العباسيين مكانة مرموقة ، ومنزلة كريمة ، وشأن عظيم .

وزاد من نهضتها ورقبها في مطالع هذا العصر ما كان عليه مؤسسو الدولة من أصالة الطبع ، وسلامة الملكة وفصاحة الألسنة ، لأن خطر الهى واللكنة والضعف لم يكن قد ظهر بعد في مظهره الشديد .

وقد آزر الملكات ما كانوا يأخذون به أنفسهم ، من تعليم الناشئين الخطابة وفنون القول ؛ يروى (١) أن بشر بن المعتمر مر بإبراهيم بن جبلة ابن مخزومة الخطيب ، وهو يعلم الفتيان الخطابة ، فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة ، فقال بشر : « اضربوا عما قال صفحا ، واطووا عنه كشحا . ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتمييقه وكان أول ذلك الكلام :

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ، فان قليل تلك الساعة أكرم جوهرأ ، وأشرف حسبا ، وأحسن فى الأسماع ، وأحلى فى الصدور وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة ، من لفظ شريف ومعنى بديع ؛ وإياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريما فليتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف ، اللفظ الشريف ، ومن حقم ما أن تصونهما

(١) ١٢٦ : ١ البيان والتبيين للجاحظ - الطبعة الثانية - نشر التجارية .

شما يفسدهما ويهجنهما ، وعمما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتبس إظمـارهما وترتهن نفسك بملايستهما وقضاء حقهما.. الخ .

وكان كذلك كثير من الخطباء والبلغاء يعيشون في البادية ، حيث الفصاحة واللسن والبيان وقوة الحججة وشدة العارضة ، وقد كثر وفودهم على الخلفاء للاستمناح والشكوى والاستعطاف وغير ذلك .

فلا عجب إذن أن تهض الخطابة وتزدهر ، ويعلو شأنها ، وترتفع منزلتها ، ويكثر الخطباء المقوهون .

ولقد كان الرشيد أول من جعل الخطيب يخطب بكلام محفوظ ، فقد استدعى الأصمعي لتأديب ولده ، وقال له : أريد أن يصلى بالناس في يوم جمعة ، فاختر له خطبة ، وحفظه إياه ، وحفظه عشرا ، فخرج وصلى بالناس ، فأعجب به الرشيد (١) .

ثم وكل الخلفاء والأمراء والولاة الخطابة في الناس ، إلى خطباء مختارين ، وعهدوا بذلك إليهم ، ماعدا الممتدى بالله (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ) ، فقد كان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ، فيخطب الناس ، ويؤمهم (٢) ؛ وفي عام ٢٧٩ هـ صلى المعتضد بالناس صلاة الأضحى ، ولم يسمع منه خطبة (٣) ، وأصبح الخليفة لا يخطب إلا في الأعياد (٤) ؛ ولما عزم المطيع لله

(١) ٢٠ و ٢١ : ٢ الفرج بعد الشدة .

(٢) ٨ : ٢ المسعودى .

(٣) ٩٧ : ٢ تاريخ أبي الحسن .

(٤) كان الخلفاء الفاطميون يخطبون في كل جمعة من مسطور يحضر إلى الخليفة من ديوان الإنشاء (٢٧٧ و ٢٨١ : ٢ الخطاط للمقرئى) ، وكان الحاكم يخطب في جامع عمرو جمعة رضى جامع ابن طولون جمعة وفى الأزهر جمعة ويستريح جمعة ، فلما بنى الجامع الحاكمى اتقلت الخطبة إليه (١٣٨ : ١ حسن المحاضرة) .

(٢٣٤ - ٣٦٢ هـ) على الصلاة بالناس في عيد الفطر لم يعرف ما يقوله إذا انتهى في الخطبة إلى الدعاء لنفسه ، فأرسل في ليلة العيد إلى أحد العلماء بذلك ، فاختر له دعاء (١) ، وخطب الطائع بعده في عيد الأضحى (٣٦٣ هـ) خطبة قصيرة (٢) . وفي البصرة كان الخطيب يخطب كل صباح (٣) .

وفي آخر العصر العباسي الأول ضعفت الخطابة بزوال أسبابها ، وأعجمية رجال الدولة ، ولأن الدولة قد توطدت دعائمها ، وحكمت بالاستبداد ، وبطلت الخطابة في الجيوش ، وضعفت الملكات ، كذلك صار في الكتابة وقد تنوعت أساليبها وأغراضها غنى عن الخطابة ، فضعف شأنها ، ولم يبق لها إلا مظهرها الديني ، حيث كان الخلفاء يخرجون للصلاة الجامعة ، ويخطبون الناس ، وآخر خليفة خطب على المنبر هو الراضي (٣١٢ - ٣٢٩ هـ) (٤) .

أنواع الخطابة :

والخطابة في هذا العصر تنوع إلى خطابة سياسية ، وخطابة اجتماعية ، وخطابة دينية ، وخطابة أدبية .

ومن السياسية خطب زعماء البيت العباسي ، ومن الخطب الاجتماعية ما كان يلقي في مختلف المناسبات القومية والاجتماعية ، ومن الخطابة الدينية خطب الوعظ والقصص وخلافهما . ومن الخطابة الأدبية الخطابة في مختلف المقامات الأدبية التي كانت تحدث في هذا العصر ، والتي أدت إلى نشأة فن المقامات .

(١) ٣٤٩ : ٢ معجم الأدبا ، لياقوت .

(٢) ١٠٦ ب المنتظم - مخطوط .

(٣) ١٠٣ : ٢ الحضارة الإسلامية ترجمة أبو رييدة .

(٤) راجع ٢١٢ الأدب العربي للزيات ، ٥٤ وما بعدها الأدب العباسي لمحمود

مصطفى ، ١٠٤ وما بعدها العصر العباسي للسباعي ييومي .

دراعيها وموضوعاتها:

وقد تعددت دراعى الخطابة فى عصر نفوذ الخلفاء وتنوعت مظاهرها ، وكثرت ألوانها .

١ — فقد كانت الحاجة ماسة إليها فى تثبيت الملك ، ودعم الدولة ، وتوطيد أركان الخلافة ، وإقناع الناس بأحقية بنى العباس لها ، أو فى مجادلة الخصوم ، وتهديد المعارضين ، والتشجيع على نبي أمية ، بما قارفوا من أخطاء ، واجترحوها من مساوىء ، وفى إثارة النفوس ، وكسب القلوب ، وتحسيس الجنود ، والتبشير بفتح ، والتهنئة بنهر ونحو ذلك .

٢ — كما اتخذوها أداة للوعظ ، وتذكير الناس بالآخرة ، وتحذيرهم من غرور الدنيا ومتاعها ، وذلك فى المحافل العامة ، والمواسم الجامعة ، والأعياد الدينية . وجعلها القصاص فى قصصهم وسيلة إلى إثارة المشاعر وإمتاع النفوس بذكر سير الأولين وتاريخ الماضين ومن أشهر القصاص موسى ابن سيار الإسوارى ، وأبو على الإسوارى ، وكان يقص فى فنون كثيرة ويستشهد بالقرآن الكريم فى قصصه ، وكان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب ويحتج به ، ثم قص بعده أبو العباس الضرير ولم يدرك فى القصص مثله ؛ وصالح المري ، وكان صحيح الكلام ، رقيق الجاس ، وقال فيه سفيان بن حبيب حين رأى بياناً لم يحتسبه وذهباً لم يكن يدانيه . « هذا ليس قاصاً ، هذا نذير ، » .

٣ — كما كانت لسان الوفود الذين يفسدون على دار الخلافة ، تأييداً لسياسة ؛ أو إظهاراً لمحبة ، أو طلباً للحاجة أو شكاية من مظلمة .

٤ — وبما يقرب من الخطابة فى روعة أسلوبها ، وشدة تأثيرها ، وسمو بيانها ، الحوار الذى كان يدور بين البلغاء والفصحاء ، من خاصة القوم ، ورجال الدولة . . . وقد مرت ألوان من هذا الحوار .

خصائصها :

امتازت الخطابة في هذا العصر بجمال أسلوبها ، ونغامة ألفاظها ،
وبعدها عن الحوشية والغرابة ، وعن الابتذال والإسفاف .

كما تمتاز بقوة تأثيرها ، وروعة تصويرها ، لاصطبغها بصبغة الدين
وتأثرها بأسلوب القرآن الكريم واهتمامها على الكثير من آياته والاعتباس
من عظائمه والاستشهاد بكلام الرسول . ويكثر فيها أسلوب الحجاج ،
ومعاني الوعد والوعيد والتسفيه والتهديد ، والامتنان بالنعمة ، والشكر
على كريم الهمة ، وجيليل المودة .

على أن الحضارة التي غرقوا فيها قد أكسبتها غزارة في المعاني ووفرة
في المادة وروعة في الأساليب ، ودماثة في الألفاظ ، مما ضاعف تأثيرها وزاد
في بهائها ورونقها .

أشهر الخطباء :

وقد نبغ في هذا العصر أعلام من الخطباء المصانق وفحول من البلغاء
المقاول ، ممن نشأوا نشأة عربية قوية ؛ وورثوا ملكات البلاغة والخطابة
من أصولهم العربية ، أو اكتسبوها بالتأدب والتعلم والدرس والحفظ .

وكان للخلفاء الأولين ودعاتهم فيها الشأن الرفيع ، والشأو البعيد ، من
أمثال بني العباس وبني هاشم ، وبني عبدالمطلب ، وعظماء القواد من العرب ،
وقابضى الناشئين من الفرس ، والأدباء من أهل الرواية للشعر والأخبار
والقصص والأسفار واللغة والأدب والنقد .. ومن ولاية الدولة وخصومها ،
من خوارج وعلويين وشعويين .

وكان الخلفاء يخطبون الناس ويؤمنونهم في الصلاة ، واستمر ذلك بعد

هذا العصر إلى الراضى المتوفى عام ٣٢٩ هـ ، والذي كان آخر خليفة عباسى
خطب على المنبر . ويصف البجترى فى رائية بليغة له خروج المتوكل
لصلاة عيد الفطر وإمامته للناس ؛ وخطبته فيهم ، فيقول فيما يقول :
أيدت من فصل الخطاب بحكمة تنبى عن الحق المنير وتخبى
ووقفت فى برد النبي مذكراً . بالله تنذر تارة وتبشر

ومن خطباء هذا العصر من الخلفاء : السفاح والمنصور والمهدى
والرشيد والأمين والمأمون ،

ومن الأمراء : دارد بن على المتوفى عام ١٣٣ هـ ، وأخواه عبد الله
وصالح وأبناؤه عبد الملك وإسماعيل وعبد الله ؛ ومنهم : سليمان بن على ،
وابنه جعفر وبنوه : سليمان وداود وأيوب .. ممن يصفهم الجاحظ فى كتابه
« البيان والتبيين » ، فيقول : « وجماعة من ولد العباس فى عصر واحد لم يكن
لهم نظراء فى أصالة الرأى ، وفى الكمال والجلالة ، وفى العلم بقريش والدولة ،
وبرجال الدعوة ، مع البيان العجيب ، والغور البعيد ؛ والنفوس الشريفة ،
والأقدار الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء ، وفوق أصحاب الأخبار ، وكانوا
يجلون عن هذه الأسماء ، إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك ، (١) .

ويقول الجاحظ فى داود بن على : « كان أنطق الناس ، وأجودهم ارتجالاً
واقضاباً للقول ، ويقال لأنه لم يتقدم فى تحبير خطبة قط ، وله كلام كثير
معروف محفوظ ، (٢) .

ومن خطباء العلويين الهاشميين : جعفر الصادق ، وعبد الله بن الحسن
وأبناؤه : محمد وإبراهيم وموسى .

ومن خطباء بنى طالب : عبد الله بن معاوية .

(١) البيان والتبيين الأول ص ٢٦٥

(٢) ٢٦٣ : ١ البيان والتبيين .

ومن الوزراء : الفضل بن سهل وأخوه الحسن ذوالرياستين وزير المأمون وعصره ، وجمفر البرمكي .

ومن الخطباء : سهل بن هارون خازن بيت الحكمة للمأمون^(١) ، وطاهر ابن الحسين ، وعبد الله بن طاهر - ومنهم : العتابي الذي يقول فيه الجاحظ : « ومن الخطباء الشعراء ، ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن : كلثوم بن عمر والعتابي ، ومنهم : خالد بن صفوان ، وشيب بن شيبه المتوفى عام ١٧٠ هـ الذي يقول فيه الراجز :

إذا غدت سعد على شيبها على فتاها وعلى خطيبها
من مطلع الشمس إلى مغيبها عجت من كثرتها وطيبها

وغيرهم من فنون الخطابة والبلاغة ، وأئمة البيان والقصاحة .

وقد ظهرت في العصر العباسي الأول طبقة من القصاصين الذين كانوا يعتمدون على الخطابة في قصصهم ، وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين أسماء طائفة كبيرة منهم ؛ كما ظهرت طبقات كثيرة من الوعاظ في هذا العصر ، ومن بينهم : أبو زكريا الرازي (٢٥٨ هـ)^(٢) ، وهلي^(٣) بن محمد المصري (المتوفى ٣٢٨ هـ)^(٤) .

وكان كثير من الصوفية من الخطباء البارعين ، والبُلغاء المفلحين . .

(١) كلام الجاحظ عليه في البيان والتبيين ٥٩ : ١ .

(٢) زبدة الفكر ١٩ ب - مخطوط . (٣) ١٨١ المنتظم - مخطوط .

(٤) ظهر في العصر العباسي الثاني من الوعاظ : ميمونة البغدادية ٣١٣ هـ (٩٣ تاريخ أبي الحسن) ، وأبو الحسين بن ميمون ٣٠٠ - ٣٨٧ هـ (٣١٩ : ٢ معجم الأدباء لياقوت) ثم محمد الفيرازي ٤٣٩ هـ (١ : ١١١ تاريخ بغداد) ، ومن الخطباء ظهر في العصر الثاني : ابن نباتة (المتوفى عام ٣٧٤ هـ : ٩٨٤ م) ، وعبد الواحد بن عبد الكريم (٤٩٤ هـ) بنيسابور (٢٨٤ : ٣ طبقات الشافعية للسبكي) .

(٢) الكتابة في هذا العصر

صور للكتابة في هذا العصر :

١ - كتب عبد الله بن المقفع في وصف أحد إخوانه .

وإني مخبرك عن صاحب لي كان أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ماعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه ، كان خارجاً من سلطان بطنه ، فلا يتشبهى بالابجد ولا يكثر إذا وجد ، وكان خارجاً من سلطان فرجه ؛ فلا يدعو إليه ريبة ، ولا يستخف له رأياً ولا بدناً ، وكان لا يأسر عند نعمة . ولا يستكين عند مصيبة ، وكان خارجاً من سلطان لسانه ، فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يمارى فيما علم ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة ، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة ، وكان أكثر دهره صامتاً ، فإذا نطق بذقائن ، وكان يرى ضعيفاً مستضعفاً ، فإذا جد الجدد فهو الليث عادياً ، وكان لا يدخل في دعوة ولا يشارك في مرأه . ولا يدلي بحجة حتى يرى قاضياً فهماً ، وشهوداً عدولاً ، وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره ، وكان لا يشكو وجمعه إلا إلى من يرجو عنده البره ؛ ولا يستشير صاحباً إلا من يرجو عنده النصيحة ، وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يتشكى ولا يتشبهى . وكان لا ينقم على الولي ، ولا يغفل عن العدو ، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وجيلته وقوته .

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتما - ولن تطيق - ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

٢ - وكتب يحيى بن خالد البرمكي وهو في الحبس (١) إلى هرون الرشيد:

(١) كان البرامكة قد استأثروا بشئون الدولة وأموالها ، وغلبوا الرشيد على سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في مملكة ولم يبق له من الخلافة إلا رسمها =

لأمير المؤمنين ، وخليفة المهديين ، وإمام المسلمين ؛ وخليفة رب العالمين من عبد أسلمته (١) ذنوبه ، وأوبقته (٢) عيوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه صديقه ، ومال به الزمان ، ونزل به الحدثنان ، فخل في الضيق بعد السمعة ، وعالج البؤس بعد الدعة ، وافترش السخط بعد الرضا ، واكتحل السهاد بعد المهجود . ساعته شهر ، وليلته دهر ، ، فقد عاين الموت ، وشارف القوت ، جوعاً لموجدتك يا أمير المؤمنين ، وأسفاً على ما فات من قربك ، لا على شيء من المواهب ، لأن الأهل والمال إنما كانا لك وبك ، وكانا في يدي عارية والعارية مردودة .

أما ما أصبت به من ولدي فبذنبه ، ولا أخشى عليك الخطأ في أمره ، ولا أن تكون تجاوزت به فوق حده .

فتذكر يا أمير المؤمنين كبر سني ، وضعف قوتي ، وارحم شيبتي ، وهب لي رضاك ، بالعفو عن ذنب إن كان ، فن مثل الزلل ومن ممالك الإقالة ، وإنما أعتذر إليك بإقرار ما يجب به الإقرار حتى ترضى عني ، فإذا رضيت رجوت إن شاء الله أن يتبين لك من أمرى وبراءة ساحتي ما لا يتعاطمك بعده ذنب أن تغفره ، مد الله لي في عمرك وجعل يومى قبل يومك .

فلم يكن له جواب من الرشيد .

٣ - ومن رسالة لسهل بن هارون وجه بها إلى محمد بن سباعة القاضي :

== وصورتها ، فهزم على نكبتهم . حتى اتهمز فرصة رجوعه معهم من الحج سنة ١٨٧ هـ فقتل جعفر بن يحيى ليلاً في طريقه . وقبض على سائر البرامكة ومجنهم . (١) أسلمته : خذاته ، فأسقطته من علياء مرتبته . أو أسلمته إلى السجن والعذاب .

(٢) أوبقته : أهلكته .

إني احتجت لبعض أمورى إلى رجل جامع لخصال الخير ، ذى عفة
ونزاهة طعنة ، قد هذبت الآداب ، وأحكمت التجارب ، ليس بظنين فى
رأيه ، ولا بمظنون فى حسبه ، إن أوْثِن على الأسرار قام بها ، وإن قلد
مهما من الأمور أجزأ فيه ، له سن مع أدب ، ولسان تقعه الرزانة ويسكته
العلم ، تكفيه اللحظة وترشده السكينة ، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها ،
وقام فى أمورهم فحمد فيها ، له أناة الوزراء ، وصوله الأمراء ، وتواضع
العلماء ، وفهم الفقهاء ، وجواب الحكماء ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان
غده ، يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه ، وحسن بيانه . وقد آثرتك
بطلبه ، ثقة بفضل اختيارك ، ومعرفة بحسن تأتيك (١) .

وهذه الرسالة تشبه رسالة ابن المقفع السابقة فى وصف أحد إخوانه .

٤ - رسالة عمرو بن مسعدة :

كتب إلى المأمون وقد تأخرت أرزاق الجند :

كتابى إلى أمير المؤمنين ومن قبلى من قواده وسائر أجناده فى الانقياد
والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت
لذلك أحوالهم (٢) .

وكان عمرو بن مسعدة من بلغاء الكتاب فى العصر العباسى الأول ،
وكان كاتب التوقيعات بين يدى جعفر البرمكى وزير الرشيد ، وتوفى عام
٢١٧ هـ ، وكان كاتباً بليغاً جزل العبارة وجيزها (٣) .

(١) ٢٤٩ : الأمل .

(٢) ٢٣٤ أدب الكتاب الصولى .

(٣) ٨١ : ٦ معجم الأدباء ، ١ : ٥٥٥ ابن خلكان ، ٥ : ٥٠٢ الوافى
بالوفيات - قسم ثالث مخطوط بدار الكتب المصرية ، ومجلة الجمع العلمى =

وكانت بلاغة عمرو بن مسعدة مضرب الأمثال ، ولما وقف أحمد بن يوسف على هذه الرسالة الموجهة البليغة الرائعة أعجب ببلاغتها ، وقال :
لله در عمرو ما أبلغه ، ألا ترى إلى إدماجه المسألة في الإخبار ، وإهفائه
سلطانه من الإكثار .

ومضمون الرسالة شكوى وطلب إلى الخليفة المأمون بإرسال مرتبات
الجند المتأخرة ، ولخواها إخبار بحالتهم مع طي الطلب والشكوى . .
وهذا من غير شك مما جعل لها أهمية في نظر بلغاء العصر العباسي ، ويضم
إلى ذلك إيجازها الشديد البليغ الذي جملة أحمد بن يوسف من أسباب
بلاغة الرسالة .

وفي رأي أن هذه الرسالة لا تستحق هذا الاهتمام وذلك التقدير ،
لأنها لا تثير فينا إحساسا . ولا تجعل الذوق يلتفت إليها ، وليس فيها في رأي
قارئها الخاص ، بله العادي ، جديد ، وجملة « اختلت أحوالهم ، أشبه بالذم منه
بالمدح ، ولو قال بعد المقدمة : « على أحسن ما تكون عليه جند يذبون عن
الخلافة ، ويتمرضون فوق ذلك لآلام الجوع والنصب ، ويقاسون الحرمان
من تأخر وصول أرزاقهم ، واختلال أحوالهم من أجل ذلك ، لكان
أروع وأبلغ من كلام ابن مسعدة السقيم ، مع اتحاد المضمونين ، وتوافق
الأسلوبين في أغلب التراكيب .

= العربي بدمشق من بحث الأستاذ محمد كرد علي ، ٣ : ٥٩ عصر المأمون ،
والحياة الأدبية في العصر العباسي .

فصل للجاحظ في الحسد (١)

الحسد - أبقاك الله - داء ينمك الجسد ، ويفسد الأود . علاجه عسر ،
وصاحبه ضجر ، وهو باب غامض ، وأمر متعذر ، وما ظهر منه فلا يداوى ،
وما بطن منه فداويه في عناء ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « دب
إليك داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء » . وقال بعض الناس لجلسائه :
« أى الناس أقل غفلة » فقال بعضهم : « صاحب ليل ، إنما هم أن يصبح » .
فقال : « إنه لكذا ، وليس كذلك » فقالوا له : « فأخبرنا بأقل الناس
غفلة » فقال : « الحاسد ، إنما هم أن ينزع الله منك النعمة التي أعطاكها ،
فلا يغفل أبداً » . ويروى عن الحسن أنه قال : « الحسد أسرع في الدين
من النار في الحطب اليابس . وما أتى المحسود من حاسده إلا من قبل فضل
الله عنده ونعمته عليه » . قال عز وجل : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم
الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً » .

والحسد عقيد الكفر ، وحليف الباطل ، وضد الحق ، وحرب البيان ،
فقد ذم الله أهل الكتاب به فقال : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم
من بعد إيمانكم كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم » .

فنه تتولد العداوة ، وهو سبب كل قطيمة ، ومنتج كل وحشة ،
ومفرق كل جماعة ، وقاطع كل رحم من الأقرباء ، ومحدث التفرق بين
القرناء ، وملقح الشر بين الخلفاء ، يكمن في الصدر كمن النار في الحجر .

ولو لم يدخل على الحاسد - بعد تراكم الغموم على قلبه ، واستئمان
الحزن في جوفه ، وكثرة مضضه ، روسواس ضميره ، وتنخص عمره ؛ وكدر
نفسه ، ونكد عيشه - إلا استصغاره نعمة الله عنده ، ويخطه على سيده

(١) من رسالة الجاحظ في الحاسد والمحسود .

بما أفاد غيره ، وتمنيه عليه أن يرجع في هيبته إياه ، وألا يرزق أحداً سواه - لكان عند ذرى العقول مرحوما ، وكان لديهم في القياس مظلوما . وقد قال بعض الأعراب : « ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد : نفس دائم ، وقلب هائم ، وحزن لازم . والحاسد مخذول وموزور ، والمحسود محبوب ومقصود . والحاسد مغموم ومهجور ، والمحسود مغشى ومزور .

والحسد - رحمك الله - أول خطيئة ظهرت في السموات وأول معصية حدثت في الأرض . خص به أفضل الملائكة فعصى ربه ، وقايسه في خلقه ، واستكبر عليه فقال : « خلقتني من نار وخلقته من طين » . فلعنه وجعله إبليساً ، وأنزله من جواره بعد أن كان أنيساً ، وشوه خلقه تشويهاً ، وموه على قلبه تمويهاً ، نسي به عزم ربه فواقع الخطيئة ، فارتدع المحسود فتاب عليه وهدى ، ومضى اللعين الحاسد في حسده فشق وغوى . وأما في الأرض فابننا آدم حسداً أحدهما أخاه فعصى ربه وأثكل أباه . وبالحسد طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين ، فقد حمله الحسد إلى غاية القسوة ، وبلغ به أقصى حدود العقوق ، إذا ألقى الحجر عليه شادخا فأصبح عليه نادماً صارخاً .

ومن شأن الحاسد - إذا كان المحسود غنياً - أن يوبخه على المال ، فيقول : « جمعه حراماً ، ومنعه أيتاماً ، وألب عليه محابيح أقاربه ، فتركهم له خصماً ، وأعانهم في الباطن ، وحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر ، فقال : « لقد كفروا معروفك ، وأظهروا في الناس ذمك . ليس أمثالهم يوصلون ، فإنهم لا يشكرون ، وإن وجد له خصماً أعانه عليه ظلاً . وإن كان ممن يعاشره فاستشاره غشه : أو تفضل عليه بمعروف كفره ، أو دعاه إلى نصره خذله ، أو حضر مدحه ذمه ، وإن سئل عنه همزه ، وإن كان عنده شهادة كتبتها ، وإن كانت منه إليه زلة عظمتها ، وقال إنه يجب أن يعاد ولا يعود ، ويرى عليه القعود .

وإن كان المحسود عالماً قال: «مبتدع لرأيه لا متبع، حاطب ليل، ومبتغى نيل، لا يدري ما حمل، قد ترك العمل، فأقبل على الخيل. وإن كان المحسود ذا دين قال: متصنع يغزو لبوصى إليه، ويبيع ليثى عليه، ويصوم لتقبل شهادته، ويظهر النساك ليودع المال بيته، ويقرأ في المسجد ليزوجه جاره ابنته، ويحضر الجنائز لتعرف شهرته. وما لقيت حاسداً قط إلا تبين مكشونه بتغير لونه، وتخويص عينه، وإخفاء سلامه، والإقبال على غيرك، والإعراض عنك، والاستئثار لحديثك، والخلاف لرأيك.

وكان عبد الله بن أبي قبل نفاقه نسج وحده، لجودة رأيه، وبعد همته ونبل شيمته، وانقياد العشيرة له بالسيادة، وإذعانهم له بالرياسة، وما استوجب ذلك إلا بعد ما استجمع له لبه، وتبين لهم عقله، وفقد بينهم جهله، ورأوه لذلك أهلاً لما أطاق له حملاً.

فلما بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم، وقدم المدينة، ورأى «عبد الله» عز رسول الله، شميخاً بأنفه، فهدم إسلامه لحسده، وأظهر نفاقه. وما صار منافقاً حتى صار حسوداً، ولا صار حسوداً حتى صار حقوداً، فحرق بعد اللب، وجعل بعد العقل، وتبوأ النار بعد الجنة. ولقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فشكاه إلى الأنصار، فقالوا: «يا رسول الله لا تله، فإننا كنا قد عقدنا له الخرز قبل قدومك لتتوجه».

ولو سلم للبخدول قلبه من الحسد لكان من الإسلام بمكان، ومن السؤدد في ارتفاع، فوضعه الله لحسده، وأظهر نفاقه. ولذلك قال القائل:

| | |
|-----------------------|----------------------|
| طال على الحاسد أحزانه | فاصفر من كثرة أحزانه |
| دعه فقد أشعل في جوفه | ماهاج فيه حر نيرانه |
| العيب أشهى عنده لذة | من لذة المال لحزانه |
| فارم على غاربه حبله | تسلم من كثرة بهتانه |

ورسالة الجاحظ « الحاسد والمحسود ، التي ينصح فيها القارىء باتخاذ الحيلة والتوقى من سهام الحسد والحاسدين ، من أهم رسائله ، وأبلغ ما كتب من نثر فنى .

وأسلوبه هنا هو أسلوب الجاحظ الذى تظهر فيه شخصيته ظمورا تاما ، حتى لترى فيه رقة الالفاظ وسجاجة العبارة وجمال الأسلوب والزهة فى الصور العبائية ، وهو يتردد بين السجع والازدواج مع ميل إلى الإطناب والترادف ، وتعاور العبارات على الفكرة الواحدة .

والرسالة تمثل النثر الفنى فى عصر الجاحظ ، أصدق تمثيل ، فى بلاغته وجماله وتمشيه مع الحضارة العقلية والفكرية والأدبية التى سادت الأدب والثقافة آنذاك .

وفى هذا الفصل من رسالة « الحاسد والمحسود ، يبين ضرر الحسد ، وينفر منه ، ويظهر خفاياه ، ويكشف نفسية صاحبه كسفا ، ويبدو من أسلوب الجاحظ هنا أنه أشبه بالعالم النفسى الذى يفصح عن طوايا النفوس ومشاعرها وأحاسيسها إفصاحا شديدا .

ولا شك أن الجاحظ قد سبق بهذا التحليل النفسى فى أسلوبه الكتاب والبلغاء والأدباء ، وأثرى بذلك الأدب ولغة العرب إثراء شديدا .

وقد ولد الجاحظ بالبصرة ١٦٠ هـ وكانت فى عنفوان الثورة العلمية والأدبية ، فأخذ عن علمائها ، وأدبائها ، كالأصمعى والأخفش والنظام المعتزلى الذى تخرج عليه فيما بعد ، وكانت له مدرسة وتلاميذ صارت لهم وله من الشهرة وذبوع الصيت ما كاد ينسى الناس النظام على قوة جدله ، وشدة عارضته ، وخطابة منطقته وسحر بيانه ، وكثرة جمعه للمسائل ، وإحاطته بالعلوم ، وليس يشك أحد أن الجاحظ كان نادرة من نوادر التاريخ ، وثروة ضخمة فى اللغة والأدب ، ولأسلوبه فى الكتابة مميزات جعلته صاحب طريقة عرف بها ، ونسبت إليه ، منها :

أولاً: الإطناب الذي لا تحس فيه مللاً ، ولا تشعر منه بسأم ، ولا تود معه أن ينقطع بك حبل الحديث ، لأنه يمزج جده بهزله ، ويستطرد إلى الملح والبنوادر والطرف ، استجلاباً للنشاط ، وإيقاظاً للتفكير ، مستعينا بالترادف ، والاستقصاء للمعاني ، والإيقاظ للموضوع .

ثانياً : الاهتمام باختيار الألفاظ ، وتنسيق الجمل ، وترابط الأسلوب : واعتماده على المنطق القوي ، والفكر السليم .

ثالثاً: تقطيع الجمل إلى فقرات ، والتزام السجع حين يريد اقتياد العواطف وامتلاك زمام الوجدان .

وقد ظهرت هذه الخصائص والميزات في أسلوبه في هذا الفصل ظهوراً واضحاً ليس فيه خفاء .

والجاذب صاحب باع طويل في صناعة الكلام وأسلوب الكتابة ، كاد ينفذ به إلى القلوب ، ويخترق الأفئدة ، ويناجي العواطف ويمتلك المشاعر ، ويصل بقلبه المصقول ، وبيانه القوي ، إلى خلجات النفوس ، وخفايا الضمائر ، وله من ذهنه المتوقد ، وعقله الكبير ، ما جعل لمنطقه من التأثير ، وما لحجته من الرهبة ، ما ساعده على الوصول إلى هدفه حين يرمى ، ولغاياته حين يقصد ، لا يستعصى عليه شامس ، ولا يتأبى عليه صعب .

٦ - وكتب أحمد بن يوسف يهنيء بمولود :

«أما بعد : فليس من أمر يجعل الله لك فيه سروراً إلا كنت به بهجاً ، أعتد فيه بالنعمة من الله الذي أوجب علي من حفاك ، وعرفني من جميل رأيك . فزادك الله خيراً ، وأدام إحسانه إليك . وقد بلغني أن الله وهب لك غلاماً سريراً ، أجمل صورته ، وأتم خلقه ، وأحسن فيه البلاء عندك ، فاشتد سروري بذلك ، وأكثرت حمد الله عليه ، فبارك الله فيه ، وجعله باراً تقياً ، يشد عضدك ويكثر عددك ويفر عينك ، .

وكتب في الذم :

« أما بعد ، فلا أعلم للمعروف طريقاً أحزن ، ولا أوعر ، من طريقه إليك . ولا مستودعاً أقل زكاء ولا أبعث ثمرة خير ، من مكانه عندك ، لأنه يحصل منك في حسب ذنى : ولسان بذى ، ونسب قصى ، وجهل قد مالك طباعك ، فالمعروف لديك ضائع ، والشكر عندك مهجور ، وإنما غايتك في المعروف أن تحرزه ، وفي وليه أن تكفر به . »

٧ - وكتب محمد بن عبد الملك الزيات عن لسان الخليفة إلى أحد العمال :

« أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين (كذا) فأنكره ، ولا تخلو من إحدى منزلتين ، ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة ، ولا يزيل لائمة ، إما تقصير في عمالك دعائك للإخلال بالحزم ، والتفريط في الواجب ، وإما مظاهره لأهل الفساد ، ومداعمة لأهل الريب ، وأية هاتين كانت منك ، محلة النكر بك ، وموجب العقوبة عليك ، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنظرة ، والأخذ بالحجة ، والتقدم في الإعذار والإنذار . وعلى حسب ما أنلت من عظيم العشرة . يجب اجتهادك في تلافى التقصير والإضاعة ، والسلام . »

٨ - وكتب الجاحظ إلى ابن الزيات يستعطفه وقد تنكر له وتلون عليه :

« أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ؛ وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ؛ ورجح في قلبك إيثار الأناة ، فقد خفت - أيدك الله - أن أكون عندك من المنسوبين إلى نزع السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء : وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وأن امرأ أوسى وأصبح سالماً من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقال الآخر :

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

فإن كنت اجترأت عليك - أصلحك الله - فلم اجترىء إلا لأن دوام تغافلك عنى شبيه بالإهمال الذى يورث الإغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من المسكأناه . ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عمر كان خيراً لى منك أرهبنى فاتقانى ، وأعطانى فأغثنانى . فإن كنت لاتهب عقابى - أيدك الله - لخدمة ، فهبه لأيدىك عندى ، فإن النعمة تشفع فى النعمة ، وإلا تفعل ذلك لذلك فعد إلى حسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحذوثة ، وإلا فأت ما أنت أهله من العقودون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة ، فسبحان من جعلك تغفوعن المتعمد ، وتتجافى عن عقاب المصر ، حتى إذ اصرت إلى من هفوته ذكر وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف بالشكر إلا لك والإناعم إلا منك ، هجمت عليه بالعقوبة . واعلم - أيدك الله - أن شين غضبك على كوين صفحك عنى ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سببى منك كحياة ذكرى مع اتصال سببى بك .. واعلم أن لك فطنة علم ، وغفلة كريم .. والسلام .

٩ - وكتب عبد الله بن المدينى إلى بعض إخوانه يصف سر من رأى ، ويذكر خرابها :

كتبت إليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها ، وأقعد جدرانها ، فشاهد اليأس فيها ينطق . وحبل الرجاء فيها يقهر ، فكأن عمرانها يطوى ، وكان خرابها ينشر . وقد وكلت إلى المهجر نواحيها ، واستحثت باقيا إلى فانيها . وقد تمزقت بأهلها الديار ، فما يجب فيها حق جوار ، فالظاعن منها محو الأثر ، والمقيم بها على طرف سنن ، نهاره إرجاف ، وسروره أحلام . ليس له زاد في رحل ، ولا مرعى في رتع . فخالها تصف للعيون الشكوى ، وتشير إلى ذم الدنيا ، بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الأرض ، وقرار الملك ، تفيض بالجود اقطارها ، عليهم أردية السيوف ، وغلائل الحديد ، كأن رماحهم قرون الوهول ، ودروعهم زبد السيول . على خيل تأكل الأرض بجوافرها ، وتمد بالنقع سائرها ، قد نشرت فى وجوهها غررا كأنها

صحائف البرق ، وامسكها تحجيل كاسورة اللجين ، في جيش يتلقف الأعداء
أوائله ، ولم ينهض أو اخره ، وقد صب عليه وقار الصبر ، وهبت له روائح
النصر ، يصرفه ملك يمالأ العين جمالا ، والقلوب جلالات . لا تخلف مخيلته ، ولا
تنقض مريرته ، ولا يخطيء بسهم الرأى غرض الصواب ، ولا يقطع بمطايا
اللمو سفر الشباب ، قابضاً بيد السيامسة على قطار ملك لا ينتشر حبله ، ولا
يتشظى عصاه ، ولا تطفي جمرته ، في سن الشباب لم يحن مأثماً ، وشيب ولم
يراهق هرمأ . قد فرش مهاد عدله ، وخفض جناح رحمته ، راجها بالعواقب
الظنون ، ساعياً على الحق يعمل به ، عارفاً بالله يقصد إليه ، مقرأً للحلم ويبدله ،
قادراً على العقاب ويعدل فيه ، إذ الناس في دهر غافل ، قد اطمانت بهم
سيرة لينة الحواشي ، خشنة المرام ، تطير بها أجنحة السرور ، ويهب فيها
نسيم الجبور ، فالأطراف على مسرة ، والنظر إلى مبرة ، قبل أن تحب مطايا
الخير ، وتستقر وجوه الخذر . وما زال الدهر مليا بالنوائب ، طارقاً
بالعجائب ، يؤمن يومه ، ويغدر غده .

على أنها - وإن جفت - معشوقة السكنى ، وحبيبة المثوى ، كوكبها
يقظان ، وجوها عريان ، وحصاها جوهر ، ونسيمها معطر ، وتراها مسك
أذفر ، ويومها غداة ، وليلها سحر ، وطعامها هنيء ، وشرابها مرى ، وللبقاع
دول ، والدهر يسير بالمقيم ، ويمزج البؤس بالنعيم ، وبعد اللجاجة انتهاء .
والهم إلى فرجة ، ولشكل سائلة قرار ، وبالله أستعين وهو المحمود على
كل حال :

غدت سر من را في العفاء فيالها قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل
وأصبح أهلوها شديهاً بجالها لما نسجتها من جنوب وشمال
إذا ما مرو منهم شكاً سوء حاله يقولون : لانهلك أسى وتجمل

١٠ - ولأحمد بن يوسف إلى المأمون :

داعى نذاك يا أمير المؤمنين ، ومنادى جدواك ، جمعا الوفود ببابك ،

يرجون نائلك المعهود ، فمنهم من يمت بحرمة ، ومنهم من يدلى بخدمة ، وقد أجهف بهم المقام ، وطالت عليهم الأيام ، فان رأى أمير المؤمنين أن ينعمهم بسببه ، ويحقق حسن ظنهم بطوله ، فعل إن شاء الله تعالى (١) .

١١ - ولابن قتيبة يقدم كتابه (عيون الأخبار) :

وهذه عيون الأخبار ، نظمتها لمغزل التأدب تبصرة ، ولأهل العلم تذكرة ، ولسائس الناس ومسوسهم مؤدبا ، وللملوك مستراحا من كد الجد والتعب ، وصنفتها أبوابا ، وقرنت الباب بشكله ، والخبر يمثله ، والسكلمة بأختها ، ليسهل على المتعلم علمها ، وعلى الدارس حفظها ، وهى لقاح عقول العلماء ، ونتاج أفكار الحكماء ، وحلية الأدب ، والمتخير من كلام البلغاء ، وفطن الشعراء ، وسير الملوك ، وآثار السلف .

١٢ - ومن رسائل أبى اسحق الصولى على لسان المتوكل لأهل حمص الخارجين عليه ؛ وهى من الرسائل التى أغنت عن الجيوش :

أما بعد ؛ فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه مما قوم به من أود وعدل به من زيغ ولم به من منشر ، استعمال ثلاث يقدم بعضهم على بعض : أولاهن ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف ، ثم ما يستظهر به من تحذير ونحويف ، ثم التى لا يقع بحسم الداء غيرها :

أناة ، فإن لم تغن عقب بعدها وعيدا ؛ فإن لم تغن أغنت عزائمه وكتب إلى ابن الزيات يستعطفه :

« كتبت وقد بلغت المدينة المحز ، وعدت الأيام بك على بعد عدوى بك عليها ، وكان أسوأ الظن وأكثر خوفاً أن تسكن فى وقت حركتها ، وتكف عند أذاتها . فصرت أضر على منها ، فكف الصديق عن نصرنى خوفاً منك ، وبادر إلى العدو تقرباً إليك ، .

(١) ١٦٩ : ٥ معجم الأدباء لياقوت - طبع القاهرة .

١٣ - وقال أبو يوسف في كتاب الخراج ، الذى كتبه للرشد :

وأنا أرى أن تبعث قوما من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته ؛ يسألون عن سيرة العمال وما عملوا به فى البلاد ، وكيف جبا الخراج على ما أمروا به ، وعلى ما وظف على أهل الخراج واستقر ، فإذا ثبت ذلك عندك وصح . أخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الأخذ حتى يؤدوه بعد العقوبة الموجبة والنكال ، حتى لا يتعدوا ما أمروا به ، وما عهد إليهم فيه ، فإن كل ما عمل به والى الخراج من الظلم والعسف فإنما يحمل على أنه قد أمر به ، وقد أمر غيره ، وإن أحلت بواحد منهم العقوبة الموجبة انتهى غيره واتق وخاف ، وإن لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج واجتروا على ظلمهم وتعسفهم وأخذهم بما لم يجب عليهم . وإذا صح عندك من العامل والوالى تعد بظلم وعسف ، وخيانة لك فى رعيته ، واحتجان شئ من الفئ ، أو خبث طعمته أو سوء سيرته ، فحرام عليك استعماله والاستعانة به ، وأن تقلده شيئاً من أمور رعيته ، أو تشركه فى شئ من أمرك بل عاقبه على ذلك عقوبة تردع غيره من أن يتعرض لمثل ما تعرض له ، وإياك ودعوة المظلوم فإن دعوته مجابة .

حالة الكتابة فى هذا العصر

يراد بالكتابة هنا هذا الفن البليغ من النثر الذى أداته القلم وعماده التجويد والتهديب ، واصطناع الصور الأدبية الرائعة التى تحدث فى النفس ارتياحاً وإعجاباً ، وتبعث فيها نشوة وهزة ، وهو ما نسميه الكتابة الإنشائية أو الفنية أو الأدبية ، التى يتأتق فيها الكتاب ، ويعنى بها الأدباء ، ويدرسها النقاد والعلماء ، ويحفظها ويتأدب بها الشداة فى الأدب ، لأنها مظهر من مظاهر البلاغة والبيان ، وفيها متعة للنفس ؛ وغذاء للروح .

أنواع الكتابة وموضوعاتها :

وللكتابة الفنية في هذا العصر ألوان عدة :

١ - فنها الرسائل الإخوانية التي يكتبها الأصدقاء بعضهم إلى بعض في تهنئة أو تعزية أو شكر أو شفاقة أو عتاب ، وما إلى ذلك ، وهي أوسع ميداناً وأكثر افتتاناً ، وأعذب بياناً ، وأعلى منزلة ، وأسمى قدراً ، وأقرب إلى الإبانة عن فكرة الكاتب وعاطفته ، وأخلاق الناس ومنازعهم .

٢ - ومنها الرسائل الأدبية المطولة التي يكتبها البلغاء ، يسجلون فيها خواطرهم ويدونون آراءهم فيما يعين لهم من شئون الاجتماع أو الفكر أو الأدب ، أو يعملون على تأييد مذهب وتفضيل فريق على فريق ، أو يكتبونها في الترويح عن النفس أو الفكاهة والسخرية ، ونحو ذلك ؛ مما يتجلى في السير والاسمار والخرافات والأخبار والقصص ، كرسائل الخنيس التي كان يكتبها البلغاء في هذا العصر ، لتقرأ في خراسان تأييداً للدعوة والدولة والخلافة ، وكرسائل ابن المقفع ، وكرسائب الجاحظ ورسائله مثل البخلاء والزريع والتدوير والحاسد والمحسود ومناقب الترك .

فضلا عن اصطناع الكتابة في فنون أخرى عديدة : كالوصف والمناظرة ونحو ذلك من الموضوعات التي كانت وقفاً على الشعر .

٣ - ومن ألوان هذه الكتابة الرسائل الديوانية أو الرسمية ، التي تصدر من ديوان الرسائل نوعيه (الخاتم والتوقيع) ، في شأن من شئون الدولة ؛ وكانت الكتابة في هذا الديوان بخلافها في الدراوين الأخرى الكثيرة ، إذ كانت تعتمد على التأنق في الأسلوب والجمال في العبارة والبراعة في إظهار المعنى بصورة واضحة مقبولة .

ونحن نعلم أن المدنية ازدهرت في عصر نفوذ الخلفاء ازدهاراً بالغاً ، وأعمال الدولة اتسعت اتساعاً ظاهراً ، بسبب مخالطة الأعاجم للعرب ،

ونفذ الفرس في الدولة ، وسعة سلطان الخلافة في المشرق والمغرب ؛ فأنشأ الخلفاء العباسيون الكثير من الدواوين التي تقوم بانجاز الأعمال المتعددة ، وخصوصاً كل ديوان منها يعمل من الأعمال ، وأشرف على تنظيم هذه الدواوين الوزراء الفارسيون وأتباعهم من نقلوا النظام الكسروي في الإدارة وطبقوه في دولة الخلافة . . ومن الدواوين التي كانت موجودة : ديوان الخراج والنفقات ، وديوان الاظالم والشرطة ، وديوان الضياع والإقطاعات ، وديوان الخواص وديوان الجيش ، وديوان المعادن ، وديوان المشرق ، وديوان المغرب . وديوان الحسبة ، وديوان القضاء .

وكان الوزير الذي يقبل منصب الوزارة تسند إليه إدارة تلك الدواوين كلها ، ماعدا ديوان الجيش ، فكان يشرف عليه كبار القواد في جيش الخلافة وقد يتصرف فيه الخليفة بنفسه أو بواسطة حاشيته . فإذا كان الوزير أثيراً لدى الخليفة ، موثقاً به الثقة كلها ، وشهر بحسن التدبير ، وصواب الرأي ، ألقى إليه الخليفة مقاليد جميع الأمور . ووكّل إليه إدارة جميع الدواوين ، فيصبح المشرف على جميع أعمال الدولة ، والمتصرف في شئون الحرب ، كالفضل بن سهل ، الذي وكل إليه المأمون ذلك كله ، ثقة به ، بعد أن انتصر جيش الخلافة بقيادة طاهر بن الحسين على عيسى بن ماهان بتدبير الفضل وحسن سياسته ؛ ولقبه الخليفة « ذا الرياستين » وكان له علم على سنان ذي شعبتين ، وكتب على سيفه من ناحية رياسة التدبير ، ومن الأخرى رياسة الحرب . . ولخطر منصب الوزير وجلاله اشترط فيمن يتقلده أن يكون عالماً أديباً بليغاً أريباً مصيباً داهية محنكا ، قد أدبته التجارب وعلمته الأيام ، يروى أن المأمون كتب في اختيار وزير : « إني التمسّت لأموري رجلاً جامعاً لخصال الخير ، ذا عفة في خلانقه ، واستقامة في طرائقه ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، إن أوتيتني على الأسرار قام بها ، وإن قلد مهمات الأمور نهض فيها ؛ يسكته الحلم ، وينطقه العلم ، وتكفيه الحفظة ، وتغنيه

اللمحة ، له صولة الأمراء ، وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء وفهم الفقهاء ؛ إن أحسن إليه صبر ، وإن ابتلى بالإساءة صبر ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يسترق قلوب الرجال بخلاصة لسانه وحسن بيانه (١) .

والذين تسنموا هذا المنصب الخطير (٢) كانوا من صفوة الناس وأعلام أدبا وخلقا وكفاية ودراية وذكاء وفهماً : كأبي سلمة الخلال وزير السفاح ، وأبي أيوب المورياني وزير المنصور ، ويعقوب بن داود وزير المهدي ، ويحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد ، والفضل بن سهل وزير المأمون وأخيه الحسن بن سهل وأحمد بن يوسف وسوالم ، ممن كانوا درة في جبين الدهر ، وغرة في وجه الخلافة ، وشجعوا العلوم والآداب ، وأيدوا حركة الترجمة ورعوها . وكان لكل وزير كاتب أو أكثر . يعينه على أعماله ، ولولاية الأقاليم كذلك كتاب ، فابن المقفع مثلاً كان يكتب لوالى كرمان داود ابن عمر بن هبيرة . وكان أكثر هؤلاء الوزراء والسكرتاب ممن نبتوا من أصول فارسية ، وكان الوزير قلما يختار لمنصبه إلا إذا كان من أفذاذ السكرتاب .

(١) ٢١ الأحكام السلطانية .

(٢) قال ابن خلكان : اختلف أرباب اللغة في اشتقاق كلمة الوزارة على قولين : أحدهما : أنها من الوزر وهو الحمل فكأن الوزير قد حمل عن السلطان الثقل ، وهذا قول ابن قتيبة ، والثاني أنها من الوزر بفتح الواو والزاي وهو الجبل الذي يعتصم به لينجى به من الهلاك ، وكذلك الوزير معناه الذي يعتمد عليه الخليفة والسلطان ويلتجى . إلى رأيه ، وهو قول أبي إسحاق الزجاج ، ٢٢٩ : ١ وفيات الأعيان .

وينذهب بعض المستشرقين إلى أن الكلمة ايمست عربية بل هي مأخوذة من اللغة الفهلوية من كلمة « فيشير » ومعناها الأمر أو التقرير . ولم يكن لقب الوزير موجوداً في الدولة لمن يتولى مثل هذا المنصب قبل الخلافة العباسية ، وكان يسمى قبل ذلك كاتباً ومشيراً .

وقد ألفت في أدب الكتاب والوزراء كتب كثيرة ، منها : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وأدب الكتاب للصولي ، وكتاب الكتاب لابن درستويه ، وكتاب الوزراء والكتاب للجهمياري ، وكتاب الأحكام السلطانية وسواها ، وألف القلعة شندی المصري أخيراً كتابه الضخم «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» وحول ثقافة الكتاب وشخصيته يقول أبان ابن عبد الحميد اللاحق من قصيدة رفعها إلى الفضل بن يحيى بن خالد مستهيناً عطفه وفضله ، راجياً أن يكون في حاشيته ، وقائماً بخدمته (١) :

| | |
|---------------------------|---------------------------|
| أنا من بغية الأمير وكبر | من كنوز الأمير ذو أرباح |
| كاتب حاسب خطيب أديب | ناصر رائد علي النصاح |
| شاعر مفلح أخف من الريد | شدة إما تكون تحت الجناح |
| لي في النحو فطنة واتقاد | أنا فيه قلادة بوشاح |
| ثم أروى من ابن سيرين لله | سلم بقول منور الإفصاح |
| وظريف الحديث في كل فن | وبصير بترهات الملاح |
| أيمن الناس طائراً يوم صيد | لغدو دعيت أو لروح |
| لست بالناسك المشمر ثوبه | ولا الماغن الخليلع الوقاح |

وهكذا اتسعت الدراوين باتساع الأعمال . وتنوعت بتنوع مطالب الدولة ، بيد أن الكتابة - فيما عدا ديوان الرسائل - كانت لا تتجاوز ضبط الجباية وحساب الإيراد والنفقات والمرتببات ومحاسبة الولاية وتصريف الأمور ، مما لا يخرج عن التسجيل في الدفاتر ، والتعداد والإحصاء ، وليس

(١) يروي أن أبانا لما رفع هذه القصيدة إلى الفضل دعاها فلما دخل عليه أتاه بكتاب فرمى به إليه وقال له : أجب عنه ، فأجاب أبان بما في نفسه وأحسن . فأمر له بألف ألف درهم ، وكان يرى أول داخل عليه وآخر خارج من عنده ، فحسده أبو نواس فهجاه فأقصاه الفضل عنه .

في ذلك كله مجال لبراعة أو بيان وإفصاح ، ولا يهتم الباحث الأدبي بالحديث عنه ، إلا من حيث الثقافة العامة الواجب الإحاطة بها وفهمها .

فأما الكتابة في ديوان الرسائل فهي التي تلقى العناية والاهتمام من كل جانب ، لأن رسائل الدولة ذات البال إنما كانت تصدر عن هذا الديوان ، وترد إليه ، ولذلك تولاه نخول البيان ، وأعلام البلاغة ، وحناق الأدب ، المحيطنون بثقافة الثقافات ، فكان ما يصدر عن هذا الديوان مثلاً أعلى في الفصاحة والجمال وتمثيل العواطف والمشاعر ، مع عمق الفكرة وجلال التصوير .

وقد كانت طبقات الأدباء في صدر الدولة العباسية متعددة ، ومن بينها: طبقة السكتاب ، الذين لم ير الجاحظ قوماً قط أمثل طريقة في البلاغة منهم ، والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً (١) ، ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم (٢) وحكم مذهبهم في نقد (٣) البيان ، وكان جلهم من عناصر أجنبية ، من الفرس والروم والسريان والقبط ، من الذين فهموا لغاتهم وبلاغتها ثم قرأوا البيان والبلاغة العربية وآدابها وأخذوا يحدثون في اللغة العربية مذاهب جديدة في الكتابة والأدب والبيان ويدعون إلى آراء خطيرة تمس الذوق الأدبي وترضى اتجاهات الحضارة والترف العقلي والاجتماعي الذي داخل البيئة العربية منذ بدء القرن الثاني ، كما أخذوا يلقتون مذاهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم والمشايخين لهم من شدة الأدب كما ترى في محاضرة بشر بن المعتز المعتزلي م سنة ٢٠٥ هـ في أصول البلاغة التي يقول الجاحظ عنها : إن بشراً مر بإبراهيم بن جبلة ابن مخزومة وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلاً من النظارة فقال بشر : أضربوا عما قال صفحاً

واطووا عنه كشحا ، ثم دفع إليهم صحيفة من تعبيره وتميجه في أصول
البلاغة وعناصر البيان (١) ، ومن رجالات هذه الطبقة أبو العلاء سالم مولى
هشام بن عبد الملك وعبد الحميد الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ (٢) ؛
وعبد الله بن المقفع وسهل بن هارون والحسن بن سهل والفضل بن سهل
ويحيى بن خالد وجعفر بن يحيى وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف وعبد
ابن عبد الملك الزيات وعمرو بن مسعدة وسواهم من كتاب الدولة سعدوا
بفهمهم وبلاغتهم إلى أرقى المناصب في الخلافة الإسلامية .

هذه هي الكتابة الفنية التي عرفت في هذا العصر .

أما الكتابة العلمية ، التي هي كتابة التأليف والتدوين ، والتي تحفل
بالاصطلاحات ، ويراعى فيها دقة الفكر ، وترتيب المقدمات لتؤدي إلى
النتائج ، وضبط العبارة ، وتحكيم المنطق ، والتي تعتمد أكثر ما تعتمد على
الحقائق ، لا على التهويل والانطلاق مع الخيال والانسحاق وراء العاطفة .

نقول : أما هذه الكتابة فلم يكن لها كبير خطر في هذا العصر ، لأن
العلوم كانت لا تزال موضوعاتها مختلطة ، وكانت حينذاك في بداية التدوين .
حاشا كتب الأدب التي كتبت بلغة شبيهة بلغة الرسائل الأدبية ، أما الكتب
التي ترجمت في هذا العصر في مختلف العلوم والثقافات ، فإنها لم تأخذ سمت
التألف الذي ظهر بوضوح بعد عصر نفوذ الخلفاء .

نهضة الكتابة في هذا العصر :

بلغت الكتابة الفنية في هذا العصر من الرقي والسمو ما لم تبلغه
في أي عصر من العصور وذلك اعظم واثار الثقافات الأدبية والفكرية ،
ولكثرة محفوظات الأدباء من آداب العرب والآداب المترجمة ، ويرى أن
رجلا سؤال ابن المقفع : ما الذي مكنك من البلاغة ؟ قال : حفظ كلام الأصم

يعنى به الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وكان تشجيع الخلفاء والوزراء والرؤساء للأدب والكتابة باعثاً على النهوض بالكتابة ، داعياً إلى ارتفاع شأنها ، وسمو منزلتها ، ثم كان التنافس القوي بين الأدباء وتسابقهم إلى خدمة الخلفاء والرؤساء حافظاً على تجويدها والتأنق في أساليبها .

ولئن كانت الكتابة في آخر عصر بني أمية ، قد صارت صناعة عتيقة ، لها أصولها ومناهجها ورسومها وقواعدها ، بما زاد فيها سالم مولى هشام ، وتلميذه عبد الحميد ، من تهذيب وصقل وتجويد وجمال تصوير ، فقد نهضت وازدهرت في عصر نفوذ الخلفاء ، وصارت صناعة من أشرف الصناعات وأصبحت سلم الوصول إلى المجد ، والصعود إلى رتبة الوزراء وغيرها من أشرف المراتب وأسمى المناصب ، ونبغ فيها فحول لم يجد الدهر بمنلهم في البلاغة والفصاحة والحذق والبراعة واللفظ والشرف الصناعة ، حتى بذوا فحول الشعر في عظمة الجاه ، وسعة النفوذ والسلطان .

خصائص الكتابة في هذا العصر :

(١) تمتاز الكتابة الفنية في هذا العصر بعدة ميزات ظاهرة في الأسلوب واللفظ والمعنى والخيال . ومن هذه الميزات :

١ - سعة الخيال وطرافته ، وعمق المعاني ودقتها وتنوعها وجدتها وسعتها ، وظهور آثار الثقافات الأصيلة المترجمة فيها ، واستخدام العلم والفلسفة والمنطق في أدلتها والإقناع بها .

٢ - التأنق في الألفاظ وحسن تخييرها والبعد بها عن الحوشية والغرابية .

٣ - أما أسلوبها فقد امتاز بالتجويد والتهذيب ، واستعمال المحسنات البديعية ، والإكثار من ألوانها ، مع وضوح العبارة ، وحسن الإشارة ، وجودة الوصف ، وجمال السبك ، وقوة الأداء ، والتنوع في تخيير الأساليب ،

في جزالة حيناً ، وعذوبة حيناً آخر . وقد عمد الكتاب إلى اختراع المقدمات في أوائل الرسائل المطولة ، وفي بعض المنشورات والعهود ؛ وإلى تنويع عبارات البدء والختام في الرسائل ؛ وكانوا يبالغون في الإيجاز حيناً وفي الإطناب حيناً آخر ، وفق ما تقتضيه الأحوال والمقامات ؛ وكان بعض الكتاب يحرص على الإيجاز ويوصي به ، ولكنه لم يكن السائد في أسلوب كتابة الرسائل في هذا العهد ، ويروي عن جعفر البرمكي أنه كان يقول لكتابه : « إن استطعت أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا ، » .

٤ - وقد اقتبس الكتاب من الكتابة الفارسية أروع مآثرهم منها من تهويل في الخطاب وتعدد الألقاب ، وإفراط في استعمال طرفي الإيجاز والإطناب ، وشدة تلاؤم الخيالات وابتداعها ، وتلاحم المعاني واختراعها ، والمقدمات التي كانوا يفتتحون بها رسائلهم المطولة ، وبعض عهودهم ومنشوراتهم .

(ب) ونلاحظ أن كتاب الرسائل كانوا يكثرون من التهذيب والتفقيح والتجويد ، وتوخي الصحة والسلامة والبلاغة والبراعة ، حذراً من النقد الذي قوى في هذا العصر . وقد كان الكتاب يفرقون بين أسلوب وأسلوب وعبارة وعبارة ، ويضعون الفروق بين التراكيب والصنغ ، ويطالبون سواهم بها ، ويحرصون هم عليها ، ويعيبون على من خالفها ، يروى أن عاملاً للسيدة زينة عليّ بعض ضياعها كتبت إليها رسالة : « وأدام كرامتك ، ، فلما قرأت الكتاب وقعت على ظهره : « أصلح خطاك وإلا صر فذاك عن عمالك ، فأعاد الإمعان في أسلوبه فلم يهتد لخطئه ، فعرضه على صديق له ، فقال : إنما كرهت قولك في صدر الرسالة : « وأدام كرامتك ، لأن كرامة النساء دفنهن ، فغير ذلك الدعاء وأعاد عليها الكتاب فوقعت على ظهره : « أحسنت ولا تعد ، . ومن دقتهم في ملاحظة الفروق بين الأساليب أنهم خصوا « أبقاك الله وأمتع

بك ، بالابن والخادم المنقطع إلى كاتب الرسالة وأشباههما ، ولقد كتب محمد
ابن عبد الملك الزيات إلى عبد الله بن طاهر رسالة ، وردت فيها كلمة « وأمتع
بك » ، فكتب إليك عبد الله :

أحدث عما عهدت من أدبك أم نلت ملكاً قهت في كتبك ؟
أم قد ترى أن في ملاطفة الـ إخوان نقصاً عليك في أدبك ؟
أكان حقاً كتاب ذى مقمة يكون في صدره (وأمتع بك) ؟
أنعت كفيك في مكاتبتى حسبك ماقد لقيت من تعبك
فرد عليه ابن عبد الملك بقوله :

كيف أخون الإخاء يا أملى وكل شيء أنال من سبيك
أنكرت شيئاً فلست فاعله ولن تراه يخط في كتبك
إن يك جهل أتاك من قبلى فعد بفضل على من حسبك
فأعف فدتك النفوس عن رجل يعيش حتى المات في أدبك

وكذلك جعلوا « أطال الله بقاءك » أرجح وزناً من قولهم « أبقاك الله
طويلاً » ، قال ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد : « من الألفاظ المرغوب
عنها ، والصدور المستوحش منها ، في كتب السادات والملوك ، على اتفاق
المعاني ، مثل « أبقاك الله طويلاً » ، وإن كنا نعلم أنه لا فرق بين قولهم « أطال
الله بقاءك » وبين قولهم « أبقاك الله طويلاً » ، ولكن جعلوا هذا أرجح وزناً
وأنبه قدراً في المخاطبة ، كما أنهم جعلوا « أكرمك الله وأبقاك » أحسن منزلاً
في كتب الفضلاء والأدباء من « جعلت فداك » ، على اشتراك معناه ، واحتمال
أن يكون فداه من الخير ، كما يحتمل أن يكون فداه من الشر . على أن
كتاب العسكر قد أولعوا بهذه اللفظة ، حتى استعملوها في جميع محاولاتهم ،
وجعلوها هجيراً في مخاطبة الشريف والوضيع . »

ويروى أن الربيع قال : دخلت على الشافعي وهو مريض فقلت له :
« قوى الله ضعفك ، فقال : لو قوى ضعفى تلتنى ، قلت : والله ما أردت
إلا الخير ، قال : أعلم أنك لو شتمتني ما أردت إلا الخير ، قل : « قوى الله
قوتك وضعف الله ضعفك ، .

وهذه الدقة المأثورة عن الشافعي يؤكدتها ماروى عنه أنه قال :
« أكره أن تقول : « أعظم الله أجرك في المصائب ، ، لأن معناه أكثر الله
مصائبك ليعظم أجرك ، .

طبقات الكتاب :

١ - الكتاب في عصر نفوذ الخلفاء العباسيين طبقات :

أ - الطبقة الأولى: هي التي أدركت الدولتين ، وهي طبقة ابن المقفع ،
ويحيى بن زياد الحارثي ، وعمارة بن حمزة ، وأبي أيوب المورياتي .
من كتبوا للمنصور .

ب - والطبقة الثانية : طبقة أبي عبيد الله معاوية ويعقوب بن داود
وزيري المهدي ؛ ويحيى بن برمك ويوسف بن القاسم من كتبوا للمهدي
والهادي والرشيد .

ج - والطبقة الثالثة: طبقة جعفر بن يحيى ، وأخيه الفضل ، وإسماعيل
ابن صديق ؛ والفضل بن سهل ، والحنين بن سهل ، وأحمد بن يوسف ، وعمرو
ابن مسعدة ، وأحمد بن أبي خالد الأحول - من كتبوا للرشيد والأمين
والمأمون .

د - والطبقة الرابعة : الطبقة التي ربيت في عصر المأمون وجمعت بين
الآداب والبلاغة العربية والدخيلة ، وقرأت كتب اليونان والفرس والهند ،
ولها انتهت البلاغة ، وفتحت أبواب البديع ؛ وبذ أعلامها تحول الشعر

في عظمة الجاه والرياسة ؛ مثل : الجاحظ ومحمد بن عبد الملك الزيات وإبراهيم ابن العباس الصولي ، وسعيد بن حميد . والحسن بن وهب ، وسليمان بن وهب ؛ وسواهم ممن كتبوا للخلفاء بعد المأمون .

٢ - ويجعل بعض الكتّابين (١) هذه الطبقات طبقتين ؛ الأولى : رئيسها ابن المقفع ، وطريقته تنويع العبارة . وتقطيع الجملة ، والمزاوجة بين الكلمات ، وتوخي السهولة ، والعناية بالمعنى ، والزهد في السجع ؛ وقد حد البلاغة فقال : « هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها ، » وقال لبعض الكتّاب : « إياك وتتبع الوحشي من الكلام طمعا في نيل البلاغة فإن ذلك هو العي الأكبر ؛ وقال الآخر : « عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة ، » .

والثانية : رئيسها الجاحظ ؛ وطريقته أشبه بالأولى في سهولة العبارة وجزالتها ؛ وإنما تمتاز بتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مفقاة أو مرسلة ؛ وزيادة الإطناب في الألفاظ والجمل والاستطراد ، ومزج الجد بالهزل ؛ وتحليل المعنى واستقصائه ، وتحكيم العقل والمنطق ، والاعتراض بالجمل الدعائية .

وهؤلاء الكتّاب جميعا صفوة من البلغاء والفصحاء وأرباب البيان ، ممن ملكوا أزمة البلاغة ، وبلغوا أعلى منازل الفصاحة والبراعة ، وامتازت كتابتهم بطول النفس ، وجمال الأداء ، وبراعة الأسلوب ، وشرف المعاني ، وحسن الابتداع في الأخيلة ، مع الازدواج حيناً ، والسجع حيناً آخر . . . إلى غير ذلك من الخصائص والميزات التي أفضنا في شرحها .

أشهر الكتاب في هذا العصر :

ومن أعلام الكتاب في هذا العصر محمد بن عبد الملك الزيات م
٢٢٣٣هـ (١) ، وإبراهيم بن العباس الصولي م ٢٤٣هـ (٢) ، وسعيد بن حميد م ٢٦٠هـ (٣) ،
والحسن بن وهب (٤) م ٢٦٥هـ (٥) ، وسليمان بن وهب م ٢٧٢هـ (٦) ،
وأبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة الكاتب م ٢٧٧هـ (٧) ، والمرثدي وكان
يكتب للوفيق (٨) ، ونطاحة الكاتب أحمد من إسماعيل بن الخصيب
الانباري كاتب عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ؟ وكان بينه وبين ابن المعتز
مراسلات وجوابات (٩) ، ومحمد بن مكرم الكاتب م بعد ٢٨٢هـ (١٠) ،

-
- (١) راجع : ١٧٧ فهرست ، ٤٢٥ معجم الشعراء ، ٢٧٨ : ٣ وما بعدها عصر
المأمون ، ٢٧ : ١١ وما بعدها الطبرى . ٣٩ : ٤ مسعودى ، ٤ الرسالة العنبراء .
(٢) راجع : ٥٦ : ٤ مسعودى ، ١٧٣ فهرست ، ٢١ : ٩ الأغاني وما بعدها ،
٢٠٠ : ١ المفصل ، ٢٠٨ الوسيط ، ٤٢ : ٢ ثمرات الأوراق ، ٩٩ خاص الخاص .
(٣) راجع : ١٧٩ فهرست ، وفيات الأعيان ٥٤ - ٥٧ : ٢ طبعة ١٣١٠ ،
١٧٧ : ٤ : ١٢٢ ، ٤ زهر ، ٩١ : ٤ السعدوى ، ٤٢ : ٢ ثمرات الأوراق .
(٤) راجع : ١٧٧ فهرست - ٥٠٦ سمط اللالى - ٢٤٨ ابن الرومى للعقاد -
٤٤ : ٣ زهر ، ٢٢١ - ٢٢٣ : ٣ معجم الأدباء .
(٥) وفي معجم الأدباء أنه ولد عام ١٨٦ هـ ومات في آخر خلافة المتوكل .
(٦) راجع : ٢٤٩ ابن الرومى - ١٧٧ فهرست - ١٥٤ - ١٦٠ : ٧ مهذب
الأغاني - ٥٠٦ : ١ سمط اللالى - ٤٨٥ معجم الشعراء ، ٢٨٦ - ٣٨٨ : ١ وفيات
الأعيان ، ٤٦ : ٣ زهر .
(٧) ١٨٧ و ١٨٨ فهرست ، ٣٦ - ٥١ : ٢ معجم الأدباء .
(٨) ١٨٧ فهرست ، ١٦ أدب الكتاب للصولى .
(٩) راجع : ١٨٠ فهرست - ٢١٧ ج ١ معجم الأدباء ، ويرى عنه الصولى
كثيراً جداً في أدب الكتاب ، وله كتاب طبقات الكتاب .
(١٠) راجع ٤٤٤ معجم الشعراء .

وأبراهيم بن المدبر م ٢٧٩ هـ (١) ، وابن طيفور (٢٠٤ - ٢٨٢ هـ) ، وعلي
ابن الحسن المتوفى بعد ٣١٠ هـ وقد جاوز التسعين (٢) ، وعلي بن العباس
التوبختي م ٢٢٧ عن سن عالية (٣) ، وابن المعز م ٢٩٦ ؛ وأبو بكر محمد بن
يحيى الصولي م ٣٣٦ (٤) وهو الذي جمع ديون ابن المعز (٥) ، وأبو العباس
أحمد بن عبيد الله بن عمار الكاتب م ٣١٤ هـ (٦) وحفيد بن نصر الكاتب م
٣٠٠ هـ (٧) ، وأبو الحسن جعفر بن محمد بن ثوابة الكاتب وكتب للقاسم (٨) ،
وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن ثوابة الكاتب وكتب للمعتضد (٩) .

واشتهر هذا العصر بأعلام ذائعة في الأدب العربي والتأليف فيه ،
ومنهم :

(١) الجاحظ م ٢٥٥ هـ وله كثير من المؤلفات الخالدة منها البيان
والحيوان .

(ب) أبو سعيد الحسن السكري النحوي م ٢٧٥ هـ وكان راوية البصريين
وجمع أشعار الجاهلية والإسلام .

-
- (١) ٤٥٢ معجم الشعراء ، ٣٤٩ الموشح .
 - (٢) ٢٩٥ معجم الشعراء .
 - (٣) ٢٩٥ معجم الشعراء ، ١٤٥ ج ٢ زهر .
 - (٤) ٤٦٥ معجم الشعراء ، ١٧٤ ج ٢ زيدان ، ٣٤٣ - ٣٤٥ زهرة الالباء
ومقدمة أدب الكتاب .
 - (٥) ١٧٥ ج ٢ زيدان .
 - (٦) ٢٥٢ ج ٤ تاريخ بغداد .
 - (٧) ٤٦٣ معجم الشعراء .
 - (٨) ٤١٧ ج ٢ معجم الأدباء ، ١٨٨ فهرسته .
 - (٩) ١٨٨ فهرست .

(ح) ابن قتيبة م ٢٧٦ هـ (١)، وله عيون الأخبار وأدب السكاتب
والشعر والشعراء وكتاب الشراب .

(د) ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد م ٢٨١ هـ وكان مؤدب المكتفي وله
كتب كثيرة (٢) .

(هـ) ابن طيفور أحمد بن أبي طاهر تلميذ الجاحظ (٢٠٤-٢٨٠ هـ) (٣)،
وله سرقات الشعراء وكتاب بغداد والجامع في الشعراء واختيار المنظوم
والمنثور (٤) .

(و) ومنهم أبو العيناء بن القاسم بن خلاد (١٩١ - ٢٨٣ هـ) (٥) .

(١) ١: ١٠٥ وما بعدها فهرست ، ٤٤٩ - ٤٥٠ : ١ وفيات الأعيان ، ١٧٠ : ٢
وما بعدها زيدان .

(٢) راجع ١٧٢ : ٢ زيدان .

(٣) ٣٠٩ - ٣١٠ فهرست ، ١٩٧ طبقات الشعراء لابن المعتز ، ٢٥١ و
الموشح ، ٢١١ : ٤ تاريخ بغداد ، ١٥٢ : ١ معجم الأدباء ، ٤٨ و ٩٣ و ٩٤ : ١
ديوان المعاني .

(٤) أربعة عشر جزءاً يوجد منه بدار الكتب ثلاثة أجزاء في مجلد مخطوط
هي : الحادى عشر في بلاغات النساء وقد طبع منفرداً في مصر ، والثانى عشر
ويجمع قصائد ورسائل لا يوجد لها مثيل ومنها المعلقات ، والثالث عشر ويجمع
فصولاً من رسائل مختارة .

(٥) ١٨١ فهرست - ١٧٥ : ٤ مسعودى - ٤٤٨ معجم الشعراء ، ٣٢١ -
٣٢٤ : ٢ وفيات الأعيان ، ٣١٦ و ٣٢٢ - ٣٣٠ و ٣٢٢ : ١ زهر ، ١٧٠
نكت الهميان ، ١٧٠ : ٣ تاريخ بغداد - ١٨٠ : ٢ شذرات الذهب ، ٦١ : ٧
معجم الأدباء ، ١٤٥ : ٣ سمط الآلى ، ٢١٨ - ٢٢١ : ١ أمالى المرتضى ، ١٩٦
طبقات الشعراء لابن المعتز

(٣) فن التوقيعات

التوقيع فن بليغ من فنون النثر ، ولون رائع من ألوان الكتابة ، وهو عبارة موجزة بليغة يكتبها الخليفة أو الأمير أو الوزير في أسفل الكتب الواردة إليه ، بإبداء الرأي فيما يرفع إليه من شكوى ، أو يقدم له من رجاء ، أو يستشار فيه من أمر .

وللتوقيع في اللغة معان متعددة: جاء في اللسان: وقع (١) ظنه على الشيء قدره وتوهمه . والتوقيع الإصابة . وتنظر الأمر ، وتوهم الشيء ، ومن معانيه اللغوية التأثير ، يقال : جنب هذه الناقة موقع . أى أن فيه تأثير أخفياً من الحبال التي تشد عليها ، والمناسبة بينه وبين المعنى الاصطلاحي ، أن التوقيع في أسفل الكتاب تأثير خفيف ، إلى جانب ما كتب فيه من عبارات طويلة .

ووقع القوم : عرسوا ، أى نزلوا آخر الليل ، كما أن التوقيع يكون في آخر الكتاب المرفوع . ووقعت (٢) الإبل : بركت أو اطمانت بالأرض بعد الرى ، فكان الموقع بعد توقيعه قد اطمان إلى ما أبداه من رأى .

والتوقيع في الكتاب إلحاق شيء فيه بعد الفراغ منه ، وقيل هو مشتق من التوقيع الذى هو مخالفة الثانى للأول . قال الأزهري : توقيع الكاتب في الكتاب المكتوب أن يحمل بين تضاعيف سطوره مقاصد الحاجة ، ويحذف الفضول ، وهو مأخوذ من توقيع الدبر (٣) ظهر البعير . فكان الموقع في الكتاب يؤثر في الأمر .

وفن التوقيع موجود من قديم في الأدب الفارسي ، ووجد في الأدب

(٢١) بتشديد القاف .

(٣) الدبر بفتح الدال والباء القرحة في ظهر البعير .

العربي منذ عصر صدر الإسلام ، و يروى أن أول توقيع عرف كان لعمري حين كتب إليه سعد بن أبي وقاص يستأذنه في بناء موقع له عمر : د ابن ما يكتنك من الهواجر وأذى المطر ، . وقد رويت توقيعات كثيرة للخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية ... ولكن هذا الفن قد نضج واستحكم وقوى في عصرنا هذا عصر نفوذ الخلفاء ، ونبع فيه كثير من أعلام الكتاب وغول البلاغ ، وروى منه الكثير كذلك لخلفاء بني العباس ووزراء دولتهم في هذا العصر .

وكان الكتاب يتنافسون في إجادته ، ويتبارون في بلوغ أقصى الغاية فيه حتى غلبت على توقيعاتهم روعة الإيجاز ، وقوة التعبير ، وجمال التصوير ، وشدة التأثير ، ولطف الإشارة ، وكانت توقيعاتهم أحيانا مثلاً أو حكمة أو آية من القرآن أو حديثاً مأثوراً عن رسول الله ، أو بيتاً من الشعر .

وكان الأدباء الناشئون يحنظونها ويروونها ويعنون بجمعها ، وقد يبذلون في التوقيع الواحد من الدراهم إلى عشرين درهما .

نماذج من التوقيعات :

وقع السفاح في كتاب لأبي جعفر وهو يجارب ابن هبيرة بواسط : إن حليك أفسد علمك ، وتراخيك أثر في طاعتك ، نخذلى منك ، ولك من نفسك .

ووقع المنصور في كتاب عبد الحميد صاحب خراسان : شكوت فأشكيناك وعتبت فأعتبناك ، ثم خرجت على العامة ، فتأهب لفراق السلامة .

ووقع لوالى مصر حين كتب يذكر نقصان النيل : طهر عسكرك من الفساد يعطيك النيل القيادة .

ووقع في قصة فقير : سل الله من رزقه . . ووقع المهدي في قصة رجل حبس في دم : ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب .

- ووقع الرشيد إلى صاحب خراسان : داو جرحك لا يتسع .
ووقع في نسكبة جعفر البرمكي : أنبتته الطاعة وحصدته المعصية .
ووقع المأمون في قصة متظلم من أحمد بن هشام : اكفى هذا الرجل
وإلا كفيته أمرك .
وقال عمرو بن مسعدة : كتبت كتابا إلى عامل فأظلمته فأخذه المأمون
من بين يدي وكتب : قد كثر شاكوك . وقل شاكروك . فإما اعتدلت وإما
اعتزلت . . . وينسب هذا التوقيع لجعفر البرمكي أيضاً .
ووقع المأمون في كتاب لإبراهيم بن المهدي : القدرة تذهب الحفيظة
والندم جزء من التوبة ويذهما عفو الله .
ووقع جعفر البرمكي في قصة محبوبس : العدل أوقعه ، والتوبة تطلقه .
ووقع يحيى البرمكي لمظلوم : طب نفسا فكفى بالله للمظلوم ناصراً .
ووقع طاهر بن الحسين في قصة مستمنح : سنظر أصدقت أم كنت
من الكاذبين .
-

تراجم بعض الكتاب

ابن المقفع

١ - ظهر ابن المقفع ، وأحدث أثره في النثر الفنى وفي تطوره ، وكان الكتاب من قبله قد حولوا الكتابة إلى صناعة لها أصولها الفنية ، وكان بعض منهم يعرفون الفارسية أو الرومية أو اليونانية أو السريانية ، ومن بينهم : أبو العلاء سالم كاتب هشام ، وأستاذ عبد الحميد ، وأحد الواضعين لنظام الرسائل وكان يعرف اليونانية ، وجيلة بن سالم كاتب هشام بن عبد الملك وأحد المترجمين من اللغة الفارسية إلى العربية^(١) ، وعبد الحميد الكاتب أحد أعلام النثر الفنى وأتمته ، وكان يعرف الفارسية .

ويقول بعض الباحثين : إنه استخرج أمثلة الكتابة الفنية التي رسمها من اللسان الفارسي نحوها إلى اللسان العربي^(٢) . وإنه أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية^(٣) ، ويصفه ابن النديم بأنه سهل سبل البلاغة في الترسل وعنه أخذ المترسلون^(٤) .

ويقول عنه طه حسين : إنه أحد كتاب القرن الثاني الذين فهموا الفصول كما كان يفهمها علماء البيان من اليونانيين ، وإنه كان يعرف اللغة اليونانية^(٥) ؛ وهذا مما لا يوافق عليه باحث ، ويصف ابن عبدربه في العقد

(١) راجع ص ١٧١ الفهرست لابن النديم .

(٢) ٦٩ الصناعتين طبعة صليبيح ، ١٩ : ٢ ديوان المعاني ، وهما لأن هلال العسكري . (٣) ٥٧ : ١ النثر الفنى لوكى مياوك .

(٤) ١٧٠ الفهرست لابن النديم .

(٥) ١٠ مقدمة نقد النثر لقدامة وهي بقلم طه حسين .

الفريد عبد الحميد الكاتب بأنه أول من فتح أحكام البلاغة وسهل طرقها وفك رقاب الشعر (١) .

ولقد تأثر ابن المقفع ببلغاء عصره وفي مقدمتهم عبد الحميد ، وكان أحد المترجمين من الأدب الفارسي والثقافة الفارسية (٢) ، ولا شك أن ابن المقفع كان إمام الكتاب والمنشئين في عصره ، وقد آخى في أسلوبه بين التفكير الفارسي والبلاغة العربية ، ويعد من أبلغ البلغاء ؛ ومن أساطين الفصاحة في الأدب العربي . . ولغته وتركيب جملة أدنى إلى البساطة والوضوح من كتاب عصره ، وأسلوبه أكثر مباشرة واستقامة ، وأقل تليها وإشارة .

وبلا ريب أحدث في الكتابة الفنية كثيراً من الأصول : في المنهج والأسلوب وطرق الأداء ، وفي نظامها في البدء والختام . . وفي تكرار التعميد في فصول الرسائل ، والتردد بين الإيجاز والإطناب ، وفي تضمينها الكثير من المعاني الدقيقة والحكم العويصة ، والأفكار الاجتماعية والسياسية والعقلية التي لم تكن سائدة بين كتاب عصره . وبذلك كان له فضل كبير على النثر الفني .

ولا شك أن نثر ابن المقفع الأدبي هو مظهر من مظاهر النثر الفني في العصر العباسي الأول ، الذي تأثر بالمؤثرات الجديدة ، وبتقانات الأمم القديمة العريقة ، كل التأثر .

٢ - وقد عاش ابن المقفع ستة وثلاثين عاماً ، هي كل عمر هذا الفني

(١) ٥ : ج ٢ العقد الفريد .

(٢) ٧٢ الفهرست لابن النديم .

الشاب ، الذي أودع الفكر العربي أسمى روائعه ، وأثمن كنوزه ، فإذا استثنينا منها ستة عشر عاما هي مرحلة طفولته وصباه ، كانت هذه الحكم الرفيعة ، والآداب الخالدة ، والآثار الباهرة ، نتاج عشرين عاما ، هي كل حياة ابن المقفع الأدبية والفكرية ، وهو نتاج لو نسب للمعمر بلغ المائة أوجازها لكان كثيرا عليه ، ولسكان دليل عبقرية فذة ، ومواهب فائقة . .

ولقد شهد له معاصروه بشدة الذكاء وحصافة المسكات ، وبسعة الثقافة ، قالوا : « لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكي من الخليل بن أحمد ولا كان في العجم أذكي من ابن المقفع ، واجتمع الخليل وابن المقفع ، فكثا مدة يتجازبان أطراف الحديث . فلما افترقا سئل الخليل عن صاحبه فقال : « ما شئت من علم إلا أن عليه أكثر من عقله ، وسئل ابن المقفع عن صاحبه فقال : ما شئت من علم إلا أن عقله أكثر من أدبه ، وكان مقدما في بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعاني وابتداع السير ، .

ويعد ابن المقفع من أفضاذا الأدباء والمفكرين في تاريخنا العقلي .

فهو من الجانب الأدبي قد وهب اللغة العربية ثروة طائلة في الأفكار والمعاني والأغراض ، بل وفي الأساليب أيضا ، ومنحها أعظم ما استطاع أديب عربي أن يمنحها إياه ، من ثراء في الأداء والتعبير ، وغنى في التخيل والتصوير ، وسعة في المعاني والتجارب والتفكير .

بل قد كساها حللا رائعة بمؤلفاته وترجماته ، التي حفظت على العربية شبابها ورواءها . ويذهب لنيف النقاد ، من بينهم المستشرق جب ، والمستشرق الفرنسي موسيه ، إلى أن النثر الفني مدين في وجوده في أدبنا العربي لابن المقفع . فهو في نظر هؤلاء أول ممثل للتطورات الثرية الجديدة ،

وهو أول مؤلف للإنشاء الأدبي في اللغة العربية . ومهما كان في هذا الرأي من مغالاة ، فإن ابن المقفع هو رائد الطبقة الأولى من الكتاب في العصر العباسي . وقد آخى في طريقته بين التمكن الفارسي والبلاغة العربية ، واستخلص من الأدبين الفارسي والعربي اللذين كان يجيدهما طريقة عرفت به ، وأخذت عنه . وتظهر مزيته في ترتيب أفكاره ، وحسن تقسيمها ، وكان ابن المقفع يروض الحكم الصعبة بسلاسة أسلوبه ، وعذوبة ألفاظه ، حتى تبدو مشرقة الجبين ، ناصعة البيان . . ولم تكن معانيه تستهلك ألفاظه ، ولا ألفاظه تستهلك معانيه . كان يقدر اللفظ على المعنى تقديرا واعيا . وأسلوب ابن المقفع في سلاسته وجزالاته وجماله وسحره يمثل رأيه في البلاغة التي كان يعرفها بأنها « هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » .

وكان يتجنب الغرابة والحوشية ، ويقول : إياك والتتبع لحوشي الكلام طمعا في نيل البلاغة ، فإن ذلك هو العي الأكبر . . وفي حرصه على الإيجاز ما يبرر قوله « الإيجاز هو البلاغة » ، إن ابن المقفع من الجانب الأدبي يعد أمة وحده في البلاغة ورصافة القول ، وشرف المعاني ، إلى بيان غرض ، وسهولة لفظ ، ورشاقة أسلوب . . وله فضل كبير في تطور فن النغمة في الأدب العربي ، ويصفه الوزير جعفر بن يحيى البرمكي هو وطبقته من الكتاب فيقول : « عبد الحميد الكاتب أصل ، وسهل بن هرون فرع ، وابن المقفع ثمر ، وأحمد بن يوسف زهر » .

أما ابن المقفع من الجانب الفكري فعملاق جبار ، ترشدنا إلى ذلك كتاباته وحكمه وآراؤه وتأليفه . كان ابن المقفع واسع الاطلاع على الثقافتين : العربية ، والفارسية ، نقل خير ماقرأ باللغة الفهلوية إلى اللسان العربي ، وزاد عليه الكثير من آثار خبرته وحكمته وتجاربه في الحياة .

نجده في كتابيه : « الأدب الصغير » ، و « الأدب الكبير » - اللذين جمع فيهما طائفة من أفكاره وحكمه ومن أقوال الحكماء في الأخلاق

والآداب وتربية النفس وسياسة الملك - كان يجادل أن يرسم خطوطا عريضة لمجتمع قوى ، تسوده المحبة والطمأنينة والثقة والهدافة . وفي الكتابين آثار من الثقافة والحكم الفارسية ، وصور من النظم الساسانية في الحكم . وإذا كان فيهما آثار من مذاهب فلاسفة اليونان فهم منقولة من الفرس ، الذين تأثروا - فيما تأثروا - بالمذاهب اليونانية . ويرجع كثيرون أن كتابه « الدررة اليتيمة » هو نفس كتاب « الآداب الكبير » .

وكتاب « كلية ودمنة » ، كان قد ترجم من الهندية إلى الفهلوية في عهد كسرى أنوشروان ، وأضاف الفرس عليه أبو ابا ، مثل « باب بعثة برزويه » ، فترجمه ابن المقفع من الفهلوية إلى العربية ، وأضاف عليه فصولا جديدة مثل « باب غرض الكتاب » ، و « باب الفحص عن أمر دمنة » ، و « باب الناسك والضعيف » ، و « باب البطة ومالك الحزين » ، ويرجع بعض المستشرقين ومنهم « هرقل » ، وغيره أن الباب الأول وهو مقدمة الكتاب من إضافة علي بن الشاه الفارسي المتوفى عام ٥٣٠٢ هـ . وفي هذا الكتاب أصول كثيرة لنظام الحكم وسياسة الرعية . ويبدو أن روح الإصلاح الاجتماعي ، التي انطوت عليها جوائز ابن المقفع هي التي دفعت إلى ترجمته . وهو يعد من نفائس الآثار الفكرية ، ومن روائع كتب الأدب العربي ، وقد ترجم إلى اللغات العالمية ، واحتل منزلة سامقة في الفكر الإنساني .

ومن الكتب المفقودة ، التي ترجمها ابن المقفع : « خدائناه » ، أي سير ملوك الفرس وتاريخهم ، وكتاب « التاج » . أما كتب الفلسفة اليونانية التي ينسب إليه ترجمتها ، فترجمها عن الفارسية هو ابنه محمد ؛ وليس من ترجمة ابن المقفع نفسه .

هذا هو ابن المقفع ، الذي كان ميلاده ، بخوزستان بفارس في قرية تسمى « جور » ، من أبوين فارسين ، عام ١٠٦ هـ - ٧٢٤ ميلادية ، وكان بوه قد سماه « روزبه » ، وكان والده « داذويه » ، يتولى كتابة خراج

فارس للحجاج بن يوسف . ونقم عليه الحجاج فضربه حتى تقطعت يده ،
فلقب بالمقفع ، وعرف ابنه بابن المقفع . ونشأ هذا الفتى الصغير مع أبيه في
البصرة ، يستظللان بولاء آل الأهم ، المشهورين باللسن والخطابة والفصاحة ،
وتلقى ثقافته الأدبية في بيئة البصرة حيث العلماء والرواة والمدارس وسوق
المربد . وعمل في كتابة الرسائل لولاية بني أمية على بلاد فارس ، فكتب
لداود بن هبيرة ، حتى قامت الدولة العباسية في ١٣ ربيع الأول ١٣٢ هـ -
٣٠ أكتوبر ٧٤٩ م ، وقتل داود . ثم كتب لعيسى بن علي عم الخليفة العباسي
أيام ولايته على كرمان عام ١٢٢ و ١٣٣ هـ ، وأسلم على يديه ، وكتب
بعده لسليمان بن علي أيام ولايته على البصرة من عام ١٣٣ - ١٣٩ هـ ، ثم
ولى البصرة بعده سفيان بن معاوية ، فنقم على ابن المقفع ، لانتمائه لأعمام
الخليفة ، الذين غضب عليهم المنصور ، واضطهد ابن المقفع وقتل عام
١٤٣ هـ - ٧٦٠ م .

ومات ابن المقفع بعد أن خلف ثروة عظيمة للأدب والفكر العربي ،
وأمثلة رفيعة يحتذيها الباغاء والأدباء في كل عصر وجيل . مات المفكر
العظيم ، الذي جمع بين عقل الحكيم وتنكيره وطبع الأدب وذوقه ،
والذي كانت حياته مثالا رفيعا للإنسانية وللسمو النفسى والخلق . . مات
هذا الشاب الفارسي الأصل العربي اللسان . ولكن ذكره لم يمت لأن آثاره
الأدبية لاتزال حية ، باقية لن تموت .

٣ - ويهنا أن نعرض هنا نصا لابن المقفع من كتاب كلية ودمنة ،
وليكن هذا النص هو : باب الحماسة والثعلب ومالك الحزين ، .

فهذا النص لعبد الله بن المقفع من كتاب كلية ودمنة وهو آخر أبواب
هذا الكتاب الخالد ، الذي أثرى به عبد الله بن المقفع الأدب العربي ، وقدم
للفكر الإنساني - في مختلف مراحلها - أعظم زاد من الحكمة والمعرفة .

وقد ترجم ابن المقفع كتاب كلية ودمنة من الفهلوية إلى العربية . لما احتوى عليه من أعظم الأصول في سياسة الملك ، وفي دعائم الحضارة والاجتماع ، وكان الفرس قد ترجموه من السنسكريتية إلى الفهلوية ، ومن عجب أن تفقد الأصول الفارسية كلها لهذا الكتاب الخالد ، ولا يبقى إلا الأصل العربي الذي ترجمه ابن المقفع إلى العربية ، وعنها ترجم الكتاب إلى جميع اللغات العالمية ، وذاعت شهرة الكتاب في كل مكان ، وطار اسمه في كل ناحية . . يقول ابن المقفع :

قال دبشليم الملك لبديبا الفيلسوف :

قد سمعت هذا المثل (١) ، فأضرب لي مثلاً في شأن الرجل الذي يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه .

قال الفيلسوف : إن مثل ذلك مثل الحمامة والثعلب ومالك الحزين .

قال الملك : وما مثلن ؟

قال الفيلسوف :

زعموا أن حمامة كانت تفرخ في رأس نخلة طويلة ذاهبة في السماء ، فكانت الحمامة تشرع في نقل العش إلى رأس تلك النخلة فلا يمكنها ما تنقل من العش وتجمعه تحت البيض إلا بعد شدة تعب ومشقة لطول النخلة وسمقتها (٢) .

وكانت إذا فرغت من النقل باضت ثم حضنت بيضها ، فإذا

(١) هو ما ذكره في الباب السابق ، باب « ابن الملك وأصحابه » من أن الرجل لا يصيب الخير إلا بعقله ، وقد يصيب الرجل الجاهل الرفعة والخير ، والرجل الحكيم العاقل البلاء والضرر .

(٢) أي علوما ، وهو بمعنى السموق ، وفي الأصل : سمقتها ، أي بعدما وذلك لارتفاعها .

انقاض^(١) وأدرك فراخها ، جاءها ثعلب قد تعهد^(٢) ذلك منها لوقت قد علمه ريثما ينهض فراخها فوقف بأصل النخلة فصاح بها وتوعدها^(٣) أن يرقى إليها أو تلتقى إليه فراخها . فتلقبها إليه .

فبينما هي ذات يوم وقد أدرك لها فرخان إذ أقبل مالك الحزين فوقع على النخلة ، فلما رأى الحمامة كثيرة حزينة شديدة الهم قال لها : يا حمامة مالي أراك كاسمة البال سيئة الحال ؟ فقالت له : يا مالك الحزين إن ثعلبا دهيت به كلما كان لي فرخان جاءني يتمددني ويصيح في أصل النخلة فأفرق^(٤) منه فأطرح إليه فرخي . قال لها مالك الحزين : إذا أتاك ليفعل ما تقولين فقولي له : لا ألتقي إليك فرخي ، فأفرق^(٥) إلى وغرر بنفسك^(٦) فإذا فعلت ذلك وأكلت فرخي طربت عنك ونجوت بنفسى .

فلما علمها مالك الحزين هذه الحيلة طار فوقع على شاطئ نهر ، وأقبل الثعلب في الوقت الذى عرف فوقف تحت النخلة ثم صاح كما كان يفعل ، فأجابته الحمامة بما علمها مالك الحزين . فقال لها : أخبريني من عليك هذا ؟ قالت : علمنى مالك الحزين . فتوجه الثعلب حتى أتى مالك الحزين على شاطئ النهر فوجده واقفا ، فقال له الثعلب : يا مالك الحزين إذا أتتك الريح عن يمينك فأين تجعل رأسك ؟ قال : عن شمالي ، قال : فإذا أتتك عن شمالي أين تجعل رأسك ؟ قال : أجعله عن يميني أو خلفي ، قال : فإذا أتتك الريح من كل مكان وكل ناحية أين تجعله ؟ قال : أجعله تحت جناحي ، قال : وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحيك ، ما أراه^(٧) يتبها

-
- | | |
|------------------------|-----------------------|
| (١) أى خرج منه الفرخ . | (٢) أى تفقد وعرف . |
| (٣) أى تهددها . | (٤) أخاف . |
| (٥) أى اصعد . | (٦) أى عرضها للهلاك . |
| (٧) أى ما أظنه . | |

لك ، قال : بلى ، قال : فأرني كيف تصنع ؟ فلعمري يامعشر الطير فقد
فضلكم الله علينا ، إنك تدرين في ساعة واحدة ما تدرين في سنة وتبلغن
مالا نبلغ ، وتدخلن رؤوسكن تحت أجنحتكن من البرد والريح ، فهيننا
لكن فأرني كيف تصنع ؟

فأدخل الطائر رأسه تحت جناحيه ، فوثب عليه الثعلب مكانه فأخذه
فهززه (١) همزة دق عنقه ، ثم قال : يا عدو نفسه ترى الرأي للحمامة
وتعلمها الحيلة لنفسها وتعجز عن ذلك لنفسك حتى يتمكن منك عدوك ،
ثم قتله وأكله .

وهذا النص يرشد إلى أن الإنسان يجب أن يعي دروس الحياة كاملة ،
وأن ينصح نفسه قبل أن ينصح غيره ، ويحذر من شر الأشرار كما يحذر هو
غيره من شرهم ، وأن يكون عميق الإدراك بعيد الفطنة ، لا يغتر بكلام محتمل
مخادع ، أو ما كر متلطف .

وأسلوب ابن المقفع مع بلاغته وروعته يكاد هنا يتعثر في أداء مضامينه ،
لأن الترجمة للمعاني الفلسفية الدقيقة لا يكاد يقوم بها أسلوب بليغ مهما دقت
بلاغته ، وعلت منزلته في الفصاحة . وانظر إلى قوله : « فشرع في نقل العش
إلى رأس تلك النخلة ، فلا يمكنها ما تنقل من العش وتجعله تحت البيض
إلا بعد شدة ، فالأسلوب مفكك غير متلاحم الأجزاء مع ضعف نسجه ،
وقلة روعته ، وفي آخر النص يكرر ابن المقفع « فأرني كيف تصنع ، مرتين .

والنص قصة من قصص كتاب كليلة ودمنة ، وهي كأغلب قصص
الكتاب قصة على لسان الطير والحيوان برويها الفيلسوف الهندي يديبا
للمليكة دبشليم مرشدا وموجها ومعلما ، وتبتدى كل قصة بسؤال من الملك
للفيلسوف قد سمعت هذا المثل مثلا ، أو قد عرفت ما أخبرت به من الأمر

السابق ، فاضرب لى مثلا فى شأن كذا . . فىرد علىه الفيلسوف قائلا : إن مثل ذلك مثل كذا وكذا ، ويسترسل من قصة إلى قصة ، ومن عبرة إلى عبرة ، ومن عظة إلى عظة حتى ينتهى تقريره للحكمة المقصود تقريرها أمام الملك .

ولهذا القصص فوق مضمونه الاجتماعى والفكرى فائدة جلية لما فيه من التسلية والمتعة والبهجة والتشويق والطرافة .

ومثل ذلك القصص مما ضرب به المثل فى روعته وحكمته ، ومما اهتم به الباحثون والمفكرون والسياسيون اهتماما كبيرا ؛ وفى القرآن الكريم قصص خالدة على أسنة الطير مثل قصة الهدد ، وقصة النمل مع سليمان ، وذلك لأن الحكمة إذا جاءت على أسنة الطيور والحيوانات كان وقعها فى النفس أعظم ، وأثرها فى القلب أكبر ، وكانت فرحة الإنسان بها أشد ، ومتعته بها أجل .

وقد ألف الكتاب قصصا على أسنة الحيوانات والطيور لتعليم الحكمة عن طريق القصة امتجاجا للنفوس وترويجا للقلوب ، وليكون الجدى فى صورة متعة تجتذب إليها العامة ، ويتسلى بها الخاصة . ويقول طه حسين فيه : فى هذا الكتاب حكمة الهند وجهد الفرس ولغة العرب (١) .

والأصل الهندى للكتاب هو كتاب « بنج تنرا » (٢) ويذكر أن سبب تأليف الكتاب رغبة ملك من ملوك الهند اسمه « السلطان الخالد » فى تعليم أبنائه المعرفة والحكمة ، وحب العلم والعلماء ، وكانوا لا يقبلون على هذا الباب ، فأشار أحد المقرئين إلى الملك عليه باسئدعاء كاهن برهمى حكيم

(١) مقدمة كلية ودمنة ص ٨ تحقيق عبد الوهاب عزام .

(٢) معناه خمس رسائل .

اسمه ، وشنوشرما ، لتعليم أبناء الملك فاستدعاه ، ووكل إليه الإشراف على تعليم أبنائه فوضع السكاهن لهم هذا الكتاب ليحببهم في المعرفة بأسلوب مشوق ، وذلك نحو عام ٢٠٠ ق م .

وترجمة ابن المقفع للكتاب تجعل اسم الحكيم الهندى الذى ألف الكتاب « بيدبا » وقد وضعه للملك دبشليم لتعليمه سياسة الرعية . ولزوم العدل والبعد عن الطغیان ، وقد استعان بيدبا فى تأليفه بتلاميذه حيث مكثوا يؤلفون فيه سنة كاملة ، وجعلوه قصصا على لسان الحيوان لأهمية الفن القصصى فى التهذيب والتوجيه .

ويذكر الفردوسى فى « الشاهنامه » فى سبب ترجمة الكتاب إلى الفهلوية أن الملك أنوشروان سمع من برزويه الطبيب أن فى بلاد الهند عشبا يحى الموتى فبعث أنوشروان برزويه للبحث عن هذا العشب العجيب . فسافر وظل يسأل عنه ، ويجوب البلاد فى طلبه فلم يعثر عليه فسأل العلماء فى الهند فأرشدوه إلى كلية ودمنة لأنه بأدابه يحى القلوب الميتة . فنتسخه وقدم به على أنوشروان وترجم الكتاب له من السنسكريتية إلى الفهلوية ، وذلك فى عهد أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) ، ثم ترجم ابن المقفع الكتاب من الفهلوية إلى العربية فى حكم المنصور فى القرن الثانى الهجرى ، وكليلة ودمنة من أبناء آوى . وكان يقال لأحدهما كلية والآخر دمنة .

وكان لكليلة ودمنة صدها العميق عند كل الناس فى عصر ابن المقفع وبعد عصره ؛ حتى قال ابن خلدون : « لقد قرأت هذه الترجمة أكثر من مائة مرة وأنا مشغوف بها لمكانها من البلاغة » .

الجاحظ شيخ الأدباء في العصر العباسي

١٥٠ - ٢٥٥ هـ

١ - عاش الجاحظ في العصر العباسي الأول (١٢٢ - ٢٣٤ هـ) وأدرك سنوات من حكم المنصور ، والجاحظ هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنتاني ، ولقب بالجاحظ لجهوظ عينيه .

وقد نشأ بالبصرة فقيراً حائراً ، يعيش بكده وسعيه ، حتى لقد روى أنه كان يبيع الخبز والسّمك بسيحان (١) ، ثم انصرف إلى العلم والأدب يطلبهما في البصرة وبغداد ، ويتلقف الفصاحة من العرب شفاهاً بالمربد ، ويسمع من الأصمعي وأبي زيد الأنصاري وأبي عبيدة ، ويأخذ النحو عن أبي الحسن الأخفش صديقه ، ويأخذ الكلام عن النظام . هذا مع إدمانه المطالعة ، حتى قيل إنه ما وقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته ، وكان يكثرى دكاكين الوراقين ليبيت فيها للمطالعة . وكذلك انقطع للعلم والتأليف حتى أصبح عالماً ذائع الشهرة في هذا المجال ، وأقبل الناس على كتبه ، وعدوا التلمذة عليه شرفاً ، ويصور ذلك ما روى عن سلام بن زيد أحد علماء الأندلس ، قال : كان طالب العلم بالمشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء الجاحظ ، فخرجت لا أعرج على شيء حتى قصدته وأقت عليه عشرين سنة .

وقد انفرد الجاحظ بآراء في التوحيد صارت مذهباً من مذاهب المعتزلة وألحقه المأمون بديوان الرصائل ولكنه استقال منه بعد ثلاثة أيام .

وقد اتصل الجاحظ بمحمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق وأهدى إليه كتابه «الحیوان» ، ولما قتل ابن عبد الملك في بدء خلافة

(١) هو نهر بالبصرة .

المتوكل هرب الجاحظ ثم قبض عليه ، وجرى به مقيدا إلى القاضي أحمد بن أبي دؤاد بعد قتل ابن الزيات فلما نظر إليه قال : والله ما علمتكم إلا متناسيا للنعمة ، كفورا للصيغة معدنا للساوي . فقال له الجاحظ : خفض عليك أيديك الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر على خير من أن يكون لي عليك ، ولأن أسيء وتحسن أحسن من أن أحسن قنسى ، وأن تعفو عني في حال قدرتك أجمل من الانتقام مني . فقال له ابن أبي دؤاد : قبضك الله ما علمتكم إلا كثير تزويق الكلام ، ثم قال جيشوا بجداد ، فقال : أعز الله القاضي ، ليفك عني أوليذيدي؟ فقال : بل ليفك عنك ، فجيء بالحداد فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلا ؛ فلطمه الجاحظ وقال : اععمل عمل شهر في يوم وعمل يوم في ساعة وعمل ساعة في لحظة ، فإن ضرر على ساقى وليس يجزع ولا ساجة (١) ، فضحك ابن أبي دؤاد وأهل المجلس منه ، وقال ابن أبي دؤاد لبعض الحاضرين : أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه ، ثم قال يا غلام سر به إلى الحمام وأمط عنه الأذى ، واحمل إليه تحت ثياب وطويلة وخفا ، فلبس ذلك ثم أتاه فتصدر في مجلسه ، ثم أفبل عليه وقال هات الآن حديثك يا أبا عثمان . واصطلحت الخال بينهما ، وأهدى إليه الجاحظ كتاب « البيان والتبيين » .

واتصل الجاحظ أيضاً بالفتح بن خاقان وسافر معه إلى دمشق ووصف مسجدها في كتابه « البلدان » ، كما أنه دخل أنطاكية .

وهكذا قضى الجاحظ أيامه في العلم والأدب والتصنيف حتى أصيب بالفالج في أعقاب عمره وكان ذلك في أواخر خلافة المتوكل ، قيل إن المتوكل وجه من يحمل الجاحظ إليه من البصرة ، فقال لمن أراد حمله : وما يصنع أمير المؤمنين بأمرى . ليس بطائل ، ذى شق مائل ، وعقل حائل .

(١) الساجة : شجرة عظيمة خشبها صلب .

وظل كذلك حتى توفي في آخر خلافة المهدي وذلك عام ٢٥٥ هـ . وقد كان شعار الجاحظ في طلب العلم قوله : « إذا سمعت الرجل يقول ماترك الأول للآخر شيئاً فاعلم أنه ما يريد أن يفلح » ، وقوله أيضاً : وكلام كثير قد جرى على السنة الناس وله مضرة شديدة وثمرة مرة ، فمن أضر ذلك قولهم لم يدع الأول للآخر شيئاً ، فلو أن علماء كل عصر منذ جرت هذه الكلمة في أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته إليهم عن قبلهم لرأيت العلم مختلاً .

على هذه الطريقة طلب الجاحظ العلم فاطلع على علوم المتقدمين والمتأخرين واستنبط واجتهد وانتقد وزاد وألف في الأدب والعلم والدين ، وكان إماماً في كل منها .

٢ - ويقول المرزباني فيه رواية عن أبي بكر أحمد بن علي : كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظام وكان واسع العلم بالكلام كثير التبصر فيه شديد الضبط لحدوده ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا وله كتب كثيرة مشهورة جليلة في نصرة الدين وفي حكاية مذهب المخالفين ، والآداب والأخلاق ، وفي ضروب من الجد والهزل وقد تدارها الناس وقرأوها وعرفوا فضلها وإذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس في تلقيح العقول وشحن الأذهان ومعرفة أصول الكلام وجواهره وإيصال خلاف الإسلام ومذاهب الاعتزال إلى القلوب كتب تشبهها . والجاحظ عظيم القدرة في المهذبة وغير المعسولة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور .

وقال ثابت بن قرة : ما أحمد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة : أولهم عمر بن الخطاب في سياسته ويقظته ، والثاني الحسن البصري فلقد كان من درارى النجوم علماء وتقوى ، والثالث أبو عثمان الجاحظ خطيب المسلمين ،

وشيوخ المتكلمين ، ومدرة المتقدمين والمتأخرين ، إن تكلم حكى سبحانه
بالبلاغة ، وإن ناظر ضارع النظام في الجدل ، وإن جد خرج في مسك عامر
ابن عبد قيس ، وإن هزل زاد على مزيد ؛ حبيب القلوب ، ومراح الأرواح ،
وشيوخ الأدب ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مشمرة ،
الخطباء تعرفه ، والأمراء تصفه وتنادمه ، والعلماء تأخذ عنه . والخاصة
تسلم له ، والعامّة تحبه ، جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين
الرأى والأدب ، وبين النثر والنظم ، والذكاء والفهم ، طال عمره وفشت
حكيمته وظهرت خلته ، ووطىء الرجال عقبه ، وتهادوا أربه ، وانفخروا
بالانتساب إليه ، ونجحوا بالافتداء به ، لقد أوتى الحكمة وفصل الخطاب .

ويقول فيه ابن العميد : ثلاثة علوم الناس كلما عيال فيها على ثلاثة ،
أما الفقه فعلى أبي حنيفة ، وأما الكلام فعلى أبي الهذيل ، وأما البلاغة
والفصاحة واللسن والعارضة فعلى أبي عثمان الجاحظ .

ولقد ألف أبو حيان التوحيدى (٤٠٠ هـ : ١٠٠٩ م) كتاباً في تقرير
الجاحظ . وقيل لأبي هفان : لم لا تهجو الجاحظ وقد ندد بك وأخذ
بمخنقك ؟ فقال أمثلى يمدح عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة في أربعة أنفى
لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت
في ألف سنة .

وقد كان الجاحظ أستاذ الثقافة الإسلامية ، في النصف الأول من القرن
الثالث ؛ وكان مجده الأدبي الذائع يعصف بمجد كل أديب ، ويدوى في كل
أفق ، ويرن صده في سمع كل كاتب وشاعر وخطيب .

وقد عاش الناس في عصره وبعد عصره عيالاً عليه في البلاغة والفصاحة
واللسن والعارضة ، كما يقول ابن العميد ، وعدوا التلذذة عليه شرفاً لا يعدله
شرف ، ومجداً يدينهم من بلاط الملوك ، وتعصب له كثير من رجالات

الثقافة الإسلامية في شتى عصورها ، فألفوا الكتب في الإشادة به - كما فعل أبو حيان التوحيدى في كتابه تقرىظ الجاحظ - وبالغوا في الإشادة به والثناء عليه حتى حسد ثابت بن قررة الأمة العربية عليه ، وحتى كان الخلفاء يهشون عند ذكره ، ونهج كبار الكتاب نهجه في الثقافة والأدب والبيان ، وكان نحر الرجل في أن يلقب بلقبه ، وأقبلوا على كتبه وأدبه يتشققون بثقاقتها ، ويرونها تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً ، وبلغ من اهتمام خاصة رجال الفكر الإسلامى بها أن كانوا يسألون الناس عن المفقود منها في البيت الحرام وعرفات ، وكان معاصروه يحذرون خصومته حتى لا يسممهم بميسم الخزى والهوان إلى الأبد ، ومن ساء جسده منهم فكان هدفاً لسخريته التلاذعة سار على الأجيال صورة مشوهة وإساءة لا يغفرها الزمن ، كما فعل الجاحظ مع أحمد بن عبد الوهاب بطل رسالته الساخرة المتمكة - الترييع والتدوير ، وحسبك أن المأمون كان يقرأ تأليف الجاحظ ويثنى عليها ويستجدها (١) .

٣ - ومجد الجاحظ الأدبى مجد خالص من شوائب العصبية وتمويه السياسة ، وهو مجد بواه صرحه الخالد كفايته الممتازة وثقافته النادرة وآثاره الفكرية والأدبية الممتعة ، فقد عاش الجاحظ محرماً من كل شيء إلا من مجد الأدب وشهرة العلم ؛ ولم تبوئه مواهبه مقاعد الوزارة التى كان يصعد إليها في عهده كثير من الكتاب ، ولم تنله كفايته الأدبية - نزلة في ديوان رسائل الدولة ، ولما صدر فيه أيام المأمون لم يبق فيه غير ثلاثة أيام استقبال بعدها منه ، لتعرضه لخصومات كثيرة حذراً من أن يأفل به نجم الكتاب ، كما كان يرى سهل بن هارون ، وهذا الإخفاق في الحياة العامة الذى منى به الجاحظ في عصره كان مما نعاه ابن شهيد عليه في رسالته - الزوابع وانواع ، ، وبما جعله يخطىء من يذهب إلى تقديم الجاحظ على

(١) ٢١١ ج ٢ البيان للجاحظ نشر السندونى - ط ١٩٢٧ .

سهل بن هرون ، وإن كان تحكيم التوفيق في الحياة في وزن الشخصيات
وتقديرها ضللا وغبنا .

ولكن ماسر هذا الإخفاق مع هذه الشهرة البعيدة والمجد الذائع ؟
رأى ابن شهيد من قبل أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة
مع تقدم ابن الزيات و ابراهيم بن العباس إما لأنه كان مقصراً في الكتابة
وجميع أدواتها أو لأنه كان ساقط الهمة أو لأن دمايته وإفراط جمحوظ
عينه فعد به عن الغايات المنشودة ، ورأى أن نقص أدوات الكتابة عند
الجاحظ شيء قد يكون غريباً ولذلك أخذ يذهب إلى أن أول أدوات
الكتابة العقل ، وقد تجد عالماً غير عاقل .

أما أن الجاحظ ينقصه أداة - أيا كانت هذه الأداة - من أدوات
الكتابة فذلك ما زده الحقيقة المقررة ، فعقل الجاحظ وفنه الأدبي وطبعه
الموهوب أعظم من أن يتطرق إليه فيها شك وريب . وأما أن الجاحظ كان
قريب الأمل غير بعيد الطموح لا يتطلع إلى مجد ينشده أو جاه سلطان
يناله ، فذلك بعيد عن الجاحظ وحياته وروحه الوثاب الطموح وأما أن
دماية الجاحظ كان لها أثر في هذا الإخفاق فذلك أحد ما نراه من أسبابه
الكثيرة حتى إنه ذكر للتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآه واستبشع منظره
صرفه وأمر له بعشرة آلاف درهم .

الحق أن الجاحظ كان عربياً في روحه ودمه وحياته ، وكان يتعصب
للعرب في كل شيء حتى في الثقافة والأدب في عصر كان النفوذ والسلطان
في الدولة فيه للعناصر الأجنبية لاسيما الفرس ، وكثيراً ما كان ينسى أولو
الثقافة والسكفريات من العرب إلا من اتصل منهم بجبل وزير أو أمير ،
والجاحظ مع صداقته الوثيقة لمحمد بن عبد الملك الزيات (المتوفى سنة ٢٣٣ هـ)
والذي أهدى له كتاب « الحيوان » ، وكافأه عليه بمخسة آلاف دينار ، كان
يتخلل هذه الصداقة الشك والجفاء ، ولم يستطع أو لم يتسن له ، أن يستفيد

شيئا من وراء هذه الصداقة ؛ وقتل محمد بن عبد الملك وجاء بعده غدوة اللود أحمد بن أبي دؤاد الذي سبق إليه الجاحظ مغلولا لأنه كان من أصحاب محمد بن عبد الملك ، ثم فك قيوده وطلب حديثه وبيانه وثوقا منه بظرفه وأدبه لا بإخلاقه ووراثته .

ثم لانفس أن مواهب الجاحظ مواهب عالم وأديب لامواهب رجل من رجال المجتمع والسياسة والحياة العامة ، وقد رفعته مواهبه العقلية والعلمية والأدبية مكانا عليا ما كان ينتظر أن ترفعه إليه السياسة مهما حلق في أجوائها ، وكان إخلاص الجاحظ للفكر والثقافة أعظم من إخلاصه للحياة نفسها ، وكان خوضه في معامع الثقافة والعلم يشغله عن الخوض في ميادين السياسة والاجتماع ، وكانت لذته في الدراسة والبحث والتأليف أكثر من لذته في مجد السياسة وسلطانها ، فالجاحظ أولا وقبل كل شيء هو رجل الثقافة والأدب ، وهو المعتزلي الذي تتلمذ على النظام ثم عاف تقليد غيره في العقيدة فكان صاحب مذهب ورئيس فرقة من فرق المعتزلين ، وهو المتكلم الساحر والكاتب البليغ والخطيب المفوه والعالم الفذ والمؤلف النابه وشيخ العربية الذي رعى الثقافة العربية وما خالطها من الثقافات في شتى علوم الدين والدنيا ، وعضمها وعاصرها زهاء قرن (١٥٨ - ٢٥٥ هـ) ، وكان له في صدر شبابه نخر التلمذة على شيوخها في اللغة والأدب وفي علوم الدين والكلام وفي التفكير والمنطق ، كما كان له نخر صداقة رجال الفسك والسياسة في الدولة ، وقد استفاد من وراء هذا وذاك فضوجا كبيرا في عقليته وثقافته هياها لأن يكون محور الثقافة الإسلامية في عصره لا بطلا من أبطال السياسة والدولة والاجتماع .

٤ - وثقافة الجاحظ ثقافة واسعة متنوعة تحيط بشتى ألوان الثقافات المختلطة التي ما زجت ثقافة الإسلامية في عصره ، فهو عالم من علماء الدين ، ومتكلم من الطراز الأول للمتكلمين ، وعالم يحيط باللغة وبيانها وآدابها إحاطة

لا تقف عند غاية، وقد خاض الجاحظ في جداول الثقافات الأخرى التي سمرت في تيار الثقافة العربية منذ مشرق القرن الثاني الهجري، وعقلية الجاحظ البعيدة التفكير لانشك في أنها أفادت ذلك من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التي شاعت في البيئة الإسلامية في عصر الجاحظ، ولا شك أن عصر الجاحظ، وعقليته، وشغفه بالدراسة والبحث، وعكوفه على القراءة، ونشأته بالبصرة، وتلقيه اللغة عن الأعراب في المربد والعلماء في حلقات البصرة ومجامعها العلمية، وتلمذته على كثير من أساتذة الثقافة العربية في شتى مناحيها كأبي يوسف القاضى والنظام والأصمعي والأخفش وابن الأعرابي وأبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري، كان له أثره في ثقافة الجاحظ الواسعة الجوانب المتمددة الألوان .

وقد اتصل الجاحظ باليونان وثقافتهم من كتبهم المترجمة وعن طريق المتكلمين ومجالسته لكثير من المثقفين باليونانية (١)، كما أنه حذق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وسواه، وتوسع في الثقافات كلها بما كان يقرؤه من الكتب (٢) وتأثر بخطابة أرسطو إلى حد ما، ومن المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة في الأسلوب استعماله القياس المضمحل (المذهب الكلامي عند البديعيين (٣))، ونقد الجاحظ التراجم والمترجمين من اليونانية وخاصة كتاب المنطق الذي ذكر أنه خرج في أسلوب سقيم، فالجاحظ فيما يبدو قد تأثره بالخطابة، لأرسطو (٤)، وذلك ما أراه، وأنكر باحث

(١) ٤٠٠ ج ١ ضحى الإسلام (٢) ٣٨٧ ج ١ المرجع

(٣) ٦٢٠ و ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ من محاضرة للأستاذ حمودة في أسبوع الجاحظ، وإذا كان الجاحظ ينسب أن يكون اليونانيين خطابة (١٥ ج ٣ البيان) فليس ذلك إلا في مقام الرد على الشعوبيين، ويحتمل أن يكون الجاحظ لم يطلع على نصوص خطابية لليونان .

(٤) راجع ٦٢٢ المرجع السابق .

آخر أن يكون كتاب البيان متأثراً بخطابة أرسطو أو صدى له لأن الجاحظ لم يره (١) وذلك ما يؤيده الدكتور طه حسين (٢) .

ومن البدهى أن الجاحظ ألم بالثقافة الفارسية المترجمة إلى السامانية ، ويبدو لي أنه كان يعرف اللغة الفارسية ، ففي البخلاء يحكي الجاحظ كلام بخيل من أهل مرو تجاهل رجلاً زاره من أهل العراق : لو خرجت من جلدك ، لم أعرفك قال الجاحظ : وترجمة هذا الكلام بالفارسية د كراز وسقت يارون بياني نشنسيم (٣) .

وأثر ثقافته الفارسية واضح في كيبته وفي مؤلفه البيان ، أما أثر ثقافته اليونانية فواضح أيضاً في الحيوان وفي كتابه البيان ، قرأ الجاحظ من كتب أرسطو المترجمة كتاب الحيوان واستدل بأراء لأرسطو فيه (٤) وكان مصدراً كبيراً له في كتابه الحيوان ، ، والجاحظ يذكر تعريف صاحب المنطق للإنسان كثيراً (٥) ، ويذكر صاحب المنطق وأنه كان بكيه اللسان مع عليه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه وبخصائمه (٦) ، ويذكر تعاريف البلاغة عند الأمم المختلفة ومنها اليونان (٧) ، ويذكر كتب اليونان في المنطق وأن الحكماء جعلتها معياراً للتفكير (٨) ، ويذكر نوادر ريسموس اليوناني (٩)

(١) راجع ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ .

(٢) ص ٣ مقدمة نقد النثر .

(٣) ص ١٩ البخلاء ، ١٩ الجاحظ لمردم بك

(٤) ١ : ٦١ البيان

(٥) ٦٩ و ١٢٨ : ١ البيان

(٦) ١٥ : ٣ البيان

(٧) ٧٥ : ١ البيان

(٨) ٧ : ٣ البيان .

(٩) ١٦٥ : ٢ البيان

ويرى أن لليونان فلسفة وصناعة منطق وليس لفلاسفتهم في الخطابة ذكر (١)، وأقسام الدلالة عند الجاحظ (٢)، هي من تفكير أرسطو . ويذكر أن للفرس رسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها ولليونان رسائلها وخطبها وعللها وحكمها وكتبها في المنطق ، وللهند حكمها وسيرها وعللها ويرى أنها لا توازن بها للعرب من بيان وبلاغة وصناعة وخطابة (٣) ، وللجاحظ رسالة في نقد الكندي (٤) .

ويذكر الجاحظ في البيان «صناعة الكلام» ، ويعنى بها حيننا علم الكلام (٥)، وحيننا آخر البيان (٦) ، ويذكر اصطلاحات أخرى كصناعة المنطق (٧) وصناعة الخطابة ويذكر أحيانا « أصحاب الخطابة والبلاغة (٨) » .

ومهما يكن فالجاحظ فيما ذكره من أصول البلاغة العربية قريب من روح أرسطو ، فدعوته إلى ترك الوحشى والسوقى (٩) له نظير عند أرسطو الذى دعا إلى « هجر الألفاظ الخسيسة التى لا يستعملها إلا العامة (١٠) » ، وقال: « ينبغى ألا تكون الألفاظ سفسافة ولا مجاوزة الحد فى المتانة مبلغ الأمر

(١) ١٥ : ٣ البيان ، والظاهر أن الجاحظ لم يطلع على شيء من خطابتهم

(٢) ٦١ : ١ البيان ، وهى فى ٤٠ الرسالة العنبر ، ٩ نقد الفتر

(٣) ٧ : ٣ البيان

(٤) ٤٢ الجاحظ لمردم بك

(٥) ٦٩ : ١ البيان

(٦) ١٠٨ : ١ البيان . ويشيد الجاحظ بصناعة الكلام (٣ : ٤ دهر)

(٧) ٧٩ : ١ البيان

(٨) ١٨٣ : ١ البيان

(٩) ١٠٥ و ١١٠ و ١٧٦ : ١ البيان

(١٠) راجع الشفاء لابن سينا ، وكل النصوص المنقولة هنا عن أرسطو فهى

منقولة من الشفاء

الذى يدل عليه فلا تبلغ درجة العامية ولا نحوج إلى السكفة المشنوة ، ،
ودعوة الجاحظ إلى الوضوح^(١) لها نظير عند أرسطو حيث يذكر ، حسن
الدهالة ووضوح العبارة وأن الإغراب مستكره وأنه يجب ألا تمنع في
الاغرابات بل يجب أن تكون العبارة بحيث يفهمها الأماثل دون أسقاط
الجمهور ، ، واللحن وخروجه عن حد البلاغة^(٢) موجود في خطابة أرسطو
حيث يوجب أن يكون اللفظ فصيحاً للحن فيه ، ، ويذكر الجاحظ
استعمال المبسوط في مواضعه والمقصور (المحذوف الموزن) في مواضعه^(٣)
والإيجاز يوم الإيجاز والإطناب يوم الإطناب^(٤) ، وأرسطو أول من
أشار إلى ذلك كله فذكر الإيجاز والإسهاب وأشار إلى أن لكل منهما مقاما .
وعلى أى حال فرجع هذا التشابه في الأفكار أرجحه أن سببه نقل الجاحظ
كثيراً عن الذين ألوا بثقافة اليونان وكتب أرسطو في النقد وعلى الأخص
الخطابة والشعر .

ومع ذلك فالجاحظ يجمل كثيراً من النظريات التي شرحها أرسطو في
كتابه ، فأنواع البيان والأساليب البلاغية الأنيقة التي ألم بها أرسطو^(٥)

(١) ٦٨ و ١١٠ و ١٧٦ : ١ البيان

(٢) ١٢١ : ١ البيان

(٣) ٥١ : ١ البيان . ويشير إلى ذلك في مواضع أخرى من كتابه (١٤١)

و ١٤٧ و ١٦١ و ١٨٠ : ١ البيان)

(٤) ١٢٠ رسائل الجاحظ ، وتبعه ابن قتيبة فذكر أن للإيجاز مواضعه

وللإطناب مواضعها (مقدمة أدب الكاتب)

(٥) كدراسته للاستعارة ، ولرباطات (حروف العطف) وأنها تجعل الكلام
الكثير كالواحد ، وللجناس وسواه ، ونظرية أرسطو في الوصل هي التي يفيض
عبد القاهر في شرحها في الدلائل ، ونصيب في نقده للكيميت في قوله ، تكامل فيها الأنس =

لا يشير إليها الجاحظ في بيانه ، وهو على العموم لم يطلع على نفس كتابي أرسطو ، وإنما أرجح اطلاعه على زجات لكثير من آرائه في الكتابين ، ولانشك في أنه أفاد من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التي شاعت في عصره كثيرا ، ونقل عن اطلعوا على خطابة أرسطو .

هـ - وللجاحظ في البيان العربي آثار كثيرة : كرسالته في تفضيل النطق على الصمت (١) وكتابه البيان والتبيين .

والبيان « أول كتاب ظهر في الأدب جامعا لفنون كثيرة من ضروبه (٢) ، ويشيد به أبو هلال (٣) ، ويعدده ابن خلدون من أركان الأدب (٤) ، والكتاب يبحث في فنون الأدب والبلاغة ويتناول النقد واللغة ، ويأتي على ذكر الخطباء والأدباء والشعراء والمنشئين ، وآثارهم الأدبية .. وهو من أجل وثائق الأدب في الجاهلية والإسلام ، ويذكر ابن رشيق أنه لا يبلغ جودة وفضلا (٥) ، ويذكر أبو أحمد العسكري مثلا من تصحيف الجاحظ فيه (٦) ، وينقد ابن شهيد الكتاب (٧) ، ورد عليه بعض المعاصرين (٨) . والكتاب يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب وسحرهم في البيان ، كما يجمع آراء كثيرة في أصول النقد الأدبي وقوانين البلاغة العربية وأنواعها وعناصرها ومذاهبها واتجاهاتها وأثرها ، سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته أم من رأيه

== والشنب ، لأن الشاعر باعد في القول (١٣٤ ج ١ الأغاني ، ٣٣٥ : ١ : الكامل) . . وليس أمامنا ما يدل على معرفة الجاحظ بأسرار هذه الدراسات البيانية .

(١) تجدها في (١٤٨ - ١٥٤ رسائل الجاحظ) .

(٢) ٨٠ العصر العباسي الاسكندري . (٣) ٧٥٦ الصنائع .

(٤) ٥٥٣ مقدمة ابن خلدون (٥) ٢٢٧ : ١ العمدة

(٦) ٥٤٥٣ التصحيف والتحريف (٧) ١٩٨ : ١ ذخيرة

(٨) ٥٠ : ٢ النثر الفنى .

وتفكيره ، وحسبك أن تقرأ فيه البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة (١) . أو كما يصورها بشر بن المعتمر (٢) ، أو كما يراها ابن المقفع (٣) ؛ وهذه النصوص قيمة كبيرة ، وقد عد بعض الباحثين الجاحظ مؤسس البيان العربي لما جمعه من النصوص التي توضح لنا كيف كان العرب إلى منتصف القرن الثالث يتصورون البيان العربي ، وتعطينا صورة بجملة لنشأته (٤) .

وفي الكتاب كثير من بحوث البلاغة ، فهو يعرف الاستعارة (٥) ، ويتكلم على السجع (٦) ، ويشير إلى التفصيل والتقسيم (٧) ، والاستطراد ، والسكناية (٨) ، والأمثال (٩) والاحتراس (١٠) والقلب (١١) ، والأسلوب الحكيم (١٢) ، والجاحظ فوق ذلك هو أول من لقب المذهب السكلامي بهذا الاصطلاح (١٣) ؛ ويرى الجاحظ أن البلاغة في النظم لافي المعاني قال: والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنما انشأنا في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجوده السبك (١٤)

-
- | | |
|---|------------------------------|
| (١) ١ : ٧٩ البيان | (٢) ١ : ١٠٤ وما بعدها البيان |
| (٣) ١ : ٩١ البيان | (٤) ٣ مقدمة نقد النثر |
| (٥) ١ : ١١٦ البيان | (٦) ١ : ١٩٤ البيان . |
| (٧) ١ : ١٧٠ و ١ : ٩١ و ٢ : البيان ، وهو باب من أبواب البديع عند كثير من علماء البلاغة ، راجع ٧٨ نقد الشعر ، ٣٣٢ صناعتين . | |
| (٨) ١ : ١٨٠ و ١ : ٢٩ و ٣١ و ٨٥ : ٣ البيان . | |
| (٩) ١ : ٨٦ و ٨٨ و ١١٤ و ١٨٣ : ١ : ٢٢٤ ، ٢ : البيان . | |
| (١٠) ١ : ١٦١ وما بعدها البيان (١١) ١ : ١٨٠ : ١ : البيان . | |
| (١٢) ٢ : ٢٠١ و ٢ : ٢٠٣ ، ٢ : البيان ، ويقرب من الأسلوب الحكيم ما يسميه الجاحظ دالغز في الجواب ، (١١٦ : ٢ : البيان) . | |
| (١٣) ١٠١ البديع ، ٧٦ : ٢ : العدة . | |
| (١٤) ٣ : ٤٠ الحيوان | |

وهو ما ذهب إليه ابن خلدون (١) ، ويقول شيلر : في الفن الشكل هو كل شيء ، والمعنى ليس شيئاً مذكوراً (٢) ، وفي البيان فصوص كثيرة استغلها علماء البيان والبديع في اختيار شواهد أساليب البلاغة منها ، مما لاداعي إلى ذكره هنا خوفاً من كثرة الإسهاب . والجاحظ يشيد بالإيجاز ويدعو إليه كثيراً في بيانه (٣) ، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قلت فأوجز وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف (٤) » ، ويحث على ترك الوحش والسوق وعلى الإفهام والوضوح ، وعلى ترك التعمق والتعذيب في صناعة الكلام ، وعلى أي حال فالبيان والتبيين أثر أدبي وعلى نفيس ، والجاحظ يده على البيان العربي لاتجهد ، ويعده ابن خلدون من السابقين في التأليف فيه (٥) .

ولا يضير الجاحظ أن كانت دراساته موجزة مفرقة كما يقول أبو هلال (٦) فهمى على كل حال ذات أثر كبير في نشأة البيان وهي التي أوحى إلى كثير أن يعدوا الجاحظ الواضع الأول لعلم البيان (٧) ، ومن الخطأ التهوين بأثر الجاحظ في البيان كما ذهب إليه بعض الباحثين .

وكتاب « البيان » يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب وسحرهم

(١) ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون (٢) ١٠٥ عمسكة الجبال .

(٣) ٨٠ و ٨٦ و ١١٤ و ١٥٢ و ١٨٧ و ١٩٨ : ٢ البيان .

(٤) ١ : ٥ الكامل للبرد

(٥) ٥٥٢ مقدمة ابن خلدون

(٦) ٦ و ٧ الصناعتين

(٧) ومن هؤلاء طه حسين الذي يرى أن الجاحظ هو أول من اهتم بالبلاغة وأول مؤسس للبيان العربي حقاً (راجع ص ٣ و ٣٠ و ٣١ مقدمة نقد النثر بقلم طه حسين) .

في البيان كما يجمع آراء كثيرة في أصول النقد الأدبي وقوانين البلاغة العربية ، وقد نهج فيه الجاحظ منهجه الساحر ، وكتبه بأسلوبه العميق المحكم ، ورسم فيه صوراً صادقة لروح الأدب والبلاغة إلى عهده . والكتاب سجل للأدباء والشعراء والخطباء حتى عصر الجاحظ ، وهو ذو قيمة فذة في تاريخ الأدب والأدباء لاسيما المعاصرين للجاحظ ومن سبقوه بقليل ، وقد عنى فيه الجاحظ بتدوين المثل الساحرة من الأدب العربي : شعره ونثره ، وقاده الاستطراد إلى الإلمام بكثير من مسائل الأدب والنقد والبيان .

والكتاب ثمرة من ثمرات الرجولة المكتملة التي أحاطت بالجاحظ بعد أن ودع شبابه واستقبل عهد المشيب ، وهو لذلك آية من آيات الطبع المتمكن والذوق السليم والإحاطة التامة بالبيان وبلاغته ، وليس ذلك بكثير على الجاحظ شيخ العربية وبطلها .

وهو أصل من أصول الأدب ، وهو في أسلوبه وفي نهجه وفي رواياته وفي آرائه الأدبية خير معين لطلاب العربية والمتخصصين في آدابها .

وقيمته في البيان العربي خطيرة لما أودع فيه من شتى البحوث والآراء في البلاغة وعناصرها واتجاهاتها ومذاهبها وألوانها وغاياتها وأثرها ، سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته وتدوينه أم من ابتكاره ورأيه الشخصي واتجاهه الأدبي المستقل ، وفيما جمعه الجاحظ من ذلك الكثير مما لا يزال محل إعجاب الباحثين وتقديرهم ، وكفى أن تقرأ فيه : البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة ، أو كما رآها ابن المقفع أو كما تحدث عنها بشر بن المعتمر في صحيفة من تحبيره وتنميته إلى غير ذلك من شتى الآراء التي كتبها الجاحظ مستقلاً بالتفكير فيها .

وإذا كان للجاحظ نثر التلذذ والرواية - في كتابه - عن شيوخ العربية وأدبائها كالاصمعي وأبي عبيدة وابن الأعرابي وابن سلام وابن العاصي

وكباراهيم بن السندي وعبد الكريم بن روح الغفاري ومحمد بن بشير الشاعر وكثامة والنظام ، وسوى هؤلاء وهؤلاء فيجب أن لا ننسى أنه قد كان لعلماء الأدب والبيان الذين جاءوا بعد عصر الجاحظ هذا الفخر نفسه بالتمذة عليه وعلى كتابه « البيان » : كابن قتيبة وقدامة وأبي هلال والغاضي الجرجاني وعبد القاهر الجرجاني وسواهم .

ولقد خدم الجاحظ البيان العربي في كتبه عامة ، وكتابه البيان والتبيين خاصة ، فهو أظهر من أفرده بالتأليف وأسبقهم ، فوق ما جمع من مختلف الآراء والمذاهب فيه ، واجمع والإحصاء أول خطوات البحث والابتكار والتجديد ، ومنزلة العالم في الجمع لا يمكن الغض منها أو الاستهانة بها وإذا قرأت كتب الجاحظ لاسيما « الحيوان » ، و « البيان » عرفت منزلة الجاحظ في هذا السبيل .

والجاحظ فوق أثره الكبير في جمع آراء رجال البيان والبلاغة في مذاهبيهما وعناصرهما في كتابه « البيان » ، على الخصوص ، له وراء ذلك فضل خاص وجمد مستقل فيه ، فقد استقل ببحوث جديدة صبغها بشخصيته واستمدتها من عقليته وثقافته ، وعرفت له وحده دون سواه من الباحثين في البيان العربي وقواعده .

٦ - ولقد عاش الجاحظ في عصر ازدهر فيه الأدب ودراساته ، وحمل لواءه طوائف عدة :

١ - طبقة رواة الأدب العربي من البصريين والسكريين والبغداديين ، الذين كانوا يروونه لإشباعا لنهم فطرم وأذواقهم الأدبية العربية الخالصة ، من أمثال : خلف والأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد ويحيى بن نعيم وعمرو بن كركرة وابن سلام ، وأستاذهم أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية (١)

(١) ١٠٦ : ١ البيان والتبيين .

ومن عامة رواد الأدب والبيان الذين لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة السكرية ، وعلى الطبع المتمكن والسبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وفتحت للسان باب البلاغة - كما يقول الجاحظ - دون النحويين الذين ليس لهم غاية إلا كل شعر فيه إعراب ، والإخباريين الذين لا يقفون إلا على كل شعر فيه الشاهد والمثل ، واللغويين الذين لا يروون إلا كل شعر فيه غريب (١) .

٢ - ويجوار هذه الطبقة من الأدباء عاش الشعراء الذين طارت شهرتهم في آفاق الأدب العربي أمثال ابن هرمة وبشار وصالح بن عبد القدرس وأبي نواس وأبي العتاهية والسيد الحميري وأبان اللاحق ومنصور النري ومسلم الخاسر وابن أبي عيينة وبجي بن نوفل وخلف بن خليفة ومحمد بن بشير والعتابي ومسلم وأبي تمام (٢) . . ويجوار هؤلاء هؤلاء وجدت جماعات كثيرة من الخطباء ورجال الأدب والبيان من بيت بني علي وبني العباس ومن رجال الفرق الأدبية والسياسية والدينية لاسيما المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء (٣) .

٣ - طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوماً قط أمثل طريقة في البلاغة منهم ، والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً (٤) ، ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم (٥) ،

(١) ٢٢٤ : ٣ المرجع .

(٢) ٥٤ : ١ المرجع .

(٣) ١٠٦ : ١ البيان .

(٤) ١٠٥ : ١ البيان .

(٥) ٢٢٥ : ٣ المرجع .

وحكم مذهبهم في نقد البيان (١) ، وكان جلهم من عناصر أجنبية من الفرس والروم والسريان والقبط من الذين فهموا لغاتهم وبلاغتهم ثم قرأوا البيان والبلاغة العربية وآدابهما وأخذوا يتحدثون في اللغة العربية مذاهب جديدة في الكتابة والأدب والبيان ويدعون إلى آراء خطيرة تمس الذوق الأدبي وترضى اتجاه الحضارة والترف لعقلي والاجتماعي الذي داخل البيئة العربية منذ بدء القرن الثاني ، كما أخذوا يلقتون مذهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم والمشايخ لهم من شدة الأدب كما ترى في محاضرة بشر بن المعتمر المعنزي المتوفى سنة ٢٠٠ هـ في أصول البلاغة التي يقول الجاحظ عنها: إن بشر ابن إبراهيم ابن جبلة بن مخزومة وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا ، ثم دفع إليهم صحيفة من تجبيره وتميجه ، وهي في أصول البلاغة وعناصر البيان (٢) ؛ ومن رجالات هذه الطبقة أبو الدلاء سالم وولي هشام بن عبد الملك وعبد الحميد الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ (٣) وعبد الله بن المقفع وسهل بن هارون والحسن بن سهل والفضل بن سهل ويحيى بن خالد وجعفر بن يحيى وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف ومحمد بن عبد الملك الزيات وعمرو بن مسعدة وسواهم من كتاب الدولة الذين صدعوا بأدبهم وبلاغتهم إلى أرقى المناصب في الخلافة الإسلامية ، وكان لهذه الطبقة أثرها في بحث عناصر البيان وبلاغة الكلام ورسم المذاهب الأدبية التي توائم ذوق بيتهم وعصرهم مما نراه مبثوثا في كتاب البيان والتي لا تخرج عن أحكام الذوق الأدبي السليم ولا يتعمد أصحابها فيها مذاهب العلماء في الشرح والتحليل .

(١) ٢٤٠ : ١ المرجع

(٢) ١٠٦ : ١ المرجع

(٣) ١٥١ : ١ المرجع

وللجاحظ مذهب أدبي كامل دعا إليه في كتابه البيان والتبيين في مواضع متفرقة منه لاسيما الجزء الأول من كتابه الكبير، وهذا المذهب مستمد من عقليته وثقافته ويؤيده، وهو المظهر القوي من مظاهر شخصية الجاحظ الواضحة في كتابه البيان والتبيين .

ويمكننا إرجاع هذا المذهب إلى عناصره الأولى من: سحر اللفظ وتلاوم الحروف، ووضوح المعنى، وترك التكلف والتعقيد والإغراب والوحشية والسوقية، ومراعاة المقام وإصابة الغاية، مع الحدق والرفق والتخلص إلى حبات القلوب وإصابة عيون المعاني في سحر وإيجاز، ومع البعد عما يكره من مظاهر مذمومة في البيان مما يتعلق بخلق البليغ وخلقه وطبعه أوزيه، ومع الحرص على صيغ ذلك كله بصيغة الرجل وأسلوبه وظهور شخصيته وأثره فيه، ومع مساندة الأديب للحركة الفكرية العامة في بيئته، ومع الحرص على إظهار نشاط السامعين والقراء والاحتياط على ذلك؛ بالفكاهة الجميلة، والاستطراد الساحر، وبراعة الأسلوب وسحره وقوته، وبالرواية الكثيرة لأعلام الأدب والبيان التي تلتقي في روع السامع والقارئ روح الهيبة والإعجاب بهم وبالمؤلف، وبمناقشة الآراء التي تستحق المناقشة والنقد مما يجعل السامع والقارئ متطلعا مسائرا للمؤلف في اتجاهاته الفكرية والأدبية، إلى غير ذلك من عناصر هذا المذهب الأدبي التي ترجع إلى المعنى والأسلوب دون حرص على ترف البيان أو طلب لشيء ألوان البديع إلا إذا طلبها الطبع واستدعاها المقام .

ومن الجدير بالملاحظة أن كثرة الرواية في كتاب الجاحظ التي رآها بعض الباحثين المعاصرين من أسباب ضعف شخصيته إنما هو غرض قصد إليه الجاحظ وأراده، ليشعر القارئ بروحه ويؤمن بما يوجهه المؤلف إليه من آراء وأفكار، وليكتسب به رضاه وتقديره وإعجابيه . ولا أحيلك في فهم مذهب الجاحظ ذلك على صفحة من كتابه، فأقرأ أي صفحة

منه ؛ وقد ظهر الجاحظ في عصر شاع فيه اتجاهان أديان مختلفان : اتجاه يرمى إلى الظهور بمظهر البدواة التقليدى فى الأداء والتعبير فيؤثر الغريب من الألفاظ والمنهجى من الأساليب متناسياً روح العصر وذوقه ، واتجاه آخر تأثر بالحياة السياسية والاجتماعية وبالوان الحضارة فى العيش والتفكير ، فمال إلى رقة الأسلوب وسهولته ، مع حرص على إرضاء الطبع والذوق ، وشاهد الجاحظ هذه التيارات الفكرية والأدبية المنوعة وعاصرها ولكنة مال بطبعه وذوقه إلى الاتجاه الأخير ، وكتابه البيان كله دعوة إلى هذا الرأى ، فهو حيناً يشيد بأدب الكتاب ومذهبهم فى البيان ، وحيناً يكرر الدعوة إلى الوضوح والإفهام ومسايرة الذوق والطبع ، وحيناً ينقد مذاهب الصنعة فى الشعر ، وحيناً يدعو إلى ترك التكليف والتعقيد والتعقير وإثارة الأساليب السمجة الكريمة الساحرة .

ومن أجل ذلك كان الجاحظ يلقب حقاً بشيخ الكتاب وعرف بهذا اللقب فى حياته وبعد حياته .

والجاحظ أديب وكاتب ومرسل ومؤلف وناقد ، وليس شاعراً مع أن له شعراً ، ولا يضيره ذلك ، نعم لا يضيره أن يكون كما قال بديع الزمانى الهمذانى فيه : وهو من أحد شق البلاغة يقطف ، وفى الآخر يقف (١) ، فقد يجيد الرجل فى باب من أبواب الأدب دون باب ولا يفض ذلك من إحسانه فيما أحسن فيه .

ولكن البديع يبدو أنه كان يتعامل على الجاحظ تعامل من يريد أن يربح من طريقته كل من لم قدم فى الأدب والبلاغة ليظل هو العلم فى هذا المجال على

من العصور ، ولذلك نجد البديع ينقد أدب الجاحظ بأنه « بعيد الإشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، وأن الجاحظ منقاد فيه لعربان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، وأنه ليس له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة ^(١) .

وقد روى للجاحظ شعر قليل ، هو أشبه بشعر العلماء .

وأدب الجاحظ كما يقول فيه بعض الباحثين ^(٢) : أدب واقعي بل طبيعي ، يؤثر فيه التصريح على التلويح ، ويصور الحقيقة كما هي ، ويرى في ذلك السبيل الأقوم ، بل هو يدعو إلى هذا المذهب ، ويعيب من يرغب عنه .

وهو أدب حي ، مستمد من الدرس والتفكير والتجارب ، ولا تكاد تجد مؤلفاً يعطيك من هذه الثلاثة كما يعطيك الجاحظ ، فهو يشارك الرواة في سعة حفظه وروايته ، ويشارك الفلاسفة في تفكيره الحر واعتماده على المعقول ، ويبدد الجميع في ملابسته للناس على اختلاف طبقاتهم وفهمه لروح عصره . ولو قيض لمجموعة مصنفاته البقاء ، لكان لدينا صورة ناطقة عن عصر الجاحظ في كل مناحيه ، وعمما وصل إليه العلم والأدب والاجتماع .

ويعتمد أدب الجاحظ على عناصر شتى ، أفواها بلاغة العرب في الجاهلية والإسلام ، والكتابات والسنة ، وما نقل إلى العربية من آداب الفرس واليونان والهنود وفلسفتهم ، ولكن أظهر ما يكون فيه الرأي الشخصي والتفكير الحر .

لئن كان ابن المقفع إمام الكتاب في عصر الترجمة ، فالجاحظ إمامهم

(١) ٨٢ و ٨٣ المرجع .

(٢) راجع ص ٢٠ و ٢١ الجاحظ للخليل مردم .

في عصر الوضع والتأليف والإبداع وتكوين الأدب الحضري المرتكز على أسس العلم والمدنية والتفكير من غير أن يفقد شيئاً من فصاحة البداوة وروعيتها .

وهكذا فالجاحظ شرع طريقة التأليف في الأدب ، وكل من ألف بعده متأثر بطريقته شعر أم لم يشعر . قال ابن النديم في الفهرست : « ابن خلاد الرامهرمزي حسن التأليف مليح التصنيف يسلك طريقة الجاحظ » وقال أيضاً : « الأمدى مليح التصنيف جيد التأليف يتعاطى مذهب الجاحظ فيما يعمل من الكتب » .

ولم يقف أثره عند هذا الحد بل تعداه إلى أن أصبحت الكتاب ترسم خطاه في الإنشاء بل تقتبس جملة ذات الجلبة في السمع والروعة في النفس . قال القاضي الفاضل : « وأما الجاحظ فما منا معشر الكتاب إلا من دخل داره ، أو شن على كلامه الغارة .

٧ - و شخصية الجاحظ في مؤلفاته وأدبه تطالعك من كل جانب وناحية ، وهي شخصية رجل الفكر الواثق بنفسه وعقله وثقافته ومزله في مجتمعه حتى ليخاطب الوزراء والعظماء ويراسلهم كأنه منهم ، فلم يكن شخصيته في شخصياتهم ، بل رأهم إخوانه ، وله عليهم حق الصداقة ، ودالة الأخوة ، ولم يجبن عن توجيه العتاب واللوم إليهم في أحيان كثيرة . وأنت حين تقرأ في كتب الجاحظ تغيب في جو بعيد عنك تطل عليك فيه شخصية الرجل ، بسعة ثقافتها وبعد مكانتها ، وتبوجهها الساحر لعقل القارئ وفكره وشعوره ، حتى ليكاد ينسى أمامها نفسه ، ويشعر شعوراً صادفاً أنه قد نقل من جوه هو إلى جو آخر تشبع فيه روح قوية ساحرة تملك عليك عقلك وعاطفتك وتروحك بكثرة حفظها وروايتها ، كاتروحك بروعة فكرها وجلال بيانها ، وتتركك صريعاً في معارك فكرية ترى الجاحظ فارسها المعلم ، وترى قلبه

البلغ فيها عصا الساحر المتحدى التي تسترعى السمع والبصر . وتبتهت
الفكر والعقل وتلهب العاطفة والشعور .

والعجب أن سعة ثقافة الجاحظ وكثرة روايته في تأليفه جعلت كثيراً
من لا يفهمون الجاحظ يرونه كاتباً لاشخصية له ، تطمس شخصيات من
يروى لهم وينقل عنهم كل أثر لشخصيته ، فتقرأ الجاحظ وأنت تقرأ
لسواه ، وتبدو أمام عينيك صور شتى لرجال لا ترى الجاحظ فيهم ولا تلمس
آثاره بينهم .

ومنشأ ذلك أن الجاحظ رجل من الخاصة في فكره وفي كتابته وأسلوبه
وفي بحثه وتأليفه ، فإذا فكر فبعقل الخاصة ، وإذا كتب أو ألف فبأسلوبهم
ولمن يفكر في مجال تفكيرهم ، وليس ذلك لأن الجاحظ ، يستمسك بفائدته
ويضن بما عنده غيرة على العلم وشجا بثمره الفهم ، ولذلك كان كتابه « البيان ،
موقوفاً على أهله ومن كرع في حوضه ، أما الجاهل والمبتدىء فلا نفع له
من كتابه ، كما كان ابن شهيد . إنما ذلك لأنه كما أرى لا يستطيع إلا أن
يفكر تفكير الخاصة ، ويكتب بعقلهم وأسلوبهم ، ولأنه رجل يكتب
لنفسه قبل كل شيء ويرضى شهرته في تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية
على طريقة كتاب الموسوعات (١) وما دام الجاحظ كذلك فلن يستطيع أن
يفهمه إلا رجل مثله في فكره واتجاهه وثقافته ، ولن يتسنى لسكثير أن يفهموا
الجاحظ وأن يؤمنوا بشخصيته في كتبه ومؤلفاته ماداموا لا يستطيعون
مجاراته في نواحي ثقافته العقلية والأدبية . وحسب الجاحظ مجداً وخلوداً
ذكر أن يكون له كتاب مثل كتاب البيان والتبيين .

٨ - وللجاحظ مؤلفات كثيرة نذكر بعضها بإيجاز :

(١) راجع ٤٩ : ٢ النثر الفني لزيد مبارك .

(١) كتاب البيان : وقد أهداه إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاه عليه خمسة آلاف دينار ، والجاحظ يشير في مواضع متعددة من البيان إلى كتاب الحيوان ، وكان لظهور « البيان والتبيين ، ضجة كبيرة في الأدب والبيان حتى إنه حمل إلى الأندلس فيما حمل إليها من نفائس المؤلفات .

وكتاب « البيان ، ألفه الجاحظ على نمط طريف في التأليف ، من كثرة الرواية التي قصد الجاحظ من ورائها أن ينال بكتابه الشهرة والإعجاب كما يقول الجاحظ نفسه في كتابه ، وينال كتابه الذكر والذبيوع ، ومن كثرة الاستطراد الذي يستدر به الجاحظ نشاط القارىء . وإعجابه كما يقول الجاحظ في تعليقه له ، والجاحظ حين يعمل عدم ترتيبه للخطباء الذين ذكروا في كتابه ترتيباً يتمشى مع التاريخ بعجزه عن تنسيق ذلك يجب أن يقابل بتحفظ فالجاحظ لو أراد لما أجزه شيء ، إنما هو مذهبه في الاستطراد والانتقال .

ويبدو من أسلوب الكتاب أن الجاحظ كان يكتب أصوله - أو كثيراً منها - محاضرات يلقها على تلاميذه وطلابه وقد يسمع عليها أحياناً روحاً توأم بين هذه المحاضرات وبين ما يجب لمن أهدى إليه كتابه من تقدير وإجلال ، وأسلوب الجاحظ الاستطراذى جعل الجاحظ يعدنا في كتابه بأنه سيذكر الشيء ثم لا يذكره ولا يفي بوعدده ، وهذا الأسلوب الاستطراذى أيضاً جعل الجاحظ ينقد نفسه في ترتيب فصول كتابه وجعله يرسم منهجه في أجزاء كتابه في آخر الجزء الأول منه ، وجعله يضع في أماكن متعددة من كتابه عناوين مختلفة تقابل من القارىء بمزيد من الالتسام ، فهو يعنون فصولاً بباب البيان وأخرى بسميها باب الصمت وأخرى باب اللحن أو باب الزهد إلى آخر هذه الألقاب ، التي نعم أن الجاحظ لم يرد شيئاً منها ولم يضعها إلا للتغريب بالقارىء واكتساب نشاطه وامتحان ملكاته

ويقول بعض العلماء : نخر أهل البصرة بأربعة كتب : كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الحيوان له ، وكتاب سيبويه ، وكتاب العين للخليل .

(٢) كتاب الحيوان : وقد ألفه الجاحظ قبل كتاب البيان والتبيين ، وأهداه إلى صديقه محمد بن عبد الملك الزيات ، فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار ، وهو أول كتاب ألف في موضوعه ، وقد طبع في سبعة أجزاء ، ويبحث عن طبائع الحيوان ، وما ورد فيه من الأخبار والقصص والنوادر والخرافات والفكاهة والمجون ، وما قالته العرب فيه من الشعر فضلا عما اختبره المؤلف بنفسه .

وفي استطراد الجاحظ الكثير في هذا الكتاب ، يقف القارئ في أثناء ذلك على أخبار ممتعة وفوائد قيمة تمثل له المعارف الإسلامية وما بلغته في القرن الثالث . فمناك أشعار الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين والمحدثين ، وهناك تفسير كثير من آي القرآن والحديث ، وهناك آراء المتكلمين ومذاهب الفرق الإسلامية ، وهناك شبه الملحدين والزنادقة والرد عليهم ، أضاف إلى ذلك معارف الهنود واليونان والفرس بما ترجمه العرب وبما تسوق إليه المناسبة في ذلك الكتاب ، فضلا عن أنه يصور كثيرا من وجوه الحياة في القرن الثالث .

(٣) كتاب البخل : وهو كتاب طريف جمع فيه الجاحظ أخبار البخلاء ونوادر الأشياء ، وصدرة برسالة سهل بن هرون في البخل وهي من أبلغ وأمتع وأنفس ما كتب في هذا الموضوع . والكتاب ممتع جذاب لما فيه من فكاهات ساحرة .

ولقد أضاف إليه الجاحظ ما اتفق له من النوادر مع بعض البخلاء ، ولا يخلو من آراء سديدة في الاقتصاد والتدبير .

(٤) كتاب المحاسن والأعذار : وهو كتاب حسن جمع الجاحظ فيه

نحو ثمانين موضوعاً متقابلة ، فهو يعقد للموضوع فصلاً يذكر فيه محاسنه ثم يعقبه بضده وهكذا إلى آخر الكتاب . وقد بدأه بذكر محاسن الكتابة وختمه بذكر شيء من محاسن الموت ، وجميع المواضع التي عالجه ذات بال : كمحاسن الجواب والمشورة والعفو والوفاء وحب الوطن وأضداها . وقد صرح الجاحظ في المقدمة بأنه لم يسبق إلى هذا الكتاب بقوله : « وهذا كتاب وسمته بالمحاسن والأضداد لم أسبق إلى نحلته ولم يسألني أحد صنعه ، والكتاب من أكثر كتب الجاحظ تنسيقاً وترتيباً وأشدها مراعاة لحسن الشبويب وضم كل معنى إلى مشاكله . وقد جرى على سننه البيهقي فألف كتاباً سماه « المحاسن والمساوي » .

(٥) كتاب التاج في أخلاق الملوك : يبحث عما يتعلق بأمر الملوك في السياسة والتدبير وفي حياتهم الخاصة وآداب مجالستهم ورسوم الدخول عليهم ومخادتهم وما إلى ذلك من أحوالهم العامة والخاصة ، وفيه شواهد عن ملوك الفرس وخلفاء العرب . والكتاب يدل على ما بلغه العرب من العزة والسلطان ورسومهم في الحضارة . وما يظن أن رسوم أعرق قصر بالمدنية في الوقت الحاضر تفوق ما ورد في ذلك الكتاب من الرسوم والآداب .

(٦) الفصول المختارة من كتب الجاحظ : وهو كتاب اختاره عبيد الله بن حسان من عشرين كتاباً للجاحظ وهذه أسماؤها : كتاب الحاسد والمحسود ، كتاب المعلمين ، كتاب التربيح والتدوير ، كتاب مدح النبيذ ، كتاب طبقات المغنين ، كتاب النساء ، كتاب مناقب الترك ، كتاب حجج النبوة ، كتاب مسائل القرآن ، وفيه بحث عن خلق القرآن ، كتاب الرد على النصاري ، كتاب المودة والخلطة ، كتاب استحقاق الإمامة ، كتاب استنجاز الوعد ، كتاب تفضيل النطق على الصمت ، كتاب صناعة الكلام ، كتاب مدح التجارة وذم عمل السلطان ، كتاب الشارب والمشروب ، كتاب الإمامة ، كتاب مقالة الزيدية والرافضة .

(٧) ثلاث رسائل للجاحظ هي : الرد على النصارى التي مر ذكرها مع
الفصول المختارة ؛ ذم أخلاق الكتاب ، رسالة القيان .

(٨) الحنين إلى الأوطان .

(٩) إحدى عشرة رسالة طبعت في مصر ذكر أكثرها في الفصول
المختارة وما لم يذكر منها هو : نخر السودان على البيضان ، كتاب
الوكلاء والموكلين .

(١٠) رسالة في بني أمية : وقد سماها بعضهم رسالة النابتة .

(١١) كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير : فيه كثير من
الأدلة العقلية على وجود الخالق وحكمته وتدييره وهو كتاب قيم وأسلوبه
عال ولكننه بأسلوب الحكماء أشبه .

ومن كتبه المخطوطة التي لم تطبع بعد : كتاب المعرفة ، كتاب نظم
القرآن ، كتاب التسوية بين العرب والعجم ، كتاب السلطان وأخلاق أهله ،
كتاب البلدان ، كتاب الأخبار ، كتاب المغنين والغناء والصناعة ، كتاب
آى القرآن ، كتاب حانوت عطار ، كتاب التمثيل ، كتاب فضل العلم ، كتاب
جمهرة الملوك ، كتاب عناصر الآداب ، كتاب الأمثال ، كتاب الرسالة
اليتيمة ، رسالة في القضاة والولاة ، كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية ،
كتاب العالم والجاهل .

(٩) ألوان من نثر الجاحظ

الكلام البليغ :

ومنى شاكل - أبقاك الله - اللفظ معناه ، وكان لذلك الحال وفقاً ،
ولذلك القدر لفقاً ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ،
كان قننا بحسن الموقع ، وحقيقاً بانفتاح المستمع ، وجديراً أن يمنع صاحبه
من تأويل الطاعنين ، ويحمي عرضه من اعتراض العائنين . ولا تزال القلوب
به معمورة ، والصدور به مأهولة .

ومنى كان اللفظ أيضاً كريماً في نفسه ، متخييراً من جنسه ، وكان سليماً
من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبيب إلى النفوس ، واتصل بالأذهان ،
والتحم بالعقول ، وهشت له الأسماع ، وارتاحت له القلوب ، وخف على
ألسن الرواة ، وشاع في الآفاق ذكره ، وعظم في الناس خطره ، وصار
ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعم الريض . ومن أعاره من معرفته
نصيياً ، وأفرغ عليه من محبته ذنوباً ، خبت إليه المعاني ، وسلس له نظام
اللفظ ، وكان قد أغنى المستمع عن كد التكلف ، وأراح قارئ الكتاب
من علاج التفهم .

كلام الرسول :

عاب النبي صلى الله عليه وسلم التشديق ، وجانب أصحاب التعمير ،
واستعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر
الغريب الوحشي ، ورغب عن المهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميرات
حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حنف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر
بالتوفيق ، وألقى الله عليه من المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة
والخلابة ، وبين حسن الإفهام والإيجاز ، ومع استغنائاه عن إعادته ، وقلة

حاجة السامع إلى معارذته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت به قدم ، بل يبذ
الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتبس اسمكات الخصم إلا بما يعرفه
الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين
بالخلافة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهزم ولا يلز ، ولا يبطل ولا يعجل ،
ولا يسهب ولا يحصر .

وما سمع كلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعبدل وزنا ،
ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا
من كلامه صلى الله عليه وسلم .

جوامع كلبه :

يجب للرجل أن يكون سخياً لا يبلغ التبذير ، شجاعاً لا يبلغ الهوج ،
محترساً لا يبلغ الجبن ، ماضياً لا يبلغ القعة ، قوالاً لا يبلغ الهذر ، صموتاً
لا يبلغ العي ، حليماً لا يبلغ الذل ، منتصراً لا يبلغ الظلم ، وقوراً لا يبلغ
الظلم ، وقوراً لا يبلغ البلادة ، نافداً لا يبلغ الطيش ثم وجدنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم قد جمع ذلك في كلمة واحدة وهي قوله : « خير الأمور
أوساطها ، فعلمنا أنه صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الحكم وعلم
فصل الخطاب .

سحر البيان :

قال بعض الربانيين وأهل المعرفة من البلغاء ، ممن يكره التشاؤم والتعمق ،
ويبغض الإغراق في القول والتكلف والاجتلاب ويعرف أكثر أدواء
الكلام ودوائه وما يعترى المتكلم من الفتنة بحسن ما يقول وما يعرض
للسامع من الافتتان بحسن ما يسمع : أنذركم حسن الألفاظ وحلاوة مخرج
الكلام ، فإن المعنى إذا اكتسى لفظاً حسناً وأعاره البليغ مخرجا سهلا ومنحه

المتكلم قولا متعشقا ، صار في القلب أحلى ، وللصدر أملا . والمعاني إذا كسبت الألفاظ الكريمة ، وألبست الأوصاف الرفيعة ، تحولت في العيون عن مقادير صورها ، وأربت على حقائق أقدارها ، بقدر مازينت ، وعلى حسب ما زخرفت . والقلب ضعيف ، وسلطان الهوى قوى ، ومدخل خدع الشيطان خفي .

بلاغة العرب :

كل شيء للعرب فإنما هو بديهية وارتجال وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجمالة فكر ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصام أوحين أن يمتح على رأس بئر أو يحدو ببعير أو عهد المفارعة والمناظرة أو عند صراع أوفى حرب . فسا هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني ارسالا وتنتال عليه الألفاظ اثتالا ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه أحدا من ولده . وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أندر وأقهر ، وكل واحد في نفسه أنطق ومكانه في البيان أرفع ، وخطباؤهم أوجز والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم . من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب ، وإن شيئا الذي في أيدينا جزء منه ، بالمقدار الذي لا يعمله إلا من أحاط بقطر السحاب وعدد التراب ، وهو الذي يحيط بما كان والعالم بما سيكون .

ونحن - أبقاك الله - إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والارجاز ، ومن المنثور والأبجاء ومن المزدوج وما لا يزدوج ، فعنا نعلم

على أن ذلك لهم شاهد صادق ، من الديباجة الكريمة ، والرواق العجيب ،
والسبك والنمات الذي لا يستطيع أشعر تناس اليوم ولا أرفعهم في البيان
أن يقول في مثل ذلك إلا في اليسير والتبذ تغليل ، ونحن لا نستطيع أن نعلم
أن الرسائل التي في أيدي الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة
غير مولدة ، إذ كان مثل ابن المقفع وسهل بن هرون وأبي عبيد الله
وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل
ويصنعوا مثل تلك السير .

وأخرى أنك متى أخذت بيد الشعوب فأدخلته بلاد الأعراب الخالص ،
ومعدن الفصاحة التامة ، ووقفته على شاعر مقلق ، أو خطيب مصقع ، علم
أن الذي قلت هو الحق ، وأبصر الشاهد عيانا .

فماذا فرق ما بيننا وبينهم ، فتفهم عنى - فهدك الله - ما أنا قائل في هذا ،
واعلم أنك لم تر قوما قط وأشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ،
ولا أشد استهلاكا لعرضه ، ولا أطول نصبا ، ولا أقل غنا ، من أهل هذه
النهلة . وقد شفى الصدور منهم طويل جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد
نار الشنآن في قلوبهم ، وغيلان تلك المراجل الفائرة ، وتسعر تلك النيران
المضطربة . ولوعرفوا أخلاق كل ملة ، وزى كل لغة ، وعلمهم في اختلاف
إشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيئاتهم ، وما علة كل شيء من ذلك ، ولم
اختلقوه ولم تكلفوه ؟ ، لأراحوا أنفسهم ، وتخففت مؤونتهم على من
خالطهم .

الكتاب :

الكتاب وعاء مليء علما ، وظرف حشى ظرفا ، وإناء شخن مزاحا وجدا ،
إن شدت كان أبين من سبحان وائل ، وإن شدت كان أعبي من باقل ، وإن شدت

ضحكت من نوادره ، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده ، وإن شئت ألهتكَ
طرائده ، وإن شئت أشجبتك مواعظه . ومن لك بواعظ مله ، وبزاجر
مغر ، وبنامك فاتك ، وبناطق أخرس .

ومتى رأيت بستاناً يحمل في ردن ؟ وروضة تقلب في حجر ، وناطقاً
ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ،
ولا ينطق إلا بما تهوى . آمن من الأرض ، وأكتم للسر من صاحب السر ،
وأحفظ للوديعه من أرباب الوديعه .

ولا أعلم جاراً أبر ، ولا خليطاً أنصف ، ولا رقيقاً أطوع ، ولا معلماً
أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية ولا أقل إملالا وإبراما ولا أكثر أعجوبة
وتصرفا ولا أقل تصلفا وتكلفا ولا أبعد من مرآه من كتاب .

ولا أعلم نتاجاً في حدائثه سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان
وجوده ، يجمع من التداير العجيبة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول
الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة
والتجارب الحكيمة ، ومن الإخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازحة
والأمثال السائرة والأمم البائدة ، ما يجمع لك الكتاب .

صامت ما أسكته وبلغ ما استنطقته ، ومن لك بمسامر لا يبتديك
في حال شغلك ويدعوك في أوقات نشاطك ، ولا يجوجك إلى التجمل له
والتدغم منه .

والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إبتاعك ، وشحذ طباعك ،
وبسط لسانك وجود بيانك ونغم ألفاظك ، ونجح نفسك وعمر صدرك
ومنحك تعظيم العوام ، وصدقة الملوك . وعرفت به في شهر ، ما لا تعرفه
من أفواه الرجال في دهر ، مع السلامة من الغرم ومن كد الطلب ومن

الوقوف بباب المكتسب بالتعليم ، ومن الجلوس بين يدي من أنت أفضل منه خلقاً وأكرم عرقاً ومع السلامة من مجالسة البغضاء ، ومقارنة الأغبياء .

قال ابن الجهم : ، إذا غشيتي النعاس في غير وقت نوم - وبئس الشيء النوم الفاضل عن الحاجة - تناولت كتاباً من كتب الحكمة ، فأجد اهتزازي للقوائد ، والأريحية التي تعتريني عند الظفر ببعض الحاجة ، والذي يغشى قلبي من سرور الاستبانة أشد إيقاظاً من هدة الهدم . وإذا استحسنيت الكتاب واستجذته ورجوت منه الفائدة ورأيت ذلك فيه ، فلو تراني وأنا ساعة بعد ساعة أنظر كم بقي من ورقه مخافة استنفاده وانقطع المادة من قلبه . وإن كان المصحف عظيم الحجم كثير الورق كثير العدد ، فقد تم عيشي وكل سروري .

فالإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه ، ولا بد من أن تكون كتبه أكثر من سماعه ، ولا يعلم ولا يجمع العلم حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألد عنده من الإنفاق من مال عدوه ، ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتاب ألد عنده من عشق القيان لم يبلغ في العلم مبلغاً رصياً ، وليس ينتفع بإنفاقه ، حتى يؤثر اتخاذ الكتاب لإيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله ، وحتى يؤمل في العلم ما يؤمل الأعرابي في فرسه .

سياسة الحزم :

من لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة ، وقتل في موضع القتل ، وأحيى في موضع الإحياء ، وعفا في موضع العفو وعاقب في موضع العقوبة ، ومنع ساعة المنع ، وأعطى ساعة الإعطاء ، خالف الرب في تدييره ، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه . وقد قالوا : بعض القتل إحياء للجميع ، وبعض العفو إغراء ، كما أن بعض المنع إعطاء . ولا خير فيمن كان خيره محضاً ،

وشر منه من كان شره صرفا ، ولكن اخلط الوعد بالوعيد ، والبشر بالعبوس ، والإعطاء بالمنع ، والحلم بالإيقاع ، فإن الناس لا يهابون ولا يصلحون إلا على الثواب والعقاب ، والأطعام والإغاثة . ومن أخاف ولم يقع وعرف بذلك كان كمن أطمع ولم ينجز وعرف بذلك ، ومن عرف بذلك دخل عليه بحسب ما عرف منه ، فخير الخير ما كان مزوجا ، وشر الشر ما كان صرفا .

ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده . لسكان الله عز وجل أولى بذلك الحكم . وفي إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة في جميع الأقطار وفي جميع الأعصار على استعمال المكروه والمحبوب ، دليل على أن الصواب فيه دون غيره ، وإذا كان الناس إنما يصلحون على الشدة واللين ، وعلى العفو والانتقام ، وعلى البذل والمنع ، وعلى الخير والشر ، عاد ذلك الشر خيرا ، وذلك المنع إعطاء ، وذلك المكروه محبوبا . وإنما الشأن في العواقب وفيما يدوم ولا ينقطع وفيما هو أدوم ومن الانقطاع أبعد .

الصوت :

أمر الصوت عجيب ، وتصرفه في الوجوه عجب ، فمن ذلك أن منه ما يقتل كصوت الصاعقة ، ومنه ما يسر النفوس حتى يفرط عليها السرور فتقلق حتى ترقص ، وحتى ربما رمى الرجل بنفسه من حائق وذلك مثل هذه الأغانى المطربة . ومن ذلك ما يكمد ، ومن ذلك ما يزيل العقل حتى يغشى على صاحبه كنعو هذه الأصوات الشجية والقراءات الملهنة ، وليس يعتبر بهم ذلك من قبل المعاني لأنهم في كثير من ذلك لا يفهمون ، وقد بكى ماسر جوبه من قراءة أبي الخوخ ، فقليل له : كيف بكيت من كتاب الله ولا تصدق به ؟ قال : إنما أبكاني الشجا .

وبالأصوات ينومون الصبيان والأطفال والدواب تصر آذانها إذا غنى المسكاري والإبل تصر آذانها إذا حدا في آثارها الحادى وتزداد نشاطا

وتزيد في مشيها . ويجمع بها الصيادون السمك في حظائرهم التي يتخذونها له ، وذلك أنهم يضربون بعصى معهم ويعططون فتقبل أجناس السمك شاخصة الأبصار ، مصغية إلى تلك الأصوات حتى تدخل في الحظيرة . ويضرب بالطساس للطير وتصاد بها . ويضرب بالطساس للأسد وقد أقبلت فتروعماً تلك الأصوات . وقال صاحب المنطق : الأيايل تصاد بالصغير والغناء ، والصغير تسقى به الدواب ، وتنفر به الطير عن البذور .

العرب :

لم يكونوا تجارا ولا صناعا ، ولا أطباء ولا حسابا ، ولا أصحاب فلاحه فيكونوا مهنة ولا أصحاب زرع لخوفهم صغار الجزية . ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب ولا أصحاب احتكار لما في أيديهم وطلب لما هتدغيرهم ولا طلبوا المعاش من السنة الموازين ورءوس المكاييل ولا عرفوا الدوانيق والقراريط ، ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة ، ولم يستغنوا الغنى الذي يورث البلادة ، والثروة التي تحدث الغرة . ولم يحتملوا ذلًا قط فيميت قلوبهم ، ويصغر عندهم أنفسهم . وكانوا سكان فياف وتربية العراء ، لا يعرفون العمق ولا اللثق (١) ، ولا البخار ولا الغلط ؟ ولا العفن ولا التخم ، أذهان حديدية ، ونفوس منكورة ، فحين حملوا حدم ووجهوا قواهم إلى قول الشعر وبلاغة المنطق وتقييف اللغة وتصارييف الكلام ، وقيافة البشر بعد قيافة الأثر ، وحفظ النسب ، والاهتمام بالنجوم والاستدلال بالأثار وتعرف الأنواء ، والبصر بالخييل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع ، والاعتبار بكل محسوس ، واحكام شأن المناقب والمثالب ، بلغوا في ذلك الغاية ، وحازوا كل أمنية ؛ وبعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر ومهمهم أرفع وهم من جميع الأمم أغر ولا يأمهم أذكر .

(١) العمق : الفساد من كثرة الأنداء . واللثق : نحوه .

ألوان من رسائل الجاحظ

رسالة في الاعتذار :

أما بعد فنعم البديل من الزلة الاعتذار ، وبئس العوض من التوبة الإصرار ، وإن أحق من عطفت عليه بحملك ، من لم يستشفع إليك بغيرك . ولأني بمعرفتي بمبلغ حلك وغاية عفوك ضمنت لنفسى العفو من زلتها عندك ، وقد منسى من الألم ما لم يشفه غير مواسلتك .

رسالة أخرى في الاعتذار :

قال الجاحظ :

تشاغلنا مع الحسن بن وهب بشرب النبيذ أياما فطلبني محمد بن عبد الملك الزيات لمؤانسته فأخبرته باتصال شغلي مع الحسن بن وهب فتذكر لي وتلون علي فكتبت إليه رقعة نسختها :

أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجح في قلبك إيثار الأناة ، فقد خفت - أيدك الله - أن أكون عندك من المنسويين إلى نزق السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء . وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإن امرءاً أمسى وأصبح سالماً من الناس إلا ما جنى لسعيد
وقال الآخر :

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل
فإن كنت اجترأت عليك - أصلحك الله - فلم أجترى إلا لأن دوام
تغافلك عني شبيه بالإهمال الذي يورث الإغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من
المكافأة ، ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : د عمر
كان خيراً لي منك ، أرهبني فاتقاني ، وأعطاني فأغواني .

فإن كنت لاتهب عقابي - أيدك الله - لخدمة ، فبه لا ياديك عندي ،
فإن النعمة تشفع في النقمة ، وإلا تفعل ذلك لذلك فعد إلى حسن العادة ،
وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة ، وإلا فأنت ما أنت أهله من العفو دون
ما أنا أهله من استحقاق العقوبة . فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد .
وتتجافى عن عقاب المصير ، حتى إذا صرت إلى من هفوته ذكر ، وذنبه
نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك والإينام إلى منك ، هجمت عليه بالعقوبة .
واعلم - أيدك الله - أن شين غضبك على كرين صفحك عنى ، وأن موت ذكرى
مع انقطاع سببى منك كحياة ذكرك مع اتصال سببى بك ، واعلم أن لك فطنة
عليم ، وغفلة كريم ، والسلام .

رسالة في الشوق :

ما أضاء لى نهار ولا دجاليل مذفارتك إلا وجدت الشوق إليك قد حزن
في كبدى ، والأسف عليك قد أسقط في يدي ، والنزاع نحوك قد خان جلدى .
فأنا بين حشا خائفة ، ودمعة مهراقة ، ونفس قد ذبلت بما تجاهد ، وجوانح
قد أبلت بما تكابد ، وذكرت - وأنا على فراش الارتماض ، بمنوع من لذة
الاغتماض - قول بشار :

إذا هتف القمرى نازعنى الهوى بشوق فلم أملك دموعى من الوجد
أبى الله إلا أن يفرق بيننا وكنا كاه المزن شيب مع الشهد
لقد كان ما بينى زمانا وبينها كما كان بين المسك والعنبر الورد

فانتظم وصف ما كنا نتعاشر عليه ونجربى في مودتنا إليه ، في شعره
هذا . وذكرت أيضاً ما رماني به الدهر من فرقة أعزائى من إخوانى
الذين أنت أعزهم ، ويمتحننى بمن نأى من أحبائى وخلصائى الذين أنت أحبهم
وأخلصهم ، ويجرعني من مرارة نأيمهم وبعد لقائهم ، وسألت الله أن يقرن
آيات سرورى بالقرب منك ، ولين عيشى بسرعة أربتك ، وقلت أحياناً تقصر
عن صفة وجدى وكنه ما يتضمنه قلبى وهى :

بجدي من قطر الدموع ندوب وبالقلب منى مذ نأيت وجيب
ولى نفس حتى الدجى يصدع الحشا ورجع حنين للفؤاد مذيب
ولى شاهد من ضر نفسى وسقمها يخبر عنى اننى لكئيب
كأنى لم أجمع بفرقة صاحب ولا غاب عن عيني سواك حبيب

رسالة له إلى ابن الزيات :

لا والله ما عالج الناس داء قط أدوى من الغيظ ولا رأيت شيئاً هو أنفذ
من شماتة الأعداء ولا أعلم باباً أجمع لحصال المكروه من الذل . ولكن
المظلوم ما دام يجد من يرجوه والمبتلى ما دام يجد من يرثى له فهو على سبب
درك، وإن تطاولت به الأيام ، فكم من كربة فادحة وضيقة مصمتة قد فتحت
أفقالها وفككت أغلالها، ومهما قصرت فيه فلم أقصر فى المعرفة بفضلك وفى
حسن النية بينى وبينك، لامشئت الهوى ولا مقسم الأمل، على تقصير قد احتملته .

إلى الفتح بن خاقان :

كان الفتح بن خاقان وزير المتوكل على الله العباسى ، أكبر رجل فى
دار الخلافة ، وكان من عظماء الدولة وأصحاب المكانة والسلطان فيها ،
وكان على جانب عظيم من الدهاء والسياسة والفضل ، وكان مقصود الجانب
من أكابر العلماء ، وغرول الأدباء ، وأرباب القلم من كل فن ونوع ، وكان
محباً للجاحظ ، معجباً بأدبه وفضله وسعة معارفه ، وكان الجاحظ يراه أهلاً
للإيثار ، ويعتده أثيراً بالاعتبار ، فألف له رسالته المشهورة فى مناقب
الترك وهامة جند الخلافة ، ورفعها إليه بهذه المقدمة الجاحظية
البارعة ، قال :

« وفقك الله لرشدك ، وأعان على شكرك ، وأصلحك وأصاح على
يديك ، وجعلنا وإياك بمن يقول الحق ويعمل به ، ويؤثره ويحتمل
ما فيه بما قد يصد عنه ، ولا يكون حظه منه الوصف له والمعرفة به ، دين

ألحى عليه ، والانقطاع إليه ، وكشف القناع عنه ، وإيصاله إلى أهله ،
والصبر على المحافظة في أن لا يصل إلى غيرهم ، والتثبت في تحقيقه لديهم . فإن
الله تعالى لم يعلم الناس ليسكونوا عالمين دون أن يكونوا هاملين ، بل عليهم
ليعملوا ويبين لهم ليتقوا . ولخوف الوقوع في المضار ، والتورط في المهالك ،
طلب الناس التبين . ولحب السلامة من الهلكة والرغبة في المنفعة احتملوا
ثقل التعلم ، وتعجلوا مكروه المعاناة . ولقلة العاملين وكثرة الواصفين ، قال
الأولون : العارفون أكثر من الواصفين ، والواصفون أكثر من العاملين .
وإنما كثرت الصفات وقلت الموصوفات ، لأن ثواب العمل مؤجل ، واحتمال
ما فيه معجل .

وقد أعجبنى ما رأيت من شغفك بطاعة إمامك ، والمحاماة لتدبير
خليفتك ، وإشفاقك من كل خلل دخل على ملكه وإن دق ، ونال سلطانه
وإن صغر . ومن كل أمر خالف هواه وإن خفي مكانه ، وجانب رضاه
وإن قل ضرره . ومن تخوفك أن يجد المتأول إليه متطرفاً ، والعدو عليه
متعلقاً . فإن السلطان لا يخلو من متأول ناظم ، ومن محكوم عليه ساخط ،
ومن معدول عن الحكم زار ، ومن متعطل متصفح (١) ومن معجب برأيه
ذى خلل في بيانه ، مولع بتهجين الصواب والاعتراض على التدبير ، حتى
كأنه رائد لجميع الأمة ، ووكيل لسكان المملكة ، يضع نفسه في موضع الرقباء ،
وفي موضع التصفيح على الخلفاء والوزراء ، لا يعذر وإن كان مجاز العذر
واضحاً ، ولا يقف فيما يكون للشك محتملاً ، ولا يصدق بأن الشاهد يرى
مالا يرى الغائب وأنه لا يعرف مصادر الرأي من لم يشهد موارده ،
ولا مستدبره من لم يعرف مستقبله . ومن محروم قد اضطغنه الحرمان .
ومن لئيم قد أفسده الإحسان . ومن مستبطن قد أخذ أضعاف حقه ، وهو

(١) المتصفح : المقاب لوجوه الأشياء على ما يوجب المؤاخذة
والانتقاد .

لجهله بقدره ، واضيق ذرعه ، وقلة شكره ، يظن أن الذي بقي له أكثر ، وأن حقه أوجب . ومن مستزيد لو ارتجع السلطان سالف أياديه البيض عنده ، ونعمه السالفة عليه . لكان لذلك أهلا وله مستحقاً . قدغره الإملاء ، وأبطره دوام الكفاية ، وأفسده طول الفراغ .

ومن صاحب فتنة عامل في الجماعة ، رئيس في الفرقة ، نفاق في الهرج ، قد أقصاه عز السلطان ، وأقام صغوه ثقاف الأدب ، وأذله الحكم بالحق ، فهو مغيط لا يجد غير التشنيع ، ولا يتشفي بغير الإرجاف ، ولا يستريح إلا إلى الأمانى ، ولا يأنس إلا بكل مرجف كذاب . ومفتون مرتاب ، وخارص (١) لاخير فيه ، وخالف لا غناء عنده . يريد أن يسوى بالكفاة ويرفع فوق الحماة ، لأمر سالف له ، وإحسان كان من غيره . وليس بمن يرب (٢) قديماً بحديث ، ولا يحفل بدروس (٣) شرف ، ولا يفصل بين ثواب المحسنين ، وبين الحفظ لأبناء المحسنين . وكيف يعرف فرق ما بين حق الذمام وثواب الكفاية ، من لا يعرف طبقات الحق في مراتبه ، ولا يفصل بين طبقات الباطل في منازلها ؟

ثم أعلمتني بذلك أنك بنفسك بدأت في تعظيم إمامك ، والحفظ لمناقب أنصار خليفتك ، وإياها حطت بحياطتك لأشباعه ، واحتجاجك لأولياؤه . ونعم العون أنت إن شاء الله على ملازمة الطاعة ، والموازرة على الخير ، والمكافئة لأهل الحق . وقد استدلت بالذى أرى من شدة عنايتك وفرط أكثرائك وتفقدك لأخاير الأعداء ، وبحثك عن مناقب الأولياء . على أن ما ظهر من نصحك أمم (٤) في جنب ما بطن من إخلاصك ، فأمتع الله بك خليفته ، ومنحنا وإياك محبته ، وأعاذنا من قول الزور ، والتقرب بالباطل . إنه حميد مجيد ، فعال لما يريد .

(١) الخارص : الكذاب الختلق الأباطيل . (٢) يرب : يزيد ويصلح .

(٣) الدروس : النحو والابلاء . (٤) أمم . قريب ظاهر .

النقد في العصر العباسي الأول

انقسم نقاد الأدب وعلماؤه في هذا العصر إلى طبقات :

١ - فطائفة من النقاد تقف لإعجابها وتقديرها على الشعر القديم ، وزرى بشعر المحدثين وفنهم لما فيه من إسفاف وإغراق وإحالة ونقص طبع وتفاوت نفس وتباين ملكات ، - وهم علماء الأدب واللغة الذين تتفقوا ثقافة أدبية وعربية خالصة ولم يتزودوا بزاد آخر من الثقافات الحديثة .

ومن هؤلاء : أبو عمرو بن العلاء م ١٥٤ هـ ، وكان أعلم الناس بالعربية وجلس إليه الأصمعي عشرين سنة فما سمعه يحتج ببيت إسلامي (١) ، وكان يقيم الموازنة بين الشعراء على أساس عصورهم ، لا على أساس شعرهم حتى قال : لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحداً (٢) . وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للتقدمين وسئل عن المولدين فقال : ما كان من حسن فقد سبقوا إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم (٣) ، وكان كما يقول ابن سلام في طبقات الشعراء : أشد الناس تسليماً للعرب .

ومنهم ابن الأعرابي م ٢٣١ هـ ، وكان يزرى بأشعار المحدثين ويشيد بشعر القدماء (٤) فكان يقول في شعر أبي تمام : وإن كان هذا شعراً

(١) الشعر والشعراء ص ٧ ، البيان والتبيين ٢٠٩ : ١ ، العمدة ٧٣ : ١

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١٠٥ .

(٣) العمدة ٧٣ : ١

(٤) الموازنة ٨ ، الموشح ٣٠٤ ، أخبار أبي تمام ٢٤٤

فكلام العرب باطل (١) ، وأنشده ابن الطوسي أرجوزة لأبي تمام على أنها لبعض شعراء هذيل فاستحسنها وكتبها فلما علم أنها لحبيب قال خرقوها (٧) ، وكان ابن الأعرابي يعيب شعر أبي نواس فأنشده رجل شعراً له وهو لا يعرف قائله فأعجب به إعجاباً شديداً وكتبه ، فلما علم أنه لأبي نواس أنكره (٢) ، وكان يستشهد في كتابه النوادر بكثير من أشعار المحدثين ، ولعله لو علم بذلك ما فعله (٤) ، وكان يقول : ختم الشعر بابن هرمة (٥) ؛ وكان الأصمعي يقول : ختم الشعر بالرماح (٦) ، وقال : بشار خاتمة الشعراء والله لو لا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم (٧) ؛ وكان أبو حاتم يعيب شعر أبي تمام (٨) .

ومنهم إسحاق الموصلي الذي كان في كل أحواله ينصر الأوائل ، وكان شديد العصبية لهم (٩) ، فتعصب على أبي نواس (١٠) ، وطعن على أبي العتاهية (١١) ،

(١) المرجع السابق .

(٢) التصحيف والتعريف ٨٥ ، المثل السائر ٣١٥ ، أخبار أبي تمام ١٧٥ ، ص ٤٥ وما بعدها من الصناعتين ، رسائل ابن المعتز ١٣ ، الموازنة ١٠٠ . وراجع ٥٠ وما بعدها من الوساطة .

(٣) راجع ٢٨٩ : ١ زهر

(٤) أخبار أبي تمام للصولي ١٧٧

(٥) العمدة ٧٣ : ١

(٦) البيان ١٩٧ : ٣

(٧) الأغاني ٢٣ : ٣

(٨) الموشح ٣٠٤

(٩) أخبار أبي تمام ٢٢١

(١٠) راجع ٢٦٣ و ٢٦٤ من الموشح ، الأغاني ٢٨ : ٣

(١١) الموشح ٢٥٨ .

وكان لا يعتد ببشار ويقدم مرواناً عليه^(١)، وسمع أبي تمام ينشد شعراً له فقال يا هذا لقد شددت على نفسك^(٢)، ومع ذلك فقد كان إنتاجه الأدبي لا يرضى طبقة النقاد التي احتذى حذوها وذلك لأنهم يرونه محدثاً كما فعل الأصمعي معه حين استحسنت بيتين أنشدهما اسحاق له فلما علم أن اسحاق صاحبهما عابهما^(٣)، ولم يكن تعصب اسحاق للقديما في الأدب وحده بل كان كذلك في الغناء أيضاً فكان زعيم طائفة تنكر تغيير الغناء القديم وتعظم الأقدام عليه^(٤).

وكان المأمون - رغم ثقافته الواسعة - يتعصب للأوائل من الشعراء ويقول: انقضى الشعر مع ملك بني أمية^(٥)، ودخل عليه أبو تمام في زى أهرابي فأنشده فجعل المأمون يتعجب من غريب ما يأتي به فلما انتهى إلى قوله:

هن الحمام فإن كسرت عياقة من حاتم فاهن حمام

فقال المأمون: اقة أكبر كنت يا هذا قد خلطت على الأمر منذ اليوم وكنت حسبك بدويًا ثم تأملت معاني شعرك فإذا هي معاني الحضريين وإذا أنت منهم، فنقض به ذلك عنده^(٦).

ومثل ذلك التعصب للقديم موجود في الآداب الأخرى. فقد كان هوراس الشاعر الروماني يرى أن شعراء اليونان هم النماذج التي يجب أن

(١) الأغاني ٢٨ : ٣

(٢) الموازنة، وتري برواية أخرى (٢٢٧ الموشح)

(٣) الوساطة ٥٠، والموازنة ١٠ (٤) الأغاني ٣٥ : ٩

(٥) ديوان المعاني ٣٦٢ : ١

(٦) ديوان المعاني ١٢٠ : ٢

تدرس ليلاً ونهاراً ، فإن الشعر ينبغي أن ينظم كما كانوا ينظمونه (١) .
واعتمد الباقلاني عنهم بأنهم إنما كانوا يميلون إلى الذي يميلون إلى الذي
يجمع الغريب والمعاني (٢) ، واعتذر ابن رشيق بحاجتهم إلى الشاهد وقلة
ثقتهم بما يأتي به المولدون (٣) .

ب - وطائفة أخرى من النقاد حكموا الذوق الأدبي وحده في الشعر
وحكموا بالفضل لمن يستحقه جاهلياً كان أو إسلامياً أو محدثاً كالجاحظ وابن
قتيبة والمبرد وابن المعتز (٤) ، ونقد ابن المعتز تعصب العلماء على المحدثين
لغير سبب (٥) ، وفضل خلف لامية مروان على لامية الأعشى (٦) ، ويشرح
الجرجاني والباقلاني مذهبهم في النقد (٧) .

ج - وطائفة أخرى حكمت الثقافات الحديثة في النقد كما فعل قدامة في
نقد الشعر ، ومن هؤلاء جماعة من الكتاب تعمقوا في نقد الشعر ومناهجه
ولا سيما بعد إطلاعهم على ترجمة كتاب أرسطو في نقد الشعر الذي نقله
أبو بشر من السريانية إلى العربية (٨) .

ولاختلاف مناهج النقاد في نقد الشعر كان الشعراء يتشددون في طلب
العدالة الأدبية من النقاد حين يعرضون ما نظموا من شعر عليهم كما فعل ابن

(١) قواعد النقد الأدبي ص ١٤٤ وما بعدها

(٢) إيجاز القرآن ١٠٠

(٣) العمدة ٧٣ : ١

(٤) الحيوان ٤٠ : ٣ ، الشعر والشعراء ٧ و ٨ ، الكامل ١٨ : ١ ، العمدة

١ : ٧٤ (٥) أخبار أبي تمام ١٧٤ وما بعدها ، رسائل ابن المعتز ١٤

(٦) العقد ص ٤٠٢ : ٣

(٧) الوساطة ٣٧ وما بعدها ، إيجاز القرآن ١٠٠

(٨) زيدان ١٥٧ : ٣

مناذر م ١٩٨ : فقد أُنشد أبا عبدة قصيدته في رثاء عبد المجيد بن عبد الوهاب
النقفي (١) :

كل حي لاق الحمام فودي ما لحي مؤمل من خلود

وهي التي عارض بها قصيدة أبي (٢) زيد الطائي :

إن طول الحياة غير سعود وضلال تأمبل طول الخلود

فقال : احكم بين القصيدتين واتق الله ولا تقل ذلك متقادم الزمان
وهذا يحدث متأخر ، ولكن انظر إلى الشعراء ، واحكم لأصحهما
وأجودهما (٣) .

انتهى الكتاب

(١) راجعها في الكامل للبرد ٢٨٨ و ٢٩٠ : ٣ ، والمبرد شديد الاحجاب
بها ، ٢ : ٢٢٨٨ ، الكامل

(٢) راجعها في (٢٨٦ وما بعدها جمهرة أشعار العرب)

(٣) ٥١ طبقات الشعراء لابن المعتز

خاتمة الكتاب

هذه هي نهاية تلك الدراسات المستفصية للأدب العباسي وجوانب التجديد فيه ، وهي دراسات استغرقت جهدا طائلا ، ووقتا كثيرا ، وتعد - كما هي - صورة واضحة للعصر العباسي وتاريخ النشاط الأدبي فيه ، وألوان هذا النشاط وأعلامه .

ولا أملك ما أقوله إلا أن أحمد الله على توفيقه ، وأسأله السداد والهداية ، إنه أجل مأمول وأكرم مستول ، وما توفيقى إلا بالله ؟

المؤلف

فهرست الكتاب

| الموضوع | الصفحة | الموضوع | الصفحة |
|--------------------------------|--------|----------------------------------|--------|
| أغراض الشعر | ١٤٦ | الحياة الأدبية في العصر العباسي | ١ |
| الغزل | ١٤٨ | الأول | |
| المدح | ١٥٨ | العصر العباسي الأول | ٢ |
| شعر السياسة والعصية | ١٦٩ | قيام الثورة العباسية | ٥ |
| الوصف | ١٧٢ | الطابع السياسي في العصر | ١٧ |
| وصف الطبيعة | ١٨٥ | العباسي الأول | |
| الصيد والطرود | ١٩٣ | الطابع الاجتماعي لهذا العصر | ٢٦ |
| الخرجات | ١٩٥ | ٤٥ - ٧٥ الطابع الثقافي للعصر | ٤٥ |
| الحكمة | ٢٠٠ | العباسي الأول | |
| الزهد | ٢٠٢ | ترجمة العلوم والآداب الأجنبية | ٥٢ |
| الفخر | ٢٠٤ | التأثير الأجنبي في اللغة وآدابها | ٦٣ |
| العتاب | ٢٠٦ | الثقافات الأجنبية وأثرها في | ٦٦ |
| الهجاء والمجون | ٢١٣ | اللغة والأدب | |
| الثناء | ٢١٦ | ٧٦ - ٢٧٠ الشعر في العصر العباسي | ٧٦ |
| الشعر الخامس | ٢٢٦ | الأول | |
| نماذج أخرى من الشعر العباسي | ٢٢٩ | تمهيد | ٧٦ |
| رواية الشعر | ٢٣٢ | تطور الشعر في العصر العباسي | ٨١ |
| طبقات الشعراء | ٢٣٨ | الأول | |
| الطبع والصنعة عند المحدثين | ٢٣٩ | عناية الخلفاء ومثلة الشعراء | ٨٤ |
| ابن المعتز العباسي | ٢٤٨ | مجالس الشعر والأدب | ٩٧ |
| النثر الفني في العصر العباسي | ٢٧١ | المحدثون والمولدون | ١٠٤ |
| الأول | | ألفاظ الشعر وأساليبه في هذا | ١٠٦ |
| الخطابة في العصر العباسي الأول | ٢٧٥ | العصر | |
| صور من الخطابة | ٢٧٥ | أوزان الشعر وقوافيه | ١١٨ |
| | | أخيلة الشعر ومعانيه | ١٢٤ |

| الموضوع | الصفحة |
|------------------------------|--------|
| تطور الخطابة في هذا العصر | ٢٨٤ |
| الكتابة في هذا العصر | ٢٩٢ |
| صور للكتابة | ٢٩٢ |
| حالة الكتابة في هذا العصر | ٣٠٥ |
| فن التوقيعات | ٣٢٠ |
| ابن المنقح | ٣٢٣ |
| الجاحظ | ٣٣٤ |
| النقد في العصر العباسي الأول | ٣٧٤ |
| خاتمة الكتاب | ٣٧٩ |

ملاحظة :

لا يفوت القارىء تصويب بعض الأخطاء المطبعية ، وفي صفحة ٢ سطر ١٤ من القسم الثاني ذكر اسم أبي مسلم وأبي سلة الخلال كل مكان الآخر ؟

مؤلفات وتحقيقات

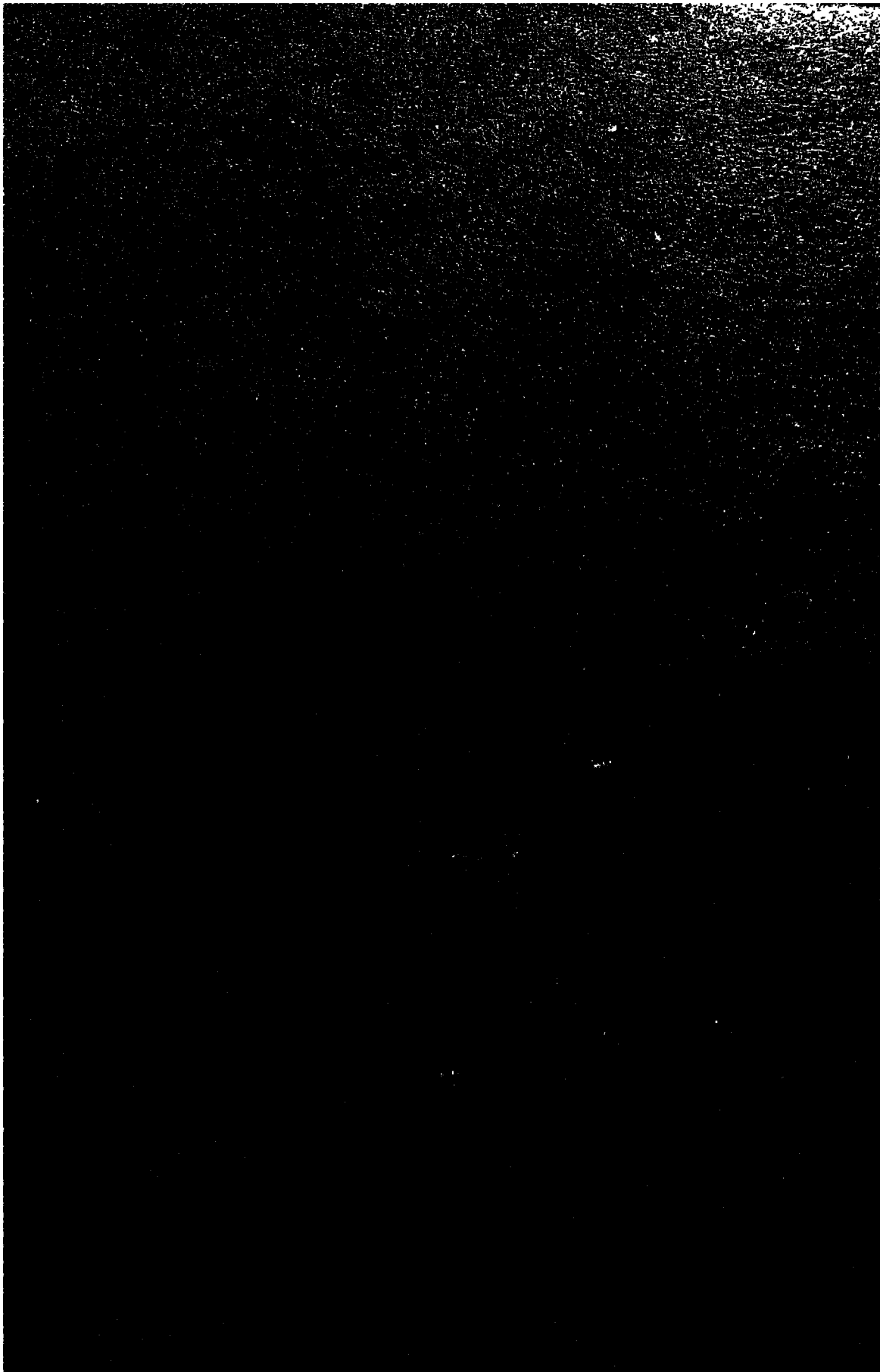
د . محمد عبد المنعم خفاجي

- ابن المعتز وتراثه في الادب والنقد والبيان - مجلد
الادب الاندلسي
الادب الجاهلي (دراسة ونصوص)
الادب العربي وتاريخه في العصرين الاموي والعباسي
اسرار البلاغة
بالاشتراك مع د . عبد العزيز شرف
الاسلام والغزو الفكري
بالاشتراك مع د . عبد العزيز شرف
اشعار الشعراء الستة الجاهلين
اعجاز القرآن (للباقلاني)
الاقتصاد الاسلامي
البديع (لابن المعتز)
التفسير الاعلامي للادب العربي - مجلد
بالاشتراك مع د . عبد العزيز شرف
الحياة الادبية بعد ظهور الاسلام - مجلد
الحياة الادبية بعد سقوط بغداد الى العصر الحديث
الحياة الادبية في العصر الجاهلي
الرؤيا الابداعية في شعر
احمد زكي ابو شادي
بالاشتراك مع د . عبد العزيز شرف

:شاعر الشام خليل مردم
الفكر الاسلامي بين الاصاله والتجديد
فلسفة التاريخ الاسلامي
قصة الادب في ليبيا العربية
المختار من الحديث النبوي الشريف .
من تراثنا الخالد

تحت الطبع :

الأداب العربية في العصر العباسي الاول
الادب العربي الحديث ومدارسه
اعلام الادب في عصر بني امية
دراسات في الادب الجاهلي والاسلامي
دراسات في الادب العربي الحديث
دراسات في الادب المعاصر
دراسات في الادب والنقد
دراسات في النقد الادبي
فصيح ثعلب والشروح التي عليه
قصة الأدب في مصر
القصيدة العربية :دراسات ونقد
القصيدة العربية بين التطور والتجديد



To: www.al-mostafa.com